2271
.5083
.45
.311
V.2

2271.5083.45.311 v.2
al-Kayyāli, ʻAbd al-Rahmān
Aḍwāʼ wa-ārāʼ

DATE	ISSUED TO
FEB 5 1968	Bindery

2271.5083.45.311 v.2
al-Kayyāli, ʻAbd al-Rahmān
Aḍwāʼ wa-ārāʼ

DATE	ISSUED TO
FEB 5 1968	Bindery

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074067818

الدكتور
عبد الرحمن الكيالي

أضواء وآراء

الجزء الثاني

١٩٦١

مطبعة الضاد - حلب « الجمهورية العربية المتحدة »

al-Kayyāli, ʿAbd al-Raḥmān

Aḍwāʾ wa-ārāʾ

أضواء وآراء

الجزء الثاني

للدكتور عبد الرحمن الكيالي

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

١٩٦١

مطبعة الضاد - حلب « الجمهورية العربية المتحدة »

2271
.5083
.45
.311

v.2

المقدّمة

يقول ابن خلدون في مقدمته «ص ٤٩٠»[1]: «لما كان العقل هو آلة تدرك به العلوم والصنائع، وكان العلم اما تصوراً الماهيات، ويعني به ادراك ساذج من غير حكم معه، واما تصديقاً، أي حكماً بثبوت أمر لامر، فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات، اما بأن تجمع تلك الكليات بعضها الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على افراد من الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص، واما بأن يحكم بأمر على امر فيثبت له ويكون ذلك تصديقاً، وغايته في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل، انما هي معرفة حقائق الاشياء التي هي مقتضى العلم. وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد، فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية لتمييز الصحيح من الفاسد، فكان ذلك قانون المنطق الذي يعصم الذهن عن الخطأ».

وقول ابن خلدون يتفق مع من يعتقد من العلماء والفلاسفة ان العلم هو حصول صورة الشيء في الذهن، وانه الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وانه ادراك الشيء الموجود على ما هو عليه.

والعلم في نظر الاقدمين والحديثين هو والمعرفة شيء واحد ولكن في نظر العلماء الطبيعيين هو المعرفة المنظمة التي اقتضت استقراء الانسان وتجاربه وتحريه بحسب المقاييس العلمية، والتصنيف المنطقي، والتنظيم العلمي ذي القواعد الثابتة والقوانين المكتشفة المتعلقة بالطبيعة ومظاهرها، وما سوى ذلك من

---

(١) مقدمة ابن خلدون. طبعة «الكشاف» بيروت

المعرفة يسمى بأسماء أخرى يطلق عليها كلمة « الفنون » وهي متعددة ولا تدخل في نطاق العلم ، وقواعد العلم ، ومقاييسه وتجاربه بمفهومه الحديث ، كفن الادب ، وفن الشعر ، وفن الموسيقا ، وفن الرسم والتصوير ، وفن التزيين والتجميل ، وفن النحت والبناء ، وفن الحياة وغيرها ، وكلها يحكمها الذوق والشعور والعاطفة للتعبير عمّا بينها وبين الطبيعة من صلة مدارها الوحي والالهام ، والحب والتصوّر .

ويقول علماء الطبيعة عن المعرفة والعلم ، ان مردها للعقل لا للعاطفة . والعقل من شأنه المشاهدة والوصف والتصوير ، والاستقراء والتجربة ، والقياس ، والبرهان ، والاستدلال ، والحكم ولذلك يشمل موجودات الطبيعة ومظاهرها وقوانينها وخواصها بالنسبة اليه ولبعضها البعض ، ولا يشمل ما يدخل في نطاق الشعور العاطفي ، والذوق الادبي ، والالهام الخيالي ، والجمال الروحي .

وتقول الموسوعة البريطانية فى تعريفها لكلمة (Science أي العلم ، ان أصل اللفظ مشتق من كلمة (العرف ، والعلم) ، ولذا يشمل معناها كلا المعرفة والعلم ، ولكن في المصطلح العام يتميز العلم عن غيره من انواع المعرفة بأنه المعرفة المنظمة لمظاهر الطبيعة والعلاقة بينها اي بين هذه المظاهر ، وقد غدا الاتفاق على هذه الصورة عقيدة العصر الحاضر .

ومع هذا فمعرفتنا عن الشيء الموجود مهما تكن صحيحة فاننا لا نستطيع الجزم بحقيقتها الا نسبياً حسب اختباراتنا الماضية وتجاربنا الحاضرة وسلامة حواسنا وجهاز وعينا . فاذا قال الطفل أنا اعرف التفاحة ، وهي غير البرتقانة ولا الرمانة ولا الليمونة ، فعلمه واقع وادراكه للتفاحة يتناسب مع اختباراته لسائر الاثمار والفواكه ، ومع احساسه بها وتصوره لها . واذا قال الرجل غير المتعلم انا اعرف التفاحة وانواعها فعلمه يزيد على علم الطفل نسبة لذات الاسباب . واذا قال الرجل العالم النباتي انا اعرف التفاحة ، فعلمه ولا شك يزيد على علم الاول والثاني كثيراً لانه يعرف انواعها ، وشجرتها ، وتربتها ، وموسم نموّها ، وتركيبها ، وخواصها . واذا قال الطبيب انا اعرف التفاحة فعلمه قد يزيد

على معرفة الثلاثة ، ويختلف من ناحية اخرى يشمل مضارّها ومنافعها وتركيبها الكيميائي .

وعلى هذه الصورة تضيق وتتسع دوائر العلم ومعرفة العقل عن ماهية الموجودات التي نشعر بوجودها المادي والمعنوي بنسبة مقاييسنا وتجاربنا ، وصحة حواسنا ، وسلامة مداركنا ومنطقنا الصائب ، واستقرائنا الشامل .

هذا ، والانسان كلما اتسعت دوائر معرفته وصحّت مقاييسها وزاد ارتفاعها وعمقها في الاستقراء والبحث والتحقيق ، زادت لذته العلمية بالمعرفة وزاد معه قربه من ادراك الحقيقة او بعض الحقيقة .

والحقيقة كما يعرّفها الطبيعيون هي ما وافق الاختبار ، ويعرفها البعض انها أقرب شيء لمبادىء الطبيعة ، والبعض يقول الحقيقة يجب أن تعرف لا أن تعرّف ، وفي كل الاحوال ان معرفة الحقيقة وتعريفها لا يخرجان عن قانون النسبية .

وأما معرفة الحقيقة المطلقة فهي ألذّ ما يشعر به العقل ، وأسمى ما يتمنى الحصول عليه ، ولكن هل يوفق الانسان لها ؟ وهل يمكن حصر الحقائق وتعدادها ما دام لكل موجود حقيقة ؟

ان السؤال عن الحقيقة والسعي لمعرفة ماهيتها لا يزالان من اعمال العقل الواعي الفعّال المدرك الذي يتمايز به الانسان عن جميع المخلوقات ، كما ان سعيه للكشف عن المجهودات وادراكها كما تتجلى في عالم الوجود لا يزال غاية ما تتطلبه ثقافتنا العلمية ، ومن أهم ما يلذ لنا في الحياة ،

ولما كان العقل يحوي في قراراته كثيراً من الاسئلة التي تحوم حول قضايا لها علاقة في وجودنا وفي هذا الكون الذي تحيّرنا مظاهره ويحتاج حلّها وفهم حقيقتها الى الاضاءة والكشف ، لذلك ذكرت منها بعض ما وصل اليه علمي في الجزء الاول ، وكان جوابي عليها نتيجة دراسات وتتبعات علمية ، نشرتها لاثارة الرغبة في النفوس فيقرأها طالب العلم ويعيد النظر فيها وفيما يجد لديه من قضايا اخرى تمر بعقله علّه يدرك حقائقها ويحل غوامضها بما يهديه لحقيقتها

او ما يقرب من الحقيقة فيهنأ في نفسه وتفكيره ويثق في معارفه وعقائده .

ومع اثارة الرغبة لمعرفة قرارات النفس قصدت تزويد القارىء بما يصح اضافته الى ثقافته العامة الـــتي تتناول مختلف انواع المعارف وقضاياها التي هي من مقومات الحياة الفكرية ، والادبية ، والاجتماعية .

وفي هذا الجزء الثاني الذي سيطلع عليه القارىء بدأت ابحاثي اولا « عن عناصر القومية العربية بميزان التحليل والنقد » لان المواطن المثقف لا بد له في هذا العهد الذي استيقظت فيه الشعوب العربية في جميـع انحـاء العالم العربي بعـد سبات ستة قرون ، وأخذت تستكمل وعيها وجهادهـا ونضالها للتحرّر من براثن الاستعمار وقيود الاستعباد ، وتثور بسرعة غلابة لأخذ استقلالها وممارسة سيادتها واحياء مقوّماتها ، ان يتساءل ما هي القومية العربية ؟ وما هي تلك المقوّمات ؟ وما هي الاهداف التي يرمي اليها العرب من تحررهم ؟

وهل لدينا الاستعداد والقوّة لبلوغها وتحقيق غاياتها ؟ وما هي الصعوبات التي تعترض طريقنا ؟ الى آخر ما يتساءل عنه العقل في هذا السبيل ، وجعلت الاجابة عليها في مطلع الكتاب لأهميتها ، ثم اتبعته ببحث عن علل المجتمع وعوامل المرض الناتجة عن الاجتماعية البشرية ، لنعلم نحن العرب ما لنا وعلينا ، وما هو حظ أمتنا من الصحة الاجتماعية ، وما هو نصيبها من الامراض الاجتماعية ، فنعمل على ما فيه الوقاية ، وما فيه المداواة والشفاء كيلا يختلّ ميزان حياتنا فنصاب بالضعف والانحطاط ، ونحن في فجر نهضتنا وبدء قيامنا وسيرنا .

وبعده أتيت ببحث عن الدولة الحمدانية وآثارها في ربوع حلب ، التي كانت عاصمة لها في ايام زهوها وقوتها ، لأن الدولة الحمدانية كانت نموذجـــاً للقومية العربية ، ولكن لم تعش اكثر من ستين سنة ، ثم أخنى عليها الدهر لعوامل خارجية وداخلية . ومع هذا فأميرها سيف الدولة أسسها وأوجد لهـا عزاً ، ومنعة ، وكرامة ، بحروبه وانتصاراته وأدبه ، وما كان في بلاطه من شعراء وادباء وحكماء وفلاسفة كانوا لسان حاله وترجمان دولته ، فزالت أيامه وايام من أتى بعده ، وبقيت ذكريات عهده خالدة في تاريخ العروبة والذود عن الوطن ، وفي تاريخ العلم والادب

والفروسية والعروبة .

ثم بحثت بعدها عن فلسفة أفلاطون في جمهوريته بصورة مختصرة ، لانها كانت صورة عن نوع الحكومة التي أراد ان ينشئها هذا الفيلسوف حسب فلسفته وآرائه في تنظيم المجتمع وحكمه . ومع ان امنيته لم تتحقق ولكن اثرها في اذهان الاجيال بقيت ، وتطوّر العالم بعده الى انواع من الحكومات والانظمة الاجتماعية ، الرأسمالية ، والشيوعية ، والاشتراكية ، والديموقراطية ، والنازية ، والفاشيستية ، والملكية المطلقة ، والملكية الدستورية ، والجمهورية الديموقراطيـة ، والجمهورية الاشتراكية ، والنظام الجمهوري الرئاسي ، والنظام الجمهوري البرلماني ، وغيرها من الانواع والانظمة التي يمثلها مجتمعنا الحاضر .

ولاقارن بـين جمهورية أفلاطون ذات التنظيم الاجتماعي الفلسفي ، وجمهورية الفارابي ذات التنظيم الاجتماعي الاخلاقي ، بحثت عن « المدينة الفاضلة » وآراء الفارابي في أهل المدينة المذكورة .

ثم رأيت من الضرورة أن ابحث عن ثقافة الاطباء عند العرب حتى لا ينسى اطباؤنا ما كان لآبائنا من اسلوب علمي وفهمٍ شامل في تحصيل علم الطب والطبابة لا تقلّ روعته ، واتقانه ، وتعمقه ، عما يتثقف به اطباء العصر .

ثم أكملت ذلك ببحث عن الاطباء في حلب خلال الخمسين سنة من وقتنا الحاضر ، وعن مستقبل الحضارة العربية والحضارة الاسلامية ، اقتبست معظم ما جاء فيه من مقال لاستاذ الفلسفة البروفسور (هوكينغ) . وهو جدير بكل عربي الاطلاع عليه ، لما جاء فيه من حقائق قيمة صدرت عن عالم عظيم الشأن مخلص لعلمه ومحب للعرب وأمجادهم . واكملت البحث بالاجابة على سؤال يرد على ذهن كل واحد منا في العصر الحاضر « الى اين نحن سائرون في حضارتنا ؟ » .

وبما أن للأدب والادباء مقاماً مؤثراً في حضارتنا ، فقد بحثتُ عن معـنى الادب ومن هو الاديب ، وأضفت اليه بحثاً لغوياً عن اصل لفظة (بيلون) هل هي عربية أم سريانية ؟

هذا ، وكل أملي ان يكون فيما قدمته للقراء ما يستحق المطالعة والمناقشة ، وان يحوز رضى الاخيار الذين يسعون لنشر الثقافة ، وينيرون طريق العلم لبني أمتهم ، ويعملون للانطلاق من سجن الانطواء الذاتي الذي يحوي في طياته عنصر الانانية والشعور بمركب النقص وكبت الطاقة الفكرية التي عندما تكون حرة يظهر المجتمع بمظاهر القوّة ، والاعتزاز بالعلم ، والشجاعة الادبية ، وحب المصلحة العامة ، والتعاون العقلي والاجتماعي ، والصبر على اجتياز الصعاب في سبيل التقدم والابداع وكشف الحقيقة .

وختاماً أقدّم الشكر الجزيل لفضيلة ابن العم الشيخ طاهر الكيالي ، استاذ الادب العربي والقاضي الشرعي المتقاعد ، الذي أعاد النظر في محتويات الجزئين من الكتاب وأبدى رأيه الصائب بهما ، وكان حافزاً على طبعهما .

وأشكر الاخوان الافاضل الذين ارسلوا كتبهم مقدرين الابحاث والعمل والغاية ، ومشجعين على بذل الجهد لاتمام ما بدأت به والسلام .

حلب في ١٥ / ١٢ / ١٩٦٠

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

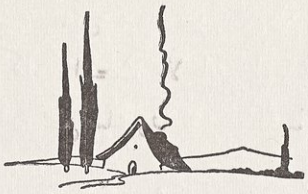

عناصر القومية العربية

في ميزان النقد والتحليل

١ ـ سبب البحث عن المجتمع العربي وقواه :

ان البحث عن عناصر القوة في المجتمع ضرورة لا بد منها ، ولا بد من معرفة ماهيتها وخواصها ، ونحن في عصر البحث عن مركبات القوة ، وكوامن الطبيعة الفيزيكية ، والديناميكية ، والكيميائية ، والاجتماعية ، فكيف لا نبحث عن قوانا القومية ، والطبيعة العربية ، وعن مجتمعنا ومقوماته ، وما في هذا المجتمع من قوى قابلة للانطلاق والانفجار والحركة ، وما في القومية من عناصر فعالة قابلة النمو والتقدم والبناء ؟

٢ ـ المجتمع العربي كائن حي تنطبق عليه قوانين الحياة :

ومع اعترافنا بضرورة البحث ، يجب أن نعترف ونعلم بأن مجتمعنا العربي كسائر المجتمعات الحية الموجودة في عالمنا البشري يعتبر كائناً حياً تنطبق عليه قوانين الحياة ، وان معرفة حقيقة الحي وخواصه من حيث الفعالية والنشاط ، والنتاج والفائدة ، وما يرجى منه في الحاضر والمستقبل ، وما يستطيع ان يؤديه لنموه ، ورقيه وبقائه ، موقوفة على معرفتنا لعناصر القوة الكامنة فيه ، والبيئة التي يعيش فيها ، والوراثة التي يحملها ، والامكانيات التي يملكها . ولذا قلنا بضرورة البحث العلمي لنكتشف تلك العناصر الفعالة في داخل مجتمعنا العربي وخارجه ، وما هي القوى الباعثة على تطوره ونموه ونهوضه وبقائه .

٣ ـ معنى المجتمع العربي وحدوده ومكانه ، وما هو المقصود من كلمة « القوة » :

وأرى من المنطق الصائب وقبل الغوص على مكامن القوة ومعرفة عناصرها ان نحدد معنى المجتمع العربي ، وان نبيّن أين تقع حدوده ، وأن نعدد مقدار

سكانه ، وأن نعرف هل هم من أرومة واحدة من العروق البشرية ، أم هم مزيج من شعوب وأجناس غلبت عليهم مقومات العروبة ومظاهرها ؟

وبعد الاجابة على ما تقدم ، يتحتم علينا تحديد المراد من كلمة « قوة » و «عناصر» هل هي القوة القومية بمطلقها ؟ ام القوة الاجتماعية ؟ ام القوة الادبية ؟ ام القوة الروحية ؟ أم القوة الفكرية ؟ أم القوة الدولية ؟ ام القوة الصناعية ؟ ام القوة الاقتصادية ؟ ام القوة الحربية ؟ ام القوة الفنية ؟ الى غير هذا من المسميات والخواص والمظاهر التي تنطوي عليها كلمة قوة وعناصرها .

واذا بحثنا عن القوة وانواعها وعناصرها ، وحددنا المعنى المقصود من المجتمع العربي ، وبيّنا حدوده وسكانه .

فهل سيتناول بحثنا خصائصه وقواه التي كان يملكها في الماضي أم التي يملكها في الحاضر ؟ ام كلاهما باعتبار ان القوة مهما تكن لا تفنى ولا تموت ، بل تبقى ولكن تتحوّل وتظهر بصور شتى من المظاهر الدالة على بقائها وفعاليتها ؟ وباعتبار ان ما كان يملكه المجتمع العربي من قوة وفعالية عند انطلاقته الاولى ، أيام محرره الاول « وكانت تلك القوة باعث اتساعه وانتشاره ونهضته وسموه » لا يزال مالكاً لها وهي كامنة في وجوده تتجلى خواصها وتتجلى فعاليتها وترتسم اتجاهاتها حسب الزمن والبيئة والعوامل التي سببت انطلاقاته الحاضرة .

٤ ـ حدود المجتمع العربي ، ومن هم سكانه ؟ وهل هم من أرومة واحدة :

ان المجتمع العربي كما كوّنته الاحداث التاريخية ، وكما هو واقعه الحالي تقع حدوده الجغرافية والقومية (ما بين المحيط الاطلسي والبحر المتوسط (غرباً) والمحيط الهندي والخليج العربي وايران (شرقاً) ، وما بين المحيط الهندي وأواسط افريقيا (جنوباً) ، وجبال طوروس وتركيا وارمينيا (شمالاً) .

وتضم هذه الحدود الشعوب العربية ودولها : « مراكش ، وتونس ، والجزائر وليبيا ، والسودان ، ومصر ، واليمن ، والجزيرة العربية السعودية ، والاردن ،

وفلسطين ، ولبنان ، وسوريا ، والعراق ، والكويت ، والبحرين ، وعمان ، وقطر ، وعدن ، والمحميات الاخرى) .

أما نفوس هذه الدول والاقاليم فيقدر عددها بما يزيد عن الثمانين مليوناً ، وهي من حيث الاستقلال والسيادة تنقسم الى ممالك مستقلة متحررة تمارس سيادتها « كمصر ، وسوريا ، ولبنان ، واليمن ، والمملكة العربية السعودية ، والعراق ، والاردن ، وليبيا ، والسودان ، وتونس ، ومراكش » والباقي « كالجزائر ، وعدن ، وعمان » فهي ثائرة على الاستعمار ، تجاهد وتقاتل لاسترداد استقلالها وأخذ حريتها ، وسوف يتم لها ما تريد ان عاجلاً أو آجلاً .

أما الكويت وعدن وبقية المحميات وان كانت لا تزال تحت نفوذ الاستعمار الانكليزي باسم الحماية ولها شبه استقلال ذاتي فان عامل اليقظة والوعي القومي ، وحب التحرّر والاستقلال تعمل عملها وتثير السكان الى المقاومة والمطالبة بالحرية والاستقلال .

ونظراً لتطوّر العالم العربي وسرعة المواصلات وانتشار العلم ، لا بدّ لهم من نيل حقهم ، وسوف ينالونه ايضاً .

ومن حيث نوعية السكان في هذه الاقطار ، فان الجميع شعباً وحكومة لغتهم هي العربية : لغة المخاطبة والمكاتبة والقراءة ، ولغة الدين والصحافة والاذاعة ، ولغة التعليم والادب والموسيقا ، يتكلمون بها ويعبرون عن أغراضهم وحاجاتهم وعواطفهم على اختلاف اديانهم وطوائفهم . ويدين اكثرهم بالاسلام ، واقليتهم بالاديان السماوية الاخرى .

واما أرومتهم الغالبة فهي من السلالة العربية ، ومنهم من ينحدر من سلالات غير عربية : آرية ، وحامية ، ومنغولية « كالجركس ، والارمن ، والكرد ، والبوشناق ، والروم ، والترك ، والقبط » .

ونظراً لاحداث التاريخ التي مرّت بهذه البلاد قبل الفتح الاسلامي وبعده ، وما حملت معها من هجرات لموجات قبلية عربية زحفت من الجزيرة واطرافها ،

وهاجرت خارج حدود بلادها وسكنت بتعاقب العهود والازمان وعاشت فيها وتزاوجت وتوالدت ، جعلت السامية أولاً ثم العربية تتغلب على ما كان هنالك من السلالات الاصلية فهضمتها ومثلتها وأورثتها الصفات الوراثية الحاكمة التي يملكها العرق العربي ، وخلقت من المجموع شعباً مزيجاً متجانساً تتحكم فيه المقوّمات العربية الوراثية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والاخلاقية ، واللغوية .

٥ ـ مقومات الامة :

وكما أن اللغة ، والتزاوج ، والدين ، والعادات تعدّ من مقومات الامة فكذلك الحكم ، والتشريع ، والتعليم ، والآداب ، والتاريخ ، تعدّ من عناصر المقومات المذكورة التي طبعت السكان بطابع العربية الخالدة ، يضاف اليها عامل البيئة والزمن ، وعامل الحاجة والاجتماع ، والاشتراك في الدفاع عن الوطن ، وبناء الحضارة ، ثم عامل التمتع بخيرات البلاد وثرواتها ونعمها ، والشعور بالآلام والآمال التي هي من طبيعة الحياة البشرية الاجتماعية .

ويدلنا على هذا ان هذه الاقطار ، وقد بيّنا عدد سكانها وذكرنا سلالاتها ، مضى عليها ما ينوف عن ثلاثة عشر قرناً من السنين ولم تفقد طابعها العربي ، ولا مقوماتها القومية ، ولا خصائصها الشرقية رغم من حكمها من الاغراب والاعاجم بعد أن حكمها العرب سبعة قرون واكثر ، بل بقيت عربية بلحمها ودمها وحضارتها وتفكيرها ، ولغتها ، وعاداتها ، وآدابها ، ودينها ، وتراثها ، مما يجعلنا نتساءل ما هي القوة التي مكنت هذه الشعوب من الاحتفاظ بخصائص العروبة والقومية ومزاياها ؟ وما هو السرّ في ان عامل الزمن وعامل الحكم الاجنبي وعامل الظلم والاضطهاد والتنكيل لم تستطع ان تفكك اجزاءها وتحلّ عناصرها وتفسد مقوماتها ؟ .

٦ ـ خواص الجنس السامي والعرق العربي :

وجواباً على هذا السؤال الذي لا بد ان يتبادر الى الاذهان يقول جورج « دسيس » :

« ان العربي سامي الجنس . ومن ميزات السامي « شدة العقيدة ، والميل الى الخيال ، والقوة ، والجمال الجسماني » ، ولما كان العربي منذ فجر التاريخ يعيش في صحارى الجزيرة وفيافيها ويسكن جبالها ووهادها ، ويتمتع بواحاتها ورياضها ، فما ذكر من الصفات تمثل البـــداوة اتمّ تمثيل ، وتمثل العربي في قسم من صفاته الاخرى ، التي تمايز بها عن غيره من العروق السامية » ، وهي بنظره العناصر القوية في المجتمع العربي . فهل ما قاله يكشف لنا حقيقة السر تماماً ، ويبيّن لنا الاسباب المانعة ؟

يقول الدكتور محمد زكي عبدالقادر ، في محاضرته التي ألقاها في دار الكتب الوطنية بحلب هذه السنة : ان عناصر القوة في المجتمع العربي تتألف من : « الجنسية السامية وما يتحلى به هذا الجنس من خصال مثلها العرب في أدوارهم التاريخية ، ثم من العراقة التي وصفها المحاضر بما أوجده العرب من حضارة ، وما كان لهذه الحضارة من علم وأدب وثقافة ، وقضاء وعدل وحرية ، وما كان للعرب من انفة وفروسية وشجاعة ، وتعاون مع الامم ، وايمان بالله ، وثقة وعقيدة في نبيّه وشريعته ، وما كان لهم من حرص على العرض ، ومحافظة على الحقوق والعهود ، وما أشاعوه من أخوّة ومساواة ، وما سنّوه من أنظمة وقواعد للحرب والسلم والادارة ، ثم ما كان لهم من عمران وحصون ومدن وطرق وجسور ومستشفيات ومكاتب ومعاهد وبناء وهندسة وعلم واكتشافات وفن ، ثم موقعهم الجغرافي وما في بلادهم من ثروات وقوى طبيعية ، وأراضٍ وجبال ، وبحور وانهر ، ومعادن وغابات الخ ... »

ولكن هل الجنسية والعراقة ، والثروة الطبيعية والموقع الجغرافي والحضارة هي حقيقة العناصر التي تكوّنت منها القوة ، فاستطاعت ان توجد المجتمع العربي على ما كان عليه في فجر التاريخ الاسلامي العربي ؟ وهل هي التي سببت له الانطلاقة الثانية في القرن العشرين ؟

واذا كانت قضية الجنس والارومة والسلالة لم تعد في نظر علم الاقوام وعلم الحياة ، ولا في نظر علم الاجتماع تصلح وحدها لتفسير ما يكمن في المجتمع العربي

والقومية العربية من قوة . واذا كانت الامور الاخرى موضع تساؤل ، فما هي القوة الحقيقية لهذه الانطلاقة التي أدهشت العالم أولاً وثانياً ؟

٧ ـ العناصر الكامنة في المجتمع العربي وسبب انبعاثها :

يقول الاستاذ محمد عطا في هذا الصدد عند بحثه عن القومية العربية والدول العربية في كتابه « القومية العربية » :

« ان العالم العربي ينقسم اليوم الى عدد من الدول المستقلة والدول التي تكافح من اجل استقلالها ، وهذه الدول قد تكوّنت وسارت على نظم سياسية مستقاة من المذاهب التي سادت أوروبا فترة من الزمن ونشأت خلالها ظاهرة القومية ، والدول القومية ، وتطورت على النحو الذي شاهدناه .

وقد كانت القومية في تلك الفترة من تاريخ أوروبا تعني ولاء الفرد لدولة معينة ، لها كيانها وحدودها السياسية . والمواطنون في تلك الدول يعربون عن شعورهم القومي لا لمجرد رغبتهم في ان يكونوا بلجيكيين او سويسريين مثلاً ، وانما لانهم كأفراد بلجيكيين أو سويسريين او سويديين يتمسكون بالانتماء الى دول مستقلة ذات سيادة تامة هي بلجيكا او سويسره أو السويد .

وحين انتقلت ظاهرة القومية والدول القومية في القرن العشرين الى الشرق العربي ، انتقل معها نفس الفكر الدافع للقومية في الدول الاوروبية ، واصبح هذا الفكر القومي يسيطر على المواطنين العرب في الاقطار العربية » .

ثم يقول : « لقد كان العرب خلال القرون الاولى يكوّنون جماعة واحدة مترابطة متماسكة تؤلف بينها الروابط الروحية من لغة ودين وثقافة وبيئة وتراث مشترك ... وظلوا كذلك الى ان جاءت السياسة الاستعمارية فشتتت وحدتهم وقسمتهم الى اقطار أو دول تحمل اسم العراق وسوريا ولبنان وغيرها ... فتكوّنت في الشرق الاوسط اذ ذاك ، دول جديدة لكل منها كيان منفصل وحدود سياسية مرسومة .

ولما كان سكان تلك الدول الجديدة قد منوا بالاستقلال الذاتي ، فقد بدأ يتوالد لديهم شعور بالولاء لدولتهم التي جمعتهم وحددت لهم كياناً خاصاً وشخصية خاصة ، بل وأوجدت لهم جنسية جديدة . وبتوالي السنين وانشغال الافراد في قضاياهم المحلية الخاصة بدولهم تناسى سكان الدول العربية الجديدة ، ولاءهم السابق للامة العربية .

واذا كانت الاوضاع السياسية في العالم العربي تتكوّن من دول مستقلة ودول تسعى للاستقلال ، كانت السياسة الاستعمارية من جانب فرنسا وانكلترا تسعى الى ازدياد حدة التفرقة السياسية بين كل مجموعة من العرب ، وكانت تنشر بينهم روح الانفصال السياسي والكيان الذاتي حتى تبتعد هذه الدول الحديثة التكوين عن فكرة « الامة العربية » .

وكانت هذه السياسة الاستعمارية كخطوة أولى لايجاد الشقاق بينها ، وعزلها بعضها عن بعضها الآخر .

كان هذا هو هدف الاستعمار الذي سخر له عملاءه من افراد جعل منهم طبقة حاكمة تساندها وزارتا الاستعمار في لندن وباريس ، وهي ـ اي تلك الطبقة في الوقت ذاته طيعة لينة تخضع لما تمليه السياسة المادية الاستعمارية ، ولكن توالي الاحداث ونضوج الفكر السياسي والثقافي ، واستكمال السيادة المحلية في معظم الدول العربية ، بعث فكرة الامة العربية والقومية العربية مرة اخرى ، وتوالت الاحداث فهيأت لها الجو في السنين الاخيرة .

والذي نريد بحثه في هذا المقال ليس فكرة القومية العربية كمجرد عامل روحي أو معنوي يربط الدول العربية المنفصلة ، وانما نريد ان نتبع حقيقة الامة العربية كأمة متحدة الاماني والآمال رغم ما يفرق بينها من حـــدود سياسية ويمكنها ان توجد لنفسها كياناً ذاتياً أمام بقية دول العالم .

ولعلنا نركز جهودنا في البحث عن العامل الاساسي في تكوين الامم، وهو الكفاح ضد الاستبداد الاجنبي ، لاننا نعلم أن المقومات الاخرى في الامة العربية

من وحدة اللغة والدين والشعور ، ووحدة العنصر ، ووحدة الثقافة ، الى غيرها من الروابط الروحية التي تجمع بين الدول العربية متوفرة .

وقد يقول البعض ان وجود عوامل او مقومات مشتركة بين الدول العربية ليس في حد ذاته كافياً لكي يجعل منها أمة أو دولة قومية تحقق التطوّر والنمو الديناميكي في عالم يتسابق نحو القوة والهيبة وتحقيق المصالح .

ورداً على هذا القول ، لا بد لنا أن نبحث المصالح الاقتصادية والسياسية للامة العربية كعناصر أساسية في تكوين قومية متماسكة قوية الاركان .

وسؤال آخر قد يتطرّق الى الذهن : إذا سلمنا بأن الدول العربية لها من المقومات والمصالح ما يجعل منها أمة واحدة ، وانها سعت جادة لجعل فكرة الامة العربية حقيقة سياسية واضحة في الميدان الدولي ، فهل يؤدي هذا الى تضارب ولاء الفرد .. ولائه لدولته المحلية ، وولائه للدولة القومية العربية ؟

والجواب على هذا السؤال هو ان الدولة العربية القومية التي ستجمع بين الدول العربية القائمة ستكون على اساس الشعور القوي بالعروبة ، وستزداد تماسكاً وقوة إذا ما اشتركت في كفاح ضد عدو خارجي مشترك ، كما انها ستنمو وتزداد رسوخاً بالانتشار التدريجي للثقافة القومية العربية ، والوعي السياسي العربي .

والميزان الاخير لحقيقة وجود الامة العربية أو عدم وجودها ، هو قدرة افرادها على اظهار عزيمة جماعية مشتركة ، وأمنية جماعية واحدة للعمل المتضافر اذا ما واجهت خطراً خارجياً .

فمدى الشعور الجماعي وانطباقاته العملية هو المقياس الحقيقي الذي نحكم به على مستقبل دولة قومية عربية ، وهو كذلك المقياس الذي نقيس به مدى فعالية القومية العربية كظاهرة لها أثرها في ميدان السياسة الدولية » .

والمفهوم من مقال هذا الاستاذ الذي يبحث عن القومية العربية ، وهو المسمى

المقصود للامة العربية والمجتمع العربي « ان هذا المجتمع بلا قومية عربية لا معنى له، وما يحرك القومية ويبعثها ويحيي معالمها واهدافها وغاياتها هي ذات القوة التي تتألف عناصرها من الشعور القوي بالعروبة ، والاشتراك ضد عدو خارجي ، وانتشار الثقافة العربية ، والوعي السياسي ، وقدرة الافراد على اظهار عزيمة جماعية ، وأمنية جماعية واحدة للعمل المتضافر » .

وقد أوردت المقال وحللت العناصر التي ذكرها لاستشهد بها على معرفة حقيقة العناصر الكامنة في مجتمعنا العربي ، ولكن السر الحقيقي الذي نسعى لمعرفته لم ينكشف لنا تماماً ، فلنبحث عنه فيما يراه الاستاذ « حتي » في تاريخه عن العرب .

٨ ـ ما يقوله الاستاذ « حتي » معلم التاريخ الشرقي في جامعة « برنستون » عن مميزات العنصر العربي وقواه ؟

يقول الاستاذ المذكور في تاريخه عن العرب :

« ان الجزيرة العربية هي مهد السامية ، وان معظم الشعوب التي هاجرت الى الهلال الخصيب والى افريقيا من عرب وبابليين ، وآشوريين ، وفينيقيين ، وآراميين ، كانت من اراضيها وكلهم ساميون . وفي بلاد العرب ظهرت الديانات السماوية وهي بحكم التطوّر من الخلق السامي .

« ومن أهم ما انتجته البلاد العربية هو العنصر العربي الذي سيطر على مائتين وخمس وسبعين مليوناً من العالم يمثلون شتى الاجناس البشرية ، ويعيشون في مختلف البيئات .

ثم انها انشأت اعظم امبراطورية واعظم حضارة وثقافة ، وحافظت على اللغة العربية التي هي أنقى اللغات السامية وارقاها ، واوجدت العنصر العربي اكمل السلالات البشرية من حيث الجمال الجسماني ، والجمال الروحي ، وأعطت العالم الحضارات القديمة ، والصناعات ، والكتابة ، وحروف الهجاء ، والعلوم ، والهندسة،

ونظام المقاييس ، والاوزنة ، والعربة ذات العجلات ، وعلّمت الامم اصول الزراعة والاقنية » .

٩ ـ انطلاقة العرب الاولى ونتائجها :

ثم قال عن انطلاقة العرب الاولى ونتائجها ، وعن الخواص الفكرية والعلمية والروحية التي لهم :

« ان امبراطوريتهم التي أسسوها فاقت في اتساعها امبراطورية روما في أوج عزتها . والعرب استطاعوا بواسطة الاختلاط بالامم المغلوبة أن يهضموا عدداً من ابناء هذه الامم ويضموهم الى دينهم ولغتهم وشكلهم ما استطاعت أمة قبلهم أو بعدهم ان تكسب مثله او تهضمه . ولا يستثنى من ذلك اليونان ، ولا الرومان، ولا الروس ، ولا الانكلوساكسون .

« وكان من نتائج حضارتهم انهم انشأوا ثقافة زاهرة ، وساهموا في العصور الوسطى بالتقدم البشري ، ولم تعرف أمة ساهمت بقدر ما ساهم العرب والشعوب المتكلمة بالعربية » .

وأضاف الى ما تقدم بأنهم « خدموا الحياة الروحية ، وأبقوا أثر الديانة الاسلامية عاملاً حياً يمتد اثره من مراكش الى اقاصي الهند والصين . وليس هذا فقط بل ان لغتهم اصبحت لغة التخاطب والتفاهم لما يزيد عن ثمانين مليوناً من الناس ، وكانت لغة العلم والثقافة والفكر الراقي ، طوال قرون في جميع انحاء العالم المتمدن بحيث ان ما ألّف فيها فيما بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر من التآليف الطبية ، والفلسفية ، والتاريخية ، والدينية ، والفلكية ، والجغرافية ، والرياضية ، والادبية ، والحربية ، والفنية ، كان اكثر مما ألّف في اي لغة اخرى » .

ومع ما قاله عن الخاصية القومية للعرب في نتاجهم الفكري والعلمي والروحي والثقافي والادبي ، لم يذكر لنا عناصر القوة التي كانت العامل في كل ما تقدّم من الحقائق .

١٠ ـ يجب تطبيق قوانين الحياة على المجتمع باعتباره كائناً حياً للكشف عن عناصر القوة :

على أننا لمعرفة ما تقدم من المظاهر التي أدت لتكوين الامبراطورية العربية ، ومعرفة مقومات حضارتها ، وللكشف عن حقائق ما في قوميتنا العربيـة من عناصر القوة ، يجب ان نطبق على مجتمعنا قوانين الحياة باعتبار القومية كائناً حياً تنطبق عليه ما ينطبق على غيره من الاحياء ، وذلك مما يساعدنا للحصول على الغاية .

١١ ـ ما هي قوانين الحياة التي تنطبق على المجتمع العربي وعلى الاحياء ؟

يقول علم الاجتماع : ان القوى العاملة لبقاء الحياة الاجتماعية هي : « الكدح ، والاندفاع في العمل للثراء ، والغاية القصـوى من الكدح والانتاج » ، والقوى الكافلة لاستمرار الحياة الاجتماعية هي : « الزواج ، والعائلة ، والقرابة » ، والقوى الحافظة لفعالية الحياة الاجتماعية هي : « القوى الأدبية ، والقوى العقلية ، والقوى الذوقية » ، والقوى الباعثة على نمو الحياة هي : « عمران البيئة ، وتزايد السكان ، والتوازن بين ازدحام السكان ، ودوائر العمران ومنظماتها » .

بهذا التشريح الذي يضعه العلم أمامنا يمكننا كشف العناصر التي عملت فيما مضى ، والتي تعمل الآن في حياة مجتمعنا العربي ، وهو الذي يدلنا على مواقع القوة كما يدلنا على مواقع الضعف .

فاذا استطعنا ان نرعى في تحرياتنا ومقاييسنا وتحليلاتنا ان القوى العـاملة ، والقوى الحافظة ، والقوى الـكافلة ، والقوى الباعثة ، سليمة لا تؤثر فيها ولا تتغلب عليها قوى الانحلال ، أمكننا ان نخرج بنتيجة عملية تقرر ما فينا من عناصر القوة الحقيقية ، لأن فعالية المجتمع وانطلاق قواه في السرعة والعمل تتوقف في جميـع الاحوال على مقدار غلبة تلك القوى المكوّنة على القوى الفاسدة التي تصاحب الحي وتصاحب المجتمع ، وتصاحب الامم في ادوار حياتها وانطلاقاتها وتطوّرها .

١٢ ـ مفهوم القومية العربية بنظر الواقع والحقيقة وحظ المجتمع العربي من القوى العاملة في حياة الافراد والامم :

ومع معرفتنا لهذه القوى المكونة والقوى المحللة ، فروح المجتمع وأقوى عناصر القوة فيه ، هي القومية التي يجب أن نقرر مفهومها وندرك حدودها . فاذا كانت حقيقة واقعية تحمل في طياتها عناصر الفكر ، والامل ، والتجربة ، والنزوع الى الماضي ، والاتجاه الثابت ، والمفهوم العملي ، ولها مبادىء ترسم لها كيفية الكدح وتسوقها للاندفاع في العمل ، وتعيّن لها الغاية ، ولها ايمان ينمو بقدر الوعي والادراك ، وشعور عاطفي بكيان سياسي مستقل ، ووثوق عقلي بكيان اجتماعي متكامل ، ولها استعداد دائم للتغيّر مع الزمن والتجدد ، أقول اذا كانت قوميتنا العربية هذه ، وكانت العناصر الاخرى غلابة بنّاءة سليمة من آفات الانحلال والتميّع والاستسلام ، ادركنا سرّ نجاحنا في انطلاقتنا الاولى ، وأدركنا سرّ نجاح امبراطوريتنا التي فاقت في اتساعها وسموّها ما سبقها من الامبراطوريات ، وأدركنا علة الوهن الذي طرأ عليها فأودى بعظمتها وفرّقها ، كما اننا ندرك الآن حقيقة مجتمعنا وحقيقة مقوماته ، وما هي المقاييس لمعرفة قوتنا ، وما نطلب في مجتمعنا هذا من الامور التي تحقق فكرتنا القومية والطرق الواجب اتباعها لاستثمار انطلاقتنا وجعلها غلابة بناءة وموجدة .

وعلاوة على ما تقدم ، فمفهوم القومية العربية في العقل الواعي الرشيد والمجتمع العربي الوثاب ليس فلسفة قومية طبقية ، ولا عقيدة اجتماعية مغلقة مؤلفة من الكره والبغضاء والتهديم والشر ، انما هي فلسفة اجتماعية مثالية تقدمية مؤلفة من الحب ، والاخوة ، والعدل ، والابداع ، والنظام ، والحرية ، والانتاج ، والخير .

وما اللغة ، والدين ، والوحدة ، والعراقة ، والموقع الجغرافي ، والثروات الطبيعية ، إلا وسائل لانبعاثها ، وأداة لفعلها ، وبناء لصرحها .

١٣ ـ القوى العاملة في حياة الفرد والامم وحظ المجتمع العربي منها :

وفي صدد القوى العاملة في حياة الفرد والامم وحظ المجتمع العربي والقومية

العربية منها ، يذكر لنا الاستاذ « حتي » :

« ان العرب لما كان منشأ سلالتهم من الجزيرة العربية ، فالبدو منهم هم خير من يمثل السلالة السامية العربيـة وخواصها من الناحية البيولوجية ، والنفسية ، والاجتماعية واللغوية ، لأن انعزالهم الجغرافي واتساق حياتهم في الصحارى حفظ لهم النقاوة العرقية ، وهي المكافأة التي تمنحها البيئة المقفرة الشديدة النكران ، كتلك التي في أواسط الجزيرة .

« والحقيقة ان البابليين والكلدانيين والحيثيين والفينيقيين شعوب كانت ثمّ زالت . أما العرب والمتكلمون العربية فانهم كانوا ولا يزالون ، وهم يستقرون اليوم كما في الماضي في موقع طبيعي خطر على ملتقى أهم الخطوط التجارية العالمية ، ومن أهم خواصهم : المقدرة والكفاءة على هضم الثقافات الاخرى حـين تحين الفرص ، فترى القوى الكامنة التي كانت مستكنة أجيالاً قد تنبهت فجـأة ، بفضل البواعث الملائمة وبرزت تعمل في حيوية خارقة ونشاط هام » .

اذن لا يزال المجتمع العربي مالكاً عامل البناء ، وعامل النمو ، ولكن بروز بقية قواه لتحقيق الفكرة القومية التي حملها الاولون عند انطلاقتهم ، ويحملهـا الجيل الواعي الرشيد الحالي بمفهومها الذي بيّناه ، يتوقف على البيئة والظروف الزمنية الملائمة .

١٤ ـ مفهوم القومية العربية بنظر جورج انطونيوس :

وتأييداً لمفهوم ما تقدم عن العـالم العربي الواسع والقومية العربية ، يقول جورج انطونيوس صاحب كتاب (يقظة العرب) :

« لقد رافق الدعوة الى الاسلام طريقة في التوسع كتب لها ان تؤدي الى فتح كان من اروع المشاهد في تاريخ الفتوحات العالمية . فان قوى العرب التي خرجت من قلب الجزيرة بعد وفاة النبي العربي ، اندفعت في كل جهـة تستطيع الوصول اليها بطريق البر ، ثم امتدت الامبراطورية العربية دون انقطاع من شبه

جزيرة « ايبريه » في الغرب الى سواحل البحر المتوسط الجنوبيـة فشواطىء نهر السند ، وبحر الخزر في الشرق .

وفي القرون التي اعقبت ذلك ، كان الطرفان الشرقي والغربي لهذه الامبراطورية يتراوحان بين مد وجزر ، ولكن الزمن الذي سلخه العرب ضمن هذه الحـدود المترامية كان كافياً لطبـع تلك البلاد بطابع عربي دائم . ولقد سطر العرب في حكمهم صحيفة باهرة في تاريخ البشرية ، ولم تكن عظمتهم على انهم فتحوا تلك الاجزاء الواسعة من العالم المعروف ، بل انهم وهبوها حضارة جديدة .

وكانت النهضة الفكرية التي بعثها العرب نتيجة لدافعين : أحـدهما « ديني » وثانيهما « اجتماعي » بالضرورة ، وبالرغم عن ان هذين الدافعين سارا جنباً الى جنب ، الا انهما كانا منفصلين انفصالاً تاماً يختلف أحـدهما عن الآخر كثيراً في الاثر الذي تركه ، والمدى الذي وصل اليه .

أما الدافع الأول : وهو الدافع الديني والدعوة الى الاسلام ، فقد أحدث انقلاباً في الحياة الروحية لملايين البشر. سمعوا نداء النبي يبشر بالدين الجديد فلبوه طائعين متأثرين بعوامل عديدة .

والدافع الثاني : وهو « الدعوة الى العروبة » فقد كانت له وجهتان : نشر اللغة العربية ، وقد تم ذلك بأن حلت هذه اللغـة بالتدريج محل اللغات الأصلية عند سكان البلاد المفتوحة . والجهة الثانية : نشر العنصر العربي ، وقد تم ذلك بأن هاجر الى تلك البلاد عدد كبير من العرب الخلص فاستوطنوها واندمجوا بسكانها بالتزاوج حتى اختلط دمهم بدم الشعوب المغـلوبة ، وطغى عليه في بعض الأحيان .

وكانت الدعوة الى العروبة أقدم الدافعين ، اذ كانت القبائل العربية تتدفق الى بلاد الشام والعراق ومصر وأفريقيا خلال عصور سبقت الاسلام ، على ان العرب حين أتو في القرن السابع للميلاد مدفوعين بقـوة الاسلام كانوا مجهزين بسلاح روحي لم يكونوا يملكونه من قبل في أي اندفاعاتهم السابقة ، وفي هذه

المرة لم يقف في طريقهم شيء ، وتداعى النظام القديم .. نظام المدنيات المختلفة الضعيفة (اليونانية ، والآرامية ، والسامانية ، والقبطية ، والرومانية) أمام وثبة الدين الجديد . وهنا عمل الدافعان القويان عملهما دون أن يقفا عند الحدود ذاتها . فالاسلام تخطى الحواجز التي وقفت عندها العروبة في كثير من الاحيان ، ولكن العروبة لم تتعد المناطق التي أشرنا اليها » .

ان هذا المقال وما قبله ولا شك ، يكشف لنا قسماً من عناصر القوة ، ويؤيد ما بيناه ، ويفهمنا حدود المجتمع العربي ، وممن تتألف القومية ، وما هي عوامل التأليف والبناء ودواعي النمو والاتساع .

١٥ ـ ما هي المقومات التي بدونها لا تتم مقوّمات القومية من لغة ودين وتاريخ وبيئة ووراثة ؟

ولما كانت القومية حقيقة واقعية ، ومفهومها وغايتها واضحين لنا ، نقول : ان اللغة والدين والتاريخ ، والعراقة ، والوراثة ، ووحدة المصالح ، والبيئة ، والتراث لا تكفي وحدها لتحقيق غاياتها واثبات وجودها ما لم نضف اليها محبة الوطن ، ومحبة الانسان ، وحب العدل ، والانصاف ، والمساهمة في تقدم الحضارة ، والشغف في طلب العلم وتعميمه دون حصر ولا قيد ، واتمام الرسالة التي بدأها العرب وتحقيق مبادئها وتعاليمها واتباع مثلها العليا لحل قضايا الروح ومشاكل المجتمع ، واكمال القيم الانسانية بما يضاف اليها من انتاج العرب الفكري ، والثقافي ، والعلمي ، والادبي ، وجعل العقل الموجه يستمد مفاهيمه من عبقرية العروبة ومن عبقرية الامم الحية لا من أمة دون اخرى ، وبذلك تنمو قوانا وتزدهر اعمالنا ، ويستقيم بناء صرحنا القومي ، ويكتب لمجتمعنا البقاء في معترك التنازع العالمي .

ومع هذا لا بد لنا من شدة الوعي القومي ، وتنمية الشخصية ، وتحرير الافراد من أوهام العبودية وقيود الاستعمار ، ومحاربة العوز واللذائذ الرخيصة ، ومحو الخوف والفقر ، وازالة الموانع التي تحد من بروز المواهب ، ثم تنمية

روح النقد العلمي ، والتفكير المنطقي ، وفرض النظام والتنظيم ، واشاعة روح التعاون والتضامن بين الافراد والجماعات وبين مجموع الشعب والسلطات الحاكمة ، والقوى التي على وجودها تتوقف سلامة الوطن ويستقر الامن ، وتفضيل المصلحة العامة على المصالح الخاصة ، وتقوية الشعور بالكرامة والعزة دون غرور ولا انانية ، والمساهمة في كل مشروع قومي ، صناعي أو زراعي أو تجاري أو اقتصادي أو خيري ، مساهمة فعلية ، والمحافظة على المقاييس المدنية التي تدعو الى رفاهية الامة والى استثمار قوى الطبيعة وتسخيرها لخير الهيئة الاجتماعية والى اداء الواجب ، وتهذيب الاخلاق وصفاء الروح ، وازالة القلق والحيرة والاضطراب وذلك لتمكين قوانا العاملة وقوانا الكافلة ، وقوانا الحافظة ، وقوانا الدافعة من الدوام في اداء وظائفها لبقاء مجتمعنا العربي حياً مثمراً ، قوياً ، يغالب قوى الانحلال ويقضي على ما لحق بنا من تقادم الزمن وطول الرقاد وظلم الاستعمار .

١٦ ـ عناصر الانحلال وكيف تعالج قضاياها وكيف نتقي نتائجها ؟ وما هي ركائز النهضة والبناء ؟

ونحن اذ نبحث عن عناصر القوة في مجتمعنا ونقرر المفهوم من قوميتنا ونبين المقومات التي عليها دوام صلاح مجتمعنا وبناء حضارتنا ، لا بد لنا من الكشف عن العناصر الهدامة التي عملت على انحلال مجتمعنا فيما مضى والتي تعمل الآن على بقائنا متخلفين عن ركب الحضارة ، ضعيفين بالنسبة الى من يملكون القوة والسيطرة ويتقدمون على غيرهم في جميع ميادين العلم والفن والاكتشاف والاختراع والصناعة .

يرى ابن خلدون ان الامة كالفرد الحي ينطبق عليها قانون النشوء والارتقاء والتكامل ثم التوقف ، ثم يصيبها الهرم وبعده يأتيها الانحلال والفناء . وفي عقيدته أن الانقسام في الامة والترف وفساد الاخلاق مما يعجل في الهرم والانحلال والانهيار .

أما علماء الاجتماع في زمننا الحاضر فيرون أن علل الوراثة ، وفساد البيئة ،

وسوء التربية ، وضعف الاستعداد ، وانهيار الاقتصاد ، وانحلال الاخلاق ، وتحكم الانانية والاهواء في القوانين والانظمة ، واحتكار المنافع العامـــة ، وازدراء حقوق الطبقات المنتجة والكادحة ، وسقوط المقومات الفكرية والأدبية والعائلية وفقدان الضمان الاجتماعي ، ووقوع الأمة تحت نير الحكم الأجنبي زمناً طويلاً ، وظلم الحكم الذي يسبب المقاومة ويعجل بالثورات ، وتنازع الطبقات ، وكـثرة الشيع والأحزاب ، واختلال المبادىء والمعتقدات ، ودوام تفشي الاوبئة والامراض المنهكة لقوى العقل والجسم والنسل ، وانتشار الجهل وضمور الذكاء المبدع يدعو للانحلال ويعجل بالهرم والفناء .

ولما كان بحث هذه العـوامل وتفصيلها وتطبيقها على ما نحن عليه ، ومعرفة نسبتها فينا وفي غيرنا للمقايسة والمقابلة يحتاج الى المزيد من الصفحات رأيت أن أمرّ بها بهذه الصورة العارضة الوجيزة ، وأنقل ما يراه الغرب فينا لنعيد النظر في حقائق وجودنا ، وما هو عليه وما فيه من عناصر البناء ومن عناصر الانحلال .

ما يراه الغرب فينا :

يقول صاحب كتاب « العرب في نظر الغرب » (١) الاستاذ « فريد ريك زريق » في مقال له عنوانه « نظرة الصحافة الغربية الينا » :

« مازال العالم العربي في هذا العصر يعيش في جو من المتناقضات الوراثية لا مثيل له لدي سائر الشعوب . وكم تخلق هذه المتناقضات من متاعب وتثير من مشكلات يستحيل علاجها ؟

ولما كانت براكين الاحداث في البلاد العربية تنفجر بلا انقطاع وبدون استئذان بسبب أو بدون سبب ، فلا يشاهد المراقبـون أو يسمعون الا اصوات الزعماء أو الرؤساء تتنادى اثر كل مناسبة للتشاور أو لعقـــد الاجتماعات أو

« ١ » يلاحظ أن ما نقله الاستاذ « فـــريد ريك » كان قبل الثورة الكبرى ضد الاستعمار والمستعمرين في مصر وسوريا ، وقبل الثورة الثانية في العراق وما كان لها من تأثير بعيد المدى غير صفحات التاريخ وغير الكثير من النظريات الخاطئة .

المؤتمرات ، ويعرض الخلاف على بساط البحث ، ويتنافس الخطباء في حسن البيان والالقاء ، وتستنبط الحلول ، ويكثر التنقل من حل الى آخر ، وأحياناً يسفر الحل عن اتخاذ مقررات ولكنها مقررات لا ترى النور بل ترى ظلمة سلة المهملات . والخلاصة فان الستار يسدل دوماً على لا شيء . وما اشبه لعب هؤلاء الكبار بلعب الاطفال .

« وتقوم في البلاد العربية حرب حامية الوطيس هي حرب حياة أو ممات بين الاسرة الهاشمية وبين سائر الزعماء أو الرؤساء الآخرين ، رغم أن هناك شبكة من الارتباطات الدولية تقيد بشكل آخر حركات هذه البلاد .

« ولو اراد المدبّرون الذين اوتمنوا على مقدرات بلادهم ان يزنوا الامور بميزان سليم ، أو أن يحللوا المشاكل بشكل جدي واقعي لاتضح لهم ان حرية التصرف بشؤونهم أو اهوائهم الخاصة لهي حرية نسبية . والدليل على ذلك ما حدث مؤخراً من وقوف الدول العظمى الثلاث موقف الحزم من الحركات والتصرفات المفرطة في البلاد العربية الذي أدى الى صدور بيانهم الثلاثي المعروف(١).

« والواقع أن كل ما يشاهد من حماس أو ضجيج في الشرق العربي ، ما هو الا تظاهرات مصطنعة يثيرها الخياليون عبدة الأوهام ، وما كان هذا الشرق ليعيش في جو المتناقضات لو استطاع التحرر قليلاً من الخيالات الجوفاء ، ومجابهة الحقائق الفعلية ، حينئذ فقط لكان ما يبذله من النشاط والجهود يتجه مباشرة لخير الوطن وأهله ، ولكن للأسف فان سياسة العرب هي تتمة لحكايات ألف ليلة وليلة ، ومحاضر اجتماعاتهم ومواثيقهم ليست هي أيضاً الا تكملة لقصص الجن والعفاريت . أما الأمور الواقعية والحقائق الملموسة فساسة العرب يتحاشون ذكراها وينفرون منها ، وهم ما داموا قادرين على الاكتفاء بالمجاز ينبذون الحقيقة .

« ولم يلحظ في جداول الاعمال التي قام بها ساسة العرب حتى اليوم سوى المباراة الخطابية ومصالحة المستائين ، والاطناب بالتضامن ، وقبلات الترحيب

---

(١) يشير الى البيان الثلاثي الذي صدر عن فرنسا وانكلترة وأمريكا سنة ١٩٥٢ وهو يتعلق بالمحافظة على الوضع السياسي الراهن كما هو في الشرق الاوسط .

والوداع ، وذلك حسن ولا ريب ولكن ليس هو كل شيء ، بل يوجد هناك ما هو اعظم . هو اليوم الذي يدركون فيه كلهم ادراكاً حقيقياً أهمية استقرار بلادهم السياسي الذي يفرضه عليهم التاريخ والوضع الجغرافي . في نفس هذا اليوم لا قبله يبلغ هؤلاء الساسة سن الرشد » .

ان ما يراه الغرب فينا ، نحن العرب ، كما ذكره المؤلف المذكور مملوء بالمغالطات وجهل حقائقنا ، واختلاق لغير ما هو من طبيعتنا . ولو صح ماذكره هؤلاء الصحفيون الذين يمثلون ما يردده ساستهم وشعبهم لما حدثت هذه الانطلاقات الثائرة على الاستعمار والهادمة لصروحه أينما كان .

واذا كانت جموع الشعوب العربية لم تتحرر من قيوده بأجمعها ، فهذا الغليان الثائر في البلاد التي تخلفت حتى الآن ، ومع ذلك تناضل وتجاهد وتكافح لتلحق بأخواتها ، وكلها تنشد الحرية والسيادة والاستقلال والوحدة ، تدل على قوة الوعي واليقظة ، كما تدل على قوى قومية كامنة ، انطلقت تغالب الصعاب وتزيل الموانع وتسير نحو الانعتاق بالسرعة التي تحير عقول الساسة الذين ينظرون الى العرب نظرة الاستخفاف والجهل بحقائقنا ، ويتبعهم أمثال هؤلاء الصحفيين ، الذين يكتبون عنا بوحي الغرض ووحي اعداء العروبة وعملاء الاستعمار والصهيونية التي تستتر وراءهم وتحاربنا بسلاح الدعاية ، والنيل من اقدامنا على استرداد حقنا واسترداد ما اقتطع من بلادنا واخراجهم من ديارنا .

١٧ ـ ما يقوله الاستاذ « هوكينغ » رداً على انتقادات الغرب وسوء ظنهم :

ورداً على هؤلاء المضلّلين يقول الأستاذ « هوكينغ » معلم الفلسفة السياسية ، وهو من كبار العلماء ، في كتابه « مبادىء السياسة العالمية » :

« وكانت بلاد العرب في أيام الفتوح من الشرق الى الغرب ومن شمالي افريقيا الى ما وراء النهرين جائعة للحصول على ما يغذي الحياة ويغذي عظمتها من العلوم والمعارف والمعقولات والتضلّع العلمي ، وظمأى الى ما يروي شغفها من الأدب والفن والعمران . وكانت النار المقدسة التي توقدت في قلوب العرب في ذلك أعلى

مقاماً من البيزنطيين كما جعلتهم أعدل الفاتحين . وكانوا عظماء وكرماء وأحراراً ، وكان طلبهم اما الجزية واما العقيدة والعلم ، ومن لم يعط أحدهما قسوا عليه .

واذا تساءلنا عن السر فيما قام به العرب ووصلوا اليه يجب ان أقول اولاً (الجوع بذاته) ذلك الجوع الباحث عما وراء الطبيعة وكل ما يتعلق بالطبيعة وبها من فلسفات . ثانياً (الحضارة) ليتغذى بها الجـــوع ويهضمها ويمثلها . ثالثا (انشاء عالمي) للحكومة والثروة ليمدان النبوغ والعبقرية والفن بما تحتاجه ، ويؤمن بها السلم والحرب . وأخيرا (التعاون) المثمر الصادق بين مختلف الذهنيات مـــع سعة العقل العربي وكياسة المصريين والسوريين ».

فاذا كان العرب هذه مزاياهم فيما مضى وبها بنوا استقلالهم وبنوا حضارتهم وادوا للمدنية والانسانية أعظم الخدمات ، فهل هم اليوم غيرما كانوا ؟ وهل فقدوا مقوماتهم وعناصر قوتهم ؟ ألا يستطيعون ان يعيدوا سيرتهم الأولى ؟ .

ان حقائق الواقع اليوم في دنيا العرب تدل على ان عناصر القوة فيهم لا تزال سليمة وهي تشتد وتتسع وتبرز في أعمالها وافعالهـا ، وتتحرك طاقتها بسرعة خارقة تقضي على الاوهام ، وان ما حـــدث في مصر وسوريا والعراق وما يحدث في لبنان والجزيرة ليس الا وثبات جبارة في طريق الوصول الى الغاية المثلى وتحركات لاثبات حقيقة القومية التي تحمل عناصرها وتحمل مثلها الاعلى .

ويرى الاستاذ محمد وهبي في مؤلفه « ازمة التمدن العربي » :

« ان المشكلة الأساسية في العالم العربي اليوم منحصرة في ضرورة معالجة الكيان ذاته ، وهذا الكيان من ضعفه وتهافته لا يفيد شيئاً من الترميم بل انه لا يحتمله ، انما هو في حاجة الى انقلاب .

فالانقلاب في العقلية وفي اوضاع المجتمع وفي مجالي الحياة كلها من وجدانية وفكرية وارادية هو سبيل النهوض الذي يؤمن به كل عربي مخلص ، وهذا الانقلاب لن يكون انقلاباً حقاً اذا تناول شؤوناً من الحياة دون غيرها ، او اذا اقتصر قيامه على يد افراد أو فئات مختارة ، انه لن يكون انقلاباً قومياً

صحيحاً ثابتاً حقاً الا اذا أحاط بجميع النواحي الحيوية وامتد الى أعمق الجذور، والا اذا ارتدى طابعاً جماعياً شاملاً ، فنهضت باعبائه الشعوب ذاتها الى جانب القادة ، وانصهرت جميعاً في روحه بكل جوارحها ، وأما الحركات الانقلابية التي نشأت في الحقبة الاخيرة من الزمن فما هي على العموم الا خطوة اولية نحوه يجب ان تتبعها خطوات ، او هي بالاحرى عبارة عن ظروف مؤاتية لقيامه انه انقلاب روحي خالص ، ولذا فهو الصورة الحقيقية للبعث الذي به تتعين قيمة وجود العرب » .

ومع ما اورده في كتابه من المباحث القيمة عن ازمة القيم ، وازمة السياسة ، وازمة المجتمع ، وازمة الحياة الفكرية ، وازمة الاقتصاد ، وكان في غالب ما اورده تقوم مقاييسه على فرضيات وهمية وعلى نظرات تشاؤمية ، فان تفكيره لم يهده الى التعمق في طبيعة المجتمع العربي من حيث الوراثة ، والبيئة ، والظروف العالمية ، والمقومات القومية ، ولذا لم يكن مصيباً لا في نقده ، ولا في مقدماته ، ولا في استنتاجاته لأن ما ذكره اعراض زائلة ، والمهم أن نعرف طبيعة الحياة ، ونعرف مقومات الحياة ، ونعرف قوانين الحياة ، ثم بيئة الحي والأدوار التي يمر بها ، والعوامل المؤثرة في ضعفه وتأخره ، ثم نعالج الاعراض وما تدل عليه من آفات وعلل حتى يستقيم أمر الجسم وتتجاوب قواه ، واستعداده ، ووراثته مع المداواة ، فتعود اليه صحته ويعود الى فعاليته ونشاطه أقوى مما كان .

ونحن مهما أوتينا من معرفة ونفاذ بصر لا نستطيع الحكم على العلل والأعراض ، واسباب الأمراض في المجتمع كما نحكم على التي في الافراد ، لأن العلم حتى الآن لم يكتشف جميع القوانين التي تسير عليها قوى المجتمع ومقوماته ، ولذا كانت مقاييسنا لصحته او مرضه وقابليته محدودة ، واكتشافاتنا لقواه وعناصرها غير تامة .

فالمجتمع العربي وان اعتل زمناً بسبب وطأة الحكم وظلم الحاكمين ، وبسبب الجهل وما يتأتى عن الجهل ، وبسبب التفرقة والشعوبية والاستعمار

والتباعد والانقطاع ، واختلاف الانظمة ، وبسبب التواكل والانكماش ، فان القوى الوراثية لم تمت فيه ، وتراثه الخالد لم يفنَ ، ومثله العليا التي كوّنها تاريخه وانبعثت عنها حضارته لم تفسد ، ومقوماته كاللغة والدين والعنصر والعادات ، والايمان لم تضعف .

ولذا عندما تبدلت الظروف وقوي الوعي ، واستيقظ ضمير المجتمع ، وانتشر العلم انبعثت قواه من كوامنها ، واشتدت فعالية المقومات ، فأزالت عنه الحكم الذي حاربه ، وجمعت بين اقطاره ، وحطمت عنه قيود الاستعمار ، وأرته ماذا يجب أن يعمل ، فوثب نحو العلم ، ووثب نحو الاقتصاد ، ووثب نحو الاصلاح ، ووثب نحو التسلح ، ووثب نحو النضال ، ووثب نحو دك العروش ، ووثب نحو التحرر ، ووثب نحو القومية ، ووثب نحو التنظيم والتصنيع ، ووثب نحو الاستيراد فكان له ما أراد ، وزالت تلك الاعراض ، وبرز المجتمع العربي وهو أقوى ايماناً ، وأشد حماساً ، وأثبت جناناً ، واكثر فعالية . وانتج عملاً ، وأعمق فهما مما كان عليه قبل خمسين سنة .

ولو قيست هذه السنون مع الخطوات التي قطعها في جميع ميادين التحرر والعلم والعمران والاجتماع والاقتصاد بما خطاه غيره من الامم في مثل هذه السنين، لتبين الفارق الكبير بينه وبينها ، ولثبت أننا مهما اخنى علينا الدهر لازلنا قادرين على استعادة مكانتنا والدفاع عن كياننا وتراثنا وتأسيس حضارتنا ووحدتنا في عصر تتنازع فيه الامم للسيطرة على منابع الثروة وايجاد أسواق للتجارة ، وتتبارى في التسلح وصنع القذائف والصواريخ واختراع الطيارات حاملات القذائف الذرية والهيدروجينية .

وقد يتساءل ابناؤنا : هل نستطيع حل مشاكلنا الخارجية ومشاكلنا الداخلية وتحديد المنهاج الذي نتصوره وافياً لتحقيق اهدافنا والوقوف أمام التيارات التي تتقاذفنا ، ومقاومة الهجمات التي تشنها علينا دول الاستعمار ؟ وهل بالامكان انقاذ فلسطين من الصهيونيين والصهاينة واسترداد الاسكندرون من المغتصبين الاتراك ؟ وهل يترك المستعمرون مجالاً لنا لاتمام نواقصنا ومعالجة قضايانا ، والتخلص من شباكهم التي يضعونها في طريقنا ؟

وللجواب على ذلك اعتقد اننا لسنا في حاجة لفلسفة عميقة ، فالعناصر التي كانت الباعث لانطلاقتنا الاولى لم تتبدل جواهرها ، والعوامل التي أدت الى تفوق الامم علينا ، والعوامل التي كانت السبب في اضعافنا لم تعد خافية علينا ، والمستعمرون وغاياتهم وسياستهم ومؤامراتهم وأحابيلهم ودسائسهم لا يجهلها قادتنا والمسؤولون عن مقدراتنا .

وخطر وجود الصهيونية وبقاؤها في قلب بلادنا والدافع لبقائهم وحمايتهم وتقويتهم معلوم لدينا .

ولهذا مع تقديري لما كنا عليه وما نحن عليه ، وتقديري لما هو عليه العالم من تنازع ، ومع معرفتي للأوضاع الدولية وما يحمله المستعمرون ، وما كان من امر ضياع فلسطين والاسكندرون ، وما هم عليه الصهاينة من استعداد وقوة ، فان كل هذا لا يمنع العرب من الدوام في نضالهم وجهادهم ، ولا يقلل من ايمانهم بأنهم على حق ، وأن قوميتهم حقيقة واقعة ، وان وحدتهم لابد منها ، وان مقوماتهم لا تزال سليمة ، وان عناصر قوتهم لا تزال موجودة ، وان حاجتهم الى الارادة والمثابرة والثبات ويقظة الشعور لا تزال أقوى من حاجاتهم الى بسطة العيش وزخرف الحياة . وكما كان ايمانهم بالرسالة ، وثقتهم بالقيادة ، وجهادهم وراء الواجب ، ووحدتهم في الجهاد ، وتمسكهم بالقيم الروحية والاخلاقية سبباً لتفوق جيوشهم القليلة على جيوش اعدائهم الكثيرة ، فكذلك ستكون هذه العوامل سبباً لتفوقنا ونصرتنا على جيوش الاستعمار والصهاينة ، وعلى الخونة المأجورين ، وعلى من يطمع ببلادنا ، لانها اعظم قوة لنا .

وما علينا بعد ذلك لصد التيارات ومقاومة الدسائس والدعايات الا تحقيق وحدة الشعور بكل الوسائل التي نملكها لأنها قوة ، وتنظيم قوانا القومية وايقاظ وعيها بالمعرفة والاطلاع ، ومعرفة التاريخ ومعرفة الرجال العاملين لان المعرفة قوة ، ثم الدأب على طلب العلم وتحصيله بأعلى درجاته وما وصل اليه والتزود من منابعه السليمة والعمل على نشره ونشر الثقافة والتربية لأن العلم قوة . وتطبيق قواعد العلم والاعتماد على ما يفرضه العلم في جميع خطواتنا

ومشروعاتنا ومؤسساتنا وافعالنا لأن التطبيق العلمي قوة . ثم خلق التنظيم والتفكير العلمي في نفوسنا وأولادنا ومدارسنا ومعاملنا ومعاهدنا لان التفكير العلمي قوة . ثم الاقتباس عن الامم خير ما عندها من قيم مادية ومعنوية ومن رقي وحضارة ومن فنون وأدب لان الاقتباس في اول التطور قوة .

فبهذه القوى الفاعلة الغلابة نستطيع المقاومة والتدرج والنهوض بمجتمعنا العربي على اختلاف شعوبه .

ولاكمال نهضتنا وبناء صرح كياننا لا بد لنا من القضاء على الأفكار القديمة التي ضللت العقول ، وعلى العادات السقيمة التي وقفت في طريق التقدم ، وهذا يتفق مع رأي السيد محمد وهبي في معالجة ازمة التمدن العربي وكان مصيباً فيه .

ولما كان للقيم الاخلاقية والقيم الدينية تأثير عظيم في حفظ كيان المجتمع ، فلضمان سلامته يجب المحافظة عليها والعمل العاجل لازالة الفوارق الطبقية ، وقبول الانظمة الاجتماعية الحديثة التي لها جذورها في شريعة العرب وبمقتضاها يتساوى الناس في الحقوق والواجبات ، ويتقاسمون النعماء في مجتمع لا يفرق بينهم الا بقدر ما يؤديه الواحد من عمل وخدمة ، وبقدر ما يملكه من علم وكفاءة ، وبنسبة الخير الذي يجزيه لبني أمته ، ثم للترفيه عن الشعب وجعل الحياة صالحة ، لابد من الضمان الاجتماعي مجرداً عن كل هوى وزيغ ، وصيانة العائلة من الانحلال ، وتقديس الروابط وحماية الطفولة والامومة ، وازالة الخوف والمرض والعوز .

وللانتصار على عدونا وطرده من اراضينا يجب العمل بالآية الخالدة «وأعدوا لهم ما استطعتم» من تجنيد الامة وتقوية جيشها وتدريب جنودها وتحصين حدودها ، وتدارك ما يلزم للدفاع من عدد وعدد ومعدات واستعداد ، وبما ان الحياد هو خير سياسة تمليها علينا الضرورات وكان حياد العرب قوة لدعم السلام وحفظ التوازن الدولي ، فعلينا المحافظة عليه ضمن نطاق وحدتنا ونطاق سياستنا .

وليكن دخلنا القومي متكافئاً مع ما نتطلبه من حياد ، ومن جيوش

ومعدات ، ومن بناء ونهضة ، يقتضي لنا التنسيق والتخطيط والتنظيم والانسجام لجميع البلاد العربية في مرافقها وثرواتها ، وتصنيعها ، واستثمار كنوزها ومواردها ، وان يتفق على ذلك العاملون المسؤولون والعلماء وأهل الاختصاص ، واهل المال والمشاريع حتى لا تكون نهضتنا الاقتصادية والاجتماعية والعلمية قوية في قطر وضعيفة في قطر آخر، ولا يزدهر قطر ويتأخر قطر آخر، بل يجب ان يكون العمل والنشاط في اسباب الازدهار والاستثمار والبناء عاماً شاملاً جميع الاقطار بالتعاون والاشتراك والتساند وبحسب الحاجات والضرورات .

والذي يدعو الى هذا ، ان ينابيع الثروة اذا كانت في قسم من بلاد العرب ، وكان القسم الآخر محروماً منها أو فيه من الخيرات ما ليس في غيره ، فلتوزيع مواردها على الجميع احياء لصناعاتها وأراضيها وتجارتها وعمرانها ، يجب وضع سياسة مدروسة تنفذ خلال سنين معدودة بدلاً من تجميد الاموال في بلاد الغير ، او صرف الواردات في شؤون كمالية أو ترفيهية لا يتأتى من ورائها ازدياد الدخل القومي ولا التصنيع الذي به تشغيل الايدي وزيادة الانتاج وبسط العمران ورفع مستوى المعيشة ، وبذلك يكون ازدهار البلاد العربية متوازناً عاماً شاملاً .

والثروات التي تفيض ينابيعها في أراضينا إذا لم نحسن استثمارها في دوام الثروة فسيأتي يوم نفقد تلك الينابيع ويصيبنا العجز ونعود للعبودية لأن نهضات الامم لا تدوم إلا بدوام ينابيعها الاقتصادية .

وعبر التاريخ في احداث الضعف ترينا ان فقدان الثروة أو تناقصها اذا لم يُستعض سبّب العجز والانهيار والسقوط . وحفظُ الثروة واستثمارها لا يتأتى الا عن استخدام القوى الفكرية والقوى العلمية ، والقوى الانشائية ، والقوى الاقتصادية في التخطيط والتصنيع والتنفيذ ، ودليلنا احداث اسبانيا يوم درّت عليها ينابيع الذهب ولم تستعملها في التصنيع والانشاء .

واحداث انكلترا يوم درّت عليها ينابيع الذهب واستخدمتها في تصنيع بلادها وانشاءات مشاريعها الاقتصادية . فالاولى فقدت مكانتها وقوتها وهبطت الى الدرجة الرابعة بين الدول ، بينما الثانية ارتفعت الى الدرجة الاولى وازدهرت وحافظت على مكانتها حتى اليوم .

قال غوستاف لوبون : « لا تكون الامة قوية في الواقع إلا اذا كثرت المنافع المشتركة بين افرادها وطبقاتها ، لأن الفرد اذ ذاك يعمل لمصلحة الكل مدفوعاً بحب الذات » .

وقال (آرثر لال) مندوب الهند الدائم في الامم المتحدة في اجتماع الجمعية العامة المنعقد في ١٨ آب ١٩٥٨ :

« ان القومية العربية هي التعبير الطبيعي ليقظة الشعوب العربية وهي تمثل قوة مشابهة لتلك التي نجدها في البلاد الاخرى ولا سيما بلاد آسيا وافريقيا التي ظلت في سبات عميق أمداً طويلاً » .

وأما رأينا في تيار القومية العربية الذي نلمس اثره الفعّال في كل الاقطار العربية فنجيب عليه بما يأتي :

اذا كنا نعني بتيار القومية العربية ما نعلمه عن الحركات الثوروية ، والنضال القائم في البلاد العربية للتحرر من الاستعمار ، وما نشاهده من آثار يقظة الشعوب العربية في مختلف اقطارها . وما تسعى اليه تلك الشعوب في جهادها لأخذ استقلالها والدفاع عن حريتها وكيانها وعروبتها وحقوقها ووحدتها ، وما نلمس فعله ونتائجه من الوعي العام الذي يزداد نمواً ويتجه باندفاع وثاب نحو التجدد ، والتقدم ، والبناء ، والأسراع بالتأسيس والنهوض ، وما نعرفه عن هذه الانطلاقات الجبارة في كل مكان من بقاع الاقاليم العربية في الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب للأخذ بأسباب العلم والتطور مع الزمن في الانشاء والتخطيط ، والتصنيع والاقتصاد ، والزراعة والعمل ، وفي اعداد قوى الكفاح والدفاع واستكمالها ، وفي توحيد العرب وتعاونهم المشترك في سياستهم وتحقيق مثلهم العليا واحياء حضارتهم ، واثبات وجودهم واهليتهم ، وفي اتباع النظم الديموقراطية الاشتراكية التعاونية واستثمار كنوزهم الطبيعية ، وفي جعل مجتمعهم حامياً للايدي العاملة ، وموحياً بالثقة والعدالة الاجتماعية وضامناً للقوة والكرامة .

أقول اذا كنا نعني بتيار القومية العربية هذا ، فايماني بما عرضته حقيقة لا ادعاء ، ونظرتي اليه نظرة متفائل واثق لا متشائم يائس .

وفي عقيدتي ان تيار القومية قوي الانحدار ودائم الجريان ، وسوف يستمر غلاباً لا يقاوم ، لا تمنعه الصعوبات ولا توقفه العثرات . تدفعه حيويتنا التي غالبت الزمن وقاومت الاستعمار ، وتسيره آمالنا ومقوماتنا الخلقية والروحية والقومية دون توقف ولا انقطاع . ولا بد واصل بنا الى اهدافنا التي بها وحدتنا ، وقوتنا ، ونهضتنا ، وسلامتنا ، وتجديد وثبتنا الاولى وانطلاقتنا البنّاءة كما كتبه لنا الاجداد وسنكتبه نحن للاحفاد .

هذا ، مع العلم ان القومية لم تعد امنية ، بل اصبحت حقيقة واقعية تؤيد وجودها الاحداث القائمة في الجزائر ، وعمان ، والاردن ، والعراق ، والوقائع التي تمت في مراكش ، وتونس ، وليبيا ، والسودان ، وسوريا ، ومصر ، واليمن ، ولبنان . وما كانت لتتم ، لولا ايمان العرب بماضيهم ، وحاضرهم ، وحقهم ، وعزتهم ، ولولا ما بذلوه من ضحايا ودماء واموال ، ولولا ما تحملوه من آلام ونضال وكفاح ، ولولا ما اثبتوه من ثبات وصبر وايمان واقدام .

والآن ، والامل يملأ قلوبنا بمستقبل هذا التيار القومي اذا اردناه سريع الحصول كما عنيناه ، واردنا تخطي الزمن والصعاب والعقبات ، فاللغة والدين ، والتاريخ ، والوراثة ، ووحدة المصالح ، والموقع الجغرافي والحياد الايجابي وحدها لا تكفي لبلوغنا الغايات التي يهدف اليها هذا التيار القومي الجارف . ولكن علينا ان نضيف لها حب الوطن وحب العدل والانصاف ، وحب المساهمة في تقدم السلم والحضارة .

وعلينا ان نشغف في طلب العلم وفي تعميمه ، واتمام الرسالة التي بدأها آباؤنا حملة مشعل العلم ، والهداية والاخوة والحضارة ، وعلينا ان نحقق مبادئها وتعاليمها ، واكمال القيم الانسانية والروحية ، والاخلاقية ، بما يضاف اليها من انتاج العرب الفكري والعلمي والادبي ، وجعل العقل الموجه يستمد مفاهيمه من عبقرية العروبة ومن عبقرية الامم الحية .

ولا بد لنا من تنمية الشخصية وتحرير الافراد من اوهام العبودية وقيود الاستعمار ، ومحاربة الفقر والحاجة والمرض واللذائذ الرخيصة ، وازالة الموانع التي تعيق بروز المواهب ، ثم تنمية روح النقد العلمي ، والتفكير الحر المنطقي ،

واشاعة روح التعاون والتضامن ، وفرض النظام والتنظيم وايجاد الثقة بين الشعب والسلطات الحاكمة ، وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومحاربة الحزبية البغيضة ، والمساهمة في كل مشروع قومي مساهمة فعلية والمحافظة على مقاييس المدنية .

وقد يتساءل بعضنا هل نستطيع حل مشاكلنا الخارجية والداخلية ، وتحديد المنهاج الذي نتصوره وافيا لتحقيق اهدافنا ، والوقوف امام التيارات التي تتقاذفنا ومقاومة الهجمات التي تشنها علينا دول الاستعمار ؟ وهل بالامكان انقاذ فلسطين من الصهيونيين والصهاينة واسترداد لواء الاسكندرون من المغتصبين الاتراك ؟ وهل ترك المستعمرون مجالا لنا لاستكمال نواقصنا ومعالجة قضايانا ، والتخلص من شباكهم التي يضعونها في طريقنا ؟

الجواب على ذلك لا يحتاج الى فلسفة عميقة ، فالعناصر التي كانت الباعث لانطلاقتنا الاولى لم تتبدل جواهرها . والعوامل التي أدت الى ضعفنا وتفوق الامم علينا لم تعد خافية علينا . وما علينا بعد ذلك لصد التيارات ومقاومة الدسائس ، واسترداد الحق السليب إلا تحقيق وحدة الشعور لانها قوة ، ثم تنفيذ ما قدمته آنفاً من الواجبات لانها قوة ، ثم خلق التفكير العلمي والتنظيم العلمي في نفوسنا واولادنا ومعاملنا ومعاهدنا لانه قوة .

فبهذه القوى الفعالة المثمرة نستطيع المقاومة والتدرّج والنهوض بقوميتنا على اختلاف اقطارنا وشعوبنا ، وبهذا الامل انظر لمستقبل التيار القومي العربي والسلام.

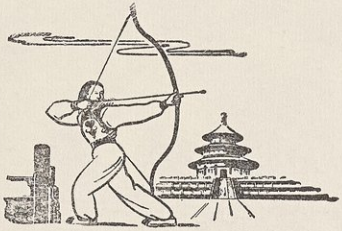

العوامل المرضية في المجتمع الانساني

للاجتماع البشري مقوماته الاجتماعية ، وله عوامله المرضية . فالمقومات الاجتماعية تعمل لدوام حياته وبقائه سليماً ، والعوامل المرضية تعمل لاضعافه وبقائه عليلاً ، وفي النهاية تجعله عرضة للاستعباد والتقهقر والهلاك .

ولما كان بحثنا لا يتناول المقومات الاجتماعية فاننا سنبحث عن العوامل المرضية . ومع هذا فالمجتمع لا يمكن ان يبقى نسبياً معافاً ، سليماً من العلل والامراض المهلكة مالم نعرف ماهي مقومات اجتماعه ؟ ومقومات بقائه سليماً معافاً .

ماهو المرض ؟ وماهي الامراض من الوجهة الحياتية ؟ والى كم تنقسم ؟

ان المرض مهما يكن يعد حالة تطرأ على جسم الحي فتخل في وظائفه الفيسيولوجية وتؤثر في بنيته وسلامة تركيبه وفي توازنه الصحي .

والامراض من الوجهة الحياتية تنقسم الى قسمين : (امراض خاصة ، وامراض عامة) .

فالامراض الخاصة : هي الامراض التي تخص الحي بمفرده أو بنوعه أو بجنسه .

والامراض العامة : هي التي تخص الاحياء بمجموعها وافرادها دون استثناء كأنها ملازمة للجسم ملازمة الخير والشر ، والنفع والضرر ، والبناء والانحلال لجميع الموجودات .

فمرض الشيخوخة ، ومرض الموت الجزئي ، ومرض الانحلال التدريجي ، والامراض الناتجة عن الجراثيم والطفيليات تعد من الامراض العاملة العامة التي لا يخلو منها حي من الاحياء .

ولما كانت طبيعة الحياة أن يبقى الحي في تنازع دائم بين العوامل الداخلة

في وجوده ، وبين العوامل الخارجة عن وجـــوده ، وأن يظل يعارك تلك العوامل حفظاً للبقاء ودوام النسل ، يتغلب هو على بعضهـا بحسب ما لديه من خصائل ومقـــومات للدفاع ، وتتغلب هي عليه بحسب ما لديها من مؤثرات ومفسدات ، ومخربات ، فاما ان تقضي عليه في حينه ، أو يقضي عليها ويطرحها ، وعنها يتطور في تقدمه وقوته ونشاطه فتضعف هي ويقل تأثير التخريب والافساد ويبقى الجسم معافاً وسليماً ، أو تعود فتتغلب عليه لملاءمة الظروف ، وعندهـا يبتدىء الموت الجزئي ثم ينتهي بالموت الكلي ثم تتعطل مظاهر الحياة ، وينحلّ الجسم الحي ، ولكن الحي اذا مات لا تموت الحياة ما صلحت الطبيعة لبقائهـا متنقلة من السلف الى الخلف .

هـذا من حيث الجسم الحي وما يصيبه من مرض ، ومن حيث المرض وما هي انواعه ونتائجها .

وأما من حيث الصحة وماهيتها واعراضها : فهي داوم الحي في نشـاطه وفعاليته وأداء وظائفه الفيسيولوجية دون خلل في توازنها .

وبحسب هذا التعريف وما تقـــدم من تعريف المرض يظهر لنا منطقياً وواقعياً أن الصحة أمر نسبي ما دام الحي حافظاً على توازنه ، قادراً على مقاومة المرض وازالته .

وان الشفاء هـــو زوال أعراض المرض وأسبابه التي أثرت في اخلال الجسم بوظائفه ، وأضرت في تركيبه وبنيته .

وبعد أن بينا معنى المرض والصحة والشفاء نعود للبحث عن الاجتماع وأمراضه الاجتماعية .

ما هو الاجتماع ؟ وما هي أمراضه ؟ :

الاجتماع هو ظاهرة طبيعية للحياة ، لا تخص الانسان الذي هو اجتماعي بالغريزة فقط بل تشمل بعض اجناس الحيـوانات وانواعهـا كالنمل والنحل ،

حيث تكون اجتماعية الافراد قائمة على التخصص والتعاون والاشتراك في الاعمال ضمن نظام معين ، وغاية معينة ، وفائدة مشتركة .

أما سبب اجتماعية الانسان فعوامل طبيعية بعضها فيه وبعضها خارجة عنه ولكنها متطورة على الدوام تبعاً لتطور العوامل العاملة في الانسان والمفضية الى اجتماعيته .

ومن مقتضى هذا أن شكل (الاجتماعية [1] البشرية) اليوم يختلف عما كان عليه في العهود الماضية ، وان لكل عهد من عهود الانسان شكلاً اجتماعياً خاصاً به .

واذا استقصينا عن بدء اجتماعية الانسان في عهوده الماضية وبحثنا عن منشئها الاول لا نجد له منشأ ولا بدءً ، وربما اهتدينا الى منشأ الانسان وبدئه ولكن لا نهتدي الى بدء اجتماعيته ومنشئها ، لان هذه الاجتماعية انما هي ارث ورثه الانسان ممن تقدمه من الاحياء التي تسلسل منها .

والاجتماعية في الجماعة مهما تكن تتبين باشتراك افرادها في عمل مختص بالجماعة ، وغايته فائدة أفراد الجماعة وارتباطها ، وهذا الارتباط بانضمامه الى التماثل العقلي ، والتماثل العاطفي ، والتماثل الاعتقادي ، مع التعاون والتخصص في الاعمال والافعال التي لا يمكن ان يقوم بها الفرد مستقلاً بمفرده ، يعتبر الارتباط المذكور مادة الجماعة ، وصورة لاجتماعها ، وحركة دائمة لبقائها .

هذا مختصر عن معنى الاجتماع البشري نقف عنده ولا ندخل في بيان مقوماته ، ولا في الادوار التي يمر بها من حيث النمو ، والارتقاء ، والتوسع ، ولا من حيث التقدم والتطور والتكامل .

أما امراضه الاجتماعية فهي لا شك تفرق كثيراً عن الامراض التي

---

(١) (الاجتماعية البشرية) اصطلاح يطلق على الحالة التي يكون فيها الناس ، اقواماً ، وشعوباً ، وامماً مجتمعين ومتخذين شكلاً من اشكال الأجتماع .

يصاب بها الفرد. لان الامراض التي تصيب الفرد في جسمه ، وعقله ، وروحه تتأتى عن فرديته ، والامراض التي تصيب المجتمع الانساني ، صنوفه ، وطبقاته ، وشعوبه ، وأممه ، ودوله ، لا تتأتى عن افراده بل تتأتى عن اجتماعيته . ومع ان جسم الفرد ، ليس الا مظهراً من مظاهر الحياة ، وجسم المجتمع ليس الا مظهراً من مظاهر الحياة ، ولكن لكل مظهر مؤثراته ، وعوامله ، وبنيته ، وتكوينه ، وأعضاؤه ، وعلله ، وأمراضه ، وكل منهما يتباين عن الآخر في امور عديدة .

ومن المفيد قبل بيان علل المجتمع وامراضه ، ان نذكر ان لكل اجتماع نظامه ، وعقله ، وماهيته ، وله عوامله الاجتماعية كالمادة ، والقوة والحركة ، وله قواه العاملة كالكدح ، وحب الثراء ، والسعي لبلوغ الغاية ، وله قواه الكاملة لاستمراره كالحب ، والزواج ، والعائلة ، وله قواه الباعثة لنموه كالقوى الفكرية ، والادبية ، والذوقية ، والعقلية ، وله بيئته ووراثته ، وله غرائزه التي تسيره في الدفاع ، ودوام النسل ، والنضال ، والتكييف حسب المحيط ، وحفظ التوازن بين مجموع قواه ، وبدون هذه القوى لا تحصل الاجتماعية اصلاً ولا تتكامل لا أمة او شعباً او قبيلة حتى ولا عائلة .

وبعد : لما كان علماء الاجتماع يعتبرون حياة الفرد وحياة المجتمع ، تحكمهما وتحركهما قوانين الطبيعة ، كقانون الوراثة والبيئة وعوامل التربية مع ما يشملها من النشوء ، والنمو ، والارتقاء ، والتكامل ، ثم الضعف والانحطاط والانحلال ، فيجب أخذ ذلك بعين الاعتبار بالاضافة الى العوامل الخارجية والعوامل الداخلية الاجتماعية كالحروب ، والثورات ، والانقلابات ، والانطلاقات الفكرية ، والازمات الاخلاقية والاقتصادية والعقائدية دون ان ننكر ان حياة المجتمع اليوم هي غير ما كانت عليه في القرون الاولى والوسطى والاخيرة من تاريخ المجتمع .

ولولا هذه العوامل التي هي سبب التباين لما ظهر لنا اختلاف كبير بين مجتمع الاقوام البدائية والاقوام المتحضرة ، والاقوام ذات الحضارة الراقية .

ومع هذا ، عندما ندرس علل مجتمعنا نجد أن ما أصابنا اصاب غيرنا من قبلنا

بنسب تقلّ وتكثر ، وتقوى وتضعف حسب اختلاف الزمن ، واختلاف العوامل، ورقي الفكر ، وتقدم العلم ، وتحسن الانظمة الاجتماعية ، وتبدل احوال المعيشة .

وعلاوة على ما ذكر ، يقول علماء الصحة الاجتماعية ، بحسب احصائياتهم وتتبعاتهم ، ان الامراض التي تنتج عنها وفيات الافراد ، وتجرها أفراس الموت بسرعة هي سبعة .

ما هي الامراض السبعة التي تجر الانسان الى الموت وتعتبر افراساً له ؟

١ ـ الامراض القلبية : التي تبتدىء بتصلب الشرايين وتؤثر كثيراً في تصلب الكليتين ، ونزف الدماغ ، وتورث السكتة القلبية ، وتشكل هي وحوادث النزف الدماغي وامراض الكلية نصف الذين يموتون في بلاد امريكا .

٢ ـ السرطان : وهو داء يعتري الجسم في مختلف أعضائه ، وينبت بين الانسجة او يحتل مكان الخلايا ، ثم ينمو ويكبر دون ان يكون له وظيفة سوى تخريب الانسجة التي ينمو عليها والانسجة التي بجانبها ، وافراز المواد السمية التي تفرزها خلاياه فتؤثر في كيمياء الجسم وتسبب شتى الاعراض الى ان يعجز الجسم عن مقاومة السرطان وسمياته ، ويعجز العضو المصاب عن أداء وظيفته فيعتل الحي ويموت .

وقد دلّت الاحصاءات على ان اكثر من / ١٢٥٠٠٠ / من سكان الولايات المتحدة يموتون سنوياً من هذا الداء الذي يعد الثاني من افراس الموت .

أما سببه واعراضه ، وكيفية الوقاية من الوقوع به ، وما هي انواعه ، وهل تزداد وقوعاته بازدياد الحضارة وما يتعرض الانسان لعواملها ، وهل يقل أو يزيد بحسب السن ، والجسم ، والجنس ، والموقع ، والمعيشة ، فأمور يبحثها علم الطب وهي خارجة عن البحث الحالي .

ولكن ذلك لا يمنعنا من القول ان العلم يبذل جهده العظيم لكشف اسبابه والعلاج الذي يشفيه ، ومعظم الامم تصرف المليارات من الدولارات للعلماء والمخابر

والمؤسسات على امل الوصول الى الخلاص من هذا الداء الوبيل ، كما خلّص العالم من شر الجدري والخانوق ، والشلل ، وجراثيم الحميات وغيرها .

ومن قبيل المثال على ما تنفقه الدول على كشف أسباب حدوث السرطان والعامل له ، وما هو الدواء للخلاص منه ، أن الولايات المتحدة الاميركية في سنة ١٩٣٧ صرفت / ٧٥٠,٠٠٠ / دولار أقرها الكونغرس لبناء مختبر للتحري عن عامل السرطان ، وخصصت لذلك / ٧٠٠,٠٠٠ / دولار تصرف في سبيل التحري للعلماء المتخصصين .

وقدم بنك (نيويورك) مليون دولار يصرف واردها في سبيل التحري عن السرطان .

وبالرغم عن ذلك يستمر رجال المؤسسات المالية والصحية والجمعيات الخيرية والحكومة في صرف / ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ / دولار سنوياً لبلوغ الغاية واقامة حرب عوان لمحاربة هذا الداء الفتاك .

والثالث من أفراس الموت هي أمراض الكليتين : وهي عديدة تصيب الكلية اما في نسجها الغددي أو في نسج عضوها الموصل ، او في الخلايا الاندوثيلية وهي المبطنة لجهاز انابيب الكلية الشعرية ، وكما يؤثر تصلّب الشرايين في أوردة القلب وشرايينه وعضلاته ، كذلك يؤثر في اوردة الكلية وشرايينها ، بالاضافة الى العوامل الاخرى التي لا مجال لبحثها الآن كالتبدل الكيميائي الحاصل في تركيب الدم ، والجراثيم التي تؤثر رأساً في الكلية ، والاصابات الرضية والجرحية التي تصاب بها .

والذي يظهر ان امراض الكلية تختلف باختلاف الاقليم ، والمعيشة ، وتناول المسكرات ، وتنوّع المياه ، وشدة التعرض لارتفاع الحرارة والبرودة والحميات المهلكة كحمى الجدري ، والتيفوس ، والحمى القرمزية ، والتيفوئيد ، وغير ذلك من المؤثرات التي تذكر تفاصيلها كتب الطب .

والرابع من فرسان الموت هي الطوارىء ، كالمصادمات ، والجروحات ، والاصابات بالرصاص خطأ او في سبيل ارتكاب الجرائم والجنايات .

ومثالاً على هذا ، ذكرت جرائد امريكا في سنة ١٩٥٩ ان في عيد الميلاد قتل بسبب حوادث المرور / ٥٦٣ / شخصاً بمعدل واحد كل ست ساعات .

وفي (كندا) قتل / ٦٦ / واحـــداً ، واما في فرنسا فوقع / ٧١ / ، وفي بريطانيا / ٤٠ / ، وفي ايطاليا / ٢٩ / ، وفي النمسا / ٢٢ / ، وفي المانيا / ٢٠ / شخصاً .

وفي سنة ١٩٥٩ مات في الولايات المتحدة / ٣٧٨٠٠ / شخص بزيادة / ٨٠٠ / شخص عن عام ١٩٥٨ .

وبناءً على تقرير رسمي نشرته جرائد فرنسا ، ان هناك حادث اغتصاب يقع كل ساعة ، وسرقة كل دقيقتين ، وسرقة سيارة كل نصف ساعة ، وجريمة قتل او جرح كل اربع ساعات .

وذكرت صحف اليابان في سنة ١٩٥٩ انه وقع عندها خلال الاشهر العشرة الاولى حوادث مرور / ٨ / آلاف حادثة بزيادة قدرها ٢٢٪ ذهبت ضحاياها نتيجة للمصادمات ، كما جرح من جراء هذه الحوادث / ١٨٨ / الف ياباني آخرين .

ويتوقع البوليس أن يصل عدد القتلى بحوادث المرور حتى نهاية العام الى / ١٠ / آلاف شخص وعدد الجرحى / ٢٠٠ / الف شخص معظمها ناشئة عن السائقين المخمورين والمتهورين .

والخامس هي أمراض ذات الرئة التي يسببها عامل الجراثيم في الوافـدات والاوبئة عندما تكتسح البلدان في المواسم المختلفـــة وتقضي على اكثر ما تقضيه الحروب من افراد البشر ، فقد يبلغ عدد الوفيات في آسيا واوروبا ما لا يقل عن ثلاثة ملايين شخص .

والسادس النزف الدماغي ، أو النقطة الدماغية التي تتأتى عن تصلب الشرايين ، وارتفاع الضغط الدموي لدرجة لا تستطيع جدران الشرايين الشعرية مقاومتها فتنفجر وتسبب الموت .

والسابع السل الذي اكتشف العلم جرثومته ، ولكن للآن لم يكتشف دواءه الشافي .

والسل بحسب الاحصاءات لا ينجو من الوقوع به أحد منذ الصغر حتى الكبر ، ولا فرق بين كبير أو صغير ولا ذكر او انثى ، ولكن معظم اخطاره تكون بين الـ ١٥ والـ ٢٤ سنة من العمر .

ولكثرة الوفيات التي تقع من جرائه سمي (بالوباء الابيض أو الطاعون الابيض) وهو يكثر في الصغار عندما يقل غذاؤهم ويفسد هواء سكناهم ويتعرضون للوافدات الصدرية والرشوحات ولا يدخل نور الشمس الى غرفهم .

ولاهتمام العلم والعلماء والعالم به ، والعمل الدائم على محاربته وتخليص الاطفال والاولاد والكبار من فتكاته ، تمكن العصر الحاضر من مقاومته ، والوقاية من جرثومته ، ومداواته والشفاء منه عندما يكشف المصاب به في اول عهده وذلك باللقاح الباكر ، والتداوي بالمصحات ، والعمليات الجراحية .

وبالرغم من وجود المصحات ، والمشافي والمختبرات ، والادوية ، فالسل لا يزال من رسل الموت التي تحرم المجتمع من افراده بمئات الالوف كل سنة ومعظمهم في ريعان حياتهم . ولهذا كان من العوامل المخيفة التي تخشاها الحياة ويخشاها الافراد .

ما هي الأمراض الناتجة عن اجتماعية البشر ؟

وبعد ان مررنا مروراً خاطفاً بهذه العوامل السبعة المرضية الفتاكة التي تصيب الافراد بحسب فرديتهم اكثر مما تصيبهم بحسب اجتماعيتهم بتأثير الوراثة ، والعمل ، وسوء التغذية ، وفساد البيئة ، وانتشار الجراثيم والاوبئة ، وسوء العادة ، نبدأ بذكر الامراض التي هي من خواص المجتمع وهي المقصود من بحثنا ، وهي التي تعمل على اضعاف المجتمع البشري ، أمة ، او شعباً ، او دولة ، بدلاً من تقويته وترقيته ، ولا ينجو من ويلاتها إلا من سلك وسائل المكافحة الجماعية من علم وطب ، ومؤسسات ومختبرات ، وأنظمة وقوانين ، وتربية ، ووعي روحي وخلقي .

ما هي العوامل المرضية التي تفتك بالمجتمع وتهدّد كيانه وتهدم بنيانه ؟

يقول ابن خلدون في مقدمته :

« اعلم ان العمر الطبيعي للاشخاص على ما زعم الاطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة .

وأما اعمار الدول ايضاً وان كانت تختلف ، الا ان الدولة في الغالب لا تعدو اعمارها ثلاثة أجيال .

والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين سنة ، ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ماذكرناه في حكمة التيه الذي وقع فيه بنو اسرائيل .

وان المقصود بالأربعين هو فناء الجيل الأحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه ، فدل اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد ، وانما قلنا إن عمر الدولة لايعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد ، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ، ومن الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة ، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ما ذهب ، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول أو على ظن من وجودها فيهم .

وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه (١) من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم ، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها وهم في الاكثر أجبن من النسوان على ظهورها ، فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته ، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من اهل النجدة ويستكثر من الموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت » .

« فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها . ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب انما هو أربعة آباء وقد أتيناك فيه ببرهان طبيعي فتأمله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من أهل الأنصاف .

وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مائة وعشرون سنة على ما مرّ ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله أو بعده الا ان عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصلاً مستولياً . والطالب لم يحضرها ، ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً . فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولايستقدمون » .

ما الذي يعنينا من كلام ابن خلدون :

والذي يعنينا من هذا الكلام أن حياة الجماعات في اجتماعيتها تشابه حياة الفرد في عمره ، ولذا قال ابن خلدون بهذه النظرية . وأما جعله عمر الدولة محسوباً بمائة وعشرين عاماً فأمر تقديري يختلف باختلاف الزمن واختلاف الدول ، ومع هذا ماينطبق على الدولة من مدة العمر لا ينطبق على الأمة ، أو القبيلة ، أو الشعب ، أو الجماعة ، أو العائلة ، أو المجتمع البشري من حيث العموم لأن حياة كل منهم تختلف عن الأخرى ولذا لايمكن قياس ماذكره ابن خلدون عليها جميعاً بمقياس واحد .

(١) بنق ، وتنبق = جمعه وسواه : صنعه وزوقه ، قلده .

أما الذي لاشك فيه أن مظاهر الحياة في أي منهم لا تخلوا من الأدوار الطبيعية التي تمر بكل حي ، ولذا كان من الضروري البحث عن عوامل المرض والانحلال التي تؤثر فيها من حيث اجتماعيتها ، لا من حيث المظهر السياسي من اجتماعيتها فقط .

ومما يلاحظ على ابن خلدون رغم التقدير لاستنتاجاته العلمية ، ان تجاربه التي أدته اليها كانت منحصرة فيما اعتور العالم العربي ودوله من عوامل الانحلال في العصور التي أدّت الى انقسامه والى ضياع دوله ، وأفول شمس حضارته ، ووقوع بلدانه وشعوبه تحت حكم الاستعمار .

ولو ان ابن خلدون ساعده الزمن والاسكان وساعدته الظروف ودرس اوضاع المجتمع اليوناني ، والمجتمع الروماني ، والمجتمع المصري ، والمجتمع الفارسي ، والبابلي ، والمجتمع الفينيقي ، والمجتمع الاسرائيلي ، وكلها سبقت زمانه وسبقت المجتمع العربي لغيّر رأيه وحساباته في تقدير اعمار تلك المجتمعات بمائة وعشرين سنة ، ولغيّر دراسته عن العوامل التي قصفت بأعمارها ودولها ، وقال بامتداد اعمار الدول والشعوب بأكثر مما ذكره .

ولذا رأينا ان نأخذ درس علل المجتمع من الناحية الاجتماعية التي قوامها الدين ، والعقيدة ، والاخلاق ، والانظمة ، والروابط العائلية ، والحكومات ، والمؤسسات ، لأن هذه الركائز التي تنبعث منها القوى المحركة للمجتمع تتناولها العلل المخربات لحيويتها ، وهي التي تشكل أهم علل المجتمع ، واهم ما يقضي على فعالية الانسان البناءة الخلاقة ، وعلى حياته النامية ، وتعجل بانحلاله وقصر عمره .

ما يقوله علماء الاجتماع عن أخطر ما يصيب المجتمع الانساني من الامراض، وما هي ؟

يقول علماء الاجتماع ، ان اخطر ما أصاب المجتمع الانساني في الماضي ، وكان سبب سقوط حضارته ومجتمعاته ، وأخطر ما يصيبه الآن ويؤثر في انحلاله ينحصر بالعوامل المرضية الآتية :

العامل الاول : الانهماك الشهواني وما يتأتى عنه من انتشار الرق الابيض ، والبغاء المستتر ، والاباحية الجنسية ، والشذوذات الشهوانية وما لها من تأثير في انقراض النسل ، وعقم الامهات ، ثم كثرة اولاد الزنا واللقطاء ، وتزايد الطلاق ، وانحلال العائلة .

تذكر الاحصائيات الاجتماعية في هذا الصدد ان انكلترا يوجد فيها /١٨٠/ الف لقيط سنوياً من امهات لا يتجاوز سنهن الـ ١٧ ولا يعرف لهم آباء . وان هناك مليون لقيط غير معروف لهم آباء او اصل .

وقالت صحيفة (النيوز اوف ذي ورلد) الاميركانية عن الاخبار العالمية ، انه في عام ١٩٥٧ ولد / ٥٠ / الف لقيط من فتيات اكبرهن لا يزيد عمرها عن / ٢٠ / عاماً .

وفي عام ١٩٥٨ ولد / ٦٥ / الفاً من امهات تتراوح اعمارهن ما بين ١٦ والى ٢٠ سنة .

وكتب الدكتور « د. سدني » مدير الصحة في مدينة (فارنورث) يقول :

ان الانحلال قد عمّ البلاد ، والفساد ساد المجتمع ، وان نسبة الحمل غير الشرعي قد بلغ $\frac{1}{4}$ سكان لندن وضواحيها ، وان معظم فتيات انكلترا اليوم لا يعرفن الا الانحلال والحرية ، ولا يعترفن بفضيلة العذرية .

ثم يقول الدكتور « سدني » في احصائيات الحكومة :

ان مواليد حي بادينجتون بلندن وعددهم / ١٢٠،٥٠٠ / مولود يومياً ، يولد منهم / ٥٠،٠٠٠ / مولود غير شرعي .

وفي حي وستيمنستر يولد اكثر من / ٩٠٠ / طفل غير شرعي . وفي حي هامر سميث يولد يومياً / ١١٧،٧٥٠ / طفلاً منهم / ١٢٥٠ / طفلاً غير شرعي .

وتجد اليوم الانحلال الخلقي يسود البلاد الانكليزية ويسود مدينة لندن

بالذات ، فتجد في الميادين والشوارع الفتيات والفتيان يتعانقون ويتبادلون القبلات علناً حتى العجائز يفعلون ذلك .

وفي حي (بيكاديللي) و (سوهو) بلندن ، وهي عاصمة اكبر امبراطورية ، تجد علب الليل ، وتجد أكثر من الف مسرح وملهى ومرقص ، تتحول مع الليل الى شعلة من الانوار الحمراء والزرقاء ، ويؤمها ليلاً الملايين من جميع انحاء العالم .

وهنالك عشرات بل مئات من المسارح الصغيرة وضعت على جدرانها من الخارج صور العرايا ، واعلانات النيون تدعو المارة الى الدخول .

وفي هذه المسارح الصغيرة والملاهي تعرض فتيات لندن ونساء فيينا والسويد والنرويج اجسادهن على نغمات الموسيقى الصاخبة ... بعد ان انتشرت موضة (الستربيتز) الباريسية ، أي خلع الملابس قطعة قطعة على نغمات الموسيقى .

وفي (سوهو) ايضاً يجد المرء اكثر من خمسة آلاف ناد معروفة هناك بنوادي (التعارف) وتضم هذه النوادي مئات من الفتيات يعملن في هذه النوادي كمصيدة للاستيلاء على نقود الزبائن بوسائل مخجلة غير مشروعة . وهكذا انتشر الفساد وعمّ الانحلال .

اذن ماذا نقول عن نساء بابل وخماراتها ؟ وعن نساء روما وخماراتها وفسقها ؟ وهذه لندن تاج حضارة الغرب قد بليت بهذا الداء الوبيل . ألا يكون مصيرها ومصير من يماثلها ما كان لبابل وروما وغيرهما ؟

ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب (معائب الجنس البشري) للدكتور (ثربل) ان ثلث نساء فرنسا عقيمات لا يلدن بسبب اصابتهن (بالتعقيبة) ، ولذا تقل نفوس فرنسا سنة بعد سنة بسبب انتشار الزنا وانتشار هذا المرض الوبيل رغم ما اكتشفه العلم من وسائل لمحاربته ، وتضطر الحكومة لجلب الرجال من المستعمرات لاكمال جيشها .

وليس هذا فقط ، بل ان الدكتور المذكور يقول في كتابه (ص ٢٢) ان

اهم واقوى السنديكات في امريكا التي تجلب الارقاء البيض من النساء من الخارج تأتي بهن (فرنسا) ، وهي تجلب معظم النساء والبنات من باريس ومن البلدان الصغيرة والقرى الفرنسية القريبة من الخطوط الميتروبولية الفرنسية .

ويوجد في فرنسا شركات متعددة تقوم بجلب البنات وتسفيرهن الى ما وراء البحار ، ومعظم البنات من قسم اليتيمات او الشاردات او من كان ابويهما من الفقراء .

وللشركات وكالات في معظم بلاد العالم تعمل لهذه الغاية تجلب البنات بشتى انواع الطرق والمصايد ، وبعد الوقوع في الشراك يهيئن بالكيفيات المغرية وينقلونهن الى المؤسسات الموجودة في امريكا طمعاً بالمال .

وتدل الاحصاءات على ان ما يرد الى امريكا من هذا النوع كل سنة يزيد عن خمسة آلاف بنت ، وتزداد نسبتهن سنة عن سنة . أما كيف يؤتى بهن وكيف يدخلن البلاد وكيف يستثمرن فشيء يحيّر العقول ، ولا يسع المقال لوصفه لتعقده وشدة تنظيمه ، وغرابة حيل المدربين له ، وانواع اساليبهم ، وكثرة نفقاتهم ، وتعدد طرقهم ، حتى قيل ان ما ينفق على كل منهنّ لا يقل عن ٤٠٠ او ٥٠٠ دولار وبعد الشراء ترسل البنات الى نيويورك ، او شيكاغو ، او اوماها ، او رينو ، او طوناباس ، او آلاسكا ، او غيرها ، وتوضع في بيت خاص ، او قل في حبس خاص لا يمكن ان تفلت من بين ابوابه ، وقد تبقى البنت مدة في اسرها ثم تباع الى من يشتريها بالثمن الفاحش وينقلها الى محل آخر للبيع ، او الايجار ، او الاستئجار ، او الاستفراش الخفي ، وتبقى أسيرة الاخطبوط لا تعرف كيف تهرب ولا يمكنها ان تهرب لشدة الرقابة والقيود ، وكثرة العيون .

وقد تبقى في عبوديتها ثلاث سنين او اربع ثم تحاول الهرب ، ولكن هيهات ان تنجح واحدة من العشرة لسوء ما يهددها المشرفون وما تناله من عقاب .

وصرّح الدكتور وليم براون ، رئيس قسم الصحة العمومية عام ١٩٥٩ ،

بأن نسبة الاصابة بالزهري المعدي بالولايات المتحدة لا تزال تسجل ارقاماً قياسية . وقال ان عدد من يصابون به سنوياً في البلاد يقدر بحوالي / ٦٠ / الف شخص .

وأضاف الدكتور براون : من حزيران الى تشرين الاول بلغت نسبة الزيادة ٤٢ ٪ وذلك بالنسبة لنفس الفترة من العام السابق ، وقال ان هـــذه الزيادة استمرار للموجة التي اكتسحت البلاد عام ١٩٥٥ والتي بلغت درجة خطيرة خلال الاشهر الثمانية الماضية .

والعامل الثاني : انتشار الالحاد الديني ، والتنكر للاديان ، والقول بالانحلال من الروابط الاجتماعية ، وترك الحرية للغرائز الشهوانية تعمل عملها دون احترام ولا اعتبار للحب ، والعائلة ، والفضيلة ، كما يقول الاباحيون ، والوجوديون ، واللامنتمون ، والفوضويون ، وكلها من ثمار المدنية المادية التي سهلت السبل للانحلال الاخلاقي والعائلي .

والاعتقاد ان الانسان يجب ان يعيش حراً ، طليقاً ، ملهماً بغرائزه ، ومندفعاً لاشباع رغباته ونزعاته دون قيد ولا شرط ولا تضحية كأنه يعيش حيواناً منفرداً لا انساناً له ضميره ، وله اجتماعيته ، وعليه مسؤولياته ، وله حدوده وقيوده التي اختارها والتي اقتضتها حياته الانسانية .

والعامل الثالث : الانحلال الخلقي ونكران المبادىء التي تواضع عليها النـاس وكفلت لهم النظام والهدوء ، والعيش ، والعمل ، والتعـاون ، وتزايد الشذوذات الاخلاقية .

جاء في كتاب للدكتور (ليك) ص ٢٨ : ان الولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٣٨ قد ثبت من احصائياتهـا وجود ٧ ٪ من المرضى في المستشفيـات تشغلها حالات عقلية تدل على الاخفاق الذي لحق بالمجتمع .

وتقول جرائد واشنغتون إن في كل ٢٠ دقيقة تقع جناية ، وفي كل ٤٦ دقيقة تقع جريمة قتل ، وفي كل ٣٦ دقيقة تقع حادثة اغتصاب ، وفي كل دقيقتين تسرق سيارة ، وفي كل ٤٦ ثانية يقع حادث سطو .

وسجلت الاحصائيات في عام ١٩٥٨ أن هنالك زيادة في الجرائم قدرها ٩،٣ في المائة عن عام ١٩٥٧ ، وان الاحداث الذين هم دون الثامنة عشرة من العمر ، ارتكبوا نصف حوادث السطو التي وقعت في امريكا ، وثلاثة اخماس حوادث سرقة السيارات .

والعامل الرابع : انتشار الجرائم والجنايات بسبب تزايد الدوافع المرضية ، والشذوذات الفكرية ، وضغط الحياة ، وسوء الوراثة ، وضعف الوازعات الادبية والدينية ، والقانونية ، والاخلاقية .

جاء في احدى الاحصائيات عما يقع في انكلترا من الجرائم ان عدد الجرائم الاخلاقية قد بلغ تسجيلها في سنة واحدة / ٢٤٠٩٩ / .

وتقول اكبر جريدة انكليزية (التايمس) ان انكلترا تعاني نكسة اخلاق خطيرة شوهت ما كان يتباهى به الشعب الانكليزي على شعوب العالم من تمسكه بالفضيلة .

ففي الوقت الذي لم يفرغ فيه الناس من أحاديث السفاح «كويستي» وأمثاله ، ومن ذكر البنات اللواتي اختفين واعتبرن مفقودات في انكلترا ويقدرن بأكثر من / ٣٥٠٠ / فتاة غير اللواتي عثر على جثثهن قتيلات أو غريقات ، يؤخذ من احصاء مجرمي الجنس ان عددهم بلغ بين عام ١٩٤٠ و ١٩٤٤ ، أي خلال الحرب الثانية / ٥٦٣٠ / .

وارتفع هذا العدد سنة ١٩٤٦ الى / ٨١٦١ / ثم قفز في عام ١٩٤٧ الى / ١١٨١٤ / وزاد في عام ١٩٤٨ الى / ١٢٨٠٢ / ، ثم في عام ١٩٥٠ بلغ / ١٢٣٠٤ / وسجل في عام ١٩٥٢ / ١٤٠٩٩ / مجرماً .

قال مستر هيوكلير ، العضو البريطاني بقسم الجرائم بمجلس اوروبا ، في رسالة له الى جريدة (الاوبزرفر) ان البحث الذي قام به المجلس عن انحراف الشباب وجرائم المراهقين دلّ على الآتي :

١ ـ زادت هذه الجرائم في منتصف الحلقة السادسة من القرن العشرين في /٩/ بلاد اوروبية هي النمسا ، وفرنسا ، والمانيا الغربية ، واليونان ، وايطاليا ، والنرويج ، والسويد ، وتركيا ، وبريطانيا .

٢ ـ لوحظ ان الشباب في هذه البلاد لا يسرقون بسبب الحاجة بل تحدياً للمجتمع .

٣ ـ يغلب على الجرائم التي ترتكب في المانيا الغربية ، وفرنسا ، والنمسا ، وبريطانيا ، طابع الدافع الجنسي . ففي النمسا مثلاً بلغت الجرائم الجنسية ٦ اضعاف ما كانت عليه في عام ١٩٤٦ .

٤ ـ لم يحدث أي تطور في أي بلد من تلك البلاد في وسائل العلاج ، فالمشرّع والحاكم والقاضي يجهلون تماماً آثار طرق العلاج التي يفرضونها .

٥ ـ بلغت نسبة الجرائم في السنين الاخيرة بشكل مثير . وفي سنة ١٩٥٩ تلقى البوليس أخباراً بوقوع (٦٧٥،٦٢٥) جريمة ، منهـــا ١٤٪ اعتداء على اشخاص ، و ١٣٪ جرائم جنسية و ١٦٪ غش وتزوير ، و ١٢٪ اعتداء على ممتلكات الغير . وبناء على هـــذا التزايد دقّ مدير بوليس لندن ناقوس الخطر الزاحف على المجتمع الانكليزي . وقال ان عدد الحانات ، والأندية المشبوهة ، وعلب الليل التي يُقدم فيها الرقصات العارية في زيادة مستمرة .

وجاء من واشنطن ان اكثر من ١،٥٠٠،٠٠٠ جريمة خطرة ارتكبت في الولايات المتحدة خلال عام ١٩٥٩ بزيادة ١٪ عن سنة ١٩٥٨ وبزيادة ١٢٨٪ عن سنة ١٩٤٠ ، وطالب المشرفـــون على مكافحة الجرائم باتخاذ خطوات ايجابية لوقف تيار الزيادة والا فأن زمام الموقف سيخرج من ايدي السلطات القادمـة وخاصة بين الأحداث .

والعامل الخامس : هو الاستهتار بالنظم والقوانين والتنكر للواجبات القومية والادبية . وهذا العامل الاجـــتماعي ينشأ عن فساد التطوّر الفكري والتعليم الاجتماعي ، وقيام مذاهب وعقائد فلسفية ومادية كالوجودية ، والاباحية ، والتحرر

من التقاليد ، ونكران الروابط الاجتماعية ، واطلاق العنان للملذات ، والتعري من الفضائل ، وترك الغرائز تعمل عملها دون قيد ولا اعتبار للاخلاق والعادات سواء في اللبس ، او الاكل ، او الحركات ، او التمثيل ، او التصوير ، او المصاحبة.

والعامل السادس : القمار والمضاربات في اسواق البورصة والمراهنات ، وما ينتجه الاول من ارهاق للفكر والعصب ، وما يسببه من عطالة في العمل وضياع للثروة ، وتبذير للاموال ، واهمال للواجبات ، وهو مؤثر عظيم في حوادث الانتحار والطلاق .

ونحن اذا احصينا اكثر حوادث الانتحار لوجدناها بين لاعبي القمار والمصابين بالافلاس المغامرين بالمضاربات والمراهنات وجلّهم من طبقات الارستقراطية ، واصحاب الاموال ، والمصابين بداء الكسب غير المشروع ، والتبذير على الموائد والاعمال الجنسية .

والعامل السابع : القلق الفكري والاجهاد العصبي من جراء صعوبة العيش، وميكانيكية العمل ، وارهاق الفكر والبدن في السعي لكسب القوت وأداء مستلزمات الحياة .

ويكثر الاجهاد والقلق بين أصحاب المسؤوليات ، والطبقة الكادحة ، والمصابين بالصدمات الفجائية وخيبة الأمل ، إما لفشل مشروع ، أو ارتكاب عمل يوجب المسؤولية ، أو فشل في طلب أو حب أو أمل .

والعامل الثامن : وهو من أهم المهلكات لأنه رأس المفاسد ، الادمان على تناول الخمور والمسكرات ، وتعاطي المخدرات السامة كالكوكائين ، والهيروئين ، والمورفين ، والحشيش ، والأفيون .

وكما أن رسل الموت الأولى تقضي على الأفراد ، كذلك رسل الموت الثانية وهي العلل التي ذكرناها تقضي على المجتمع اذا ما انتشر وباؤها بين أكثرية السكان دون وعي ولا ادراك لمصيرها المهلك .

ومن المؤكد لولا الجهل الاجماعي والظلم ، وسوء المصير ، وسوء التربية ، وفساد القوانين والقضاء ، ولولا سوء التغذية ، وغلاء المعيشة ، وقذارة المسكن وعدم صحيته ، ولولا انتشار البطالة وفقدان العدالة الاجتماعية ، وميوعة الحكم ، وانتشار الرشوة ، ولولا التفاوت بين الناس وقيام الحروب والثورات ، وشدة الأزمات الاقتصادية ، ولولا ضلال العقائد والتفكير الاجتماعي ، لما فقد المجتمع مقوماته واختلت موازينه ، وتبلبلت آراؤه وحياته وتعطل ضميره الاجتماعي ، فتقبل العلل دون رادع ولا وقاية ، ووقع في حمأتها دون مرشد ولا منقذ ، فأسرعت اليه رسل الموت ولات مناص من موته .

ومن القياس المنطقي بعد ما فصلنا العوامل المرضية التي تصيب المجتمع أن نتساءل ما هي مقاييس الصحة أو عوامل حفظ المجتمع البشري التي على دوام وجودها وفعاليتها وسلامتها يستمر في حياته وازدهاره وتقدمه ؟

ان الجواب على ذلك رغم ضرورة تفصيله لصعوبته لانجد معه مبرراً للتعمق والتبسط فيه بصورة فلسفية أو بصورة علمية مطولة ، بل نراه في حد ذاته بسيطاً وقد نحيط به بسهولة اذا تذكرنا المقدمة التي أوردناها في مستهل البحث ، وعرضنا مضموناتها بوضوح وشمول وايجاز كما يلي :

ومع هذا مادام المجتمع بمجموعه عالماً واعياً مدركاً لما له وعليه في حياته ومجتمعه ، منظماً لأعماله ووحداته ، قادراً بعلمائه وعلومه ومعاهده ومدارسه ومختبراته وجامعاته على استخدام قوى الطبيعة لخدمة حاجاته وتدارك ضروراته ورغائبه بالصناعات العديدة وبالمنشئات الزراعية، وبالمواصلات البرية والبحرية والهوائية، وفقاً لمبادىء العلم ومكتشفات العلماء والمخترعين ، وما دام بأنظمته ، وحكوماته ، وقوانينه وشرائعه واداراته قادراً على تمكين جميع افراده من استخدام مواهبهم وتنوير عقولهم ، وتربية اجسامهم ، وكسب معايشهم ، وضامناً لهم حريتهم الفكرية والعقائدية والاجتماعية ، وكرامتهم ، وسلامة أموالهم وارواحهم واملاكهم ومشاريعهم ، وسلامة المعيشة التي تفرضها عليهم وتفرض مستواها روابط الاجتماع،

فلا ينعم انسان ويظلم انسان لتفاوت الطبقات او تفاوت الظروف ، وحافظاً لكل فرد مستقبله ومستقبل عياله واولاده من العوز والخوف والشقاء والتشرد بالضمان الاجتماعي العادل الشامل لكل ما فيه صلاح الخلق ، وصلاح الروح ، وصلاح العمل، وصلاح الانتاج دون حرمان ناتج عن فقر أو عجز بدني أو محسوبية أو منسوبية أو تفضيل غرضي ، أو فائدة شخصية ، أو حرمان من حق خدمة يؤديها أو جهد يبذله أواستعداد كامن يستطيع اظهاره، وما دام عماد المجتمع راعياً المقومات الفكرية والأدبية يرعاها بالوعي القويم والادراك القومي والأدب الرفيع ، ويغذيها بالفن السامي والخيال الواسع ، والفلسفة الجامعة ، ويحميها بالعادات المفيدة والتقاليد المحترمة ، فالمجتمع يطرد في حياته نامياً فعالا قوياً ، لاتؤثر فيه الطوارىء الخارجية ولا العلل الداخلية التي تصاحب الجسم بل يبقى ميزان البناء راجحاً ونسبة النمو زائدة ، وكمية المناعة والتغلب وفيرة ، وبذلك يضمن لأعضائه التفوق والتقدم في ميادين النزاع والكفاح ، وفي مجال الانتاج والبقاء .

واستنتاجاً من كل هذا يمكننا كشف العلل التي تضر بما تقدم من مقومات الصحة ومعرفة الأسباب التي أدت الى زوال الأمم فيما مضى والى ضعف الأمم في الحاضر . وكذا نستطيع قياس ما نحن عليه من الصحة والمرض ، وما عليه غيرنا من الأمم .

وعلاوة على هذا نستخرج أسباب سقوط الأمة العربية ودولها بعدما تكاملت امبراطوريتها وازدهرت حضارتها ، اذ لايكفي في اضعاف أي أمة ما ، أن يهاجمها الفاتحون وتغلب على أمرها . فالفاتح كالجراثيم التي تحتل الجسم وتعطل حيويته موقتاً ، وتخرب بعض أنسجته ، وتسبب له الحمى التي قد تودي بحياته ، ولكن الجسم اذا كان ذا مناعة ، وأعضاؤه سليمة من الآفات ، تغلب على الجراثيم وأبادها وطرحها وأنقذ كيانه من سمومها ، فالحروب نوع من الحميات ، والجراثيم نوع من الفاتحين والمحاربين ، والأمة متى كانت قوية في بنيانها ، منيعة بتنظيمها ومجتمعها وبقية مقوماتها ، تستعيد قوتها وتقاوم ضرر المتغلب ثم تطرحه من بلادها ، واذا كان العكس تأثرت وضعفت وتشتت قواها وغلبت على أمرها .

ومما يجب ان لا يفوتنا ذكره قبل الختام ، هو ان العقائد العلمية والدينية ، غير

السليمة والتطورات الاجتماعية الرجعية ، والسياسة الطائشة ، والازمات الاقتصادية التي لا تجد حلاً تمثل دورها العظيم في اسباب سقوط المجتمع ودوله ، وسقوط الحضارات وشعوبها ، ولذا قال غوستاف لوبون :

« ان على هذه المعتقدات وما ينطوي فيها من حقائق تنشأ التطورات الاجتماعية ، وينشأ قيام الدول وسقوطها ، وتقوم عظمة الحضارات وانحطاطها ، لأن تلك المعتقدات على تعددها وانواعها واختلاف مظاهرها وتأثيراتها ، هي المطابقة بين مزاج الشعب النفساني الموروث ومقتضيات كل دور من ادوار حياته ، ولذا يعد نبذ الماضي من اسوإ اغلاط الزمن الحاضر .

وسواء نظرنا الى تعاقب الموجود ام الى تعاقب المجتمعات لا نجد الحاضر الا وليد الماضي » .

وفي كل حال ، ان بناء المجتمع هو العائلة وتليها المدرسة ويليها المعمل . ويليها الحقل ، ويليها المؤسسات ، ويليها الحكومة ، ويليها الجيش . فاذا اصيبت سلامة هذه الوحدات بعامل من عوامل الفساد التي بيّناها دون ان نعرف ما هو العامل ولا كيف نعالجه ، ولا كيف نحد من انتشاره ، ولا كيف نتقيه قبل وقوعه او ننقص ضرره ، فان حياتنا الاجتماعية لا بد ان تنهار .

واذا كانت الفضائل التي تواضع عليها الناس وحصنتهم من السقوط لا تزال الملجأ الذي يقينا الشر والفساد ، فعلى جميع افراد الشعب ان يدافعوا عنها لأن طبيعة المجتمع لم تخلق لنا شيئاً آخر يحل محلها ويؤدي عملها ، فموتها موت للنفس البشرية ، وموت النفس البشرية موت للمجتمع .

واذا كان هذا مما لا يقبل المجادلة والنقض لبداهته وصحة واقعه ، فالمحافظة على النفس لا تجن بدون معرفة حقائق واقعنا وسرعة تجاوبنا لما تشيره علينا والا تلقتنا افراس الموت التي لا تسمع رجاء ولا ترحم ضعيفاً ، ولا تسعف عليلاً ، وهي ترصدنا في مغائر الجهل ، ومستنقعات الرذيلة والفحش ، وفي صحارى الفسق والشهوات ، ومستعدة المجيء كلما توقفنا عن محاربة هذه العوامل المرضية التي تفتح الابواب لدخول العدو ليقضي على مجتمعنا .

الحمدانيون وآثارهم في حلب

مشهد الامام حسين ومشهد الامام محسن

وجامع قرعويه في مقام الصالحين

حلب وأهمية آثارها من الوجهة التاريخية :

ان حلب ومضافاتها لا شك تحوي في آثارها أهم الذكريات التاريخية التي تمثل تراثنا القومي ، كما ان في اراضيها وربوعها توجد أقدم الآثار التي ترجع بعهودها الى ست آلاف سنة قبل الميلاد ، وفيها ما يرجع عهده الى ما بعد ذلك الزمن حتى وقتنا الحاضر على مختلف السنين والادوار .

ولما كانت الآثار هي احدى مصادر التاريخ ، فجدير بنا ونحن في فجر نهضتنا القومية ، وبناء حضارتنا في عهد جمهوريتنا العربية المتحدة ، ان نهتم بتلك الآثار فنكشف عما في ارض الوطن من كنوز اثرية نعرضها ونستنطقها ، وعلى ضوء ما توحيه الينا من حقائق ووقائع نتبع سير ماضينا ، ونكتب تاريخنا ، ونربط حاضرنا بمستقبلنا ، ونبرهن للعالم ان العرب ما زال لهم من تراثهم الخالد ما يزيد في شأنهم وفي ادلتهم على انهم امة العلم والحضارة .

كيف ننظر الى آثار الحمدانيين ولماذا نهتم بها ؟

وعلى هذا الاساس ندرس آثار الحمدانيين في حلب ، وان كان مضى عليها ما يزيد عن عشرة قرون ، لان الحمدانيين من صميم العرب ، وبطلهم سيف الدولة ابن حمدان التغلبي ، بدولته التي أقامها وبحروبه المتعددة التي اجراها ، وبيئته العلمية

والاجتماعية والادبية التي أوجدها ، وبسيرته الفذة ، وعبقريته الحربية كما سطرتهما أشعار الشعراء كالمتنبي ، وابي فراس ، والصنوبري ، والوأواء وغيرهم ، وسطرتهما تواريخ اصحاب الرواية والسير ، يمثل القومية العربية بأبهى صورها ، والبطولة بأسمى معانيها ، والسيادة بأتم مفاهيمها دون غيره ممن تولوا الحكم في حلب من امراء وملوك ، وسلاطين ، وحكام ، ونواب .

متى فتحت حلب في العهود العربية ؟ وعدد من تولاها من الولاة حتى ايام سيف الدولة ؟ وما هي أهم الوقائع التي لها صلة بآثار الحمدانيين في حلب ؟

وكمقدمة تاريخية لفهم موضوع بحثنا ، لا بد أن نعيد الى الاذهان موجز الاحداث التي مرّت بحلب منذ الفتح العربي حتى يومنا الحاضر .

يقول الشيخ كامل الغزي في تاريخه « حلب » مجلد ٣ صحيفة ٨ :

« اول دولة حكمت حلب دولة عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، ثم بقية الراشدين الى عام ٤٣ هـ ، ثم الدولة الاموية حتى عام ١٣٢ ، ثم العباسية الى عام ٢٦٤ ، ثم استقل بها احمد بن طولون واستمرّ بها هو وأعقابه من بعده الى ان ضبطها الافشين ، ثم عادت لبني طولون ، وكانوا هم والافشين يخطبون باسم خلفاء الدولة العباسية المذكورة ، ثم في سنة ٣٢٩ استولت عليها الدولة الاخشيدية فلم تطل مدتهم بها ، وانتقلت الى الدولة الحمدانية سنة ٣٣٣ هـ .

وكانت الدولة الطولونية والاخشيدية يخطبان فيها باسم خلفاء الدولة العباسية العراقية .

وفي ايام سيف الدولة استولى عليها الروم مدة قليلة ثم بارحوها ، بعد ما أحرق جامعها الكبير الاموي ، وهدم اسوارها وبيوتها وجلا عنها اهليها ، نيكفور ملك الروم ، وعاد اليها سيف الدولة ، ثم استولت عليها الدولة العلوية الفاطمية سنة ٤٠٠ فلم تطل مدتها (١) وانتقلت منها الى الدولة المرداسية سنة ٤١٤ ، وبعد مدة عادت الى حكم الفاطميين .

(١) مدة حكم الحمدانيين بحلب ٧٣ سنة هجرية .

CITADEL OF ALEPPO

قلعة حلب

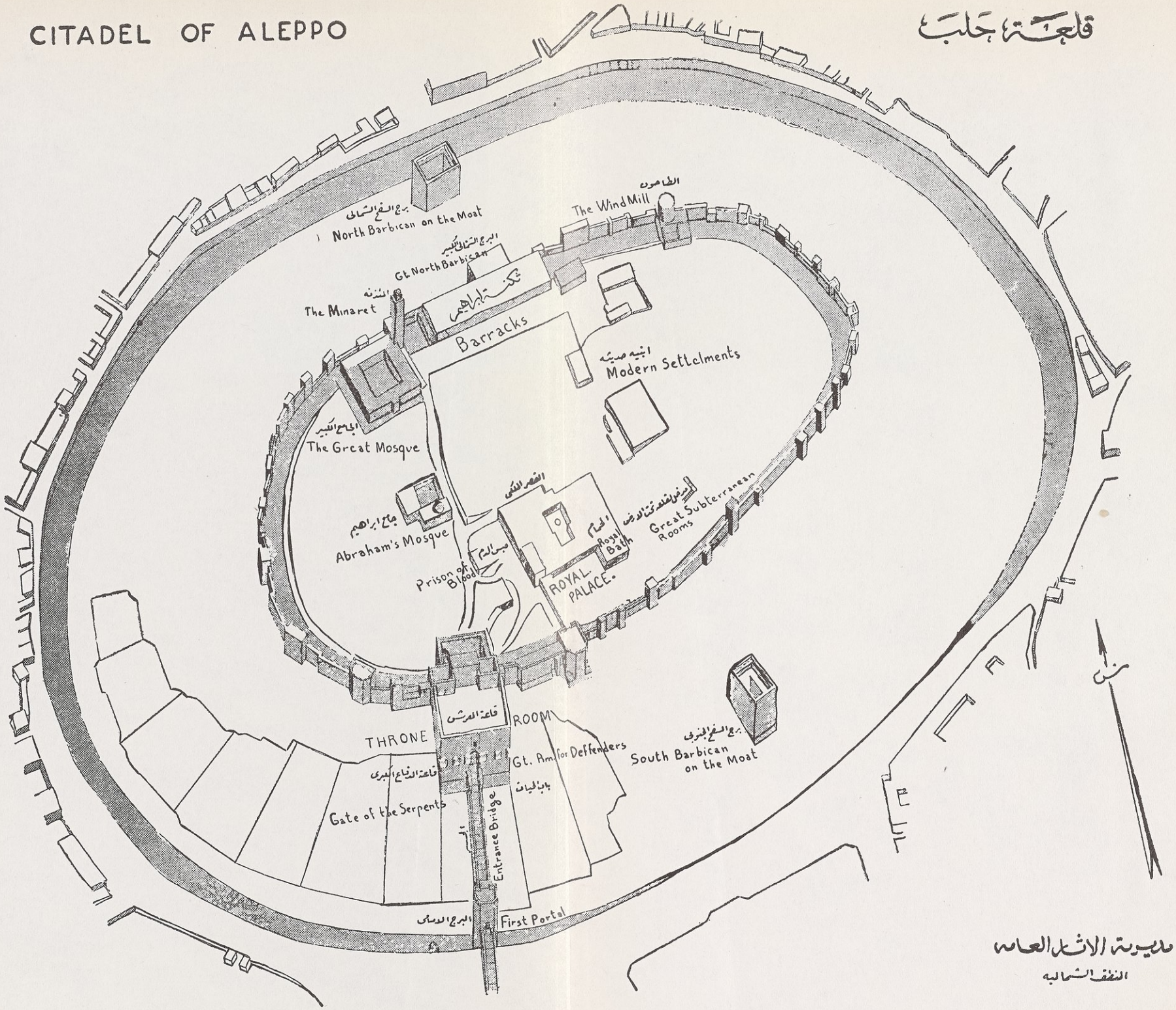

مديرية الآثار العامة
المنطقة الشمالية

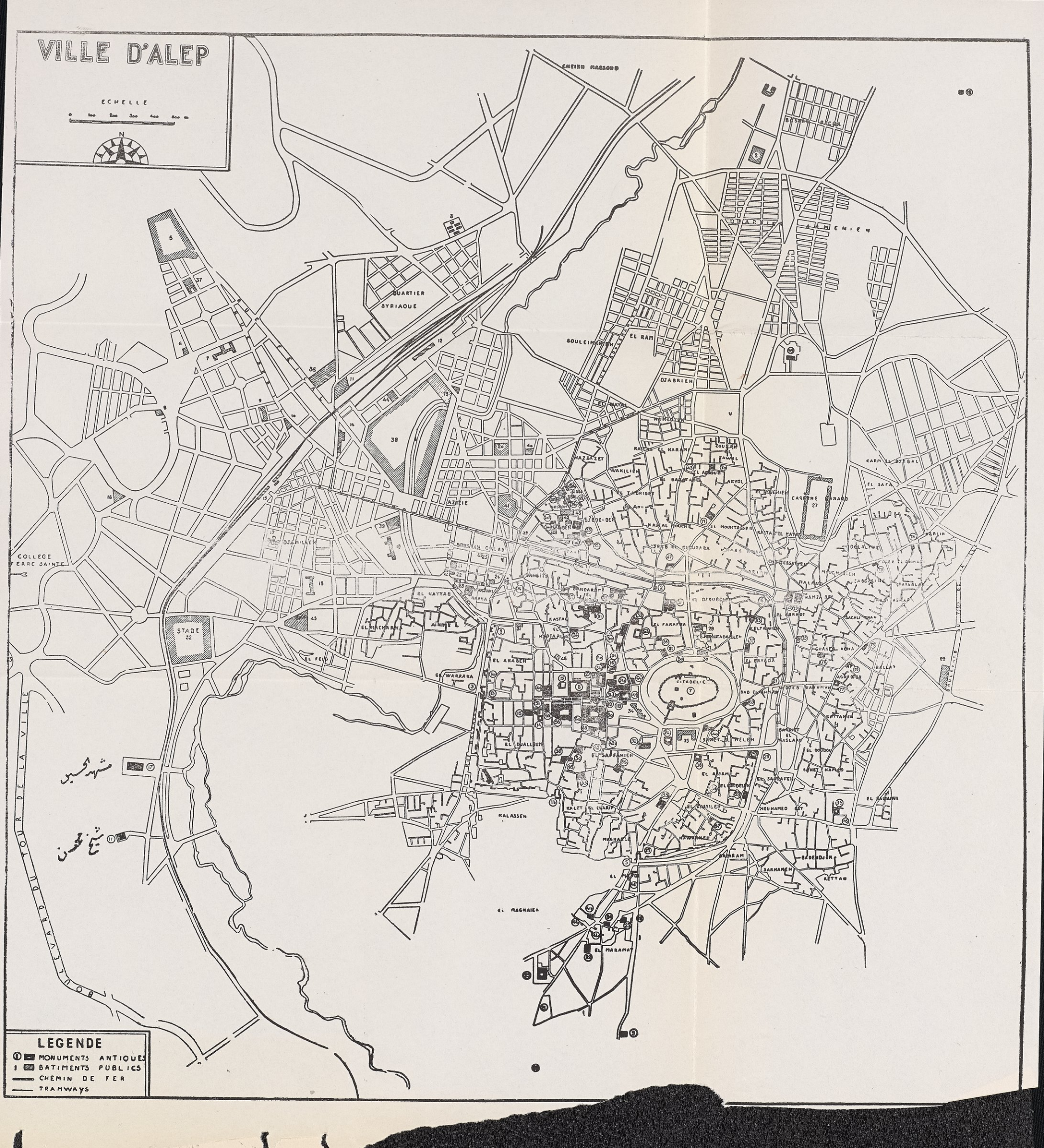
VILLE D'ALEP
ECHELLE
N
CHEIKH MASCOUD
QUARTIER ARMENIEN
QUARTIER SYRIAQUE
SOULEIMANIEH
EL RAM
DJABRIEH
AZIZIE
COLLEGE TERRE SAINTE
STADE 32
CITADELLE
KALASSEN
EL MAGHAIER
EL MARAMAT
LEVARD DU TOUR DE LA VILLE
مشهد الحسين
شيخ محسن
LEGENDE
MONUMENTS ANTIQUES
BATIMENTS PUBLICS
CHEMIN DE FER
TRAMWAYS

وفي سنة ٤٥٢ رجعت للمرداسية وخطبوا فيها باسم الدولة العلوية المصرية ، ثم في سنة ٤٦٢ صاروا يخطبون باسم خلفاء الدولة العباسية العراقية ، ثم في سنة ٤٧٣ دخلت تحت سلطة شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل .

وفي سنة ٤٧٨ اقتتل مسلم بن قريش مع سليمان بن قطلمش السلجوقي صاحب قونيه ، فانكسر مسلم وقتل وانهزم عسكره .

وكان الشريف ابو علي الحسن بن هبة الله مقدم الاحداث في حلب ورئيسها فانفرد بها ، ثم دخلت تحت سلطة السلاجقة وأقاموا فيها عاملاً من قبلهم (آقسنقر) جد نورالدين محمود الزنكي .

وفي سنة ٤٩٠ كان واليها رضوان بن تتش السلجوقي فخطب للمستعلي بأمر الله العلوي المصري اربع جمع ثم أعاد الخطبة باسم الخلافة العباسية العراقية التي كان ملوكها يملكون ولا يحكمون .

وفي سنة ٥١١ دخلت في حوزة الدولة الارتقية حكام ماردين وهم من اتباع السلجوقيين ، ثم نزعت منهم الى (آقسنقر البرسقي) صاحب الموصل سنة ٥١٥ ، واستناب بها ولده الى سنة ٥٢٥ ، وفيها استولت على حلب الدولة الاتابكية الزنكية .

« ثم في سنة ٥٧٨ انتقلت الى الدولة الايوبية التي كان عميدها وفارسها البطل صلاح الدين بن يوسف الايوبي . ثم في سنة ٦٥٧ استولى عليها التتر جماعة جنكيز خان ثم بارحوها وعادوا اليها في سنة ٦٥٨ ثم فارقوها الى غير رجعة ، ودخلت بعدهم في دولة المماليك الاتراك غلمان الدولة الايوبية .

وفي سنة ٨٠٢ استولى عليها تيمورلنك أشهراً ، وخرّبها وهدم اسوارها ، وقتل أهاليها ، ونهب ما فيها ، ثم عادت الى دولة المماليك الاتراك .

وفي سنة ٨٩٢ استولت عليها الجراكسة مماليك الاتراك واستمروا فيها الى سنة ٩٢٢ وفيها احتلها سليم بن السلطان سليمان القانوني .

وفي عام ١٠١٤ عصى على الدولة العثمانية علي باشا الجانبولاد واستقلّ بحلب وغيرها سنتين ، ثم أخضعته الدولة العثمانية واستردت ما كان بيده من البلاد ومن جملتها حلب .

وفي سنة ١٢٣٥ استولى عليها اهلها مدة اشهر ثم رجعت لحكم الدولة .

وفي سنة ١٢٤٨ استولى عليها ابراهيم باشا بن محمد علي باشا خديوي مصر.

وفي سنة ١٢٥٥ عادت حلب الى الدولة العثمانية مع بقية البلاد الشامية التي فتحها ابراهيم باشا .

وفي سنة ١٢٦٦ استولى على حلب اهلوها عدة ايام ثم أعيدت الى الدولة العثمانية . وفي عام ١٣٣٧ أي سنة ١٩١٨ ميلادية دخلت تحت حكم الدولة العربية الفيصلية .

وفي عام ١٩٢٠ احتلها الفرنسيون . وفي سنة ١٩٤٦ أي في عام ١٣٦٦ هـ . عادت حلب كما كانت سوريا الى حكم اهليها » .

والذي نلاحظه ان حلب حكمها أربعة ولاة مدة الخلفاء الراشدين ، وكانوا من صميم العرب . وحكمها مدة سلطان الامويين ٣٢ والياً وكلهم من العرب سكنوا محلة العقبة لارتفاع ارضها وشرف بقعتها .

وحكمها مدة حكم العباسيين الى زمن الدولة الطولونية ٣٦ والياً وكلهم عرب وسكن معظمهم محلة زقاق الزهراوي(١) الكائن وراء الجامع الكبير .

ومن عهد الدولة الطولونية والاخشيدية الى زمن سيف الدولة الحمداني حكم حلب ٣٤ والياً وكلهم من غلمان الترك المجلوبين من (فرغانه) .

ومن بعد الدولة الحمدانية الى آخر زمن العثمانيين الاتراك حكمها الاعاجم

---

(١) معظم آثاره ودوره قد خربت ولم يبق الا مسجد يسمى بالمسجد الزهراوي لا آثار فيه الدلالة على ما كان عليه .

من مختلف الاقوام . فما هو السبب ؟ هل هو انحلال القومية العربية ؟ هل هو النزاع الذي قام بين البيتين القرشيين بني هاشم وبني عبد مناف ؟ هل هو سوء الادارة وعدم التنظيم الاداري والسياسي ؟ هل هو العوامل الاجتماعية والعوامل الاقتصادية ؟ هل هو الاستعانة بالاعاجم الاغراب للدفاع وللحرب وادخالهم في الجيش ؟ هل هو طبيعة الزمن وما وقع فيه من حروب بين العرب والروم ؟ هل هو الدسائس الخارجيـــة وهجمات الروم لاسترداد ملكهم الذي فقدوه في بلاد الشرق ؟ هل هو مطامع الفرس وسعيهم وراء الملك لاستعادة سلطانهم ونفوذهم ؟ هل هو الشعوبية وما كانت تقوم به من هدم وافساد وتضليل وتفرقة ؟

قد يكون السبب واحداً من هذه او من مجموعها ، او من اسباب اخرى مضافة اليها .

وفي كل حال ، لا بدّ من البحث والدرس والتعمق والاستقراء والتحقيق لكشف الحقائق التي بكشفها نستطيع فهم جميع الظواهر والاحداث التي مرّت بأمتنا عامة وبحلب والحلبيين خاصة ، والاجابة على جميع هذه الاسئلة .

هذا لو كان موضوعنا يتناول هذه الناحية الهامة ، ولكن نحن نريد تركه لرجال البحث ونعمد لتناول آثار الحمدانيين وما يتعلق بسيف الدولة الذي كان كما قلت رمزهم وبطلهم وعميد دولتهم وباني مجدهم .

ما هي أهم الحوادث التي يجب ذكرها بمناسبة بناء المشهدين مشهد الحسين ومشهد المحسّن :

يروي لنا التاريخ ان الامام الحسين بن الامام علي بن ابي طالب قتل في وقعة كربلاء عام ٦١ هـ ، وذلك في ايام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن أمية ، وان قتله كان بأمر من حاكم العراق عبدالله بن زياد بن ابيه ، الذي ارسل جيشاً عظيماً بقيادة عمر بن سعد بن ابي وقاص لمقاتلة الحسين .

وبينما كان الحرب مشتداً ، رمى شمر بن ذي الجوشن « والجوشن معناه الصدر أو الدرع » الامام الحسين بسهم قاتل فأرداه شهيداً ، ثم حز رأسه وسلمه الى الحاكم فأمر بارساله مع « شمّر » المجرم لينال مكافأته ، وارسل معه سبايا الامام بناته واولاده ، واخوته واخواته وزوجته وبقية العيال محملين على الجمال الى دمشق .

ولما وصلوا الى حلب وضعوا الرأس على حجر وهم مخيمين في الجبل الواقع غربي حلب والذي سمي بالجوشن باسم القاتل شمر بن ذي الجوشن ، فقطرت منه قطرة دم على الحجر حفظه أهلوه الى ان فتح سيف الدولة حلب وبقية بلاد الشام فشيد بناء المشهد المسمى بمشهد الحسين مقاماً له وذكرى للقطرة الغالية التي قطرت على الحجر ، ووضع الحجر فيه ، وشيد بجانبه نحو الجنوب ، وعلى مقربة منه

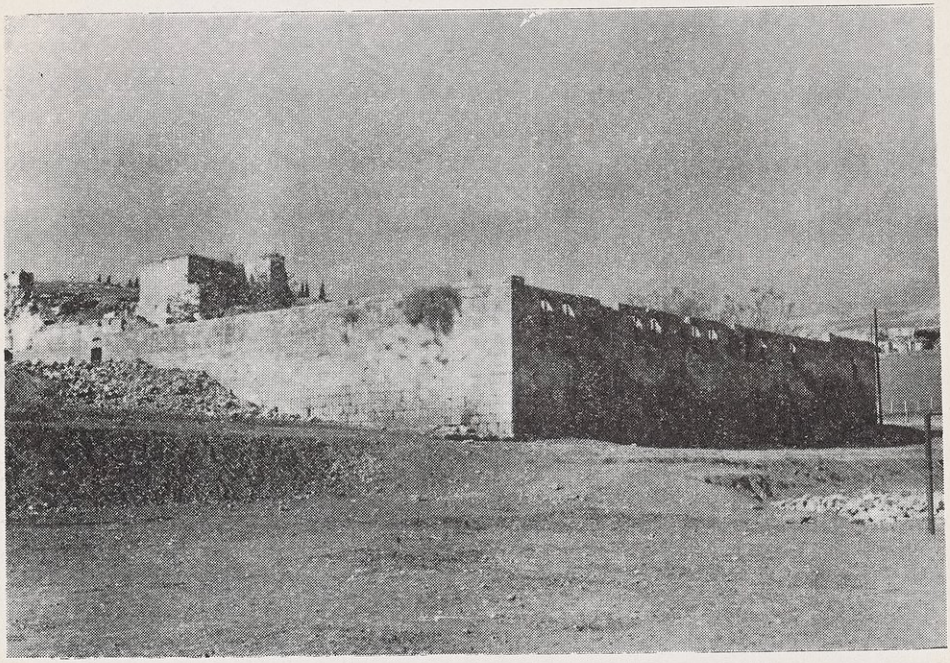

(٢) صورة للمشهد وموقعه

مشهداً آخر لضريح الامام محسّن ، وهو طرح بنت الامام حسين اثناء وجود السبايا في حلب .

ويذكر التاريخ أن سليمان بن عبد الملك الأموي في أيام توليته على حلب أمر ببناء الجامع الكبير عام ٨٧ هجري وجعله من حيث العظمة والهندسة والسعة والاتقان والبناء والزخرفة كجامع الأموي الكبير الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك وبنى مثله جامع الأقصى في القدس وجامع الصخرة المقدسة الذي لا يزال على ما كان عليه من أيام الوليد شاهداً على عظمة الفن الهندسي العربي وجمال مايحويه من زخرفة وانسجام واتقان ،

ويقول الشيخ راغب الطباخ في تاريخه مجلد /٤/ صحيفة /٤٦٣/ (١) :

« ان نيقفور ملك الروم أحرق جامع الأموي بحلب عندما احتلّها أيام سيف الدولة وحرق بيوت المدينة وهجّر أهليها ولم يستطع احتلال القلعة ثم داهمه سيف الدولة فخرج عنها بعدما أجرى ماسوّلت له نفسه الأثيمة من هدم الجامع وأسوار المدينة وبيوتها .

ويذكر التاريخ أن ابن حمدان عندما استعاد حلب وتغلّب على الروم جدد بناء الجامع ورمم الأسوار ، وعمر البيوت ، وأعاد السكان .

ويقول كرد علي في خطط الشام عن الجامع الأموي في دمشق :

« ان جامع الأموي في دمشق بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٥ وأكمله سليمان بن عبد الملك وقد تكلف بناؤه ٤٠٠ صندوق في كل صندوق ٢٨٠٠٠ دينار ذهب ، أي ١١،٢٠٠،٠٠٠ دينار ثم احترق سنة ٤٦١ أيام الحرب التي قامت بين جيش المغاربة الفاطميين وجيش العراقيين ، وأعيد كما كان بعدها .

---

(١) وفاتنا أن نذكر بأن سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز كانا يسكنان في زقاق الزهراوي وكان يعرف قديماً « بدرب البازيار » وقد سكنه معظم ولاة العباسيين ايضاً .

ويذكر الحافظ الذهبي في تاريخه المعروف بتاريخ الاسلام (ان جامع حلب كان فيه خزانة كتب وقفها سيف الدولة بن حمدان . وكان عدد ما فيها من الكتب عشرة الآف مجلدة . ولكن في عام (٤٦٠)هـ حرقها القرامطة ، وأخذوا المتولي عليها (ثابت بن اسلم ابو الحسن احد علماء الشيعة) الى مصر وصلبوه هنالك لأنه كان الف كتاباً في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم) .

ثم في عام ٧٤٠ احترق بسبب حريق في بعض البيوت المجاورة له وأعيد الى ما كان .

ثم احترق في عام ٧٩٥ وكان الحريق في جزء منه وأعيد ايضاً الى ما كان .

ثم احترق في عام ٨٠٣ في أيام تيمورلنك واحترقت معه خزانة المصاحف والكتب ، ثم أعيد بناؤه عام ٨٠٥ .

واحترق في عام ٨٨٥ بسبب الزلزال وتعطلت جوانبه .

وفي عام ١١٧٣ تهدمت قبة النسر والرواق الشمالي بسبب الزلزال وأعيد بناؤه .

ثم في عام ١٣٠١ سرت النار الى جذوع سقفه فالتهمتها وزال ما كان فيه من آثار واثاث وحرق المصحف المكتوب بالخط الكوفي ، وكان قد جيء به من البصرة . وقيل انه مصحف عثمان بن عفان .

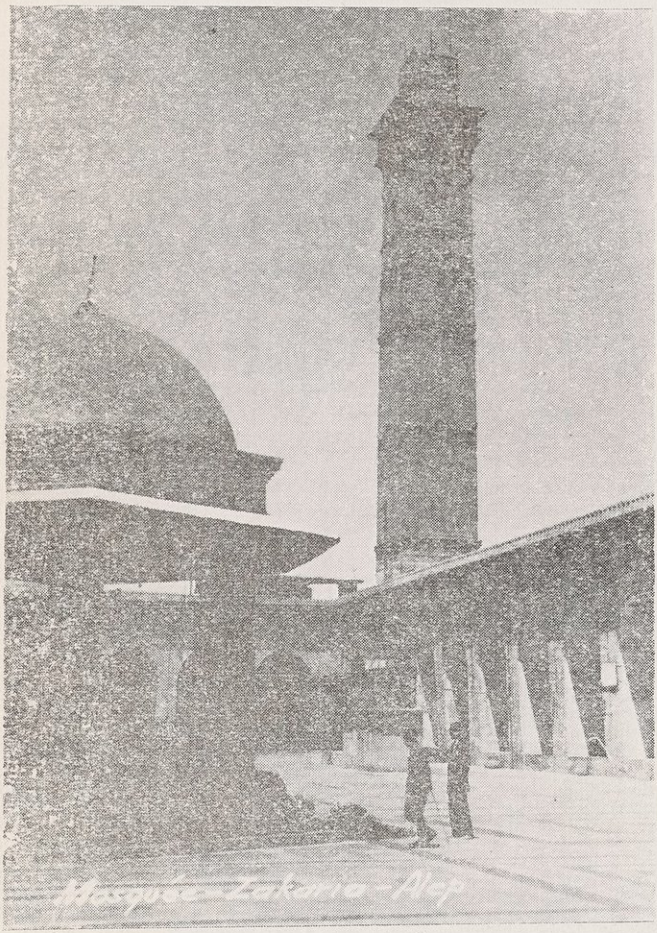

(٣) صورة لجامع حلب

ثم في عام ١٣١٧ بدأ في بنائه الأهلون وأكمل عام ١٣٢٠ بمعونة السلطان عبد الحميد الثاني .

وأما جامع حلب فبني عام ٨٧ من قبل سليمان بن عبدالملك .

ثم احرق من قبل الروم عام ٣٥١ ورممه سيف الدولة وابنه سعدالدولة .

ثم احرقه الاسماعيليون عام ٥٦٤ وعمره نور الدين الزنكي .

ثم احرقه التتار عام ٦٧٩ وجدده آقسنقر سنة ٦٨٤ .

ثم جرت فيه ترميمات وتجديدات أيام المماليك قلاوون ، وقنصور الغوري وغيرهما ، ثم ايام السلطان مراد الرابع وايام السلطان عبدالحميد .

ويذكر التاريخ أن العباسيين نقلوا زخارف الجامع الكبير بحلب بعد استيلائهم على حلب الى جامع الانبار في العراق ايام ولاية صالح بن علي بن عبدالله العباس، الذي حكم حلب من عام ١٣٧ الى عام ١٥٢ ، وبنى لنفسه سكناً له ولاولاده قصراً فخماً من الحجر الصلد خارج المدينة ، على بعد ثمانية اميال من باب النيرب في محل يسمى « بطياس » وقد بقي موجوداً حتى ايام المؤرخ ابن العديم .

ويذكر التاريخ ان حلب فتحت في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في العام الخامس عشر من الهجرة ايام الخريف من سنة (٦٣٣) ميلادية عن يد خالد ابن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ، وكان فتحها صلحاً وفتح قلعتها عنوة .

ويقول الواقدي (١) ان اهالي قنسرين ، بعد ان قبلوا بالصلح على مال معين دخل خالد ومعه ابو عبيدة قنسرين (٢) واختطا بها مسجداً ، فبلغ ذلك اهالي حلب فخافوا ، وكان رئيساهم الاميران (يوقنا ويوحنا اخوان) يسكنان القلعة ، وكان يوحنا الصغير منزوياً عن الرئاسة يميل الى الترهب ، ولما بلغه قدوم جيش العرب

---

(١) نقلا عن كتاب تاريخ حلب للشيخ كامل الغزي ، مجلد /٣/ صحيفة /١٠/ .

(٢) بلدة تبعد عن حلب (٢٥) كيلو متراً الى الجنوب الغربي ، وقريبة من مجرى نهر قويق وواقعة في الجهة الغربية من ضفته فتحت أيام ابو عبيدة . وكانت احدى مراكز الجيوش . وفي عام (٣٥١) ايام سيف الدولة ، غزاها (نيكوفورس) ملك الروم وخربها وحرق جامعها فنقل سيف الدولة اهليها الى حلب . ومنهم من عبر الفرات . وقبل موت سيف الدولة (٣٥٥) لم يبق منها سوى خرابها .

اشار على اخيه يوقنا بالصلح فأبى الا الحرب ، وسار بجيوشه الجرارة التي تبلغ اثنتي عشر الف ، فأرسل الى كفاح خالد وابي عبيدة قبل ان يصل جيشهما الى حلب. وكان أبو عبيدة بقنسرين غير عالم بالحال ولكنه جهز كعب بن ضمره ومعه ألف فارس وسيره الى حلب لفتحها ، فسار كعب حتى اذا صار على ستة أميال من حلب داهمه (يوقنا) واشتعلت الحرب بينهما وكان ابو عبيدة مشغولاً مع وجوه أهل حلب ومشايخها ورؤسائها قدموا عليه الى قنسرين يطلبون الصلح والأمان بعد أن سار يوقنا وجيشه لقتاله ، وسلكوا الى قنسرين غير الطريق الذي سلكه يوقنا ولما صالحهم أبو عبيدة وأمّنهم رجعوا الى حلب وقبل وصولهم اليها فشا خبر صلحهم حتى بلغ (يوقنا) وهو يحارب (كعباً) ، وكعب في غاية القلق والضجر ، وقد تلف من عسكره زهاء مائتي رجل من اعيان الصحابة ، فلما سمع (يوقنا) خبر الصلح اضطرب جيشه وارتد على عقبه .

ثم ان ابا عبيدة لما ابطأ عليه خبر كعب نهض بعسكره الذي لا يزيد عن خمسة آلاف رجل يريد حلب وعلى المقدمة سيف الاسلام القائد المغوار خالد بن الوليد فرأوا يوقنا وجنوده وقد احدقوا بأهل البلد يريدون قتلهم وهم يقولون ويلكم صالحتم العرب ونصرتموهم علينا .

ثم أدخل يوقنا عبيدة ورجاله على اهل البلدة يقتلونهم على فرشهم وابواب منازلهم ، فنظر يوحنا من القلعة ورأى القتل في اهله فعارض اخاه يوقنا فلم يفعل فأغلظ له الكلام فلم يفعل وغضب عليه وقتله ، وكانت رايات العرب قد أشرفت عليهم .

ولما سمع خالد بن الوليد ضجيج السكان وبكاءهم قال لابي عبيدة هلك أهل ذمتك ، وحمل على جماعة يوقنا حملة مضرية ، فلم ينج منهم سوى القليل ، ولجأ الى القلعة ودخل الجيش الفاتح حلب (من باب انطاكية) وحفوا حولهم بالتراس داخل الباب وبنوا ذلك المكان مسجداً .

وكان يوقنا قد تحصن بالقلعة مع شرذمة من جنده واستعدوا للحصار ونصب المجانيق ونشر السلاح على الاسوار .

ثم ان خالداً وابا عبيدة سألا عن يوقنا فأخبرا بشأنه مع اخيه يوحنا، وانه قتله والقاه في رأس سوق الساعة (محلة سوق الضرب[1]) فكفنه ابو عبيدة وصلى عليه ودفنه في مقام ابراهيم (مقبرة الصالحين).

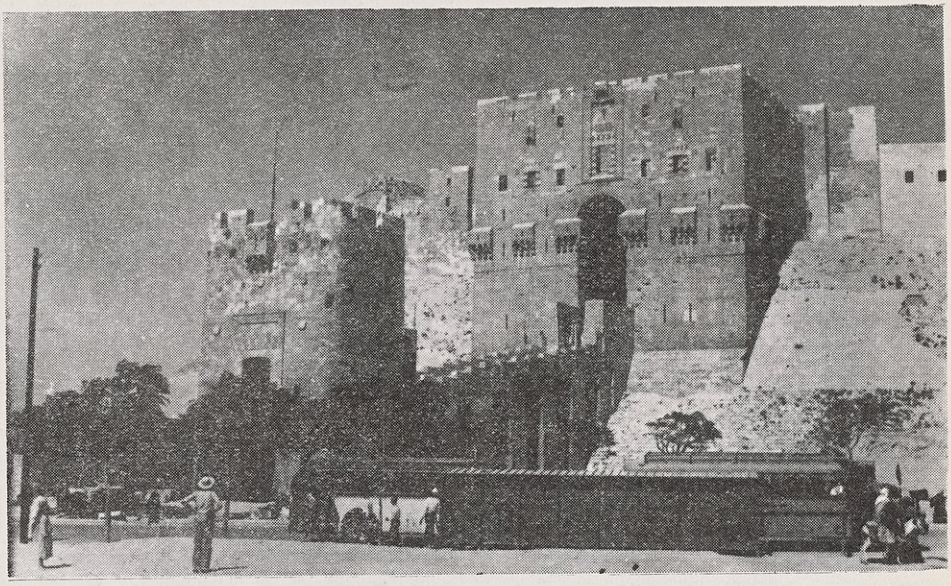

(٤) قلعة حلب

ثم ان العرب جدوا في حصار القلعة وشنت غاراتهم في بقية البلاد الى الفرات، ثم زحفوا الى القلعة فلم يفوزوا منها بطائل لحصانتها، وصادف الروم ثغرة فهجموا على العرب ووضعوا السيف فيهم.

ثم جدّ العرب في قتالهم فدحروا الروم واقتطعوا منهم مائتي رومي، ثم خرج علافة العرب الى وادي بطنان[2] ليأخذوا الميرة منه وقد صالحهم اهله فالتقوا

---

(١) ويسمى الآن «سوق الزرب».

(٢) وادي بطنان: اسم واد بين حلب ومنبج بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة، فيها انهار جارية وقرى متصلة أهمها «بزاعة» لا تزال موجودة. (مجلد ١، صحيفة ٢١٨ - من معجم البلدان)..

بجيش يوقنا ، وكان الف فارس قرب الصبح ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً وقتل من العرب ثلاثون رجلاً كلهم من طيء ، وانهزم الباقون وملكت الروم اثقالهم ومواشيهم ، ثم عفروا المواشي وكمنوا في الجبل خوفاً من جيش العرب وقد عزموا على الرجوع الى القلعة ليلاً .

ولما رجع العرب الى ابي عبيدة واخبروه بما جرى سيّر لقتال الروم الكامنين خالداً ومعه بعض رجال صناديد ، فسار اليهم وكمن لهم حتى خرجوا من مكمنهم في اوائل الليل ، فانقضّ عليهم خالد انقضاض الصاعقة فدهشوا وولوا الادبار منهزمين . وغنم العرب جميع اثقالهم ورجعوا الى ابي عبيدة ، وقد انتبه الى مكايد الروم وسدّ عليهم المسالك حول القلعة ، حتى لو طار طائر لاقتنصوه .

وأقام القوم على ذلك مدة حتى ضجر ابو عبيدة وكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بالخبر ويستأذنه بالانصراف عن قلعة حلب ، لصعوبة مأخذها وقلة العسكر .

فبعث اليه عمر عصبة من حضرموت وأقاصي اليمن ، من همدان ، ومدان ، ومآرب ، وسبا ، زهاء اربعمائة فارس وثلاثمائة مطية مردوفين ، ومائة واربعين ماشياً واخذ لهم من مال الصدقات سبعين بعيراً ليتعقبوا عليها ، وكتب اليه ينهاه عن الانصراف وترك القلعة او تسلّم اليه ، وان يبث الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة واكناف الجبال والاودية (اي ان يضع المخافر والحرس ويضرب الحصار المحكم) ويشن الغارات في حدود الغارات ، ويصالح من صالحه ، ويسالم من يسالمه .

وكان من جملة من ارسل الخليفة مولى من موالي بني طريف من ملوك كندة يقال له (دامس) ويكنّى « ابا الاهوال » كان اسود بصاصاً كالنخلة السحوقة اذا ركب الفرس العالي تخط رجلاه بالارض ، وكان شجاعاً قوياً ذا حيلة بارعة ، فطلب من ابي عبيدة ان يؤمره على ثلاثين فارساً فأمره ، وقال دامس لابي عبيدة ترحل انت بجيشك على فرسخ منا ، وتأمر جماعتك بقلة الحركة والاستتار ما

استطاعوا ويكون لك رجال ثقاة يتجسسون عن اخبارنا فاذا بشروك بظهورنا على اعدائنا تلحق بنا .

فأجابه ابو عبيدة الى ما طلب وأقرّه على خطته ، ونهض دامس لوقته بجيشه وسار مسافة فرسخ كأنه يريد الانصراف وفك الحصار ، ونهض دامس بجماعته وأتوا كهفاً في الجبل وكمنوا فيه . ففرح الروم وظنوا ان العرب انصرفوا عن قتالهم وارادوا ان ينزلوا من القلعة ويتبعوا الجيش فنهاهم يوقنا .

ولما أمسى الليل وحلك الظلام ، عمد دامس الى جلد ماعز وألقاه على ظهره واخرج كعكاً يابساً وقال لاصحابه اتبعوني ، فسار نحو القلعة واطار رجلين الى عبيدة ليبعث لهم الخيل عند طلوع الفجر .

وتسلق دامس ومن معه صاعدين الى الجبل تحت الظلام يمشي على اربع ، وكلما احس بشيء قرص الكعك كأنه يقرص عظماً واصحابه من ورائه يقفون اثره حتى لاصقوا السور .

وكان الظلام شديداً ، فأتى من السور مكاناً قريباً قد نام حرسه واختار سبعة من رجاله اقوياء وجلس القرفصاء وامر احدهم ان يجلس على منكبيه ويعتمد بقوته على الجدار ففعل ، وأمر الثاني ان يفعل مثله ، وما زال يصعد واحداً بعد واحد الى ان صعد الثامن ، فأمر ان يستوي قائماً ثم أمر الثاني من تحته واحداً بعد واحد الى ان قام هو فاذا الثامن قد وصل الى شرافة السور فتعلق بها واستولى على السور ، فوجد حارس ذلك المكان نائماً ثملاً فرماه الى اصحابه ثم ادلى عمامته لصاحبه ونشله اليه ثم حذف دامس لهما حبلاً وجعلوا ينشلون بعضهم الى ان تكاملوا على السور وكان آخرهم دامس فاستبقاهم مكانهم وقصد باب القلعة فرأى الحرس سكارى نائمين ، ففتح البابين وتركهما مردودين وعاد الى اصحابه وقد قرب الفجر ، فأقام خمسة على الباب وارسل واحداً يستعجل خالداً ، ومشى بالباقين نحو دار يوقنا فصاحوا وجاءتهم الابطال ، وصاح يوقنا بأصحابه فأتوا من كل جانب ، وقاتلوا قتالاً شديداً فلم يفدهم ذلك شيئاً .

واشتبك الفريقان ببعضهما ، وبينما هم في هذه المعمعة اذ دخل عليهم خالد ابن الوليد في جيشه وحينئذ طلبت الروم الأمان وكان قد وصل اليهم أبو عبيدة فآمنهم ، واستسلم يوقنا وجماعة من ساداتهم فـردّ عليهم أموالهم وأهاليهم واستبقى الفلاحين وأخذ عليهم العهود ألا يكونوا الا مثل أهل الصلح والجزية ، وأخرجهم من القلعة وغنم العرب منها مالا يحصى من الأرزاق والعتاد والسلاح ، وأخذ الناس في حديث (دامس) وحيله وعجائبه وعالجوا جراحه الكثيرة حتى برئت » .

هذا ما كان من قصة فتح حلب ، وهي من الأحـداث التي تقص علينا ما كانت عليه الخلافة من اطلاع ومعـرفة ، وما كان عليه العرب من طاعة وايمان ، وشجاعة وتحمل وصبر وتضحية ، وما كان عليه الجيش من قوة وتدبير وحسن قيادة ، وتدلنا على أن الكثرة في الحرب لاقيمة لهـا بالنسبة للايمان مع القلة ، وترينا ما كان عليه خالد من معرفة في حيل الحرب وخطط التعبئة والبراعة في القيادة ، وما كان يتحلى به من شجاعة وأخلاق سامية ، وتفصح لنا على أن سياسته في الحرب كانت سياسة المفاجئة وانهاك قوى العـدو وكسر معنوياته بالاغارة تلو الاغارة ، وعدم التفريط بقوى الجيش ، وانتهاز الفرص لضرب العـدو الضربة القـاضية .

وهذا ما كان من اهم الاحداث ، وبعدها نعود الى عرض ما يتعلق بالدولة الحمدانية وبسيف الدولة .

كيف ظهرت دولة بني حمدان وما كان عليه سيف الدولة في حلب ؟

كان امير الامراء عند الخليفة العباسي المتقي احد اولاد ابن حمدان التغلبي . واسمه (ناصر الدولة بن حمدان) وهو أخو سيف الدولة ، فقلد ناصر الدولة المذكور ديار مصر لعلي بن خلف وانفذ معه عسكراً وكتب الى يانس المؤنسي ان يعاضده ، وكان هذا والياً على ديار مصر من قبل ناصر الدولة ، فسارا الى احمد بن مقاتل ومزاحم وانتصرا عليهما في وادي بطنان وملكا منهما حلب .

ثم ان علياً بن خلف سار الى الاخشيد وصار وزيراً عنده ، ثم عتـا عليه

فاعتقله الاخشيد ومات في حبسه ، وبقي يانس المؤنسي والياً على حلب سنة ٣٣١ واتفق مع الاخشيد ودعا له على المنابر ، وفي هذه السنة وصل الروم الى حلب ، ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا خمسة عشر الف نسمة .

وفي عام ٣٣١ تقرر بين « تورون » احد قواد الخليفة العباسي ، وبين ناصر الدولة بن حمدان ان يكون « لتورون » اعمال البصرة وما اليها ، ولناصر الدولة ابن حمدان الموصل واعمال الشام .

فاستعمل ناصر الدولة على طريق الفرات ، وديار مصر ، وجند قنسرين ، والعواصم ، وحمص ابن عمه ابي عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان ، فأقبل هذا من الموصل فاحتلّ الرقة ثم سار الى حلب ، فحارب واليها يانس المؤنسي واحمد بن العباس الكلابي ، وكانا من قبل الاخشيد ، واستولى ابو عبدالله على هذه البلاد واقام في حلب .

وفي عام ٣٣٢ جاء الاخشيد ابو بكر الى حلب فجفل منه ابو عبدالله لضعفه ، وانتقل الى الرقة .

وفي عام ٣٣٣ قدم سيف الدولة الى حلب برضاء اخيه ناصر الدولة فاستولى عليها ، وفيها غزا سيف الدولة ارض الروم فهتك بلد الصفصاف وعرسوس ، وغنم وعاد .

وفي هذا العام ما كاد سيف الدولة يستقر في حلب بعد عودته من غزو ارض الروم حتى بلغه زحف جيوش الاخشيد على حلب مع قائده كافور ويانس المؤنسي ، فبدرهما سيف الدولة وهما في الرستن واوقع بهما وبعساكرهما ، واسر منهم اربعة آلاف شخص وغنم جميع ما معهما ثم اطلق الاسرى وتوجه الى دمشق فأخذها ، ثم توجه منها الى الاعراب ، اي القبائل البدوية .

ولما عاد الى دمشق منعه اهلها من الدخول ، فبلغ الاخشيد ذلك فزحف بجيشه وقصد سيف الدولة فارتجع عن لقائه لقلة عسكره ، ثم تواقعا بأرض قنسرين ودارت الدائرة على سيف الدولة والتجأ الى الرقة ودخل الاخشيد حلب ، وعاث

اصحابه في نواحيها نهباً وقتلاً ، وقطعوا الاشجار وبالغوا بايذاء الناس لميلهم الى سيف الدولة .

ثم تصالح سيف الدولة في عام ٣٣٤ مع الاخشيد ، فكانت حلب لسيف الدولة ودمشق للاخشيد ، ثم اغتنم فرصة خلوّ دمشق من الحامية لانسحاب جيوش الاخشيد منها فتوجه اليها واستولى عليها .

ومنذ ذلك الحين حتى وفاته في عام ٣٥٦ هجرية (١)، لم يقتصر على غزو الروم اربعين مرة ، بل كان يحارب المؤامرات والدسائس خارج البلاد وداخلها وكان بعضها من الروم ، وبعضها من الفاطميين وامراء البلاد ، وبعضها من سلاطين بغداد وخلفائها ، وبعضها من الاعراب ، اي من قبائل البدو الموجودة في بادية الشام ومدنها .

ورغم كل ما قاساه في حروبه وما لاقاه من ضروب المقاومة ، بقي سيف الدولة حصناً حصيناً يذب عن بلاد العرب هجمات البيزنطيين ، ويرد مطامعهم أيام كانت الخلافة العباسيه ينخر في جسمها سوس الفتن ، ويتصرّف بمقدراتها الاعاجم من السلجوقيين والفرس ، حتى اصبح الخلفاء ملوكاً يملكون ولا يحكمون ، يسكنون القصور وتتلى الخطب على المنابر بأسمائهم ولكن ليس لهم من الامر شيئاً .

دخل حلب وعمره ثلاثون سنة ، وعاش فيها اربعة وعشرون عاماً ، وهو يحارب ويناضل ويعمل ليجعل من بلاده وقومه دولة قوية مستقلة عربية ناهضة ، تمثل حضارة بغداد والقاهرة وغرناطة ، وكان له ما اراد بعبقريته الفذّة وشخصيته الجبارة ، وعقله الوثاب ، وخلقه البناء .

شخصية سيف الدولة وما قال عنه المنصفون من المؤرخين :

يقول الثعالبي في يتيمة الدهر عن بني حمدان : « كانوا ملوكاً ، أوجههم

---

(١) توفي وعمره ٥٣ سنة لأن مولده في ٣٠٣ ووفاته في ٣٥٦ ، ولد في ميافارقين ودفن فيها عند امه . وميافارقين بلدة تقع في الشمال الشرقي من دياربكر (آمد) على بعد ٧٠ كيلومتراً ، وهي مركز لقضاء سلوان قائمة على نهر (بطمان) الذي ينصب في دجلة .

للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وايديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة .

وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلادتهم ، وحضرته مقصود الوفود، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ومحط الرحال ، وموسم الادباء ، وحلبة الشعراء ، ويقال انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وانما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق لديها » .

وذكروا انه كان يقف على مائدته اربعة وعشرون طبيباً ، ويوجد في بلاطه أشعر شعراء الشام ، يغدق عليهم الهبات والنعم ، ويجري لهم الارزاق ويقربهم اليه ، ويتناشد معهم الشعر والادب والعلم والاخبار . وكان خطيبه ابن نباته الفارقي ، ومعلمه ابن خالويه ، ومطربه الفارابي ، وطباخه كشاجم ، وخزان كتبه الخالديين (١) والصنوبري ، ومداحه المتنبي والسلامي ، والوأواء الدمشقي ، والببغاء والنامي ، وابن نباته السعدي وغيرهم .

ويقول كرد علي في عام ١٩٢٣ بحق سيف الدولة :

« ان لكل قرن من قرون العز في العرب نابغة او نوابغ من الملوك والامراء ومثلهم من العلماء والادباء » .

وقد امتاز القرن الرابع في بلاد الشام بقيام بني حمدان فيه ورئيسهم سيف الدولة بن حمدان ، استولى على القسم الشمالي منه والدولة العباسية قد اخذت تتناولها ملوك الاطراف وامراؤها في العراق ومصر والشام والجزيرة .

« رسخت بسيف الدولة اقدام بني حمدان في هذه الديار ، واتخذ حلب عاصمة لدولته ، وكانت مملكته عبارة عن جند حمص ، وجند قنسرين ، والثغور الشامية، والجزيرة ، وديار مضر ، وديار بكر . ولما تمّ له الامر أخذ يبني الدور والقصور والمكاتب والجوامع ، ويظهر من الابهة ما كاد يعجز عنه الخلفاء العباسيون في بغداد ، والامويون في الاندلس ، والفاطميون في القاهرة .

---

(١) الخالديين : ابو بكر وابو عثمان وكانا من شعراء ابن حمدان وعلى خزانته .

« وكانت له ميزتان قلّ أن يكتبا لغيره وهما نهضة الأدب في هذه البلاد ، ودفع عادية الروم عنها ، ولولاه لعاد اليهم سلطانهم بعد أن تقلص ثلاثة قرون ونصف .

« نعم كان سيف الدولة معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ مفرطاً في السخاء ، ولكنه كان شديد البصر والأناة ، شريفاً في خلقه ومعاملاته ، محباً للعلم ، أديباً وشاعراً ، مكرماً للعلماء ، عطوفاً على جنده وشعبه .

« قام بالنهضة الأدبية الفريدة وقد كاد القرن الثالث في الشام أن يخلو من الشعراء والأدباء لأنهم قصدوا بغداد وبقيت الشام بمعزل ، ولم ينبغ في هذا العصر غير رجال الحديث والمغازي والفقه ، وضعف الأدب حتى أخذ بيده سيف الدولة وبالمشتغلين به ، فكأن القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذي صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الأدب العربي أحسن شرح ، وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام ، وأبو الطيب ، وأبو عبادة البحتري ، واليهم انتهت الزعامة في الاجادة .

« ان بلادنا بلاد الشعراء ، والشعر كان مبدأ دخول العرب في الحضارة ، لم يحرصوا على شيء حرصهم عليه ، روايته ودرايته . وأشد ما يكون الشعراء كثرة في أرض صح اقليمها واعتدل نسيمها ، وطابت تربتها وأديمها ، وصفت امواهها ، وساغ نميرها ، وكثرت ظلالها بأشجارها ، وغرّدت اطيارها في اسحارها .

« وهذه الحالة على حصة موفورة في القطر الذي يتاخم جزيرة العرب وشمالها ، فكان شعراء الشام وما يقاربها اشعر من شعراء العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام .

« والسبب في تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما اهل الحجاز ، وبعدهم عن ديار العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم .

« واذا اضيفت الى هذه الاسباب الطبيعية اسباب اخرى من تنشيط ملك او حكومة ، واعجاب أمة بعمل الشاعر والكاتب ، وعلم العالم ، تفتحت القرائح

وتجلى نبوغ الافراد في اجمل مظاهره ، كما جرى في ايام سيف الدولة الذي يشبه بكثير من الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا .

« هذا مع اعتبار الفارق بين العصرين ، فان ابن القرن التاسع لا يتأتى ان يكون مثل ابن القرن التاسع عشر . وابن غربي آسيا لا يصح بحال من الاحوال ان يشبه ابن غربي اوروبا ، ولكن الرجال قد يتشابهون على كل حال، ووجه الشبه ظاهر بين الملكين ، ولا سيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب . ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال في نموّ وعلوّ ، وعمل سيف الدولة زال ويا للاسف بزواله ، وهذا اهم فرق بين هذا الشرق وذاك الغرب .

« هناك يتسلسل الفكر قروناً ، وهنا ينقطع ويتحوّل . هنالك تتناوله الجماعات بعد الافراد فتحسنه وتزيد فيه ، وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير تذكاره . فعاش الشرق بالفرد وعاش الغرب بالجماعة » .

والخلاصة ان سيف الدولة اورثنا شعره وأدبه وشعراءه الخالدين ، وكان من اهم شعرائه وادبائه (ابو الطيب المتنبي ، وابو فراس الحمداني ، والصنوبري ، والخالديين ، وكشاجم ، والنامي ، والسلامي ، والوأواء الدمشقي ، والببغاء ، وابن نباته السعدي وغيرهم . وهم اورثوه مجداً لا يبلى على مرّ الدهر .

آثار سيف الدولة ـ مشهد الحسين ومشهد المحسّن ـ ما كانت عليه وما هي عليه في الحال :

هذا موجز ما يقال عن الحمدانيين وسيف الدولة . اما آثاره الباقية البارزة ، فهي المشهد المشهور بمشهد الحسين ، والمشهد الثاني المشهور بمشهد المحسّن (١).

(١) ان مابين مقام الحسين ومقام المحسن /٣٠٠/ متر .

ويقول الحافظ الذهبي في كتابه (تاريخ الاسلام) انه كان بجامع حلب خزانة كتب . وكان فيها عشرة آلاف مجلد من وقف سيف الدولة بن حمدان . وفي عام (٤٦٠) احرقها الاسماعيليون واخذوا خازن الكتب (ابو الحسن ثابت بن اسلم) احد علماء الشيعة الى مصر وصلبوه لأنه الف كتاباً كشف فيه عوارهم وابتداء دعوتهم .

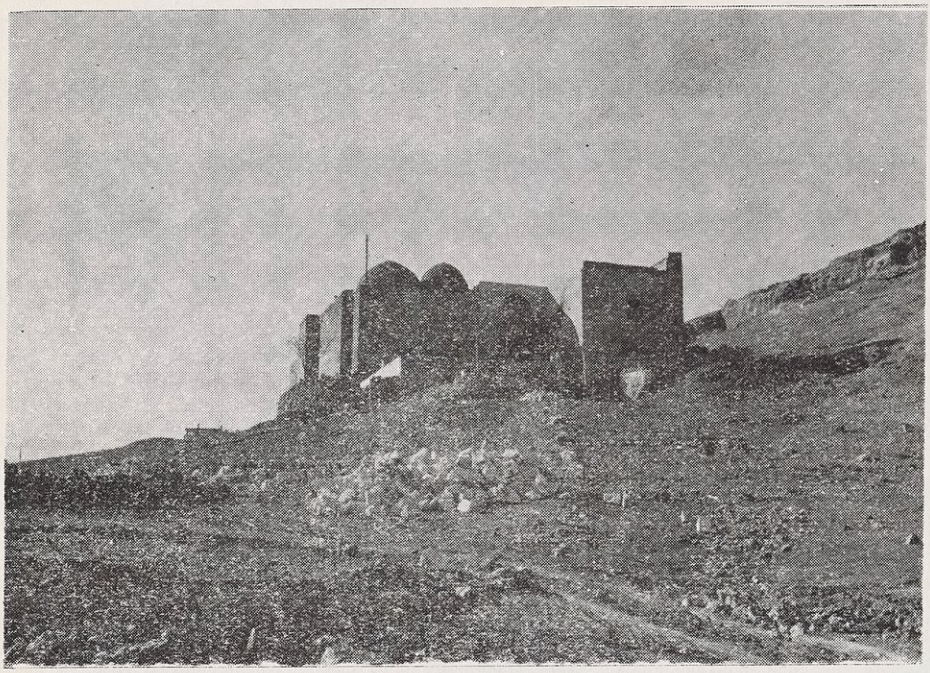

(٥) صورة مشهد الامام الحسيّن

ومن آثاره الباقية الجامع الموجـود في مقام ابراهيم في الصالحين ، وباب انطاكية واسواره قبل أن ينهدم ، وبعض الكتابات على الاسوار التي رممها . وقد يكون له آثار عمرانية أخرى أتى الدهر عليها كما أتى على قصوره ودوره بسبب الحروب التي لم تنقطع بين العرب ، والروم ، والصليبيين ، والأعاجم في زمنه وبعد زمنه ، وفي عام ٣٥١ رمم الجامع الأموي وأعاده ، ورمم أسوار المدينة بعد أن أحرقها الروم .

مشهد الحسين ، موقعه ، ومتى بني ، وماذا جرى له في آخر الايام :

يقول الشيخ كامل الغزي في تاريخه مجلد / ٢ / صحيفة / ٣٧٨ / :

« فأما مشهد الحسين فيعرف بمشهد النقطة وهو في سفح جبل الجوشن » .

وعن يحيي بن طي في تاريخه :

« ان راعياً يسمى عبدالله يسكن في درب المغاربة ، كان يخرج كل يوم يرعى غنمه ، فاتفق يوماً بعد صلاة الظهر أن نام في المكان الذي بني فيه المشهد فرأى في نومه كأن رجلاً خرج من شقيف الجبل المطلّ على المكان ومدّ يده الى اسفل الوادي وأخذ عنزاً ، فقال له يا مولاي لأي شيء اخذت العنز وليست لك ؟

فأجابه : قل لأهل حلب ان يعمروا في هذا المكان مشهداً ويسموه مشهد الحسين .
فقال له انهم لا يرجعون الى قولي ، فقال : قل لهم ان يحفروا هناك . ورمى بالعنز من يده الى المكان الذي اشار اليه .

فاستيقظ الراعي ورأى العنز قد غاصت قوائمها في المكان ، فجذبها وظهر الماء من المكان ، ثم دخل حلب ووقف على الجامع القبلي وحدث بما رأى فخرج جماعة من اهل البلد وخطوا المشهد المذكور » .

قال ابن ابي طي : وبمقتضى هذه الحكاية يكون هذا المكان هو المشهد المشهور بمشهد النقطة ، وهو قبلي المشهد المعروف بمشهد الامام محسّن وهو الى الخراب اقرب ، واما مشهد الحسين فهو عامر آهل مسكون .

قال وتولى عمارته ، أي بعد سيف الدولة ، الحاج ابو النصر بن الطباخ ، وكان ذلك ايام الملك الصالح بن الملك العادل نور الدين .

وكان الامير محمود بن الختلو اذ ذاك شحنة حلب فساعدهم على بنائه ، ولما شرعوا في البناء جاء الحائط قصيراً فلم يرض بذلك الشيخ ابراهيم بن شداد وعلاّه من ماله ، وتعاضد الناس في البناء ، فكان أهل كل حرفة يفرض على نفسه عمل يوم ، وفرض اهل الاسواق عليهم دراهم تصرف في المؤن والكلف ، وبنى الايوان الذي في الصدر الحاج ابو غانم بن سويق من ماله فجاء قصيراً فهدمه الرئيس صفي الدين طارو بن علي النابلسي ورفع بناءه وانتهت عمارته في عام ٥٨٥ .

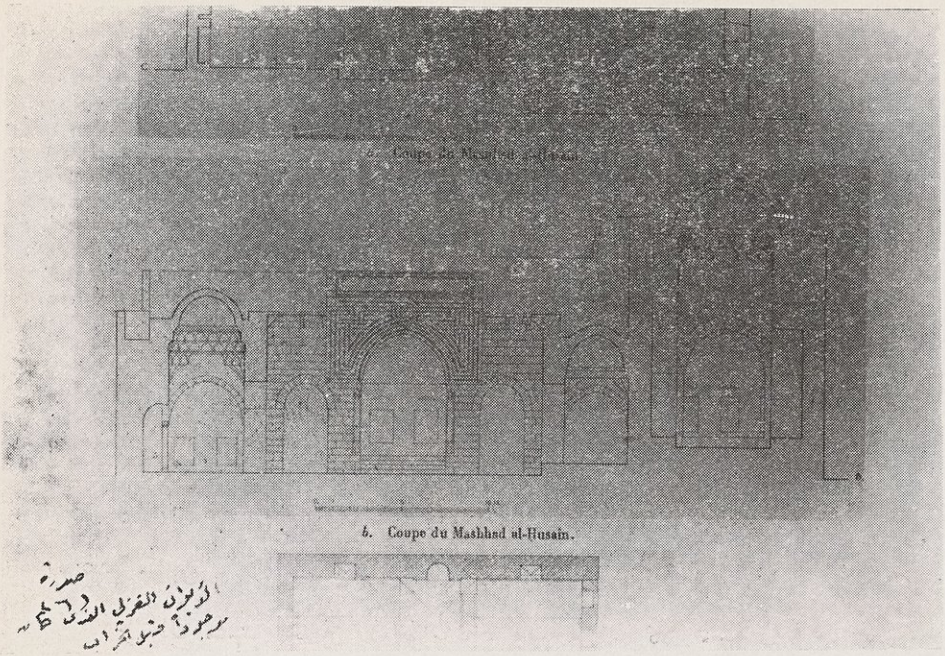

(٦) الايوان الغربي

ولما ملك الظاهر غازي حلب اهتم به ووقف عليه رحى تعرف بالكاملية ، وفوّض النظر فيه الى نقيب الاشراف الامام شمس الدين بن ابي علي الحسين ، والقاضي بهاء الدين بن ابي محمد الحسن بن ابراهيم الخشاب .

ولما ملك ولده العزيز استأذنه القاضي بهاء الدين في ابتناء الحرم الى جانبه وبيوت يأوي اليها من انقطع الى هذا المشهد للعبادة ، فأذن له وشرع ببنائه ، واستولى التتار على حلب قبل ان يتم ودخلوا الى هذا المشهد ، ونهبوا كما هي عادتهم ، ما كان الناس قد وضعوا عليه من الستور ، والبسط ، والفرش ، والاواني النحاسية ، والقناديل الذهب والفضة والشمع ، وكان شيئاً كثيراً ، وشعثوا بناءه ونقضوا ابوابه (١) .

---

(١) فعل مثل ذلك الأتراك بالحرم النبوي والكعبة المشرفة في الحرب العامة سنة ١٩١٦ فنهبوا ما في الحرم النبوي من تحف وجواهر وقناديل ذهب وشمعدانات ذهب وكتب مخطوطة أثرية وأخذوا الجوهرة المشهورة المسماة (جوهركو) وكانت معلقة فوق رأس الضريح النبوي وأخذوا مزراب الكعبة ومفتاحها وبابها وكلها من الذهب ونقلوها الى متحف طولمه باغجه ولا تزال هنالك شاهدة على عملهم الاثيم .

ولما ملك الظاهر جدّد البناء ورمّمه .

ويقول الشيخ كامل الغزي رحمه الله : والذي فهمته من عبارة ابن أبي طي على ما فيها من الاضطراب أن المشهد الذي نسميه الآن بالشيخ محسن هـو مشهد الدكة ، وأن الذي نسميه المشهد هو مشهد الحسين ، يؤيد هذا الكتابة الموجودة في صدر الايوان وهي : / ١١٢ / صورة .

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

أمر بعمل هذا الايوان المبارك العبد الفقير اليه تعالى أبو غانم بن الفضل عيسى البزاز رحمه الله وذلك في شهور سنة ٥٨٩ » .

فهذه العبارة ربما تؤيد قول ابن أبي طي ، وبنى الأيوان الذي في صدره الحاج ابو غانم سويق .

على ان مشهد الحسين لا ايوان له ، ومعلوم أن كلا المشهدين قائم على سفح جبل الجوشن بينهما مسافة غلوة ، فالقبلي منها مسجد الشيخ محسن ، والشمالي هو المشهد . ويؤخذ من كلام ابن أبي طي أنه كان يوجد بينهما مشهد آخر يعرف بمشهد النقطة وهو مما لا أثر له .

قلت ـ اي الشيخ كامل ـ ذكر أن سبب بناء المشهد المسمى بالنقطة هو أن رأس الحسين لما وصلوا به الى هذا الجبل وضعوه على الارض فقطرت منه قطرة دم فوق صخرة بنى الحلبيون عليها هذا المشهد وسمي مشهد النقطة ، ولعل هذه الصخرة نقلت من هذا المشهد بعد خرابه الى محراب مشهد الحسين فبني عليها ، وكان هذا المشهد مهملاً ، ثم منذ نصف قرن أخذت تقام فيه يوم عاشوراء حفلة دينية تتلى فيها قصة المـــولد النبوي ويجلس على موائدها المدعوون من رجال الحكومة ورجال الدين ، والاعيان والوجهاء .

وفي عام ١٣٠٢ جددت فيه الجبهة الشمالية من القبلية ، وبعـد بضع سنين أهدى السلطان عبد الحميد ستاراً حريريا مزركشاً بآيات قرآنية وضع على المحراب وفرشت أرض قبليته بالطنافس الجميلة وجدد ترخيم أرض الصحن ورتب له امام ومؤذن وخادم وموظفون يقرأون كل يوم اجزاء شريفة .

(٧) مشهد الحسين بعد خرابه

وفي عام ١٣٣٧ حين دخول الفرنسيين الى حلب هجم على المشهد جماعة من رعاع الناس وغوغائهم ونهبوا ما فيه من الذخائر والسلاح ، وبينما كانوا يعالجون قنبلة لاستخراج ما فيها من البارود (وكان المشهد قد وضع فيه الأتراك الذخائر الحربية النارية بكثرة من ديناميت وبارود) واذ أورت ناراً وانفجرت وسرت منها النار بأسرع من لمح البصر الى غيرها من الأعتاد الموجودة المتفجرة فانفجرت جميعها انفجار بركان عظيم وزلزلت الارض وتهدم بنيان المشهد كله سوى قليل منه .

وكان في جبهة (١) ايوان هذا المشهد مكتوب « بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلي المرتضى ، وفاطمة الزهراء ، والحسن المجتبى ، والحسين الشهيد ، وعلي زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ولد الجواد ، وعلي الهادي والحسن العسكري ، ومولانا

---

(١) صورة رقم / ١١٨ / .

محمد بن الحسن القائم بأمر الله تعالى ». وعلى نجفة الباب الداخلي المؤدي الى الصحن :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عمر مشهد مولانا الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام في أيام دولة مولانا الملك الظاهر العالم العادل سلطان الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين أبي المظفر الغازي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب ناصر أمير المؤمنين سنة ٥٧٢ ».

وعلى دهليز الباب : « بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صل على محمد النبي وعلي الوصي ، والحسن المسموم ، والحسين الشهيد المظلوم ، وعلى زين العابدين ومحمد الباقر علم الدين ، وجعفر الصادق الأمين ، وموسى الكاظم الوفي ، وعلي طاهر الرضا ، ومحمد البر التقي ، وعلي الهادي النقي ، والحسن العسكري ، وصاحب الزمن الحجة المهدي ، واغفر لمن سعى في هذا المشهد بنفسه ورأيه وماله ».

وعلى نجفة الباب في ثلاثة أنصاف (٣) دوائر : « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم ، وارضى اللهم عن سيدنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وارض اللهم عن أصحاب رسول الله أجمعين ».

قال الشيخ كامل : والمفهوم مما كتب على جبهة الايوان وعلى دهليز الباب أن الساعين في بناء هذا المشهد من الشيعة الأمامية الاثنا عشرية مع أن البناء الذي بني أيام سيف الدولة قد هدم والذي أمر ببنائه مجدداً هو الملك الظاهر غازي الأيوبي السني . والمفهوم من قصة المشهد (مشهد النقطة) أنه كان بين مشهد الحسين ومشهد المحسن عين ماء في مكان مشهد النقطة المذكورة وقد غاض ماؤها وهي الآن لا أثر لها .

مشهد الحسين في الوقت الحاضر :

ان مشهد الامام حسين في وضعه الحاضر مهدوم وخـــراب ، وقد كنت أزوره قبل الحرب العامة وكان عامراً ، وكنا نقصده أيام عاشوراء للتبرك ، وفي غير أيام عاشوراء للنزهة في جواره . وكانت آثاره الهندسية داعية للاعجاب ، يقصده أهل الشيعة والسنة من عرب وأعجام وهنود ، ويأتونه للزيارة والتبرك في كل سنة من قريب وبعيد ، ويقصده الأجانب من علماء الآثار والتاريخ لتدوين مافيه ومافي الشهباء من كتابات وآثار ومبانٍ قديمة لها أهميتها في تاريخ حلب خاصة وفي تاريخ البلاد الشامية عامة .

(٨) بقايا الأحجار الساقطة من بنـاء الايوان

وكان المشهدان من أقـدم الآثار العربية التي حافـظت على بنيانها ومعالمها ،

وعلى ما فيها من نقوش وكتابات وكأن الحظ أسعدها فأرسل لها (اوبناهيم ، وارنست هرسفيلد ، والأستاذ محمد رجب) فزاروا حلب وبقوا فيها مدة يصورون ويرسمون كل ما تحويه حلب من جوامع ومعابد ومقـــامات وخانقاهات ورباطات ومدارس وابنية قديمة تعود لمختلف العهود والدول التي مرّت على حلب .

وكان مما حوته دراساتهم هذين المشهدين ومقبرة الصالحين ، فصوّروهـا ورسموا نقوشها وكتاباتها ونقلوها الى العربية والى ألسنتهم ، وطبعوا ذلك في كتب خاصة ، ومنها استطعنا تصور ما كان عليه المشهدان قبل حدوث الانفجار وخراب المشهد العظيم ، مشهد الامام حسين .

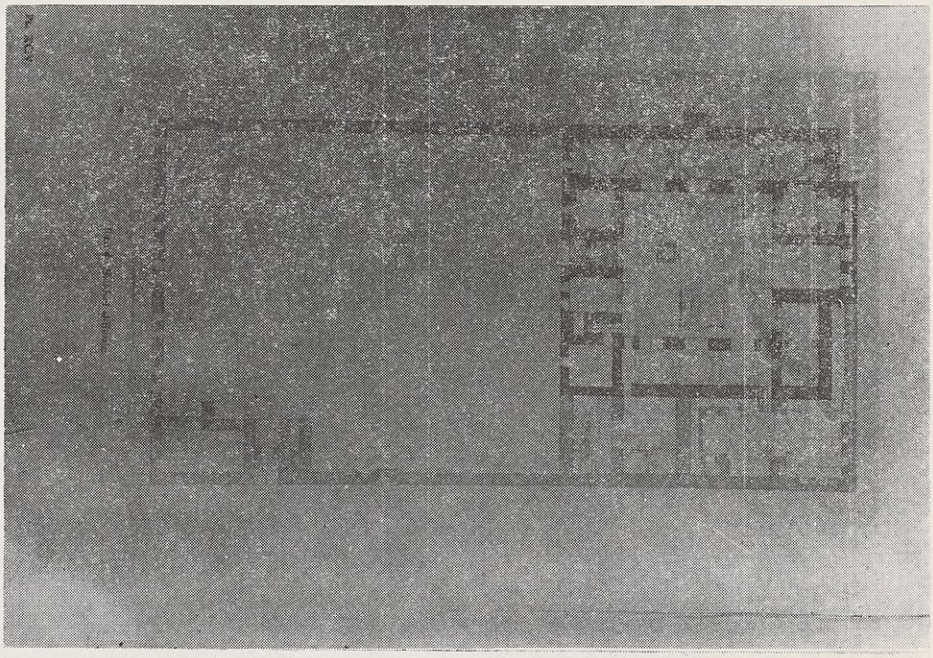

(٩) تصميم لمشهد الامام حسين (رض)

وفي الامس في عام ١٩٥٩ عندما زرت المشهد المذكور مع المصور ، وزرت مشهد المحسّن ومقام ابراهيم ، استطعنا تصوّر الفرق بين حالة المشهد الآن ، وما كان عليه قبل الحرب العالمية الاولى ، واستطعنا تصوّر ما كان عليه مقام المحسن

وما هو عليه دون تخريب ، وما هو عليه مقام ابراهيم وما فيه من جامع وآثار لم تعبث بها الايام .

واستطعنا مقابلة ما رأيناه في المحلات المذكورة وما عرفناه عنها وما شاهدناه في كتاب (هرسفيلد) من رسوم وكتابات بما كتبه المؤرخان الشيخ كامل الغزي والشيخ راغب الطباخ ، فتبين لنا توافق الطرفين على ما كانت عليه وما هي عليه هذه الاماكن .

اما مشهد الحسين فقد رأينا من سوء الحظ ان الانفجار قد هدم اكثر ما فيه ولم يبق منه الا بعض الجدران المهدّمة ، والقباب الممزقة ، والاحجار المبعثرة المكسرة ، وكان ما وجدناه جدار المحراب وقد تهدم منه الكثير ، ولكن معظم اجزاء المحراب بقيت قائمة وعلى جبهته نقوش هندسية وكتابة تقول : « صنعة ابي عبدالله وابي الرجاء بن يحيي الخزامي رحمهما الله » ، وهما اللذان صنعا محراب جامع السلطان المدفون فيه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين .

(٩) قنطرة المحراب والكتابة التي فوق خاتمه

ووجدنا أيضاً بقايا من جدران القاعة وقبتها العالية ، ودهاليزها ، والغرفة المجاورة لها ، والمطبخ والحمّام وبيوت الخلاء ، وكثيراً من الاحجار المرمية من الجهة الغربية من المشهد ، وعليها الكتابات القديمة .

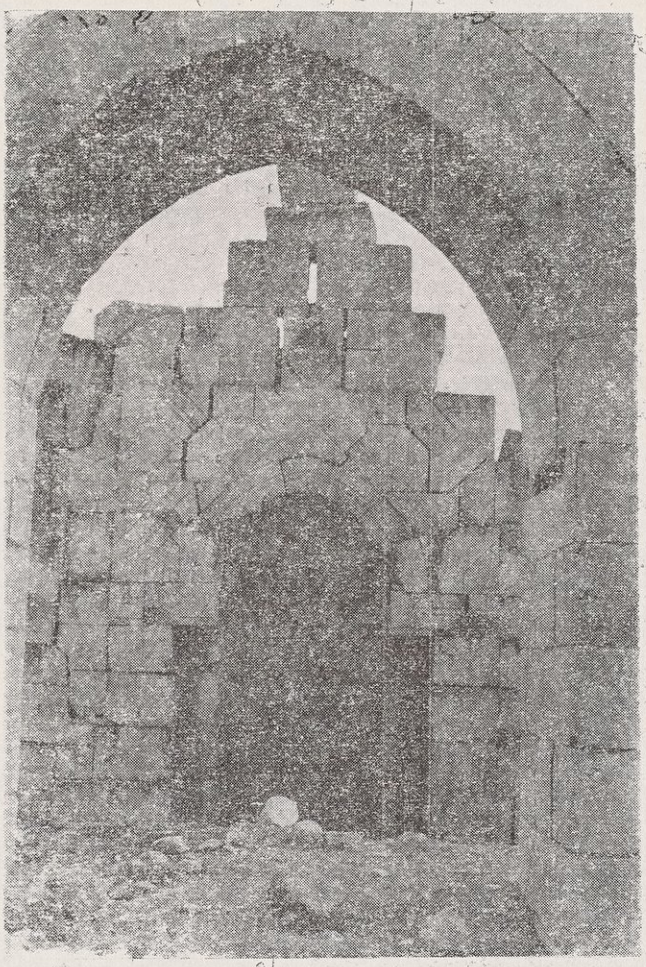

(١٠) بقايا الاحجار الساقطة من المحراب

ووجدنا ان معالم المدخل الى حرم المشهد ودهليزه وما كان على جانبيه من غرف قد تهدمت تماماً ، وتبعثرت الاتربة والحجارة في صحنه .

ووجدنا أعمدة المحراب مرمية وهي من المرمر الابيض .

وأما الحجر الذي وضع عليه الرأس الشريف ونقطت عليه نقطة الدم ، فقد سلم ونقل الى جامع الشيخ محسّن ، ووضع هنالك بجانب الضريح ، وهو قطعة صخرية صلدة مستطيلة من الرخام الابيض المعرّق بعروق حمراء شبيهة بالدم ، وسطح الصخرة أملس من توالي اللمس وغير مستوٍ بل فيه انخفاضات ونتوءات طبيعية ، حفظ وستر بقطعة مزركشة من الجوخ ، وهو ينتظر اهل الهمم والحمية لاعادة البناء ونقله الى حيث كان . ذكرى للامام صاحب المشهد

ومأساته ، وذكرى لبني حمدان ومن رمّم فيه وأحيا معالمه ، وذكرى للاحداث التي مرّت بديارنا وقومنـــا ، وما كنا لننساها لانها جزء من تراثنا القومي ، والقومية لا تنمو ولا تقوى ان نسينا أبطالها ، وقادتها ، وشهداءها ، وعلماءها ، ورجالاتها الذين خلدوا للاجيال هذه الذكريات .

مشهد الامام محسّن او كما يسميه العوام الشيخ محسّن :

اما هذا المشهد فيحوي ضريح الطرح محسّن بن الامام حسين بن الامام علي ابن ابي طالب ، ويعرف بمشهد الدكة (١) . ومشهد الطرح ، وهو عامر وواقع غربي حلب بينه وبين الأول / ٣٠٠ / متر وفي سفح جبل الجوشن من جهته الجنوبية ، سمي بهذا الاسم لأن سيف الدولة ابن حمدان كان له دكة على الجبل المطلّ على موضع المشهد يجلس عليها لينظر الى حلبة السباق ، وكانت تقام بين يديه هنالك من حين الى آخر .

وينقل الشيخ كامل الغزي في تاريخه عن ابن أبي طي ، ان مشهد الدكة ظهر في عام ٣٥١ ، وان سبب ظهوره هو ان سيف الدولة كان في احدى مناظره التي بداره خارج المدينة فرأى نوراً ينزل على مكان المشهد ، وتكرر ذلك فركب بنفسه الى ذلك المكان وحفر ووجد حجراً عليها كتابة (هـذا قبر المحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب) . فجمع سيف الدولة العلويين وسألهم هل كان للحسين ولد اسمه المحسّن ، فقال بعضهم ما بلغنا ذلك ، وانما بلغنا ان فاطمة كانت حاملاً فقال لها النبي (صلعم) في بطنك محسّن . فلما كان يوم البيعة هجموا على بيتها لاخراج علي للبيعة فأحدجت . (وفي صحة هذا نظر) .

وقال البعض الآخر ان سبي نساء الحسين لما مروا بهن على هذا المكان طرحت بعض نسائه هذا الولد ، وانا نروي عن آبائنا ان هذا المكان سمي بالجوشن لأن شمر ذي الجوشن نزل عليه بالسبي والرؤوس ، وكان بينهم زينب بنت الحسين وهي

---

(١) الدكة : الرابية أو الجبل الذليل . والدكة بفتح الدال ما استوى من الرمل ، او بناء مسلح اعلاه للجلوس يوضع عليه الكرسي . (القاموس) .

التي طرحت . فقال سيف الدولة « هذا الموضع قد أذن الله لي بأعماره فأنا اعمره على اسم اهل البيت » .

قال يحيي بن طي[1] : ولحقت هذا المشهد وعليه باب صغير وحجر أسود تحت قنطرته مكتوب عليها بخط اهل الكوفة كتابة عريضة :

« عمّر هذا المكان المشهد المبارك ابتغاء لوجه الله وقربة اليه على اسم مولانا الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، الامير الأجل سيف الدولة ابو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان سنة ٣٥١ » . أي بعد ثماني عشرة سنة من فتحه حلب وتوطيد دعائم دولته .

ثم قال : وفي أيام بني مرداس بنى المصنع الشمالي من المشهد ، ثم بنى قسيم الدولة آقسنقر سنة ٥٨٢ في ظاهره قبلي المشهد مصنعاً للماء وكتب عليه اسمه ، وبنى الحائط القبلي وكان قد وقع ووقف عليه (رحى جندبات) أي طاحون قرية جندبات ، وعمل للضريح طوقاً وعرائس من فضة وجعل عليها غشاء . ثم بنى نور الدين في صحنه صهريجاً وميضأة فيها بيوت كثيرة ينتفع بها المقيمون فيه . وهدم الرئيس صفي الدين طاروق بن علي النابلسي رئيس حلب المعروف بأبن طريره بابه الذي بناه سيف الدولة ورفعه وحسّنه .

ولما مات ولي الدين أبو القاسم علي رئيس حلب ، وهو ابن أخ صفي الدين المتقدم ذكره ، دفن الى جانب المصنع ونقض ايضاً باب المصنع الذي عليه اسم قسيم الدولة وبناه وكتب عليه اسمه وذلك في سنة ٦١٣ هـ .

---

(١) هو يحيي بن حميده الشهير بابن ابي طي ، آية الله الكبرى في العلوم والفنون والأدب ، والشعر والتاريخ ومعرفة اخبار الصحابة والعرب وغير ذلك ، ومن آثاره البديعة (اخبار الشعراء الشيعة) وكتاب تهذيب الاستيعاب في معرفة الاصحاب للقرطبي ، وتاريخ مصر ، ومختار تاريخ المغرب ، وكتاب حوادث الزمان (خمس مجلدات) ، وكتاب سلك النظام في تاريخ الشام (اربع مجلدات) وكتاب طبقات العلماء ، وعقود الجواهر في سيرة الملك الظاهر بيبرس التركي ، وكتاب (معادن الذهب في تاريخ حلب) ، وهو كتاب كبير الحجم وقد ذيله . وله كتاب كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين ، وكتاب مناقب الائمة الاثنى عشر ، وكانت وفاته رحمه الله عام ٦٣٠ هـ .
نقلاً عن كتاب اعلام النبلاء مجلد ٤ ص ٣٧٨

وكان في المكان المذكور بين الجبل والمشهد ضريح كبير ذكر أنه ضريح ابراهيم الممدوح المنتقل من العـراق الى حلب . ثم في ايام الملك الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب المتوفى عام ٦١٣ وقع الحائط الشمالي فأمر ببنائه . وفي أيام الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر المولود عام ٦٢٧ والمتوفى عام ٦٣٤ وقع الحائط القبلي فأمر ببنائه وعمل الروشن الدائر بقاعة الصحن .

ولما ملك التتار حلب قصدوا هذا المشهد ونهبوه أيضاً وأخذوا ما كان فيه من الأواني والبسط وخربوا الضريح والجدار ، ونقضوا الأبواب . فلما ملك الظاهر برقوق بن انص المتوفى عام ٨٠١ وكان متولياً على حلب مدة ست عشرة سنة أمر باصلاح المشهد ورممه وجعل فيه اماماً وقيماً ومؤذناً .

هذا ما كان في الماضي ، أما وضعه الحاضر فالمشهد محافظ على ما كان عليه من أيام برقوق ، ولما زرته وجدته سليماً من حيث البنيان غير معتنى به من حيث الاصلاح والفرش والتزيين .

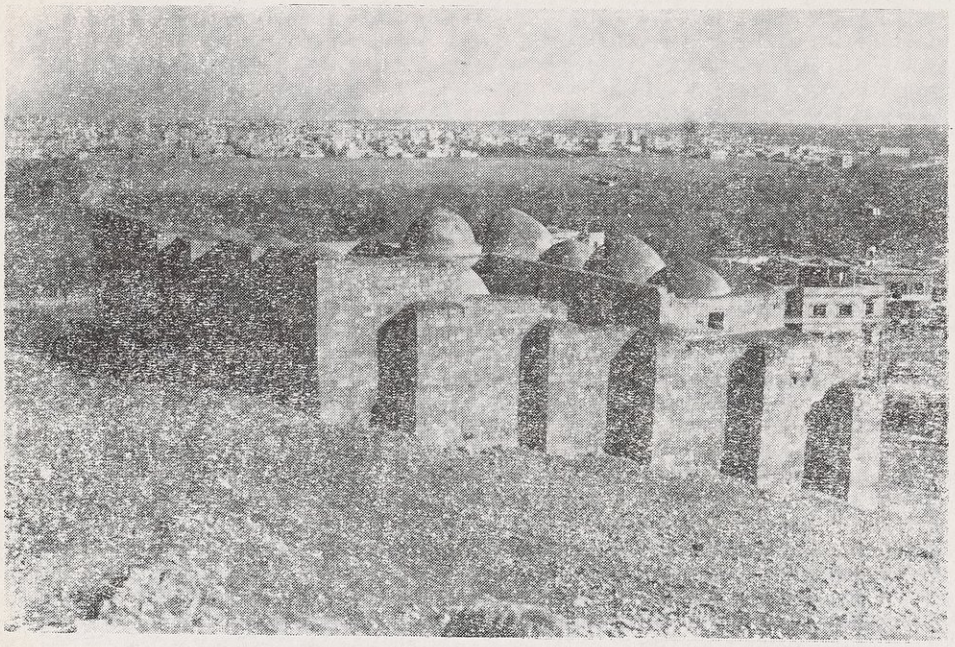

(١١) مشهد الامام محسن من الخارج ولا يزال عامراً

ووجدت على حائطه الموجه نحو الشرق الكتابة الآتية في اطار مربع وعلى حجر صلد وبالخط الكوفي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . في أيام مولانا الأمير الأسفن سلار السيد الكبير ، المالك العادل ، العالم المؤيد ، المنصور المظفر ، عماد الدين ركن الاسلام ، ظهير الامام ، نصير الأنام ، محي العدل ، قطب الخلافة ، قسيم الدولة ، ناصر الملّة ، جلال الأمة ، شرف الملوك ، عدة السلاطين ، قاهر المتمردين ، قامع الكفرة والمشركين ، زعيم المجاهدين ، معين الجيوش ، حافظ حوزة المسلمين ، شمس المعالي ، ملك أمراء المشرق والمغرب ، شهريار الشام والعراقين ، بهلوان جهان خسرو ايران آلب غازي آغ أرسلان ، ايدانج قتلغ طغرلتكين اتابك ، نصير المؤمنين أعزّ الله انصاره ، وعمل في محرم سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٧) » .

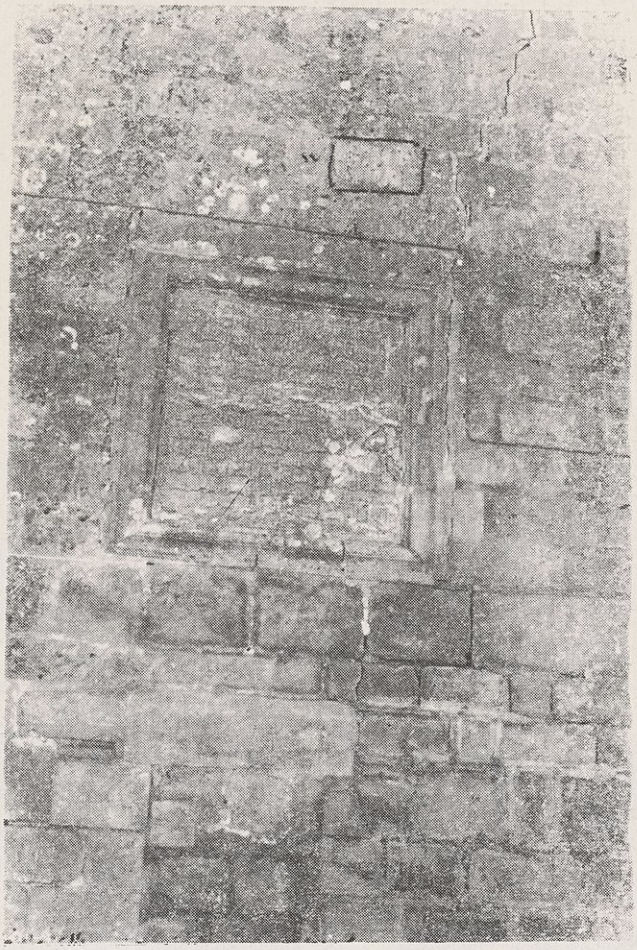

(١٢) اللوحة المكتوبة على الحائط الشرقي من جدار البناء ، وفوقها الكتابة الاخرى

ووجدت فوقها بقليل وبذات الجدار كتابة كوفية في اربعة اسطر

اطارها مستطيل نصها ما يأتي(١) :

« الملك العادل العالم المؤيد المظفر نور الدين . . تاج الملوك عدة السلاطين قاهر المتمردين . . . بهلوان جهان خسرو ايران أمير العراقيين شهريار ـ اتابك أبو القاسم محمود بن زنكي بن اقسنقر أمير المؤمنين . في ربيع الآخر سنه ٥٤١ » .

ووجدت في أعلى جبهته من الداخل في اطار مستطيل بالخط العربي المقروء ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم جدد عمارته في دولة مولانا ـ الظاهر غياث الدنيا والدنيا غازي بن الملك الناصر يوسف بن ايوب . . . الفقير الى رحمة الله طارق بن طريره بن يحيى » .

ثم وجدت تحت هذه الكتابة وفوق حجر الباب بقليل مستطيلاً مكتوباً فيه بالتركية انه جدد ورمم واصلح ايام السلطان عبد الحميد.

وبعد الدخول الى صحن المشهد وجدت فوق جدار القبلية مستطيلاً مكتوب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم

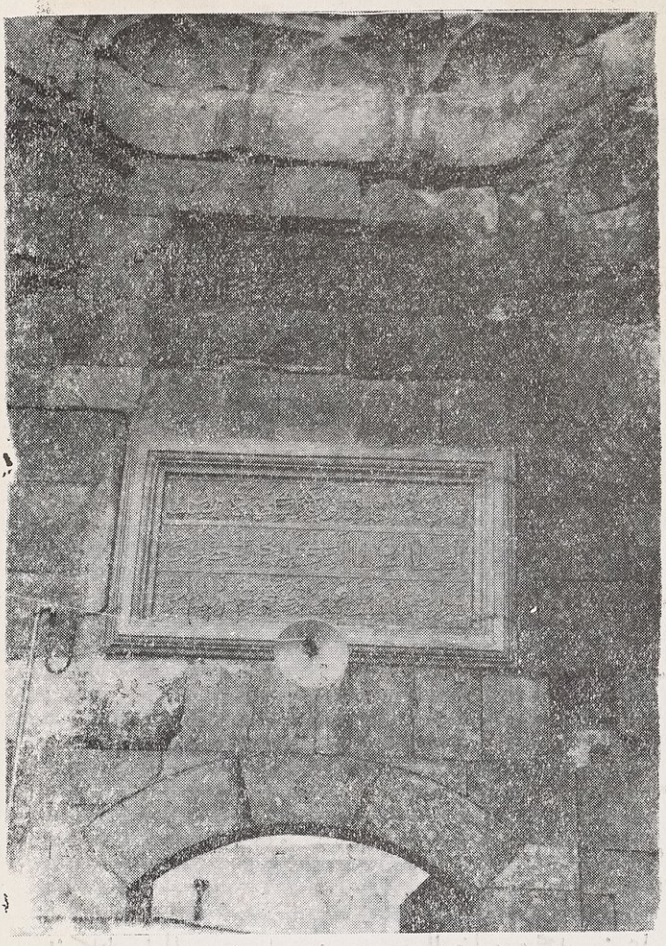

(١٣) مدخل الباب الى ساحة المشهد

(١) نقلا عن كتاب هرسفيلد مجلد ١ صحيفة ١٩٨ .

أمر بعمارة هذا الموضع المبارك مولانا السلطان ـ الملك الظاهر غياث الدنيا والدين أبو المظفر ـ الغازي بن يوسف خلد الله ملكه في ٩٠٦».

(١٤) ما كتب فوق حجر الباب ضمن مستطيل حجري

ووجدت على جبهة الرواق الشمالي مربعاً في ستة سطور بالخط العربي مكتوب فيه :

«اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلي المرتضى ، وفاطمة الزهراء ، وخديجة الكبرى ، والحسن المجتبي ، والحسين شهيد كربلاء ، وعلي بن الحسين زين العابدين ، ومحمد بن علي الباقر علم الدين ، وجعفر بن محمد الصادق الآمر ، وموسى بن جعفر الكاظم الحليم ، وعلي بن موسى الرضا ، ومحمد بن علي الجواد ، وعلي بن محمد الهادي ، وحسن بن علي ، ومحمد الحسن المصطفى ـ جدد في شهر سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٢) ».

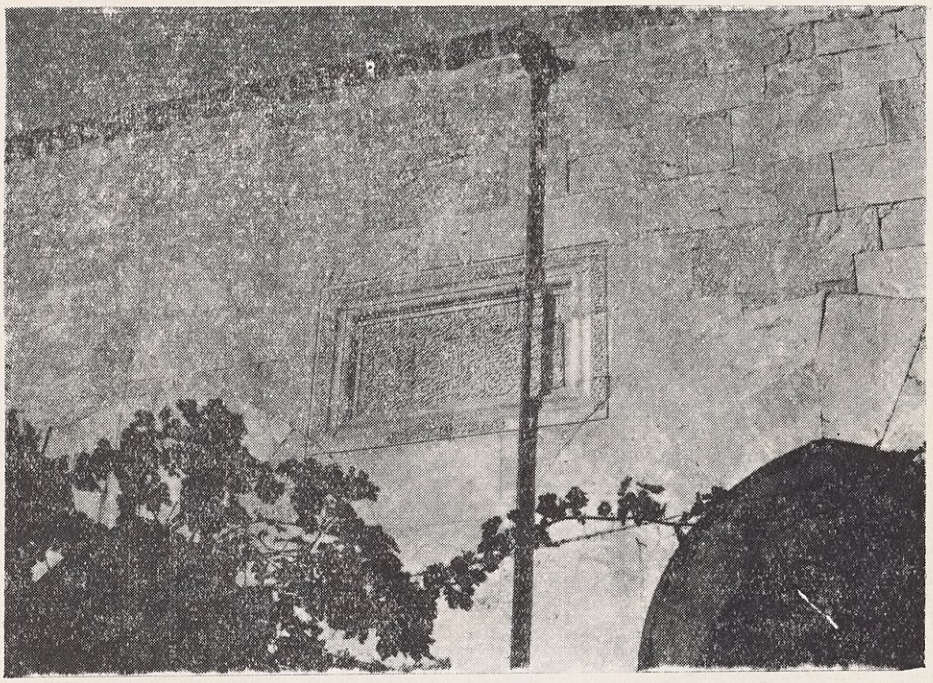

(١٥) اسماء اهل البيت والأئمة المطهرين

ولم نجد كتابات أخرى للقراءة ولكننا عندما زرنا ضريح الامام محسن الموضوع في الغرفة الكبيرة المجاورة للقبلية من جهة الشرق وجدنا ضريحاً فرشته من الرخام الأصفر مستطيل الشكل وفوقه صندوق من الخشب على جهاته الأربع نقوش ملونة ورسوم قناديل مدلاة ، مقطع الجنبات ، وفي كل واحد مكتوب عليها :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » . ويدور حول اطار الصندوق من أعلاه كتابة بالكوفي المزهر يصعب قراءتها مالم تصوَّر وتكبَّر ، وأما الآيات فهي مقروءة ومكتوبة بالخط العربي النسخي . والصندوق مرمم ولكن الترميم شوهه من جهه الغرب ومن جهة الشرق . والذي ظهر من تدقيقنا للرسوم والكتابات وقدم الخشب أنه يعود لأيام الظاهر غازي بن صلاح

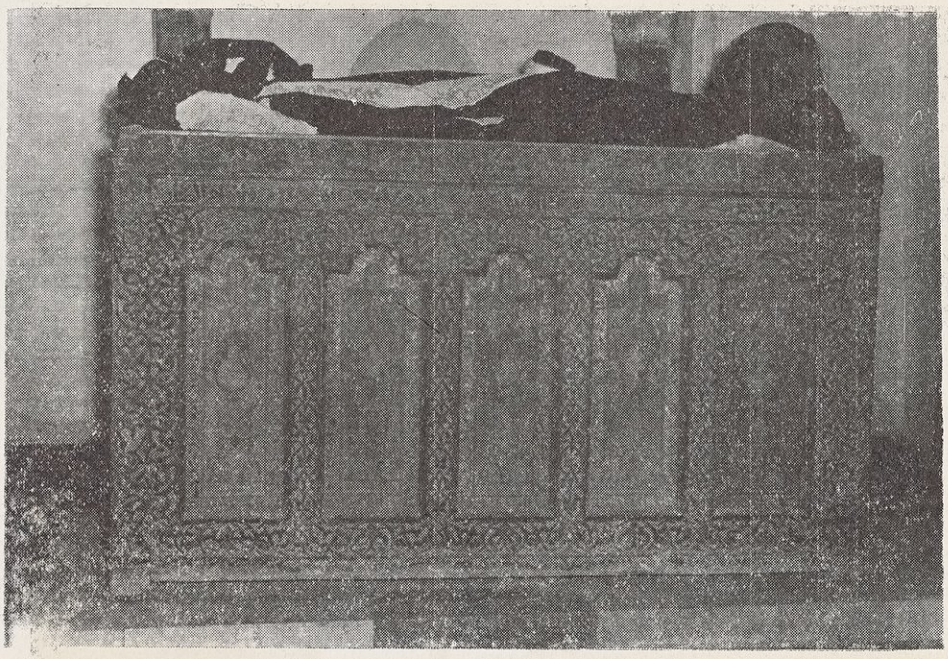

(١٦) صورة الصندوق الخشبي الذي يعود عهده الى ايام الايوبيين في الغالب

الدين أو لأوائل المماليك ، وقـــد يجوز لأيام محمود نورالدين الزنـكي ، ولذا يحتاج لعناية وحفظ . ومن حسن الحظ أن الصندوق قد ستر بأغشية مزركشة من الجوخ والحـرير فلم تمسه الأيدي ولم يعلم ما كتب عليه لأن (هرسفيلد ، واوبنهايم والشيخ كامل والشيخ راغب) لم يذكروه ولم يبحثوا عنه في كتبهم .

والمشهد بالنسبة للتواريخ التي كتبت عليه لم تعبث به أيدي الهدامين بـــل بقي محفوظاً ، فيه ايوان بثلاث قبب في الجهـة الشمالية ، وقبلية بثلاث قبب من جهته الجنوبية وفيه ثلاث غرف من جهة الغـرب ومدخل للصحن وغرفتان في جهة الشرق مع مستودع ، ومطبخ ، ودهليز ، ومطلع درج الى غرفة على السطح وثلاثة مراحيض ويوجد صهريج يمتد على طول الجهة الشمالية ، وكذا صهريج في الصحن الخارجي من الجهة الشرقية ، وباب المدخل عليه زخارف هندسية بديعة لها متدليات وعقود .

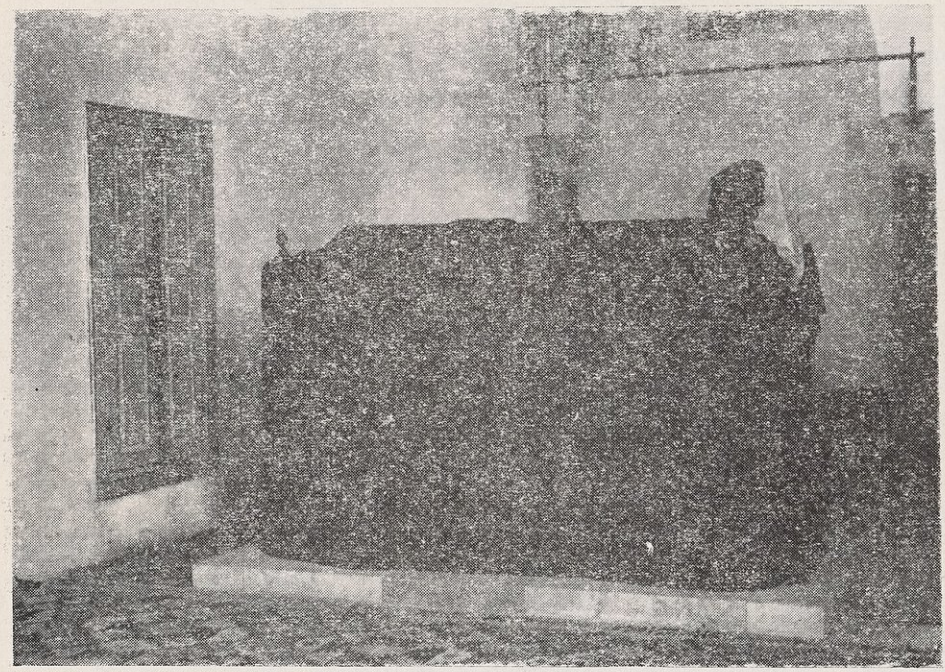

(١٧) صورة للصندوق الخشبي وعليه غطاء جوخ اخضر مقصب

يقول الشيخ راغب الطباخ في تاريخه مجلد /٤/ صحيفة /٢٨٦/ (عند بحثه عن الشريف حمزه بن زهرة الاسحاقي الحسيني المتوفى سنة ٥٨٥) انه الشريف حمزة بن زهرة الاسحاقي الحسيني أبو المكارم السيد الجليل الكبير القدر العظيم الشأن العالم الكامل الفاضل المدرس ، المصنف المجتهد عين أعيان السادة والنقباء بحلب صاحب التصانيف المشهورة ، له عـــدة كتب وقبره بحلب في سفح جبل الجوشن عند مشهد الحسين ، له تربة معروفة مكتوب عليها اسمه ، الى الامام الصادق عليه السلام وتاريخ وفاته ، وقد أبقت أيدي الزمن قبر المترجم في تربتهم الكائنة في سفح الجبل المسمى بالجوشن وبينها وبين جنوبي المشهد أذرع قليلة وكانت مردومة فاكتشفها في شهر جمادى الأولى ١٢٩٧ جميل باشا وأحاطها بجـــدران حفظاً لها ولقبر المترجم وبقية قبور الشرفاء المدفونين هنالك . أما الكتابة التي وجدت على أطراف القبر وهي بالخط الكوفي المزهر فهذا نصها :

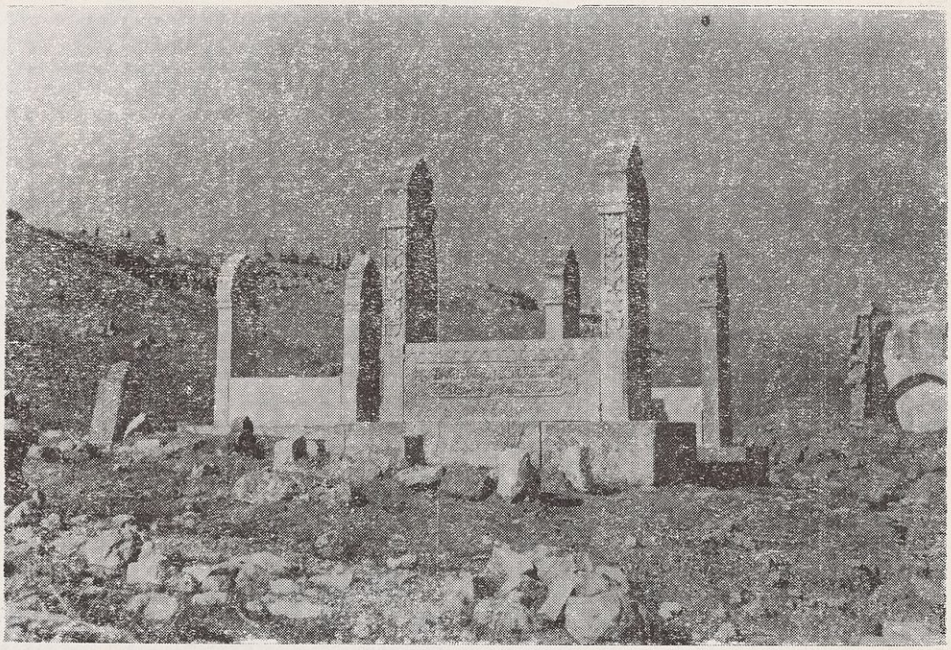

(١٨) التربة التي شوهت والتي كان فيها بنو الزهراء مدفونين قبلي مشهد الحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذه تربة الشريف الأوحد الطاهر ركن الدين بن أبي المكارم حمزة ابن علي بن زهرة بن علي بن محمد بن احمد بن محمد بن الحسين بن اسحق بن جعفر الصادق صلوات الله عليه وعلى آبائه وابنائه الأئمة الطاهرين وكانت وفاته سنة خمس وثمانين وخمسمائة (٥٨٥) رضي الله عنه .

وبنو الكواكبي تنتسب الى بني زهرة وهم من آل الحسين .

ووجدنا قريباً من مشهد الامام حسين وفي الجهة الجنوبية تربة للأشراف وكانت مدثورة ثم صانها بحائط جميل باشا سنة ١٢٩٧ وقد كنت زرتها سابقاً وكانت فيها قبور عليها كتابات بالكوفي المزهر تعود لمصر ابن حمدان وما بعده ثم لعبت بها أيدي الجهلة فأزالوا أحجارها وبعثروها وبقي القليل منها مطموراً ومنها ما هو ظاهر ثم سرقوا أحجار الجدران وربما أحجار القبور .

ووجـدنا فيها قبوراً لبعض من آل الجابري وبعض من سكان حي المشارقة .

والمقبرة اليوم أصبحت على وشك الاندثار تنعي الزمن واهله ومن كان سبباً لمحو معالم من دفنوا فيها .

وليت دار الآثار مـع دائرة الأوقاف تعيدان تحصينها بجدار من اربعة أطرافهـا وتتحرى عن الاحجار الأثرية فاما أن تعيدها الى ما كانت عليه أو تحملهـا الى المتحف لحفظها بدلاً من الضياع والاهمال .

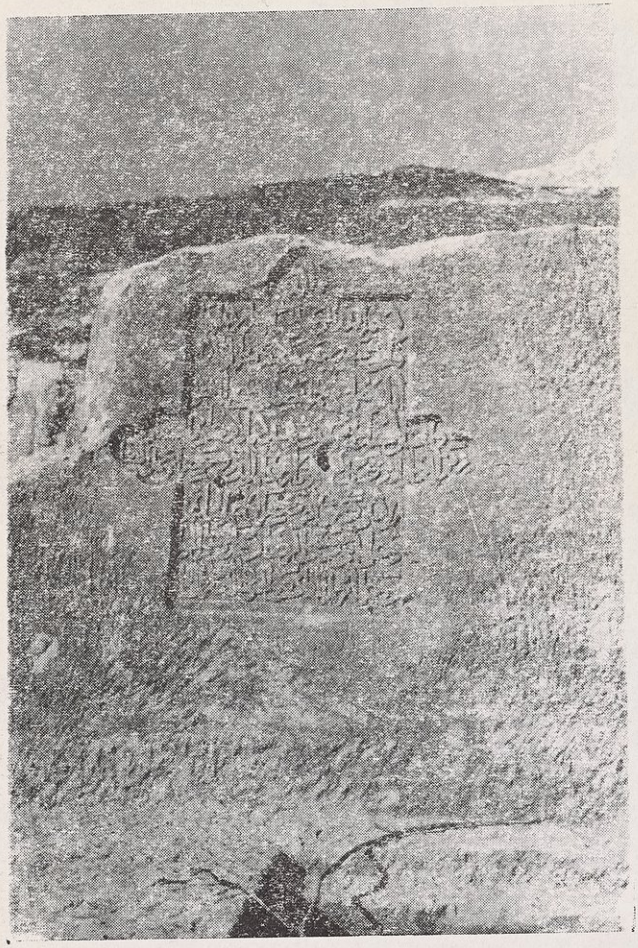

(١٩) اسماء اهل البيت والأئمة الاثنى عشر رضي الله عنهم

ويوجد في القسم الشمالي الغربي من مشهد الامام محسن وفوق الجبل المجاور مغارة فوق صخرة تطل على المشهد المذكور ، وفوق المغارة منحوت بالصخر لوحة تحوي اسماء الأئمة رضي الله عنهم . انظر الصورة رقم (١٩) و (٢٠ و ٢١) ويوجد داخل قبلية المشهد الحجر الذي كان موجوداً في داخل جامـع مشهد الامام حسين وقيل ان رأس الامام وضع عليه وسالت منه قطرات الدم فبقي اثرها انظر صورة (٢٢) .

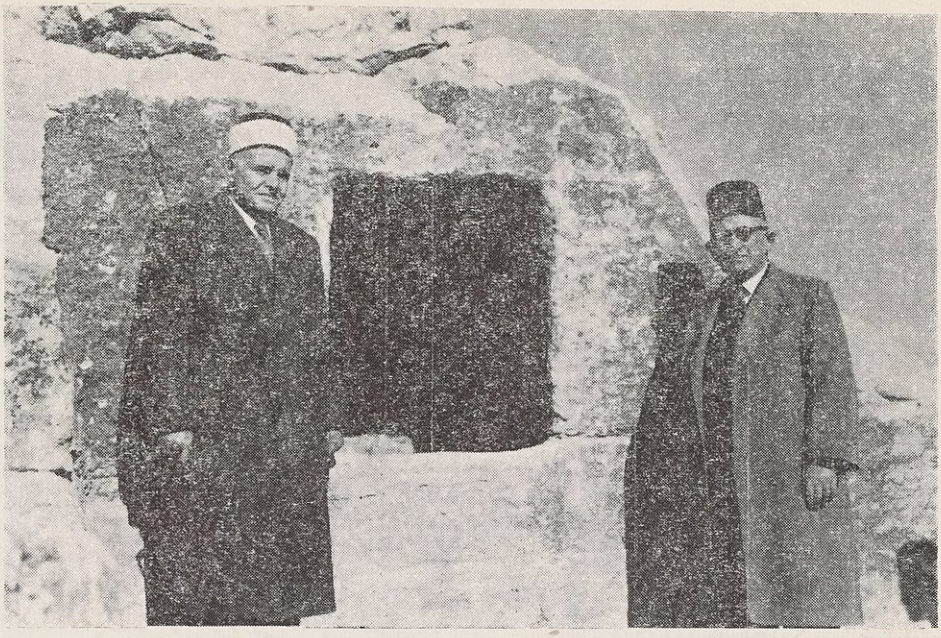

(٢٠) المغارة ومدخلها يتسع لجلوس انسان فقط

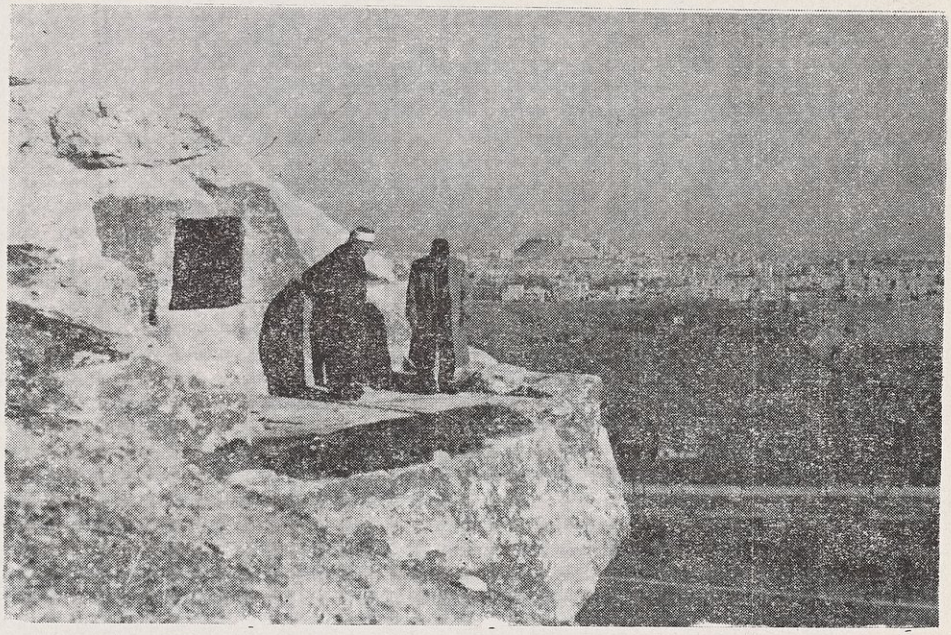

(٢١) المغارة الواقعة شمالي غربي المشهد وهي فوق الصخرة

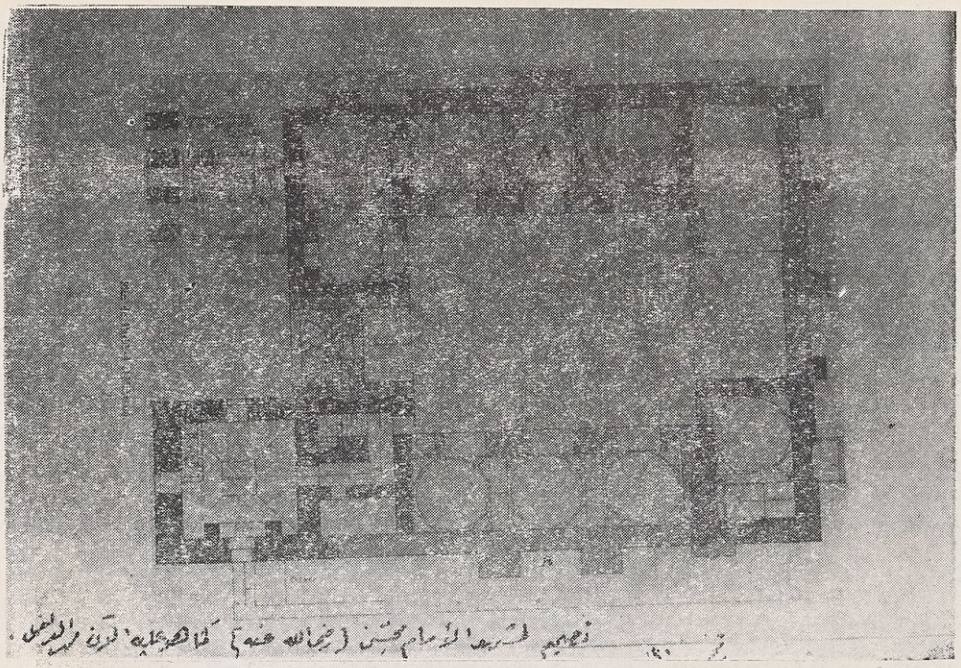

(٢٠) تصميم لمشهد الامام محسن (رضي الله عنه) كما هو عليه الآن من الداخل

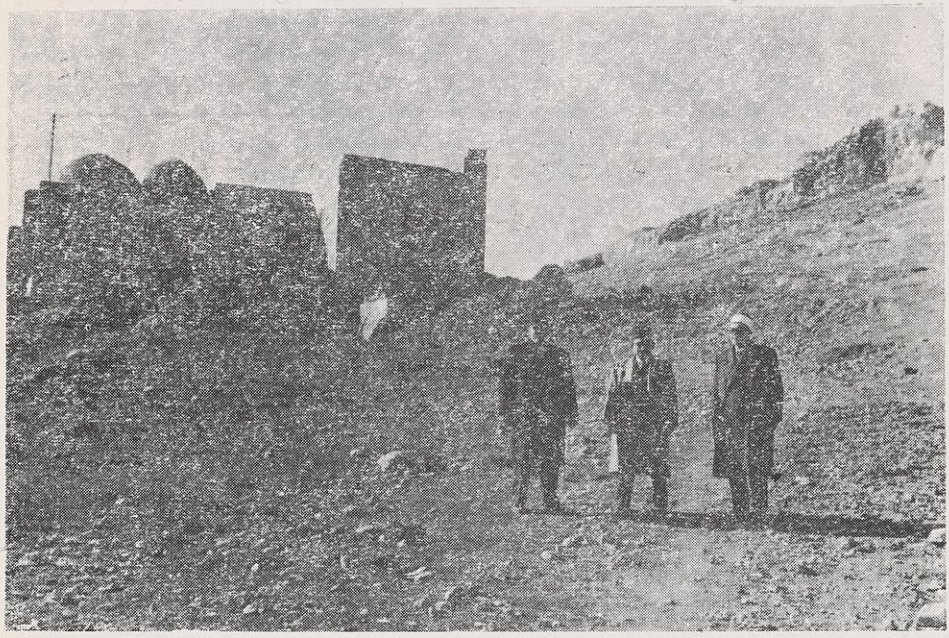

(٢١) رأس مشهد المحسن

(٢٢) صورة للحجر الذي وضع عليه رأس الامام حسين (رض) وسال الدم عليه

مقام ابراهيم وجامع الصالحين :

والمقام المسمى بمقام الخليل ابراهيم يقع خارج البلدة في الجهة الجنوبية الشرقية وفي القسم من المقبرة المسماة بمقبرة الصالحين .

يقول الشيخ كامل الغزي في المجلد /٢/ الصحيفة /٣٦٧/ « ومقبرة الصالحين تعرف بمقبرة الخليل ابراهيم لأنه يوجد فيها مشهد فيه قدم من حجر ينسب اليه .

وفي هذا المسجد جماعة من العلماء والصلحاء . والمقبرة تعد من أشرف مقابر حلب ، وقد انشأ فيها خانقاهاً الامير مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية ولكنها مشرفة على الخراب ، ولها منارة على باب المقام معطلة مائلة للسقوط ، ويوجد على غلق الباب حجر اسود من البازالت ، وفي شرقي الخانقاه مغارة تسمى مغارة الأربعين وفي جنوبي الصحن حرم للصلاة في جانبه حجرة في صدرها

محراب في اسفل صدره صخرة ناتئة يقال انها الصخرة التي جلس عليها ابراهيم مستقبلاً حلب حين فارقها كأنه يودعها .

وفي هذا المسجد من الشمال قبر الامام علاء الدين ابي بكر القاشاني المتوفي في عام ٥٨٧ وقبر امرأته فاطمة بنت شيخه علاء الدين سمرقندي في حجرة مكتوب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم - أمر بعمارته مولانا الملك الظاهر غياث الدنيا والدين أبو الفتح غازي بن الملك الناصر خلد الله ملكه سنة ٥٩٤ » .

وفي قبلي المسجد مقبرة جليلة فيها جماعة من الاخيار منهم الأصولي برهان الدين البلخي وكان شيخ الحنيفة في زمنه ، ومنهم الزاهد العابد الحسين بن عبد الله بن حمزة الصوبي القدسي ، وتجاه مقام الخليل تربة بني العشائر » .

ويقول صاحب كتاب الآثار الاسلامية والتاريخية الأستاذ محمد اسعد طلس نقلا عن تقرير البرفسور الأثري سوفاجه :

« ان مقام الصالحين هو محل عبادة قديم جداً ، فيه صخرة تروى الاخبار عنها بأنها ترجع الى ايام الخليل ابراهيم ، اي الى أيام حمورابي لأن الخليل وجد في زمانه ، وحمورابي حكم سوريا وبابل مدة أربعين سنة وكانت مدة حكمه ما بين الـ ٢١٢٣ - ٢٠٨٠ قبل الميلاد فيكون عمر الحجرة أربعة آلاف سنة » .

وأكثر بناء المقام حديث ولكن محرابه مؤرخ في عام ٥٤٥ الموافق لعام ١١٠٥ ميلادي .

وعلى البناء متدليات من الحجارة فيها كتابة بالكوفي المزهر جاء فيها :

« مما أمر بعمله ملك الملوك عضد الدولة أبو شجاع (١) أحمد بن يمين

---

(١) عضد الدولة أبو شجاع يمين أمير المؤمنين ولد سنة ٣٢٥ وتوفي سنة ٣٧٣ . نشأ في أصفهان وتوفي في بغداد وهو ابن ملكشاه من آل بويه . دخل بغداد أيام المقتدر عام ٣٦٤ وحكمها هو ووالده وأولاده . فتح فرمان وعمان وظفر بالعراق وطبرستان فلقبه الخليفة شاهنشاه اي ملك الملوك .

أمير المؤمنين وجـــرى ذلك على يد تاج الملوك (١) أبي الغنائم في سنة ٤٧٩ تسع وسبعين واربعمائة .

وفوق محراب المدخل الى القبلية توجد كتـابات أخرى كوفية جاء فيها :

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر - بسم الله الرحمن الرحيم عمر خواجه موفق الوزيري المؤيدي أثابه الله وأدام عزته ووفقه في عمل الخير في رجب سنة خمس وخمسمائة ٥٠٥ » . (صنعة فهد السرماني « السرميني » رحمه الله) .

والجامع كان على ايام سيف الدولة ورمم بأيامه ثم جدد في أيام عضد الدولة ومن أتى بعده وهو محافظ على ما كان عليه لولا أن الخانقاه مخرب ويحتاج الى ترميم وتعمير وكذا أرضه والقبو الموجود في صحنه كاد يلحقها التشويه والفساد ، ولو أن غرفه وحجراته كما رأيناها الآن رممت ، لبقي الجامع محافظاً على ما كان عليه وصالحاً لاقامة الشعائر ومقاماً للزيارة والتبرك .

وليس هذا بل ان التربة تحتاج لعناية واهتمام وهندسة ، وحفظ القبـور الاثرية التي فيها واعمارها وتنظيمها لعلها تكون خير أثر لمن يأتي من الاجيال أو من الزائرين العلماء .

ومن آثار الحمدانيين الجرن الرخام الذي أمر بعمله قرعويه غلام سيف الدولة ووضعه في بركة الماء وسط جامع الأموي الكبير :

يقول الشيخ راغب الطباخ في تاريخه مجلد /٢/ صحيفة /٧٩/ نقلا عن كتاب الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ٨٤٣ عن الجامع الأموي الكبير وعن الجرن الرخام :

(ولما دخل نقفور ملك الروم حلب في سنة ٣٥١ أحرق الجامع الاموي

(١) تاج الملوك أبو الغنائم ، كان وزيـراً لعضد الدولة وحاكماً لأصفهان عام ٤٨١ ، حارب نظام الملك وكان عدوا له ثم حكم حلب ودمشق واغتاله الحشاشون عام ٤٨٥ .

الكبير والبلد ورحل عن حلب وعاد سيف الدولة اليها من قنسرين ورمم المسجد ، ولما مات سيف الدولة وتولى ولده أبو المعالي سعد الدولة شريف بنى فيه قرعوية غلام أبيه قبة الفوارة التي في وسط الجامع ، وفي هذه القبة جرن رخام أبيض في غاية الكبر والحسن ، وفي دور حافة الجرن مكتوب « هذا ما أمر بعمله قرعوية غلام سيف الدولة في سنة ٣٥٤ ») .

ويقول الشيخ راغب الطباخ رحمه الله :

« ان الكتابة كانت قدر نصف ذراع وكان أثر النقش باقياً ثم محي هذا الأثر عام ١٣٠٢ حينما رمم الحوض في زمن والي حلب جميل باشا وياليتهم أبقوا هذا الأثر وان كان قليلا ».

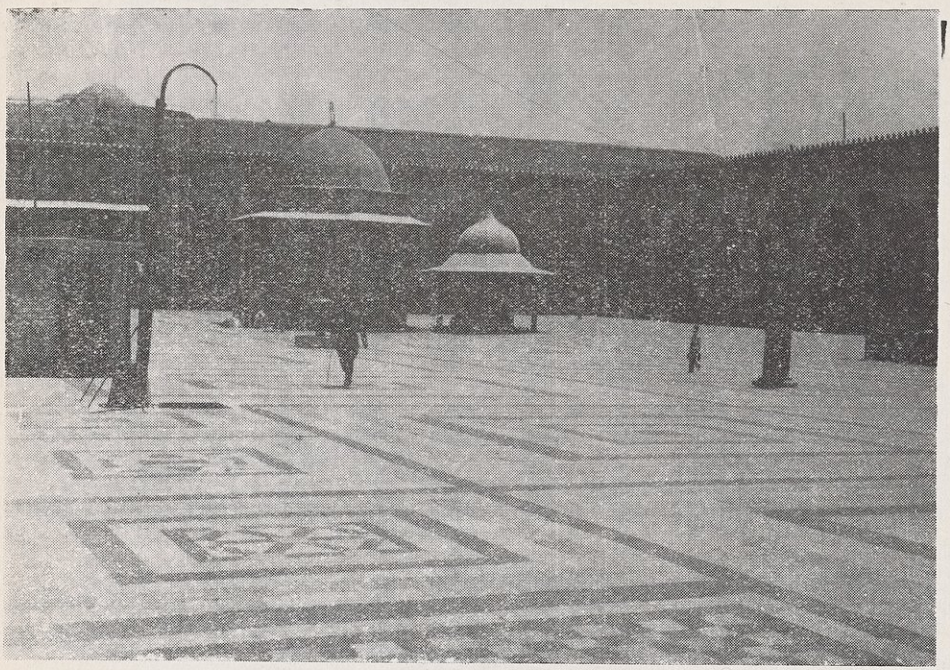

صورة لصحن جامع الاموي بحلب وفيه البركة ذات العواميد وفي وسطها الجرن المرمري من ايام قرعويه سنة ٣٥٤

ثم قال : « والماء ينصب من هذا الجرن الى بركة مقطعة من الرخام الأصفر ثم يسيل الى بركة من رخام أصفر قطعة واحدة وهي من عجائب الدنيا » .

وبعد أن اعاد سيف الدولة الجامع الأموي الى ما كان عيه مجدداً أحرقه الاسماعيليون القرامطة ايام الملك العادل نور الدين بن محمود زنكي واحترقت الاسواق التي حوله فاجتهد نورالدين في عمارته وقطع الاعمدة الصفر من بعادين ونقل اليه عمد مسجد قنسرين ، لان العمد الرخام التي كانت فيه تفطرت وتنخرت من حريق النار وسقطت ، وكانت قواعد العمد في صحن الجامع مع شيء من الرؤوس وهي في ارضه فجمعت وبني بعضها فوق بعض في الغربية التي فيه ، وكان النصف القبلي من الشرقية التي في قبلي الجامع الآن الملاصقة لسوق البزازين عن يمين الداخل من الباب القبلي سوقاً موقوفاً للجامع ، ولم يكن المسجد على التربيع فنقض نور الدين السوق واضافه الى الجامع فاتسع وحسن في مرأى العين .

واما منارته وقبليته واروقته وما فيه من حجر والبحث عنها وعن الكتابات الموجودة وعن المقاصير التي أزالها الاتراك ايام الاتحاديين وكانت من بقايا المماليك، وعن الرخام الهندسي الذي بلطت فيه ارض الجامع فيحتاج الى محاضرة خاصة لما لها من اهمية اثرية وتاريخية فأكتفي بما له علاقة بالجرن المذكور والسلام .

حلب ـ ١٩٥٩/١/٢٤

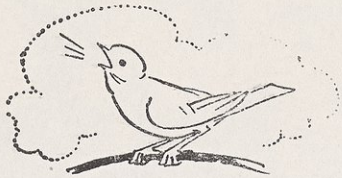

ملحق اول

دولة الخلفاء ٢٨ سنة

١ - عباس بن غنم ١٥
٢ - شرحبيل بن السمط
٣ - حبيب بن مسلمة بن مالك
٤ - سعيد بن عامر ٤٣
٥ - عمير بن سعيد

دولة بني امية ٨٤ سنة

١ - عبدالرحمن بن خالد ابن الوليد ٤٣ - ٤٦
٢ - مالك بن عبدالله الخشعمي ٤٧ - ٥٠
٣ - بسر بن ارطاه ٣ ٥٠ - ٥١
٤ - سفيان بن عوف ٥٢
٥ - محمد بن عبدالله الثقفي ٥٢ - ٥٣
٦ - عبدالرحمن بن ام الحكم ٥٣ - ٥٤
٧ - محمد بن مالك
٨ - معن بن يزيد السلمي ٥٤ - ٥٥
٩ - سفيان بن عوف ، مرة ثانية ٥٥
١٠ - جنادة بن أميه ٥٦
١١ - مالك الخشعمي ٥٨
١٢ - عبدالملك بن مروان ٦٦
١٣ - محمد بن مروان ٧٣
١٤ - الوليد بن عبدالملك
١٥ - محمد بن مروان ٧٧ - ٩٠
١٦ - مسلمة بن عبد الملك
١٧ - وعبدالعزيز بن الوليد
١٨ - والعباس بن الوليد ٩٠ - ٩٩
١٩ - هلال بن عبدالعلي
٢٠ - الوليد بن هاشم المعيطي ٩٩-١٠١
٢١ - الوليد بن القعقاع ١٠١-١٢٥
٢٢ - يزيد بن هبيرة
٢٣ - مسرور الوليد
٢٤ - عبدالملك بن كوثر ١٢٥-١٢٧

الدوله العباسية ١٢٨ سنة

١ - زفر بن عاصم
٢ - ابو مسلم الخراساني ١٣٧
٣ - عبدالله بن علي بن عباس
٤ - صالح بن علي ١٣٧
٥ - الفضل بن صالح بن عباس ١٥٢
٦ - موسى الخراساني ١٥٤
٧ - الهيثم بن علي
٨ - الفضل بن صالح
٩ - عبدالصمد بن علي ١٥٨-١٦٣
١٠ - عبدالله بن صالح ، المرة الثالثة ١٦٦

١١ ـ طاهر بن الحسين ١٩٨
١٢ ـ عبدالله بن طاهر ٢٠٤
١٣ ـ يحي بن معاز ٢٠٥
١٤ ـ عبدالله بن طاهر ٢٠٦-٢١٣
١٥ ـ العباس بن مأمون ٢١٣
١٦ ـ اسحق بن ابراهيم
ابن زريق ٢١٤
١٧ ـ عيسى بن علي الهاشمي ٢١٥
١٨ ـ عبدالله بن عبدالعزيز
ابن الفضل ٢١٨
١٩ ـ اشناس التركي ٢٢٥
٢٠ ـ محمد بن صالح بن
عبدالله بن صالح ٢٣٠
٢١ ـ احمد بن سعد بن مسلم
ابن قتيبه ٢٣١
٢٢ ـ نصر بن حمزه الخزاعي ٢٣٢
٢٣ ـ علي بن اسماعيل بن
صالح بن علي ٢٣٢
٢٤ ـ عيسى بن عبيدالله
الهاشمي
٢٥ ـ طاهر بن محمد ٢٣٢-٢٣٥
٢٦ ـ المنتصر بن المتوكل
٢٧ ـ ولاية بغا ٢٤٢
٢٨ ـ وصيف التركي ٢٤٥
٢٩ ـ موسى بن بغا ٢٥٠
٣٠ ـ ميمون بن سليمان
٣١ ـ احمد المولد
٣٢ ـ الحسين بن محمد
الهاشمي ٢٥١
٣٣ ـ ميمون
٣٤ ـ صالح بن عبيدالله ٢٥٣
٣٥ ـ ديودار ٢٥٤
٣٦ ـ احمد بن موسى ٢٥٥

الدولة الطولونية والاخشيدية

٨٠ سنة

١ ـ احمد بن طولون ٢٥٦
٢ ـ سيما الطويل ٢٥٨
٣ ـ لؤلؤ غلام احمد بن
طولون ٢٦٤
٤ ـ عبدالله بن الفتح ٢٦٩
٥ ـ محمد بن عباس الكلابي ٢٧٠
٦ ـ احمد بن دغباش ٢٧١
٧ ـ اسحق بن كنداجيق ٢٧٢
٨ ـ محمد بن ديودار ٢٧٣
٩ ـ طغج بن حيف ٢٧٦
١٠ ـ اسحق الخراساني ٢٨٦
١١ ـ احمد بن سهل ٢٨٦
١٢ ـ خليفة بن المبارك ٢٩٠
١٣ ـ عيسى غلام النوشري ٢٩٠
١٤ ـ ذكا الاعور ٢٩٢
١٥ ـ احمد بن كيغلغ ٣٠٢

١٦ ـ وصيف البكتمري
١٧ ـ هلال بن بدر ٣١٢ ـ ٣١٦
١٨ ـ احمد بن كيغلغ
١٩ ـ طريف بن عبيدالله
٢٠ ـ بشرى الخادم ٣١٨ ـ ٣٢٠
٢١ ـ محمد بن طغج
٢٢ ـ طريف البكري
٢٣ ـ بدر الخرشني ٣٢٢ ـ ٣٢٤
٢٤ ـ محمد بن طغج بن حيف
٢٥ ـ احمد بن سعيد الكلابي
٢٦ ـ محمد بن رايق ٣٢٥ ـ ٣٢٧
٢٧ ـ محمد بن يزداد ٣٢٨
٢٨ ـ ناصر الدولة بن حمدان ٣٢٨
٢٩ ـ مساور بن محمد (من قبل الاخشيد) ٣٢٩
٣٠ ـ احمد بن مقاتل ٣٣٠
٣١ ـ يانس المؤنسي ٣٣١
٣٢ ـ محمد بن مقاتل ٣٣٢
٣٣ ـ عبدالله بن حمدان
٣٤ ـ ابي الفتح عثمان الكلابي ٣٣٢
٣٥ ـ سيف الدولة بن حمدان ٣٣٣

دولة بني حمدان ٧١ سنة

(١) سيف الدولة بن حمدان
استيلاؤه على الشام ٣٣٥
غزوات سيف الدولة من ٣٣٥ ـ ٣٥١
مجيء الدمستق الى عين زربه ٣٥١
استيلاء الروم على حلب واتفاق بخا غلام سيف الدولة معهم ٣٥١
عصيان بوخا وقتل سيف الدولة له
مخالفة اهل انطاكية لسيف الدولة .
الفداء بين سيف الدولة والروم ٣٥٥
نزول الروم على انطاكية والحرب بينهم وبين سيف الدولة . خراب قنسرين ٣٥٥
استيلاء الروم على انطاكية وحلب وعودتهم عنها ٣٥٩
وفاة سيف الدولة ٣٥٦
(٢) ولاية بكجور غلام قرعويه ٣٦٠
ولاية سعد الدولة بن سيف الدولة ٣٦٦

ولاية ابي الحسن علي وأبي المعالي بن سيف الدولة شريف بن ابي الفضائل ٣٩١-٣٩٤
انقراض دولة بني حمدان ٣٩٤
لؤلؤ ٣٩٤
مرتضى الدولة منصور بن لؤلؤ ٣٩٩-٤٠٦
فتح غلام مرتضى الدولة ٤٠٦

الملحق الثاني

المؤرخون لحلب وتاريخ وفاتهم

١ - تاريخ ابن ابي طي يحيي بن حميده الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠

٢ - تاريخ « زبدة الحلب في تاريخ حلب لابي القاسم بن جرادة المتوفى ٦٤١

٣ تاريخ كمال الدين بن العديم واسمه بغية الكمال المتوفى ٦٦٠

٤ - تاريخ بن شداد المتوفى ٦٨٤

٥ - تاريخ النسرين في تاريخ قنسرين لابن عشائر الحلبي المتوفى ٧٧٩

٦ - خضرة النديم من تاريخ ابن العديم للشيخ طاهر المعروف « بابن حبيب الحلبي المتوفى ٨٠٨

٧ - روض المناظر في علم الاوائل والاواخر لمحمد بن الشحنة المتوفى ٨١٥

٨ - الدر المنتخب لابن خطيب الناصرية المتوفى ٨٤٣

٩ - كنوز الذهب لموفق الدين ابي ذر المتوفى ٨٨٤

١٠- الكواكب المعنية لابي در المذكور « ٨٨٤

١١- دار المنتخب لابن الشحنة لمجد الدين ابي الفضل بن الشحنة المتوفى ٨٩٠

١٢- الكلام على صاحب در الحبب لرضي الدين محمد الحنبلي المتوفى ٩٧١

١٣- مختصر در المنتخب للشيخ محمد الشهير بالملا المتوفى ١٠٠٣

١٤- معادن الذهب في تاريخ حلب لابي الوفاء العرضي المتوفى ١٠٧١

١٥- تاريخ حلب الطبيعي (بالانكليزي) للطبيب باترك المتوفى ١١٨٣(١٧٦٨)

١٦- تاريخ عبدالله ميرو المتوفى ١١٨٤

١٧- نهر الذهب في تاريخ حلب للشيخ كامل الغزي المتوفى ١٣٤٢

١٨- طرائف النديم في تاريخ حلب القـــديم ولطائف الحديث لميخائيل الصقال المتوفى ١٣٤٢

١٩- تاريخ (اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) للشيخ راغب الطباخ المتوفى ١٣٧٠

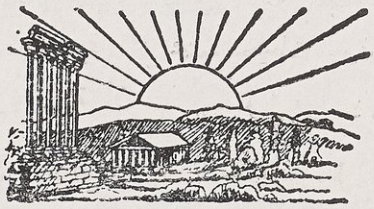

أفلاطون وفلسفته وآراؤه في الجمهورية

كان افلاطون فيلسوفاً وطبيباً وحكيماً روحانياً ظهر بعد سقراط من اسرة عريقة في النسب ، وكانت ولادته في اثينا عام ٤٢٧ ق . م . وفي سن العشرين لازم سقراط وتتلمذ عليه مدة / ١٨ / عاماً ، ثم زار كريت ، وايطاليا ، وصقلية ، ومصر . وفي عام ٣٨٧ فتح مدرسته في اثينا وبدأ يعلم .

ولم تكن الأكاديمية التي أنشأها افلاطون مدرسة بالمعنى الحقيقي بل معهداً جمع فيه عدداً من الاصدقاء والتلامذة للبحث والدرس في جو علمي ، واعداد رجال يستطيعون ادارة شؤون المدينة وفقاً لمقتضيات العلم .

وتتصف فلسفة افلاطون بالبحث عن الحقيقة أكثر مما تتصف بعرضها والبرهان عليها . ويذكر العالم (برتراند رسل) في كتابه عن تاريخ الفلسفة ، ان أهم موضوعات تلك الفلسفة « المدينة الفاضلة » ، « ونظرية المثل » ، « وأدلة الخلود » ، « ونظريات الكون » ، وآراؤه في المعرفة . وله كتاب في سياسة الحكم سماه « الجمهورية » عرض فيها مبادىء في الأحوال السياسية والاجتماعية ، وجعل الغاية منها تحديد العدالة وذلك بتنظيم الدولة تنظيماً مثالياً .

وكان عنده أن العدالة تظهر دائماً في المدينة بمجموعة من الوظائف الموزعة وفقاً لمقتضيات توزيع العمل ، وفي كل مجتمع حاجات ورغائب متباينة متضاربة على الحكام القائمين على تدبير المدينة أن يهذبوها ويؤلفوا بينها .

وفي رأيه أن النفس الانسانية لها ثلاث قوى : (العقل ، والنفس الفاضلة ، والنفس الشهوانية) . والسعادة لا تكون الا بتوازن هذه القوى وسيطرة العقل على الشهوات .

ويرى أن المدينة فيها ثلاث طبقات :

١ ـ الطبقة الذهبية ، الحكام القائمون على تدبير المدينة .

٢ ـ الطبقة الفضية ، الجنود الساهرون على حراستها وحمايتها .

٣ ـ الطبقة النحاسية ، وهي طبقة العمال المنتجين .

ثم يصف الطبقة الذهبية فيقول انها تتألف من أناس يسيطر عليهم العقل . والطبقة الفضية تتألف من أناس يتحلون بالشجاعة والفضائل . والطبقة النحاسية تتألف من أناس يتحلون بالعفة كيلا تسيطر عليهم الشهوات . وعنده أن المدينة الفاضلة لن يكون فيها صحة وسعادة ولن تسود فيها العدالة الا اذا كانت القيادة بأيدي العقلاء وخضع لهم ولأحكامهم جميع من سواهم .

وبحسب ما رسمه تعـــود مشكلة العدالة الى الطريقة المثلى لاختيار هؤلاء الحراس وتدريبهم .

ولحل هذه المسألة يقول افلاطون لابد من اختيار هؤلاء الحراس بين الجنود . ولكن تربية الجنود تقوم على حسن اختيار الأصول التي تمنع الاضطراب ، والانحلال الخلقي ، والشهوة ، وتعليمهم وتدريبهم على ما يقوي النفس ويبعث الشجاعة والحماسة ، ويقوي الجسم وينميه .

ويعتقد افلاطون أن هذه وحدها لاتكفي لتهيئة رجال صالحين للمدينة مالم يحافظ الرؤساء على وحدة المدينة ويقروا بضرورة هذه الوحدة ، ولن يتحلى الرؤساء بهذه الفضيلة الا اذا عاشوا عيشة مشتركة ، فلا ملكية خاصة ، ولا ذهب ، ولا فضة ، ولا عقار ، ولا وراثة .

واذا لم تتوافر في أبنـاء الرؤساء الصفات الضرورية فينبغي اسقاطهم الى درجة سفلى . ثم على الرؤساء أن يعيشوا عيشة الأخوة ، وأن يتصفوا بالمزايا السوقراطية الأربع (الحكمة ، والشجاعة، والعدالة ، والعفة) .

وللحفاظ على الوحدة في الدولة لابد من سن قوانين تتضمن أربعة امور مهمة :

١ ـ اشتراكية النساء والأولاد .

٢ ـ التمارين الرياضية والخلقية للرجال والنساء .

٣ ـ التربية العلمية السياسية .

٤ ـ قيادة الدولة من قبل الفلاسفة .

أما الجماع فيكون بالقرعة تحت رقابة أولي الأمر لانجاب نسل منتخب .

ويذكر في جمهوريته أن يختار الفلاسفة من بين الجنود . والفيلسوف هو الذي يتحلى بحب الحقيقة والميل الى البحث ، ويفضل طريق اليقين على طريق الظن ، ويشغل عقله بما هو أزلي غير خاضع للضيرورة ، وتجمع بين مقوماته علاقة ثابتة . والفلسفة روح ، وهي شكل من أشكال الفكر ، ومجموعة من الاستعدادات والمقاصد يضيئها الخير دوماً كما يضيء النور ، لأن الصورة ، أي صورة الخير ، هي ما يؤمن للأشياء (الكون ، والقوة ، والحياة ، والحقيقة) .

وفي رأيه أن الروح الفلسفية هي محبة ، ونظام ، ونور ، وتمجيد لقوى ، العقل ، والقلب ، فاذا ما وصل الفيلسوف الى هذه الدرجه أصبح معداً لقبول المعارف التي تهيئه للقيام بوظيفته ، أي الحساب والهندسة والموسيقى والجدل .

ويعيش حارس الدولة العتيد من السادسة عشرة الى العشرين من عمره حياة الجنود وبعدها يمرن على مهنته مدة عشر سنوات متوالية ثم يتدرب على الجدل مدة خمس سنين ثم يقضي بعد ذلك خمس عشرة سنة في الوظائف الادارية او العسكرية ولا ينتقل الى طبقة الرؤساء الا بعد بلوغه سن الخمسين .

ولكن في كتابه النواميس يغير من مبادئه المار ذكرها ، فيتخلى عن الشيوعية والشراكة في الاملاك والنساء ، ويقول بضرورة التربية تحت اشراف الدولة وضرورة الخضوع للآلهة ، والتمسك بأهداب الدين ، واعتبار الكفر جناية لا تغتفر .

وافلاطون لم يستطع تحقيق مبادئه السياسية وآرائه في الجمهورية رغم انه توظف وفشل ، لأن قوانين المجتمع سواء أكانت في زمانه ام في زماننا لا يمكن ان تحكمها نظريات فلسفية او دساتير ليست من طبيعة الاجتماع ولا من مقومات حياته كاشتراكية النساء والاولاد ، واشتراكية الاملاك .

والشيوعية في عصرنا وان كان فيها الكثير من جمهورية افلاطون لكن فلسفتها قائمة على الاقتصاد في جهد الفرد ، وجعل اعمال الانسان في نطاق تنظيمي موجه

لتقوية الدولة وخدمة الدولة ، وهي بدورها تحميه وتغذيه ، وتكفل سلامته ، ونسله، وتعليمه ، ومرضه . وليس له حرية الارادة في تصرفاته ولا في مطاليبه .

وهذا النظام المطبق لا زال في الاربعين من عمره يتحوّل ويتطوّر ، فأما ان يتلاءم مع سنن الحياة والاجتماع وطبيعة الانسان ، واما ان لا يتلاءم فيفشل ، ويعود المجتمع الى اختيار طرق اخرى لتنظيم اموره وادارة مجتمعه وفقاً لاختباراته واحتياجاته ، ووحي عقله ، ورقي فكره ، وبيئته ، ولن يكون ذلك في ظلّ الاستبداد والاضطهاد .

ومن المؤكد ان سلامة المجتمع وامتداد حياته ، وقوة نشاطه وفعاليته تتوقف على سلامة مقوماته الدينية والفكرية ، والعائلية ، والجسمانية ، والاجتماعية ، والاقتصادية والاخلاقية على اساس بذل الفعالية والنشاط لضمان رفاهية الافراد ، وتحكم العقل في قوى الطبيعة ، وحسن الاخلاق والآداب ... وكذلك لن يكون الا في نطاق الحرية ، وانطلاق الفكر والتعاون ، وحب الخير ، والمنفعة العامة ، والتنظيم الشامل.

وتأييداً لذلك نرى ان اليونان في عصورهم التاريخية مارسوا انواعاً من الحكم فما دام لهم شيء منها ، وطبقوا كثيراً من الانظمة السياسية والاجتماعية ففشلوا ، وكذا بقية الامم طبقت مثلما طبقوا فلم يستقم أمرها .

وفي زماننا الحاضر تطبق انواع من النظم الاجتماعية والاساليب السياسية والادارية ، ولا ندري لاي منها سيكتب البقاء بنجاح ورقي وتقدم ودوام ، ولكن مما لا شكّ فيه ان كل مجتمع لا تتقيد فيه الغرائز بقيود العقل ، وضبط النفس ، والمثل العليا للاخلاق والانسانية محكوم عليه بالانحلال .

الفارابي وآراؤه في المدينة الفاضلة

من هو الفارابي ؟ وما هو تفكيره الفلسفي وتفكيره الاخلاقي :

الفارابي هو ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ الفارابي ، ولد عام ٢٥٩ هـ . من أب فارسي ، كان من قواد الجيش في مدينة (وسيج) في اقليم فاراب (١) (اطرار) من بلاد تركستان ، فيما وراء نهر سيحون .

ولما شبّ ، تعلّم في بغداد الآداب والعلوم العربية ، ولم يكن يعرف غير التركية والفارسية .

وفي بغداد تتلمذ على الطبيب النصراني يوحنا بن حيلاني المتوفى في بغداد أيام المقتدر ، وتعلم صحبة أبي بشر متى النصراني النسطوري الذي اشتهر بترجمته الكتب اليونانية ، وتوفي في بغداد فيما بين ٣٢٣ - ٣٢٩ هـ .

ثم كان من أتباع مدرسة مرو الفلسفية التي كان يغلب عليها الطابع الميتافزيقي . وبعد اقامة طويلة في بغداد رحل عنها كما يقول الدكتور محمد البهي (اثر اضطهادات سياسية كانت تحصل في الفينة بعد الفينة ضد الخلفاء ومن في خدمتهم من الوزراء

---

(١) فاراب : مقاطعة في وادي نهر (سرداريا) عند ملتقى مياهه بمياه (أريس) في تركستان . (وفاراب) مدينتان ذكرهما (ابن خلكان) فاراب الداخلة في تركيا وراء نهر سيحون سميت حينا (أطرارا) ، وفاراب الخارجة في أطراف بلاد فارس . ويقول صاحب معجم البلدان ياقوت الحموي : (ان فاراب ولاية وراء نهن سيحون في تخوم بلاد الترك (تركستان) قريبة من بلاد ساغون ، بها منعة وبأس وهي ناحية سبخة لها غياض ومزارع في غربي الوادي يأخذ من نهر شاش ، وإليها ينتسب أبو نصر محمد بن محمد الفارابي الحكيم الفيلسوف صاحب التصاريف في فنون الفلسفة مات بدمشق سنة ٣٣٩هـ ، وكان تلميذ يوحنا بن حيلان الذي توفى في زمان المقتدر ، وعبدالله بن محمد سلمة بن حبيب عبد الوارث أبو محمد المقدسي الفارابي) .

والعلماء والقـواد) متوجهاً الى حلب ، وهناك اقام مدة أخرى في كنف سيف الدولة (ابي الحسن ، على الهيجاء ، عبدالله بن حمدان التغلبي) ، وقد ذهب اليه في خلافة الراضي العباسي (وكانت حياته متأثرة بموجة من الزهو والتصوف سيطرت عليه في سنواته الأخـــيرة ؛ ودفعته الى الاستعاضة عن متـــع الدنيا ولذائذها ، بالتفكير الفلسفي الصوفي ، وبالعزلة عن الجماعة ، وربما ما حصل له من اضطهـاد بذر في نفسه اليأس ، وكوّن عنده نظرة التشاؤم ، وهما غالباً من دواعي النفرة من الجماعة ، والاسترسال في التفكير ، والاكثار من الخـلوة بالنفس ، ومناجاة من عنده الأمر كله ، ومالك الحياتين وهو الله سبحانه وتعالى) .

(وبعد اقامته في حلب مدة اخرى إثر رحيله عن بغداد ذهب صحبة سيف الدولة في فتحه دمشق ، ووجد بها هناك نهاية أجله تقريباً في رجب عام ٣٣٩ هـ وكان عمره في هذا الحين يقرب من الثمانين) (١) .

ويقول القفطي في كتابه اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٢ :

« ان الفارابي قرأ الحكمي على يوحنا بن حيلاني المتوفى في مدينة السلام في أيام المقتدر ، واستفاد منه وبرز في ذلك على أقرانه ، واربى عليهم في التحقيق وشرح الكتب المنطقية ، وأظهر غامضها ، وكشف سرها ، وقرب متناولها ، وجمع ما يحتاج اليه منها في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة الى ما أغفله الكندي (٢) وغيره من صناعة التحليل واتحاد التعليم ، وأوضح القول فيها عن طـرق المنطق الخمسة ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف يصرف صورة القياس في كل مادة منها ؛ فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة .

---

(١) نقلا عن كتاب الجانب الالهي من التفكير الاسلامي للدكتور محمد البهي - الجزء الأول .

(٢) الكندي : هو أبو يوسف بن يعقوب ، ولد في الكوفة ولقب بفيلسوف العرب . تعلّم في بغداد والبصرة ، وأقام في بلاط العباسيين وترجم مؤلفات اليونان الى العربية ، وكان من المعتزلة وحجة في الفلك . توفي عام ٢٦٠ هـ الموافق ٨٧٣ م .

« والفارابي كما شرح كتب أرسطو وتوفر على العناية بها حتى لقب لأجل ذلك (بالمعلم الثاني) ، ألف كتباً كثيرة في البحوث الالهية ، والأخلاقية والمنطقية ، وفي الطبيعيات ، وما وراء الطبيعة والرياضيات ، والموسيقى ، والطب .

« وله كتاب في أغراض أفلاطون وأرسطوطاليس ، يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقق بفنون الحكمة ؛ وهو أكبر عون على تعلم طرق النظر ، وتعرف وجه الطلب ، اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها ، علماً علماً ، وبين كيف التدرج من بعضها الى بعض ؛ ثم بدأ بفلسفة أفلاطون يعرف بغرضه منها ، وسمى تواليفه فيها . ثم أتبع ذلك بفلسفة ارسطوطاليس ، فقدم لها مقدمة جليلة عرف منها بتدرجه الى فلسفته . ثم بدأ بوصف أغراضه في تواليفه المنطقيه والطبيعية كتاباً كتاباً حتى انتهى به القول في النسخة الموجودة الى اول العلم الالهي ، والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه » .

ثم يتابع القفطي كلامه فيقول :

« فلا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منه فانه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم ، والمعاني المختصة بكل علم منها » . ثم له كتابان لا نظير لهما أحدهما المعروف (بالسياسة المدنية) والآخر المعروف (بالسيرة الفاضلة) عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهي على مذهب ارسطوطاليس في مبادىء الستة الروحانيـة ، وكيف يؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرّف فيهما بمراتب الانسان وقواه النفسانية ، وفرّق بين الوحي والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة ، واحتياج المدينة الى السيرة الملكية ، والنواميس النبوية .

ثم له بعد هذا كتاب شريف في احصاء العلوم والتعريف بأغراضها ، لم يسبق اليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء اليه والنظر فيه .

وكتابه « المدينة الفاضلة » وما ينطوي فيه (عن المدينة الجاهلة ، والمدينة الفاسقة ، والمدينة المبدلة ، والمدينة الضالة) ، ابتدأ تأليفه ببغداد وحمله الى الشام

في آخر عام ٣٣٠ وتمّمه بدمشق في سنة ٣٣١ ، وحرّره ، ثم نظر في النسخة بعد التحرير فأثبت فيها الابواب ، ثم سأله بعض الناس ان يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه ، فعمل الفصول بمصر في سنة ٣٣٧ وهي ستة فصول .

وله كتاب مبادىء آراء المدينة الفاضلة ، وكتاب الالفاظ والحروف ، وكتاب الموسيقى الكبير ألّفه للوزير ابي جعفر محمد بن القاسم الكرخي ، وكتاب احصاء الايقاع ، وكلام له في النقلة مضافاً الى الايقاع ، وكلام في الموسيقى ، ومختصر فصول فلسفية منتزعة من كتب الفلاسفة ، وكتاب المبادىء الانسانية ، وغير هذه الكتب التي تعد بخمسة وتسعين كتاباً او اكثر في مواضيع مختلفة ذكرها ابن اصيبعة في المجلد الثاني (ص ١٣٩) من كتابه عيون الانباء في اخبار الحكماء .

وذكر صاحب معجم المطبوعات العربية في المجلد الثاني (ص ١٤٢٥) .
« ان المطبوع من كتب الفارابي : آثار اهل المدينة الفاضلة ، طبع في لندن عام ١٨٩٥ ، وفي مطبعة النيل عام ١٣٢٥ هـ . وكتاب ما بعد الطبيعة ، طبع في مصر سنة ١٣٢٥ . ورسائل الفارابي طبع في مطبعة السعادة عام ١٣٢٥ ، وكتاب فصوص الحكم طبع في العجم عام ١٣١٨ ، وكتاب الموسيقى طبع في لندن عام ١٨٨٤ ، وكتاب مبادىء الفلسفة القديمة ، طبع في مطبعة المؤيد عام ١٩١٠ » .

وذكر ابن جلجل في تاريخ الاطباء « ان ابن الفارابي دبر مارستان الريّ ثم مارستان بغداد أيام المكتفي » .

ويقول الدكتور محمد البهي (ص ٩١) من كتابه « الجانب الالهي من التفكير الاسلامي » جزء ٢ .

« وقد انتقد الفارابي المتكلمين بأنهم يستخدمون في ادلتهم قوانين الفكر واحكامه بدون مناقشة على انها مسلّمة ، ويعتقدون ان النتائج التي تأتي بها الاقيسة المركبة من هذه الاحكام (اي القضايا) يقينية . ويكفي ، في نظرهم ، لوصف النتيجة بوصف اليقين ان يكون شكل القياس من الاشكال المنتجة .

« وهو وان توجه بهذا النقد الى المتكلمين فنقده في الواقع مصوب نحو المنطق

الصوري ، لأن هذا المنطق يعنى بالناحية الشكلية اكثر من تحري الواقع ، يعني ببيان ما يتوفر لصحة القضية ، وصحة شكل القياس ، وربط النتيجة بالمقدمات .. الخ . فصدق النتيجة متوقف على مبادىء — هذا المنطق — على استيفاء القضايا التي تألف منها قياسها ، وعلى استيفاء القياس نفسه الشروط الكلية . اما رعايته الواقع فأمر ثانوى ، او قد يغفل أمره كلية .

فمثلاً في هذا القياس ، وهو من الشكل الثالث ، كل انسان حيوان ، وكل انسان جسم (١) .

النتيجة : بعض الحيوان جسم ، صادقة ، وكل حيوان جسم ، كاذبة . لأن الثانية خلت من بعض الشروط الصورية للانتاج ، وهو مكان رد الشكل الثالث الى الشكل الاول .

« وكل ما اشترطه هذا المنطق في ناحية « مادة » القضية ، هو ان تكون بديهية ، أو مسلمة عند الخصم . ولكن البداهة قد يكون سببها عادة شائعة ، وكذا تسليم الخصم ليس حجة على الواقع ، وليس صدى لما في نفس الامر ، لان تسليمه يتوقف ـ فحسب ـ على ثقافته الخاصة . وقد تكون قاصرة او خاطئة ، وهذا التوجيه لنقد الفارابي للمتكلمين يجعله من رجال المنطق التجربى القائلين بالتحليل للوصول الى اليقين .

« وربما يوجه نقده هذا توجيهاً آخر ، اذ الفارابي في مقالته عن « معاني العقل » يذكر في الصحيفة ٤٧ ان المتكلمين كانوا يريدون من العقل في اقوالهم : هذا مما يوجبه العقل ، أو ينفيه العقل ، او لا يقبله العقل ، المشهور في بادىء الامر ، لأن ما اراده اريسطو في كتاب « البرهان » وهو قوة النفس التي بها يحصل للانسان اليقين بالمقدمات الصادقة الضرورية .

والفارابي في نقده للمتكلمين كأنه يقول :

انهم يستخدمون في ادلتهم احكام الفكر والعقل ، اي يستخدمون القضايا

---

(١) فالنتيجة : ان الانسان حيوان وجسم ، ولكن ليس كل حيوان انساناً ولا كل جسم انساناً.

المشهورة في بادىء الامر، في تركيب القياس، ثم يعتقدون بصحة نتائجه، دون نظر، هل تلك القضايا من ضرورات العقل بالمعنى الذى حدده اريسطو ام لا؟ ويكون مراد الفارابي حينئذ انهم لم يستخدموا المنطق طبقاً لما وضعه اريسطو. وهو اذن ينتقد المتكلمين فحسب، دون المنطق الصوري في حد ذاته (١)».

«وكما انتقد الفارابي المتكلمين بمخالفتهم منطق اريسطو في الاستدلال، انتقد الطبيعيين بأنهم لا يجاوزون في بحوثهم الحوادث والآثار الطبيعية الى فهم وحدة العالم العامة، اذ كل همهم البحث عن شرح ظواهر الكون المنثورة، والتنقيب عن قوانين عامة لما تشابه منها، كقوانين حركة الافلاك، وتغيير الفصول... اما مجاوزة هذا النطاق الى البحث عن وحدة عامة تندرج تحتها الموجودات وظواهرها، فليس مقصوداً بالذات لهم».

ويقول الاستاذ الاكبر الشيخ مصطفى عبدالرزاق في كتابه (تاريخ فلاسفة الاسلام) عن الفارابي (ص ٧٠) انه فيلسوف العرب والمعلم الثاني.

ويصف نشاط الفارابي العلمي بما خلاصته:

«لا ينتهي فضل الفارابي في تفسير كتب اريسطو وتصحيح تراجمها، والتمهيد بذلك للنهضة الفلسفية في الاسلام التي تكاملت بعده، بل له ايضاً انظار مبتدعة، وابحاث في الحكمة العلمية والعملية عميقة اساسية، لم تتهيأ للباحثين كل الوسائل لتفصيلها تفصيلاً وافياً».

هذا هو الفارابي في مجمل حياته ونظراته الفلسفية.

★ ★ ★

٢ ـ لماذا ألّف الفارابي كتاب المدينة الفاضلة، ومتى كان تأليفها بالنسبة لأيام حياته:

لقد ذكرنا ان الفارابي عاش ثمانين سنة، ومنهم من قال انه عاش احدى

(١) يبدو ترجيح هذا التوجيه عند الدكتور محمد البهي اعتماداً على ما ذكره الفرابي في مقالته عن معاني العقل، بينما يفهم التوجيه الأول من كلام بعض المستشرقين في الحديث عن الفارابي (٩٢).

وثمانين سنة . والعبرة ليست بتحديد سني عمره ، ولكن المهم معرفة متى كان تأليف المدينة الفاضلة بالنسبة لعمره .

فالقفطي يقول : « ان للفارابي كتابين لا نظير لهما : أحدهما المعروف بالسياسة المدنية ، والآخر المعروف بالسياسة الفاضلة ، عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهي على مذهب ارسطوطاليس في المبادىء الستة الروحانية (١) ، وكيف يوجد عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرف فيهما بمراتب الانسان وقواه النفسانية ، وفرّق بين الوحي والفلسفة ، ووصف اصناف المدن الفاضلة ، واحتياج المدينة الى السير الملكية والنواميس النبوية .

« وعنده ان كتاب « السياسة المدينية » ، وكتاب « السياسة الفاضلة والمدينة الفاضلة » شيء واحد . وقد يكون الفارابي وضع له اسمين كعادته في بعض مؤلفاته . أما كتاب السياسة فيسمى ايضاً كتاب الموجودات الذي بيّنا مبادئه » .

والذي يظهر من مؤلفات الفارابي وكثرتها ، وتنوّع مواضيعها وعلومها ، انه لا يمكن ترتيب مؤلفاته بحسب تاريخ وضعها ، ولكن يمكن ترتيبها من حيث نوعها .

فمؤلفاته في الكلام او مبادىء الفلسفة الطبيعية قد تكون من وضعه في صباه ، اوقد يكون ألّفها حباً منه في انتشار الحكمة بين الجمهور . ولكن مؤلفاته القيمة ، وهي ما كانت خاصة بفلسفة (ارسطو) شرحاً وتفسيراً وتحديداً ، كانت بعد نضوجه في درس كتب اريسطو وافلاطون ، ونضوج علمه في بقية العلوم .

---

(١) المبادىء الستة الروحانية ، وتسمى « الستة اركان المجردة » وهي :

١ ـ المبدأ الالهي ، او السبب الأول ، وهو فرد اي واحد لا يتعدد .
٢ ـ الأسباب الثانوية ، أو عقول الاجرام السماوية .
٣ ـ العقل الفعال .
٤ ـ النفس .
٥ ـ الصورة .
٦ ـ المادة المعنوية .

يقول الدكتور جميل صليبا في كتابه (من افلاطون الى ابن سينا) وفي بحثه عن الفارابي وكتابه المدينة الفاضلة (ص ٤٠) :

« ان الفارابي لم يؤلف كتاب المدينة الفاضلة في ايام شبابه ، بل الفه في شيخوخته بعد ان ادرك السبعين من سنه . فهو اذن ليس حلماً من احلام الشباب، ولا وهماً من اوهام الشعراء ، بل هو خلاصة لمذهبه في الكون والحياة ، ونتيجة لتجربته النفسية والاجتماعية » .

ثم يقول : « وابتدأ الفارابي بتأليف هذا الكتاب ببغداد وحمله الى الشام في آخر عام ٣٣٠ هجري ، وتمّمه بدمشق سنة ٣٣١ ، وحرّره ، ثم نظر في النسخة بعد التحرير ، فأثبت فيها الابواب ، ثم سأله بعض الناس ان يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه ، فعمل الفصول بمصر عام ٣٣٧ وهي ستة فصول (١) ، لا تقتصر على ذكر الاجتماع الانساني ، ووصف انواعه وشرائطه فحسب ، بل تبحث في الموجود الاول وفي نفي الشريك عنه ، ونفي الضد ، وتذكر صفات الاله وعلمه ، وأنه حق ، وحياة ، وحكمة ، وتبين صدور جميع الموجودات عنه ، ومراتبها ، من هيولانية والهية ، وتوضح حركات الأجسام السماوية وغايتها ، وأسباب حدوث الصورة ، والمادة الأولى ، ثم تعلل تعاقب الصور على المادة ، وتتبع ذلك كله ببيان أجزاء النفس ووحدتها ، واحتياج الانسان الى الاجتماع ، والتعاون ، وذكر المدينة الفاضلة وأضدادها » .

والكتاب مجموع فلسفي مختصر يجد فيه المطالع كل ما يحتاج اليه من نظريات الفيض ، والنفس ، والارادة ، والسعادة والوحي ، وأبحاث بسيقولوجية تتعلق بأسباب المنامات ، ووظائف العقل وتعليلها بنظريات فلسفية .

٣ ـ ماذا أراد الفارابي من تأليف كتاب (المدينة الفاضلة) :

جاء في تعريف الفارابي للمدينة الفاضلة « هي المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها ، التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة الحقيقية . ومعنى ذلك أن أهل المدينة

(١) نقلا عن ابن أصيبعه . عيون الأنباء ، جزء ٢ ، ص ١٢٩ .

الفاضلة يتعاونون على بلوغ السعادة بالفكر والعمل . لأن لهم اعتقاداً خاصاً في الله والعقول ، وحقيقة الوجود ، والوحي ، ولهم أعمال فاضلة يقصدون من اتباعها بلوغ الخير . لأن الاجتماع الفاضل ، هو الاجتماع الذي به يتعاون الأفراد على نيل السعادة (١) ، كذلك الأمة الفاضلة : هي الأمة التي تتعاون فيها الأمم المختلفة على بلوغ السعادة » .

وقد شبه الفارابي المدينة الفاضلة بعد أن بين المقصود منها : « ببدن تام صحيح ، تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وحفظها . فالأفراد يتعاون في المدينة ، كما تتعاون المدن في الأمة ، وكما تتعاون الأمم في المعمورة » .

وتشبيه الجسم بالدولة قديم جـــداً ، قال به افلاطون ، وهـــو يذهب في هـــذه المقايسة بين الجسد والدولة مذهباً بعيداً ، فيشبه الكسالى في الدولة بالبلغم ، ويشبه المسرفين بالصفـراء ـ (كما يشبه أصحاب المذهب العضوي في أيامنا هذه حادثة الفاغوسيت Phagocite ، أي البلعميـات البيضاء ، بالدفاع الوطـني ، وحادثة الادخار الحيواني بالادخار الاقتصادي) ـ فالكسالى والمسرفون يحـــدثون اضطراباً في جسم الدولة كما يحدث البلغم والصفراء تشويشاً في الجسد .

وكذا ذهب الفارابي هذا المذهب في تكوين مدينته الفاضلة فقال : « وكما أن البدن وأعضاؤه مختلفة ، متفاضلة الفطرة والقوى ، فكذلك المدينة وأجزاؤها

---

(١) السعادة : ماهي السعادة بنظر الفلاسفة عامة وبنظر الفارابي خاصة ؟

يقول الفارابي في كتابه احصاء العلوم (ص ٦٤) أن التي هي في الحقيقة سعادة لا يمكن أن تكون في هذه الحياة ، بل في حياة أخرى بعد هذه الحياة وهي الآخرة . والمظنون به سعادة (كالثروة ، والكرامة ، واللذات) اذا جعلت هي الغايات فقط في هذه الحياة ، ويميز الأفعال والسنن ، ثم يبين أن التي بها ماهو في الحقيقة سعادة هي (الخيرات ، والجمال ، والفضائل) ، وأن ما سواها هو الشرور والقبائح والنقائص . ومن هذا يستفاد أن السعادة المادية هي الثروة ، والكرامة ، واللذات . والسعادة المعنوية هي الخيرات ، والأفعال الجميلة ، والفضائل . وعندي أن (السعادة هي اللذة التي لا يعقبها ألم مادي أو معنوي) .

مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات ، وفيها انسان هو الرئيس ، وآخـــرون تقرب مراتبهم من الرئيس ، وان في الجسد أعضاء تقوم بوظائفها ابتغاء غرض العضو الرئيسي ، وأعضاء أخرى تفعل أفعالها ، على حسب أغراض الأعضاء الأولى .

فمن الاعضاء ماهو قريب من القلب يخدمه في غرضه ، ومنها ماهو بعيد عنه يخدم الاعضاء الأولى في أغراضها . فالأعضاء الأولى تخدم ولا ترأس أصلا . ان تعاون أعضاء المدينة يشبه تعاون أعضاء الجسد ، فالأفراد الذين يلازمون الرئيس يخدمونه في أغراضه ، ويكونون في الرتبة الأولى ، والأفراد الذين في الرتبة الثانية يخدمون أغراض الرتبة الأولى . وهكذا تترتب أجزاء المدينة الى أن ينتهي الى أعضاء يخدمون ولا يخدمون ويكونون في أدنى المراتب » .

والذي يظهر لي أن الفارابي استمد نظريته هذه من وضع الجسم الانساني وتركيبه وتقسيم أفعاله وأعماله ، كجهاز الدماغ والعصب ، وجهاز الهضم ، وجهاز التنفس ، وجهاز الحركة والأفعال ، أي العضلات ، وجهاز التغذية والتمثيل ، وجهاز الغدد الصماء ، وجهاز التوالد ، وجهاز الدم ، وجهاز الجلد ، وجهاز العظم ، وغيرها من اقسام البدن وأجهزته التي تعمل دائماً بنظام لدوام الحياة وبقاء النسل ويقصد كل منها خيره الذاتي وخير المجموع معاً ومجملاً .

ولا عجب إن أخـــذ الفارابي بهذه النظرية لأنه درس الطب ، ودرس التشريح وأفعال الجسم فاستمد مثاله في تعليل حياة المجتمع البشري وتكوين المدينة الفاضلة من علم الطب كما فعل افلاطون في جمهوريته وهو طبيب وفيلسوف ، وكما فعل ابن خلدون في مقدمته عندما درس نشوء الأمم وزوالها وحياتها وهو طبيب وعالم اجتماعي وفيلسوف ، فشبه الدولة والأدوار التي تمر بها ، بالانسان والأدوار التي تمر بحياته (دور النشوء والنمو ، ودور التكامل ، ثم دور الانحطاط والانحلال) .

على أن العلماء في الوقت الحاضر منهم من يرى ما قاله الفارابي صواباً ، ومنهم من يرد على هذه النظرية ويقول : ان بين وظائف الحياة أي وظائف الجسم ، ووظائف الاجتماع أي الأمم والدول ، فرقاً عظيماً من حيث التعاون والاختلاف ، ومن حيث القوانين التي تحكم حياة كل منهما .

وكان الفارابي قد انتبه الى ما في هذه المقايسة من صعوبة فقال : « غير أن اعضاء البدن طبيعية ، والهيئات التي لها هي قوى طبيعية ، وأجزاء المدينة وان كانوا طبيعيين لها ، فان الهيئات والملكات التي يفعلون بها افعالهم للمدينة ليست طبيعية بل ارادية » .

فالفرق عنده بين المدينة والبدن (أن أعضاء المدينة افراد يشعرون ويفكرون ويفعلون ، أما حجيرات الجسد فهي لا تفكر ولا تريد ، بل تفعل بقوى طبيعية) .
والذي يستنتج مما تقـــدم ان المشابهة بين الجسد والدولة ليست مطلقة لأنهما يتشابهان في اشياء ، ويختلفان في اشياء اخرى . ولكن بما اقال لتنظيم الحياة الاجتماعية على صورة (أوتوقراطية) يكون الحكم فيها لملك مستقل يرأس الجميع من غير ان يكون مرؤوساً ، وكما ان العضو (الرئيس) في البدن هو اكمـــل اعضائه واتمها ، كذلك رئيس المدينة يجب ان يكون اكمل اجزاء المدينة .

ثم يقول : « وكما ان القلب يتكوّن اولاً ، ثم يكون هو السبب في وجود سائر الاعضاء ، كذلك رئيس المدينة ينبغي ان يكون هو اولاً ثم يكون هو السبب في ان تحصل المدينة وافرادها .

وكلما تقربت الاعضاء من العضو الرئيس ، كانت اعمالها اشرف ، واذا بعدت عنه كانت اعمالها اخس » .

ثم ينتقل الفارابي من هذا المثال الى تطبيق نظريته في حال الموجودات فيقول:

« ان السبب الاول نسبته الى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة الى سائر اجزائها » .

وهو يعتقد بأن للموجودات مراتب ، وان الاخس منها يقتفي غرض ما هو فوقه الى ان ينتهي الى السبب الاول ، وينتهي الى ان المدينة الفاضلة هي المدينة التي ترتبت اعضاؤها على صورة شبيهة بترتيب الموجودات واتصالها ببعضها البعض .

وعنده (١) « ان اكمل مدينة هي مدينة الله، أما المدينة الفاضلة فتحتذي في

---

(١) عن كتاب الدكتور جميل صليبا « من افلاطون الى ابن سينا » ص ٤٩ .

اجزائها وترتيبها مراتب الكون ، وينبغي ان تنظم المدينة الفاضلة وفقاً لنظام الوجود. ويجب ان تحذو في أفعالها حذو رئيسها الاول وغرضه . فالتي أعطيت كل ما به وجودها من اول الامر ، فقد احتذى بها من اول امرها حذو الاول ومقصده ، فعادت وصارت في المراتب العالية ، واما التي لم تعط من اول الامر كل ما به وجودها ، فقد اعطيت قوة تتحرك بها نحو ذلك الذي يتوقع نيله ، ويقتفي في ذلك ما هو غرض الاول .

وكذلك ينبغي ان تكون المدينة الفاضلة ، فان اجزاءها كلها ينبغي ان تحتذي بأفعالها حذو مقصد رئيسها الاول » .

٤ ـ لماذا ألّف الكتاب :

اما لماذا ألف الكتاب ، فيظهر لنا من تحليل حياته وما لاقاه في بغداد من تقلّب السياسة ، واضطراب الاوضاع الاجتماعية والمدنية ، وما كان له من ثقافته وحياته من تأثير في اخلاقه ومعيشته (١) وتصوّره .

ان الفارابي كان يعيش « في عالم العقل ابتغاء للخلود ، وكان ملكاً في عالم العقل ، لسعة علمه ومعرفته وعمق تفكيره وقوة منطقه وتصوراته . وبدافع هذه العوامل تصوّر لسعادة العالم وجود مدينة فاضلة يحكمها حاكم واحد يكون عالماً وفيلسوفاً ، والا لا بدّ من تعدد الحكام اذا لم تجتمع هذه الصفات في رجل واحد .

وعنده ان السعادة ممكنة على وجه الارض اذا تعاون افراد المجتمع على نيلها

---

(١) من الملاحظ ان الفارابي لم يتأهل وبقي أعزباً طول حياته، ولا يعرف السبب لعزوفه عن الزواج مع انه عاش ثمانين سنة من العمر. هل جرّب وخاب ؟ هل اضطراب العيش منعه ؟ هل انشغاله الفكري وسهره الدائب أمات فيه الدافع الجنسي ؟ هل كان فيه عنة ام ان عقيدته كانت كعقيدة ابي العلاء في المرأة والاولاد ؟ لا احد يدري ! ولكن من المحقق ان هذا مما يعد شذوذاً في الطبع وعاملاً في تذوق الفلسفة والتعمق في الالهيات ونسيان الملذات الجسمانية ، والانصراف الكلي الى نيل الملذات الروحية .

بأعمالهم الفاضلة ، والفضيلة برأيه هي « صحة النفس وجمالها وسجيتها الصالحة » .

واعتبر المدينة الفاضلة « ببدن تام صحيح ، تتعاون اعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وحفظها . فالافراد يتعاونون في المدن ، كما تتعاون المدن في الامة ، وكما تتعاون الامم في المعمورة .

وكل اجتماع انساني هو الاجتماع الذي يشتمل على جميع الامم ، وأحسن دولة تنال بها السعادة هي الدولة الكبرى» .

وبذلك تنبأ الفارابي باجتماع الامم كلها ، واتصالها ببعضها البعض واتحادها فكأنه رجل من رجال القرن العشرين يؤمن بالسلام ، ويثق برسالة جامعة الامم، ولم يكن كافلاطون يعمد الى تنظيم مدينة ضيقة كأثينا وأسبارطا ، بل فكر الفارابي في اتحاد الامم كلها واجتماعها حول ملك واحد ، ولعله استمدّ رأيه من طبيعة الدين الاسلامي ورسالته الداعية الى هداية الامم وتعاونها لانتاج المعمورة الفاضلة.

ولكن هل مدينته الفاضلة ممكنة الحصول ؟ وهل وضع لها من اسس ومبادىء وآراء قابلة للتطبيق ؟ » .

ان الدكتور جميل صليبا يعتقد (١) « ان آراء الفارابي في المدينة الفاضلة لا تخلو في بعض الأحيان من السذاجة ، غير ان قوة وصفه ناشئة في الحقيقة عن صدق تصوره ، وقوة ايمانه ، وثقته بطبيعة الانسان وفطرته . وان مدينته الفاضلة هي مدينة الصالحين الذين يحكمهم الفلاسفة الحكماء ، او الأنبياء المنذرون . لذلك كانت المدينة المذكورة خيالية بعيدة عن الحياة والتجربة » .

ويقول (دمبور) عن طبيعة الفارابي (٢) « ان الفارابي كان ملكاً في عالم العقل . أما من حيث ما يقتني من متاع الدنيا فكان فقيراً ، وكانت تسعده الكتب والأطيار والأزهار ، ولم يكن ذا شأن عند امته ولم يجعل بين تعاليمه في

---

(١) من كتاب الاستاذ جميل صليبا (من أفلاطون الى ابن سينا) .

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام لجون ده بور ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الهادي أبو ريده .

الأخلاق والسياسة مكانا لأمور الدنيا او للجهاد ، ولم تكن فلسفته ترمي لاشباع الرغبات المادية من أي نوع . وكانت فلسفته تعارض الخيال المتردد بين الحس والعقل الذي يظهر بنوع خاص في مبتكرات النفس والخيالات الدينية . وكان هو فانياً في مجردات العقل المحض ، وفي زهده وتقواه كان موضع العجب من معاصريه ، وبعض تلاميذه يجلونه ويرون الحكمة تجسدت فيه ، وبعضهم رماه بالزندقة ، وقد يكون لرأيهم ما يؤيده . فكما ان الفلسفة الطبيعية جرت الناس بسهولة الى القول بالطبيعة والى انكار الصانع ، فكذلك أدى التوحيد بأهل المنطق الى القول بوجود الموجود دون ان يفطنوا الى ذلك » .

٥ ـ ماهي مبادىء فلسفة الفارابي :

وقبل البحث عن موضوع « المدينة الفاضلة » التي تصورها الفارابي كما تصور « أفلاطون » جمهوريته ، لابد لنا من بسط مبادىء فلسفة الفارابي لنستطيع فهم فلسفة المدينة الفاضلة التي تمثل فلسفته الخيالية .

يقول ده بور : « اذا نظرنا نظرة اجمالية الى فلسفة الفارابي في جملتها وجدناها مذهباً « روحانياً Spiritual » متسقاً تمام الاتساق . وبعبارة أدق مذهباً « عقلياً » . وكل ما هو مادي محسوس فمرده الى القوة المتخيلة ويمكن اعتباره صورة مشوشة . والموجود الحقيقي هو العقل . وان كان ذا مراتب متفاوتة . والله وحده هو العقل المحض الذي لاتخالطه كثرة .

أما العقول(١) التي تفيض عنه منذ الأزل ، والتي يفيض بعضها عن بعض

(١) يقول الفارابي : نقلاً عن عيون المسائل (ان عناية الله محيطة بالاشياء جميعها ، وان الخير في العالم أكثر من الشر ، والشر موجود في الكائنات الفاسدات لان طبيعتها تقتضي ذلك . وهو يقول ماردده ابن سينا من أن الشرور محمودة بالعرض ، فلولاها لما كانت الخيرات الكثيرة ، وفوات خير كثير لاجل شر يسير ، لابد منه ، أكبر شراً .

ففيها كثرة (١) . وعدد العقول المفارقة يتفق مع مذهب بطليموس ، وهو يوازي مراتب الأفلاك السماوية ، وكلما ابتعد أحد هذه العقول عن العقل الاول نقص نصيبه من الوجود العقلي . وجوهر الانسان ، أعني عقله ، يفيض من عقل الفلك الأدنى . فالموجودات سلسلة متدرجة متصلة ، والعالم كل منظم ، وأجزاؤه مرتبة ترتيباً بديعاً ، والشر في الجزئيات انما هو نتيجة لازمة لكونها جزئية متناهية ، أما العالم في جملته فيسوده الخير ، والفارابي يصور هذا الخير تصويراً قوياً .

وهذا النظام الذي يتجلى في هذا العالم الفائض عن الله منذ الأزل ، هل يجوز أن يطرأ عليه الفساد ؟ وهل يجوز أن يرجع اليه ثانية ؟ .

فيجيب الفارابي (٢) : « هناك رجوع متصل الى الله ، ما في ذلك شك ؛ فالنفس تشتاق الى ما فوقها ، وكلما زاد حظها من المعرفة صفا جوهرها وارتقت ، ولكن الى أي درجة يكون ارتقاؤها ؟ لم يستطع الفلاسفة ولا الانبياء ان يجيبوا عن هذا السؤال اجابة واضحة ! والفارابي يذهب الى ان حكمة الفلاسفة ، وكذلك حكمة الانبياء ، تفيض عن العقل الفعال ، وهو يذكر « النبوة بين حين وآخر ، ويصورها بأنها أعلى مرتبة يبلغها الانسان في العلم والعمل ، ولكن هذا ليس رأيه الحقيقي ، او على الاقل ليس هو النتيجة المنطقية التي تلزم عن فلسفته النظرية .

« تقول هذه الفلسفة ان كل امور النبوة في الرؤيا ، والكشف ، والوحي ، ونحوها تتصل بالخيال ، فهي في المرتبة الوسطى بين الاحساس وبين المعرفة العقلية الخالصة ، على أنه اذا كان الفارابي في آرائه في الأخلاق والسياسة يجعل للدين شأناً كبيراً في التهذيب ، فهو يعده من حيث قيمته الاخيرة ، أدنى مرتبة من المعرفة العقلية الخالصة » .

---

(١) القول بوجود العقل المطلق وان كان ينسب الى بطليموس ويقول به بعض فلاسفة اليونان ، ولكنه في الاصل رأي هندي وعقيدة هندية .

(٢) نقلا عن كتاب (ده بور) في تاريخ الفلسفة الاسلامية .

أما المبادىء التي يمكن استخلاصها من كتبه فاليك أهمها :

١ ـ الفلسفة : « هي العلم بالموجودات بما هي موجودة ، وبتحصيل هذا العلم نتشبه بالله[1] » . والفلسفة بتعريف ثانٍ « العلم الوحيد الجامع الذي يضع أمامنا صورة شاملة للعالم » .

٢ ـ العقل : ان العقل هو الحجة التي يعول عليها ، ولا يعني العقل الفردي بل العقول المختلفة المتصلة .

٣ ـ الموجود وواجب الوجود : يذهب الفارابي الى ان كل موجود ، اما واجب الوجود ، او ممكن الوجود ، وليس هنالك سوى هذين الضربين من الوجود .

ويفسر معنى ممكن الوجود وواجب الوجود بقوله : « ولما كان الممكن لابد ان تتقدم عليه علة تخرجه الى الوجود ، وبالنظر الى ان العلل لا يمكن أن تتسلسل الى غير نهاية ، فلا بد من الانتهاء الى موجود واجب الوجود ، لا علة لوجوده له بذاته الكمال الأسمى ، وهو بالفعل من جميع جهاته منذ الأزل لا حاجة به الى شيء يمد بقاءه ، ولا يعتريه التغير من حال الى حال ، عقل محض ، وحيز محض ، ومعقول محض ، وعاقل محض ، وهذه الأشياء الثلاثة فيه كلها واحد ، وله غاية الكمال والجمال والبهاء ، وله اعظم السرور بذاته ، لا برهان عليه بل هو برهان على جميع الأشياء ، وهو العلة الأولى لسائر الأشياء الموجودة ، وتعينه عين ذاته .

ومعنى الموجود الواجب يحمل في ذاته البرهان على أنه يجب ان يكون واحداً لا شريك له ، فلو كان ثمة موجودين ، كل منهما واجب الوجود ، لكانا متفقين من وجه ، ومختلفين متباينين من وجه . وما به الاتفاق غير ما به التباين . فلا يكون كل منهما واحدا بالذات ، واذن فالموجود الذي له غاية الكمال يجب ان يكون واحدا ، وهذا الموجود الأول الواحد نسميه الله » .

---

(١) من كتاب ما ينبغي ان يقدم ـ ص ١٣ .

٤ ـ العالم العلوي : ويقول الفارابي عنه في كتابه عيون المسائل :

« ومعرفتنا لله من الموجودات التي تصدر عنه ويصدر بعضها عن بعض ، أوثق من معرفتنا له بذاته . فعن الله الواحد يصدر الكل ، وعلمه هو قدرته العظمى ، ومن تعقله لذاته يصدر العالم . وعلة الأشياء جميعاً ليست هي ارادة الخالق القادر على كل شيء ، بل علمه بما يجب عنه ـ (وعلمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه) . وعند الله منذ الأزل صور الأشياء ومثلها ، ويفيض عنه منذ الأزل مثاله المسمى الوجود الثاني او العقل الاول ؛ وهو الذي يحرك الفلك الاكبر ؛ وتأتي بعد هذا العقل ، عقول الأفلاك الثمانية تباعاً ، وكل منها كامل ، وكل منها على حدة ، وهذه العقول هي التي تصدر عنها الأجرام السماوية ، والعقول التسعة مجتمعة ، هي التي تسمى ملائكة السماء وهي عبارة عن مرتبة الوجود الثانية .

وفي المرتبة الثالثة يوجد العقل الفعال المسمى روح القدس ، وهو الذي يصل العالم العلوي بالعالم السفلي .

وفي المرتبة الرابعة توجد النفس ، وكل من العقل والنفس لا يظلاّن على الحالة الواحدة الخالصة بل يتكثران بتكثر أفراد الانسان .

وفي المرتبة الخامسة : توجد الصورة .

وفي المرتبة السادسة : توجد المادة . وبهاتين تنتهي سلسلة الموجودات التي ليست ذواتها أجساماً .

والمراتب الثلاثة الاولى : الله ، وعقول الأفلاك ، والعقل الفعال ، ليست أجساماً ولا هي في أجسام .

أما المراتب الثلاثة الاخيرة وهي : النفس ، والصورة ، والمادة ، فهي تلابس الاجسام وان لم تكن ذواتها اجساماً .

اما الاجسام ـ ومنشؤها خيال العقل ـ فهي ستة اجناس ايضاً :

١ ـ الاجسام السماوية .

٢ ـ الحيوان الناطق .

٣ ـ الحيوان غير الناطق .

٤ ـ أجسام النبات .

٥ ـ اجسام المعادن .

٦ ـ والاسطقسات الاربعة (الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار) .

فاذن الخلق او صدور الخلق عند الفارابي هو عند الله في صورة فيض من العقول يحدث منذ الازل .

فاذا تعقل العقل الأول مبدعه صدر عنه عقل الفلك الثاني ، ومن تعقل هذا لنفسه اعني بما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود الفلك الاقصى ، ويستمر فيض العقول بعضها عن بعض فيضاً ضرورياً حتى تصل الى الفلك الادنى ، وهـذا الفيض يتفق مع نظام الافلاك عند بطليموس . والافلاك باجتماعها تؤلف سلسلة متصلة لأن الوجود واحـد ، وايجاد العالم وحفظ الوجود شيء واحد . وليس العالم مظهراً لوحدة الذات الالهية فقط ولكنه ايضاً في نظامه البديع مظهر للعدل الالهي (١) .

٥ ـ العالم الفلسفي :

والعالم الذي يقع دون فلك القمر يتأثر تأثراً كلياً بالافلاك السماوية ، غير أن تأثير هـذا العالم العلوي انما يتناول العـالم السفلي في جملته من حيث ما يجب

---

(١) وعند الفارابي ان الابداع هو حفظ ادامـة الوجود ، اي « وجود الشيء الذي ليس له وجود بذاته » ادامة لا تنفعل بشيء من العلل غير ذات المبدع . فهو علة وجود الاشياء وهو الذي يعطيها الوجود الابدي ويدفع عنها العدم مطلقاً . لا بمعنى انه يعطيها وجوداً مجرداً بعد كونها معدومة .

« عن عيون المسائل »

أن يكون فيه من نظام ، كما هو معروف بداهة ؛ أما تأثر الجزئيات بعد ذلك فهو ينشأ عن فعل طبيعي لبعضها في البعض الآخر ، وهو يحدث وفقـــاً لقوانين نعرفها من التجربة .

٦ ـ النفس الانسانية :

وفي رأي الفارابي ان قوى النفس الانسانية أو اجزاؤها ليست متساوية المرتبة ، بل بعضها أرقى من بعض بحيث ان القوة الدنيا تشبه ان تكون مادة بالنسبة للعليا ، وهذه بمثابة صورة في تلك ، وافضل القوى النفسانية على الاطلاق، وهي القوة الناطقة ، ليست مادة لقوى اخرى . وهي صورة لكل الصور التي دونها.

والنفس تترقى من المحسوس الى المعقول بواسطة القوة المتخيّلة ، على ان مع القوى النفسانية بأسرها نزوعاً او ارادة ، وكل علم يقابله عمل ، واشتياق الشيء او كرهه يلازمان الاحساسات ولا ينفكان عنها .

والنفس تقف حيال الصور الذهنية التي تمثل فيها موقف المصدق او المكذب. واخيراً تأتي القوة الناطقة فتميز بين الجميل والقبيح ، وتحوز الصناعات والعلوم .

وتحدث نزوعاً ارادياً نحو ما نعقـله . وكل احساس او تخيل او تعقل يعقبه نزوع . هو نتيجة ضرورية تلزم عن ذلك ، كما تلزم الحرارة عن جوهر النار .

٧ ـ العقل في الانسان :

ومسألة العقل عند الفارابي هو محور البحث في الغالب . والاشياء المـادية اذا صارت معقولة صار لها وجود في العقل غير وجودها الاول ، وارتفع عنهـا كثير من صفات الماديات . والعقل في نفس الطفل بالقوة ، وهو انمـا ينتقل الى الفعل بعد ادراك صور الاجسام بواسطة الحواس والقوة المتخيّلة .

غير ان هذا الانتقال من القوة الى الفعل ـ اعني حصول المعرفة الحسية ـ ليس فعلاً للانسان بل للعقل الفعال الذي هو أعلى من العقل الانساني في المرتبة ، وهو عقل الفلك الاخير ، فلك القمر .

فالمعرفة الانسانية لا يحصلها العقل باجتهاده ، بل تتجلى في صورة هبة من العالم الاعلى . وفي ضوء العقل الفعال يستطيع عقلنا ادراك الصور الكلية للاجسام وبذلك يصير الاحساس معرفة عقلية .

والاحساس لا يقبل الا الصور المنتزعة من الماديات ، أما عقول الافلاك ففيها معان كلية أشرف من الاشياء المادية ، وهي سابقة عليها .

والانسان يتلقى المعرفة عن هذه الصور المفارقة ، وهو لا يدرك ما يدركه في الحقيقة الا بمساعدتها .

والعقول يؤثر كل منها في الذي يليه مباشرة ، بمعنى ان كلاً منها يقبل فعل ما فوقه ، ويؤثر فيما دونه .

ويسري هذا التأثير من العقل الاعلى وهو الله حتى ينتهي الى العقل الانساني - ويسمى العقل الفعال - وهو عقل الفلك الادنى - فعالاً بالاضافة الى العقل الانساني الذي ينفعل به ، والذي يسمى من اجل ذلك بالعقل المستفاد .

غير ان هذا العقل الفعال ليس فعالاً دائماً ، لأن المادة تقيد فعله ، اما العقل الذي هو الفعال دائماً والمتحقق تحققاً تاماً فهو الله .

والعقل في الانسان له ثلاثة اوجه باعتبار كونه :

١ - عقلاً بالقوة ويسمى ايضاً بالعقل الهيولاني او العقل المنفعل .

٢ - وعقلاً بالفعل .

٣ - وعقلاً متأثراً بالعقل الفعال .

ويريد الفارابي من هذا ان في الانسان استعداداً ، او عقلاً بالقوة ، وهو ينتقل الى الفعل بواسطة المعرفة المكتسبة من ادراك الاشياء ، ويصل الى معرفة الكلي الذي يسبق كل ادراك ويحدث الادراك نفسه .

وهناك تقابل بين درجات العقل وأطوار المعرفة العقلية ، وبين درجات

الموجودات والادنى من الموجودات ينزع به الشوق الى ما فوقه ، والاعلى منهما يرفع الادنى اليه . والعقل الفعال الذي وهب الصور لكل الموجودات الفعلية ، يعمل على جمع هذه الصور في وحدة يؤلف الحب بين أجزائها ، وهو يجمعها اولاً في عقل الانسان ، ولما كان العقل الفعال هو الذي وهب الصورة للمادة ، فان امكان حصول المعرفة للانسان ، وكذلك صحة هذه المعرفة ، يتوقفان على ان يهب العقل الفعال للانسان معرفة هذه الصور . ثم ان الصور المتفرقة للأشياء الارضية يجتمع شملها في العقل الانساني ، فيصير هذا مشابهاً لعقل الفلك الادنى ، وغاية العقل الانساني وسعادته ، هي ان يتحد بعقل الفلك ، وهـــذا الاتحاد يقربه من الله .

أما امكان هذا الاتحاد قبل الموت ، فعند فيلسوفنا محل للريب ، أو هو ينكره انكاراً تاماً . وأكبر ما نستطيع بلوغه في هذه الحياة هو المعرفة العقلية . على ان مفارقة النفس الناطقة لبدنها ، تعطيها ما للعقل من حرية ، ولكن هل تبقى نفساً مستقلة بذاتها ، أم تكون جزءاً من العقل الكلي ؟ ان رأي الفارابي غامض في هذه النقطة ويناقض بعضه بعضاً في مختلف الوجوه .

٨ ـ الأخلاق :

وفي رأي الفارابي ، ان علم الاخلاق يضع القوانين الاساسية التي ينبغي ان يسير عليها الانسان في سلوكه . غير أن شأن العمل والتجربة في الاخلاق كبير ، وهو اكبر من علم المنطق الذي يضع قوانين المعرفة .

وكثيراً ما يؤكد الفارابي ان العقل يستطيع ان يحكم على الفعل بأنه خير او شر . وهو في هذا الرأي يخالف علماء الكلام . فهم ـ وان قالوا بمعارف مصدرها العقل ـ لا يرون من حق العقل ان يضع قواعد للسلوك الانساني ، ولكن اذا كان العقل فيضاً من العالم العلوي ، واذا كانت المعرفة أساس الفضائل ، دون ريب ، فلماذا لا يضع العقل قواعد الاخلاق ؟.

٩ ـ السياسة :

والفارابي في علم الاخلاق لا يعنى كثيراً بما يقع في المجتمع بالفعل ، ويرى ان الناس قد دعتهم الضرورة الطبيعية الى الاجتماع ، فهم يخضعون لرئيس واحد تتمثل فيه المدينة بخيرها وشرها ؛ فتكون فاسدة اذا كان حاكمها جاهلاً لقوانين الخير والشر ، او كان فاسقاً او ضالاً . أما المدينة الفاضلة فهي نوع واحد ، ويرأسها الفيلسوف ، ويصف الفارابي أميرها بكل فضائل الانسانية ، وكل فضائل الفلسفة .

١٠ ـ الحياة الاخرى :

ولا تبلغ الاخلاق كمالها الا في مدينة متدينة ، وبحسب أحوال المدينة يكون نصيبها ونصيب أهلها في الدنيا ، بل نصيبهم في الآخرة أيضاً .

ونفوس أهل المدينة الجاهلة تكون خلواً من العقل ، وهي تعود الى العناصر لتتحد من جديد بكائنات أخرى من الناس او من الحيوانات الدنيا .

أما في المدينة المبدلة او الضالة فالشقاء كله لمن بدّل على أهلها الامر أو أضلهم ، والعذاب ينتظره في الآخرة .

والنفوس الضالة تلقى ما تلقاه النفوس الجاهلة . أما النفوس الخيرة العارفة ، فهي التي تبقى وتدخل العالم العقلي ، وكلما زادت درجتها في المعرفة في هذه الحياة علا مقامها بعد الموت بين النفوس ، وزاد حظها من السعادة .

ثم ان الفارابي يعتقد بفناء العقل الانساني في العقل الكلي ، وبفنائه اخيراً في الله . لاننا اذا نظرنا الى العالم باعتبار صدوره عن علته وجدناه شيئاً غير الله ولكن النفس الانسانية اذا صعدت الى العالم العلوي ، رأت ان هذه الحياة هي عين الحياة الآخرة ، لأن الله في كل شيء وهو الكل في وحدته .

انتهى ما ذكره ج. ده بور عن مجمل المبادىء التي وردت عن الفارابي في فلسفته وآرائه في المدينة الفاضلة .

وجه التشابه ووجه التباين :

« ان الفارابي (١) لا تقرأ له كتاباً او مقالاً او رسالة، الا وجدت فيها ذكراً لواجب الوجود، واشارة الى طبيعته، وصفاته، وعلاقة العقول، والاجرام السماوية، وعلم ما تحت فلك القمر، بعلمه وقدرته، وهو يستمد فلسفته من آراء أفلاطون، الذي قسم الموجـــودات الى ثلاث درجات : العالم المحسوس، والعالم المعقول او « المثل »، وعالم المثال الاعلى، وهو المهيمن عليها.

والذي دعاه الى ذلك وجود الحركة المستمرة، والتغير المتواصل، والانتقال الازلي من حالة الى حالة، ومن صورة الى صورة، وكون مظاهر الوجود المحسوس أشباح وخيالات تتتابع وتتلاحق وتضمحل في قلب الحركة الابدية.

« ثم انه ادرك في العقل معقولات ثابتة لا تتغير كتصوّر الانسان، والعدل، والحق، والجمال. فأهمل عالم الحس ويئس من حصره تحت أنوار الفكر والعلم، وانتقل الى عالم المعقولات، فتأمل في هذه التصورات السامية وتساءل من أفاض بها؟ ومن أين اتى فكر العدل المطلق، والحق المطلق، والجمال المطلق، والانسان المطلق؟ أمن المادة؟ أم من الحواس؟ وكيف نجد الى ذلك سبيلاً وهي حركة وتغير، وما النسبة بين التصور المعقول الثابت، والصورة المحسوسة المتحركة؟.

« ثم انتهى به التفكير والتأمل الى القول « بعالم المثل ».

« وعنده اننا لم نحصل على هذه التصورات العقلية من عالم الحس، ولا من استنباطنا الشخصي، بل من دخولنا الى ذاتنا، وعقلنا، وتذكرنا لآثار المثل العليا في ذهننا (٢)، لأن التعلم تذكر لا اقتباس، والنفس البشرية قبل ان تستغرق

(١) من كتاب «الفارابي» لاستاذ الفلسفة في معهد الفرير الخوري الياس فرح ـ ص ٤٧

(٢) ان قصيدة « ابن سينا » التي مطلعها :

هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ ورقاءُ ذات تعزُّزٍ وتمنُّعِ

يدل على قبول الفيلسوف الطبيب لهذه الفكرة تماماً.

في هذا الجسد المظلم الكثيف ، وتنغمس في عالم المحسوسات ، كانت فكرة أزلية تسبح في عالم المعقولات .. هناك تحت اشراق المثال الازلي ، الذي بنوره تسطع صور الكائنات وماهياتها الحقيقية .

« وبهذا الاعتبار فالانسان الذي نراه ونخاطبه ليس هو بالانسان الحقيقي ، بل ان حقيقته هي ماهيته ، هي الانسان الكامل في عالم المثل .

وليس الحيوان الذي يعدو امامك وتراه عيناك هو الحيوان الحقيقي ، بل حقيقته هي ماهيته المطلقة ، الحيوان الكامل في عالم المثل . وان عدلنا ليس هو إلا قبس من العدل المطلق ، وما خيرنا إلا قبس من الخير المطلق ، وما العالم المحسوس إلا ظل لذلك العالم السطعي المحجوب الذي ندعوه « عالم المثل » .

« وفوق المحسوسات والمعقولات ، ووراء كل المرئيات والمثل ، تشرق انوار المثال الاعلى ، مثال الخير والجمال .

« وليس هذا المثال كاملاً من جهة وناقصاً من أخرى ، وليس هو حسناً من وجه وقبحاً من آخر ، بل هو الجمال من وجوهه ، والخير من كل جهاته ، ومن هـــذا الخير الازلي اللامتناهي ، تستمد الصور المجردة خيرها ، ومن جمال وجوده ينبعث جمالها ووجودها .

« وهو العلة الاولى لكل جميل وحسن ، هو الحركة والحياة .

« ولكن ماهي علاقة هـذا الاله العظيم بعالمنا المحسوس ، أهي علاقة منظم أم علاقة خالق ؟ ان القدماء لم يتوصلوا الى تصور الخلق من لا شيء ، ولكن أفلاطون استنبط نظرية الخلق المطلق ، فصرح بأن ليس في هذا الكون كمال ، او نظام ، او وجود حقيقي الا ومصدره من الله ، اما المادة الازلية التي ينسقها الله ويفيض عليها الصورة والكمال ، فليست هي وجوداً حقيقياً ، بل استعداداً لقبول الوجود ، هي مقر الامكان والعدم .

« وهكذا ترتقي سلسلة الوجود تدريجاً من احسن الكائنات الى اشرفها ، من المادة القريبة من العـــدم ، الى عالم المحسوسات ، الى عالم المعقولات ، الى المثال الاعلى .

وكل الكائنات المحسوسة والمعقولة تنزع سراً في أعماق كيانها الى الكمال، الى مثلها العليا، الى الخير اللامتناهي، والجمال الأزلي المحجوب (١).

ثم يستمد الفارابي من اريسطو الذي يعتبر عالم المعقولات والمثل انما هو عالم وهم وخيال، والبراهين التي تستند الى الاوهام تولد اوهاماً.

واريسطو في فلسفته يتوجه تواً الى الطبيعة فيرى مثلما رأى أفلاطون ان الكون في تغير مستمر، فالماء يستحيل بخاراً، والبخار يصير غماماً، والغمام يعود فيهبط مطراً، والبذرة تودع في الارض فتموت في بطنها، ولا تلبث ان تحيا وتطل سنبلة مرتعشة، او سنديانة جبارة، تعصف بين أغصانها الأرياح.

فيتساءل ما معنى هـــذا التغير وهذه الاستحالات؟ هل انعدم الماء عندما تحول الى بخار؟ وهل اضمحل كل مافي الخشب عند اندلاع ألسنة النار؟ كلا! بل يبقى شيء من الخشب في الرماد، وشيء من الماء في الغمام، ومن البذور في السنابل والاشجار. والعنصر الباقي تحت هذه التغيرات هو عنصر مشترك بين كل الاجسام هو المادة أو (الهيولي) والخـــواص الجديدة التي اكتسبته هي (الصورة)؛ وذلك الانتقال من صورة الى صورة، أو من كمال الى كمال هو (الحركة). والمادة بحد ذاتها لا شكل لها ولا وزن ولا حجم، ولا توجد الا بالصورة ولا تكمل الا فيها. والمادة القوة، والصورة الفعل. وكل حركة طبيعية في الكون وانتقال من القوة الى الفعل هو نزوع الى الكمال، لأن الفعل كمال.

وبمقدار ما يملك الكائن الفعل يكون كاملاً، ولهذا فالمعدن اشرف كمالاً من التراب، والنبات من المعدن، والحيوان من النبات، والانسان من الحيوان. فلو تصورنا كائناً مجرداً عن المادة، صورة خالصة، تحققت كل رغائبه، وامتلأت كل نزعاته، وصار فعلا محضاً، كان كمالا محضاً لا متناهياً.

« هذا الكائن، الفعل المحض، الكمال المحض، هو الله.

« ولنا على وجوده دليل في الحركة. وانتقال الكائنات من القـــوة الى الفعل، ومن النقص الى الكمال، لأن كل متحرك يقتضي محركا؛ وهذا المحرك

---

(١) يتفق هذا الرأي مع الاستاذ (اوليفر لودج) ومعظم علماء الروح وعلماء الدين الحديثين.

يكون اما ساكناً ، واما متحركاً ، فان كان متحركاً يقتضي محركاً ، وبما أن سلسلة الاسباب لا ترتقي الى ما لا نهاية له ، حكمنا بوجود محرك اولي لا يتحرك . وليس معنى هذا ان الكائن الاول هو السكون المطلق والجمود الموت ، انما الفعل المحض يقودنا الى تصور الحياة المطلقة اللامتناهية التي تكتفي بذاتها ولا تحتاج الى كمال خارج عنها ، اذ كل حركة تدل على وجود نقص في المتحرك ، لأنه يتحرك الى كمال لا يستولى عليه . فالكائن الذي يحوي كل الكمالات ليس هو جموداً بل هو فعل وحياة .

« أما كيف يحرك المحرك الاول هذا الكون ، فأريسطو يجيب : ان الله لا يعلم عناصر الطبيعة ، لأن الطبيعة ناقصة ، وعلمه كامل ، والكون لا يدرك الناقص . هو لا يعرف الطبيعة لكن الطبيعة تنزع اليه ، لأن كل الكائنات تميل من طبعها الى الكمال ، ولا تتحرك وتنتقل من حال الى حال ، ومن صورة الى صورة ، الا لتزداد خيراً وجمالاً .

وبما ان الله هو مصدر كل خير وجمال ، صارت الطبيعة بأسرها ، من أعالي السموات الى أعماق البحار ، ومن أقاصي المسكونة الى اقاصيها ، تحنّ بكل قواها الى هذا الكمال الازلي .

وكما ان المعشوق يستلفت أنظار العاشق ويجذبه بجماله ، هكذا يجذب الله اليه الاكوان » .

ومن هذا العرض الذي قاله الاستاذ الخوري عن افلاطون واريسطو يُفهم ان افلاطون توصل الى تصوُّر إله مثالي يهيمن من وراء المرئيات والمعقولات على عالم المثل والمحسوسات .

وان اريسطو توصل من تحليل الحركة ، وفكرة المادة والقوة ، والصور والفعل ، الى تصور محرك اولي لا يتحرك ، هو فعل محض ، يجذب العالم اليه بالشوق. فما هو رأي افلاطين الذي يقال انه مزج هذه الآراء ، وبث فيها روحاً صوفية، شرقية هندية ، فغذى مذهبه اساس الافلاطونية الحديثة ؟ وأوحى الى الفارابي بنظرياته في الالوهية !

ان الرواقيين قطعوا الحد الفاصل بين الله والكون ، وجعلوه ناراً ازلية في مركز العالم ، عنه تتفجر العناصر والنفوس الجزئية ، واليه تعود .

اما أفلوطين (١) فاتبع نصيحة أستاذه افلاطون الذي يقول « لا تفتشوا عن الحقيقة في المحسوسات المتغيرة ، بل ارفعوا ابصاركم الى عالم المثل الثابتة » وغالى في نتائجها ، فنبذ المنطق والبراهين ، وتجرد عن الشهوات الحسية ، وزهد في الدنيا ، ثم أغمض باصرة البدن ، وفتح بصيرة القلب ، وأخذ ينتظر الانوار العلوية كي يتحد بها ، ويكتنه اسرارها ، وزعم انه توصل الى هذا الكشف الصوفي اربع مرات في حياته .

وخلاصة كشفه : « ان الكون فيض عن الواحد المطلق ، مع نزعة الى الرجوع اليه ، هذا الكائن الاولي الازلي واحد يفوق العقول ، ولا تدركه الأفكار ، ولا تطبق عليه نفوسنا وأوصافنا ، لأنها تتضمن نقصاً واحداً . فلا يقال عنه إنه موجود بل فوق الوجود ، ولا يقال هو كامل ، بل فوق الكمال ، ولا يقال هو صالح بل فوق الصلاح . وبكلمة : هو اللامحدود اللامتناهي ، ومن ملئه تفيض كل الكائنات ، دون أن يفقد شيئاً من كماله .

« وهذا العقل يعقل ذاته ، ويعقل الواحد المطلق الذي انبثق منه ، فيفيض نفساً كلية ، ومن أشعة هذه النفس تفيض النفوس الجزئية التي تتسرب في كل مظاهر الطبيعة ، من المعادن الى النبات ، الى الحيوان الى الانسان .

« وكلما ابتعدت النفوس عن المركز الذي تنبثق منه ، ازدادت نقصاً وانحطاطاً ، الى ان تصل الى المادة ، وهنالك تقف الأنوار الالهية وتكاد تضمحل وتتلاشى

---

(١) افلوطين ـ Aplutin (٢٠٣ ـ ٢٧٠) بعد الميلاد . ولد في مصر ، وزهد ، وتصوّف ، وكان فيلسوفاً تأثر بأفلاطون ثم أسس له مذهباً جديداً سمي بالافلوطينية الجديدة ، حاول فيها التوفيق بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الشرقية ، وكثيراً ما جاءت آراؤه مضادة للمسيحية . اما تعاليمه فجمعت تحت عنوان « انيادس Enneades » ، وكان لانتشارها الوقع الخطير على الفلسفة والتصوف من بعده .

في ظلماتها . فمراتب الوجود من أحسنها الى أشرفها هي مادة . فصورة ، فنفس نباتية ، فنفس حيوانية ، فنفس انسانية ، فنفس كلية ، فعقل ، فواحد مطلق .

« وكما أن النفوس انبثقت من الله انبثاق النور من الشمس ، والحرارة من النار ، هكذا حفظت في كيانها نزوعاً الى الرجوع اليه .

ولا تنال النفس البشرية ذلك الا بتحويل أنظارها عن ظلمات المادة الى عالم المعقولات . وهذا أمر يقتضي تجرداً عن الحواس والشهوات ، وزهـــدا في الدنيا ، ورجوعاً الى الداخل ، وتأملاً طـويلا في عالم الغيب ؛ حينئذ تفنى ذاتنا وتضمحل في الله ، كما تتلاشى نقطة الماء في قلب الأقيانوس الأعظم .

وبعدما أوردنا خلاصة ما لأفلاطون وأريسطو وأفلوطين من آراء في الوجود وواجب الوجود لنرى ما هي نظريات الفارابي في هذه المسألة التي كانت ولا تزال مدار بحث الفلاسفة والعلماء .

ان الفارابي قسم الموجودات الى ثلاثة أقسام :

١ ـ موجود ممكن الوجود بذاته .

٢ ـ وموجود ممكن الوجود بذاته ، وواجب بغيره .

٣ ـ وموجود واجب الوجود بذاته .

أما الموجود الممكن الوجود بذاته فهو الكائن الذي لا تقتضي ذاته وجوده ، وليس من طبيعته ان يكون موجوداً ضرورة . فاذا تصورناه غير مـــوجود لم يلزم من ذلك محال .

والموجود الممكن الوجود بذاته ، ولكن يوجد ضرورة اذا وجدت علّته . فالحرارة مثلا ليس من طبيعتها أن تكون موجودة ، ولكنها توجد ضرورة اذا وجدت النار ، أو وجد الاحتكاك ؛ والنور ليس من طبيعته أن يكون موجوداً ، ولكنه يوجد ضرورة اذا وجدت الشمس .

والموجود الواجب الوجود بذاته ، هو الموجود الذي تقتضي ذاته وجوده ، وله من طبيعته أن يكون ضرورة موجودا .

قال الفارابي : « ان الموجـودات على ضربين : أحدهما اذا اعتبر ذاته لم يجب وجوده ويسمى ممكن الوجود ، والثاني اذا اعتبر ذاته وجب وجوده ويسمى واجب الوجود . وان كان ممكن الوجود اذ فرضناه غير موجود لم يلزم منه محال ، فلا غنى بوجوده عن علّة ، واذا وجب صار واجب الوجود بغيره » . (مجموعة فلسفة الفارابي – ص ٦٦) .

وبما أن الممكن الوجود ليس من طبيعته أن يكون موجوداً ، فاذا وجد فوجوده عن غيره . والأشياء الممكنة الوجود من ذاتها ، لا يتسلسل بعضها عن بعض الى ما لا نهاية له ، بل يجب أن تنتهي عند موجود أول واجب الوجود .

ومن تصور واجب الوجود وممكن الوجود، استنتج الفارابي التفرقة الجوهرية بين طبيعة الخليقة وطبيعة الخالق ، فطبيعة الله هي نفس الوجود المطلق ، الموجود المحض لأننا اذا ميزنا بين ماهيته وبين وجوده جزأناه وجعلناه حادثا ممكن الوجود ، لأننا عندما نحـدد طبيعه الحيوان أو الانسان ، فلا نشير بذلك الى وجوده أو عدمه ، بل الى ماهيته . اذاً فالوجود لا يدخل في حقيقة الماهيات ، بل هو عرض يزيد عليها ويكملها . أما الوجود في الله فهو نفس ماهيته ، ولا نستطيع ان نفصله عنها ولو بالعقل .

والفارابي كأفلاطون سمـــا بعقله الى المثال الأعلى ، مثال الخير والجمـال ، وكأريسطو توصل الى العقل المحض ، ومثل أفلوطين كشف النقاب عن الوحدة المطلقه اللامتناهية التي تحار في ادراكها العقـــول ، وتفوّق على الثلاثة بتعمقه ، واستنتاجاته المنطقية .

فهؤلاء المفكرون وان رفعوا الله فوق الكائنات فهم مع ذلك لم يدركوا الفرق الجوهري اللامتناهية الذي يفصل الخليقة عن الخالق ، فوضعوا لنا موجودين أزليين واجبي الوجود : الله والمادة . أما الفارابي فتغلغل في تحليل تصور واجب الوجود ، وممكن الوجود ، وأثبت الوجود المطلق اللامتناهي الى الله وحده .

ولاعتقاد الفارابي بوجود العقل الاول الذي يفيض عن واجب الوجود ، وهذا

يفيض العقل الثاني فانه قسم مراتب العقول الى ما يأتي :

١ ـ العقل الاول الذي يفيض عن واجب الوجود يفيض العقل الثاني والسماء الاولى .

٢ ـ العقل الثاني يفيض العقل الثالث وكرة الكواكب الثابتة .

٣ ـ العقل الثالث يفيض العقل الرابع وكرة زحل .

٤ ـ العقل الرابع يفيض العقل الخامس وكرة المشتري .

٥ ـ العقل الخامس يفيض العقل السادس وكرة المريخ .

٦ ـ العقل السادس يفيض العقل السابع وكرة الشمس .

٧ ـ العقل السابع يفيض العقل الثامن وكرة الزهرة .

٨ ـ العقل الثامن يفيض العقل التاسع وكرة عطارد .

٩ ـ العقل التاسع يفيض العقل العاشر والعقل الفعال وكرة القمر .

والعقل الفعال لا يلعب دوراً في تحريك السماء وتوليد العقول ، ولكنه يحصر مهمته في ابداع عالم ما تحت القمر ، عالم التغير والفساد ، وتنظيم حياة الطبيعة وهو واهب الصور لأنه يشكل هيولى أريسطو ويكملها ويفيض عليها الصورة ولا ينال ذلك الا بتوسط الأفلاك السماوية ، فان هذه الأجرام باختلاف حركاتها ، وتباين سرعتها ، وتعدد نسباتها ، تؤثر في المادة وتعطيها استعدادات مختلفة متنوعة لقبول صور جديدة الى ما لا نهاية له ، وكلما تهيأت المادة لقبول هـذه الصور ، يفيضها عليها واهب الصور .

وأول نتيجة لتأثير الاجـرام ، وفيض العقل الفعـال ، هي توليد العناصر الأربعة : (الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار) . ثم ان هذه الاجسام يمتزج بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها ببعض ، فتولد أجساماً أكثر تركيباً ، وأشد اشتباكا . وتختلط هذه الاجسام الجديدة ببعضها البعض ، وبالعناصر الأربعة ، فتنتج أجساماً أكـثر تعقيداً . . . ولا تزال الامتزاجات ترتقي من تركيب الى تركيب ، ومن صورة الى صورة ، تحت اشراف السماء ، واشراق العقل الفعال ، الى أن تكون

مملكة المعادن ، ثم تتعداها الى مملكة النباتات ، فمملكة الحيوان فالى الانسان . وأتقن تركيب تعده الكواكب ، تركيب الجسم البشري ، وأسمى صورة يفيضها العقل الفعال هي نفس الانسان .

هذا هو سلم الوجود كما تمثله الفارابي وهو حصيلة السعي والتفكير للجمع بين العقل والدين أولاً ، ثم بين فلسفة أفلاطون وأريسطو وأفلوطين التي بحثوا فيها عن العلّة الاولى ، والوجود ، والخليقة ، والمادة ، والحياة ، والانسان ؛ ثم بين اللا ارادية ، والفيض ،وبين الالوهية ، والطبيعة .

وفي كل هذه المساعي كان منطق أريسطو يلعب دوراً هاماً وعندما يعجز الفكر عن ايجاد مقاييس صحيحة لقياس الحقائق يلجأ الفارابي الى الصوفية والى الآراء والعقائد التي تقول بوحدة الموجود وأن هذا الوجـود بما فيه من كائنات وعوالم هو مظهر للفيض فاذا اختفى نور الفيض اختفت الموجودات ، وبطلت المعقولات . ولمـاذا ؟ لأن المنطق اذا لم تكن مقدماته لا يتطـرق اليها الشك العلمي كانت نتائجه صحيحة وإلا فالبديهيات والتسليم بها لا يكفي لصحة القياس والاستنتاج ، ولذا ذهب الفارابي في قياساته ومنطقه الى نتائج غير مسلم بها ولا يمكن ان يسلم بها لأن مقدماته ذات شك ونقد .

وعلى كل سنبقى في العرض والتحري عن الحقيقة حتى تثبت فرضياتنا ما يقره العلم والعقل الصحيح والمقاييس العلمية الصحيحة . وأما القول بالفيض وهذه العقول فمسألة فيها نظر .

ونحـــن في محدوديتنا الحاضرة لا نستطيع ادراك المثل ، ولا نستطيع فهم العقول التي أشار اليها الفارابي ، ولكننا نحاول فهم طبيعة الأفلاك ، وفهم قوى الطبيعة ، وقوانينها ، وخواص المادة ، وخواص القوة ، والعلاقات القائمة بين قوى الطبيعة وعناصرها ، وبين الكائنات التي لا نهاية لعددها ، ولا نهاية للفضاء الذي تسبح فيه ، وفهم أسرار الحياة ، وتطور الحياة سواء على هذه الارض أم فوق الكواكب ، وفهم مظاهر العقل وطبيعة عمله . وفي ضمـن هذه المحاولات نحاول اثبات وجود العلة الأولى لكل هذه الموجودات ، وقد نصل الى معرفة ماهيتها ،

وما دمنا نجهل الماهية فكل هـــذه التصورات التي قال بها الفارابي وافلاطون وأريسطو وأفلوطين ومن أتى قبلهم ومن أتى بعدهم هي محاولات فرضية وليست حقائق تثبتها البراهين العلمية .

ولو كانت الغاية تفصيل ما أجملناه ونقد نظريات الفلاسفة لأتينا على ذلك ولكن ذكرنا كل ما تقدم عن الفارابي كمقـــدمة لفهم المدينة الفاضلة التي قال بها ومقارنتها بالجمهورية التي قال بها افلاطون .

ونحب قبل ذكر النقاط الأساسية في جمهورية افلاطون وفي المدينة الفاضلة ، أن نقول : ان الفارابي تصور المدينة الفاضلة ووضع أقسامها وتسلسلها في الادارة والمركزية كما تصور عالم الكون وصدوره عن واجب الوجود ، وكما تصور العقول التسعة وظائفها وما يفيض كل منها على الآخر .

قال الفارابي : « وتلك أيضاً حالة الموجودات ، فان السبب الأول نسبته الى سائر الموجودات ، كنسبة ملك المدينة الفاضلة الى سائر اجزائها » .

أما جمهورية افلاطون فقد ذكرت موجز ما ورد عنها في مقالة لذاتها ولذا سوف لا أبحث عنها الآن .

وأما المدينة الفاضلة فهي تنقسم الى قسمين : فلسفة وآراء لاهوتية ومتيافزيكية ، ومجتمع انساني تخيله الفارابي ليكون مداراً لنيل السعادة على وجه الأرض ، بتعاون أفراده على نيلها بأعمالهم الفاضلة وترتيب اعضائه على صورة شبيهة بترتيب الموجودات واتصالها ببعضها البعض .

يقول الفارابي : « ان اكمل مدينة هي مدينـة الله — أي الكون الذي أوجده الخالق — ولذا فالمدينة الفاضلة تحتذى في اجزائها وترتيبها الكون ، وينبغي ان تنظم وفقاً لنظام الوجود ، ويجب ان تحذو في افعالها حذو رئيسها الاول » .

فالسياسة اذن قسم من علم ما بعد الطبيعة ، والنظام الاجتماعي يجب ان يكون مشابهاً لنظام الكون ، لأن العالم حيوان كبير ، كما ان الحيوان عالم صغير ، وكما

ان جسد الحيوان اذا اصيب بمرض فسد مزاجه ، وتشوشت أفعاله ، واضطربت اعضاؤه ، فكذلك المدن قد تصاب بأمراض عديدة فتصبح المدينة الصحيحة مريضة ، وتنقلب المدينة الفاضلة الى مدينة ضالة ، يستحسن أهلها القبح ، ويستقبحون الحسن .

أما النقاط الاساسية في المدينة الفاضلة فهي كما يلي (١) :

الاول ـ القسم المسمى بالفلسفة وهو على ثمانية أقسام :

اولاً ـ في البحث عما يجب ان يعتقد فيه انه هو الله تعالى ما هو ، وكيف هو ، وماذا ينبغي ان يوصف ، وبأي وجه هو سبب الموجودات ، وكيف تحدث عنه ، وكيف يفعلها ، وكيف هي مرتبطة فيه ، وكيف يعرف ويعقل ، وبأي الاسماء ينبغي ان يسمى ، وعلى ماذا ينبغي ان يدل منه بتلك الاسماء .

ثانياً ـ القول في الموجودات التي ينبغي ان يعتقد فيها انها هي الملائكة ، ما هو كل واحد منها ، وكيف هو ، وكيف حدوثه ، ومرتبته منه ، وما مراتب بعضها من بعض ، وماذا يحدث عن كل واحد منها ، وكيف هو سبب لكل واحد مما يحدث عنه ، وفيماذا تدبيره ، وان كل واحد منها هو سبب جسم من الاجسام السماوية واليه تدبير ذلك الجسم .

ثالثاً ـ القول في جمل الأجسام السماوية ، وان كل واحدة منها مرتبطة بواحد من الثواني ، وان كل واحد من الثواني اليه تدبير الجسم المادي المرتبط به .

رابعاً ـ القول في الاجسام التي تحت السموات ، وهي الاجسام الهيولانية ، كيف وجودها ، وكم هي في الجملة ، وبماذا يتجوهر كل واحد ، وبماذا تفارق الموجودات التي سلف ذكرها .

---

(١) عن كتاب آراء اهل المدينة الفاضلة للفارابي .

خامساً ـ القول في المادة والصورة وما كل واحد منهما ، وهما اللتان بهما تتجوهر الاجسام . وأي وجود يتحصل لكل واحد منهما بالمادة ، وأي وجود يحصل له بالصورة .

سادساً ـ القول في كيفية ما ينبغي ان توصف به الموجودات التي ينبغي ان يقال انها هي الملائكة .

سابعاً ـ القول بماذا ينبغي ان توصف به الاجسام السماوية في الجملة .

ثامناً ـ كيف تحدث الاجسام الهيولانية بالجملة ، وأيها يحدث ثانياً ، وايها يحدث ثالثاً ، الى ان ينتهي الترتيب الى آخر ما يحدث ، وان آخر ما يحدث هو الانسان ، والاخبار عن حدوث كل ضعف منها مجملاً .

الثاني ـ القسم المسمى « بتدبير بقاء كل نوع من الاجسام الهيولانية »

وكيف وجه العدل في تدبيرها ، وهو على خمسة أقسام :

اولاً ـ عن وجه العدل في تدبيرها .

ثانياً ـ في الانسان وقوى النفس وفي حدوثها ، وأيها يحدث اولاً ، وايها يحدث ثانياً ، وايها يحدث ثالثاً ، ومراتب بعضها من بعض ، وايها يروس فقط وايها يخدم شيئاً آخر ، وايها يروس شيئاً ويخدم شيئاً آخر ، وايها يروس ايها .

ثالثاً ـ في الذكر والانثى ، ما قوة كل واحد منهما ، وما فعل كل واحد منهما ، وكيف يحدث الولد عنهما ، وبماذا يختلفان وبماذا يشتركان معاً .

رابعاً ـ كيف ترتسم المعقولات في الجزء الناطق من النفس ، ومن اين ترد عليه ، وكم اصناف المعقولات ، وما العقل الذي بالقوة ،

وما العقل الفعال وما مرتبته ، ولماذا يسمى العقل الفعال ، وما فعله ، وكيف ترتسم المعقولات في الفعل الذي بالقوة حتى يصير عقلاً بالفعل ، وما الارادة ، وما الاختيار ، ولأي جزء هما من اجزاء النفس ، وما السعادة القصوى ، وما الفضائل ، وما النقائص ، وما الخيرات في الافعال ، وما الشرور منها ، وما الجميل وما القبيح منها ؟

خامساً ـ القول في الجزء المتخيل من اجزاء النفس ، وكم اصناف افعالها ، وكيف تكون الرؤيا وكم اصنافها ولأي جزء من اجزاء النفس هي ؟ وما السبب في صدق ما يصدق منها ، وكيف يكون الوحي ، واي انسان سبيله ان يوحى اليه ، وبأي جزء من اجزاء النفس وقواها يتلقى الانسان الموحى اليه الوحي ، وما السبب في ان انصار كثير من الممرودين يخبرون بأشياء مستقبلة ويصدقون؟

الثالث ـ في القسم المسمى بالمدينة الفاضلة واحتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون ، وهو مقسوم الى خمسة أقسام :

اولاً ـ في اصناف الاجتماعات الانسانية وكم هي ، وما الاجتماعات الفاضلة وما هي المدينة الفاضلة ، وبماذا تلتئم وكيف ترتيب اجزائها ، وكيف تكون اصناف الرياسة الفاضلة ، وكيف يكون ترتيب الرئيس الفاضل الاول ، واي شرائط وعلامات ينبغي ان تعتقد في الصبي والحدث حتى اذا وجدت فيه كانت توطئة لأن يحصل له ما يروس به الرياسة الفاضلة ، وأي شرائط ينبغي ان يكون فيه اذا استكمل حتى يصير بها رئيساً فاضلاً اولا ؟ وكم اصناف المدن المضادة للمدينة الفاضلة ، وما المدينة الجاهلة ، وما المدينة الضالة ، وكم اصناف المدن ، والرياسات الجاهلة ؟ .

ثانياً ـ ذكر السعادات القصوى التي اليها تصير انفس اهل المدن الفاضلة

في الحياة والآخرة ، واصناف الشقاء التي تصير اليه نفوس اهل المدن المضادة للمدن الفاضلة بعد الموت .

ثالثاً ـ كيف ينبغي ان تكون الرسوم في تلك المدن الفاضلة ، ثم ذكر الاشياء التي تنبعث عنها في نفوس كثير من الناس الاصول الفاسدة الكاذبة التي عنها انتزعت آراء الجاهلية .

رابعاً ـ اختصاص آراء الجاهلية التي عنها حصلت الافعال والاجتماعات في المدن الجاهلة .

خامساً ـ اختصاص الاصول الفاسدة التي عنها تبعث الآراء التي عنها تنبث العلل الضالة .

٧ ـ ولما كان المهم من هذه النقاط هو القسم الثالث وهو احتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون :

وفي هذا الفصل يصوّر لنا الفارابي مدينته الفاضلة . وكما قلنا سابقاً ان مدينته الفاضلة هي نتيجة لتحرياته الفلسفية في الكون وبحثه عن واجب الوجود ، وعن شرائع السماوات والارض ، وعلاقة بعضها ببعض ، وعن العقول التسعة واعمالها ، وعلاقاتها ، ثم بعد كل ذلك يعود ليحدد لنا مركز الاجتماع الانساني في هذا النظام الكوني العجيب ، وتطبيق نواميس المدينة على نواميسه لتكون متوافقين تمام الموافقة مع النظام العام الشامل لجميع الاكوان .

فما هو هذا النظام الاجتماعي ؟

ان الفارابي في بحثه عن نشأة المجتمع يقول : « ان كل واحد (١) من الناس مفطور على انه محتاج في قوامه وفي ان يبلغ افضل كمالاته الى اشياء كثيرة لا

(١) المدينة الفاضلة ـ ص ١٧ .

يمكنه ان يقوم بها كلها وحده ، بل يحتاج الى قوم يقوم كل واحد منهم بشيء مما يحتاج اليه » .

إذن فالاجتماع طبيعي وغايته كمال الفرد ، ونيل السعادة .

والاجتماعات عنده على نوعين : اجتماعات كاملة ، واجتماعات غير كاملة .

١ ـ الكاملة : هي التي تضمن للمرء الخير الافضل والكمال الاقصى وتنقسم الى ثلاثة اقسام :

١ ـ عظمى ـ وهي اجتماع البشر في المعمور كله .

٢ ـ وسطى ـ وهي اجتماع أمة في جزء من المعمور .

٣ ـ صغرى ـ وهي اجتماع اهل مدينة في جزء من مسكن أمة .

٢ ـ وغير الكاملة : هي التي لا تضمن توفير الكمال والسعادة ، وهي تنقسم الى : القرية ، والمحلة ، والسكة ، والمنزل . والفارابي يتمنى ان تنضم هذه الى المدينة ، والمدينة الى الامة ، والامة الى المعمور ، فيتحد الكون ، وتمتزج الشعوب لتأليف واحدة جبارة تنتشر من اقاصي الارض الى اقاصيها ، ويسير البشر كلهم متعاضدين ، ينشدون الطمأنينة والسلام ، ويترنمون بأناشيد الاخاء والسعادة .

٨ ـ كيف يتم للفارابي تحقيق هذا الحلم الذي تنشده الانسانية وتنشده جامعة الامم وهو بعيد التحقيق :

ان الفارابي يجيبنا على ذلك بالصورة الآتية ويعتقد بامكان تحقيقها (١) :

كل مدينة يمكن ان ينال بها السعادة . فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الاشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة ، هي المدينة الفاضلة .

(١) المدينة الفاضلة ـ ص ٧٨ .

والاجتماع الذي به يتعاون مدنها كلها على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل .

والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به من السعادة هي الأمة الفاضله .

وكذلك المعمورة الفاضلة انما تكون ، اذا كانت الأمة التي فيها يتعاونون على بلوغ السعادة .

والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه ، وكما ان البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس هو « القلب » ، واعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس وكل واحد منها جعلت فيه قوة بالطبع يفعل بها فعله ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس ، وأعضاء أخرى فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هـــذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة ، فهذه في الرتبة الثانية ، وأعضاء أخرى تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية . ثم هكذا الى ان تنتهي الى أعضاء تخدم ولا ترؤس أصلاً .

وكذلك المدينة ، اجزاؤها مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات ، وفيها انسان هو رئيس وأعضاء وأخرى تقرب مراتبها من الرئيس ، وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس .

وهؤلاء هم أولو المراتب الأولى ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء ، وهؤلاء هم في الرتبة الثانية ، ودون هـؤلاء أيضاً من يفعل الأفعال على حسب أغراض هـؤلاء . ثم هكذا تترتب اجزاء المدينة الى أن تنتهي الى أخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يَخدمون ولا يُخدَمون ، ويكونون في أدنى المراتب ، ويكونون هم الأسفلون (١) .

---

(١) لاشك أن ترتيب هذا النظام يرسم لنا صورة واضحة عن المركزية التي يرأسها رئيس لا يُسئل عن أفعاله ، ويرسم لنا نظام الطبقات التي تنقسم الى ثلاث مراتب : أهل المرتبة الأولى ، وأهل المرتبة الثانية ، وأهل المرتبة الثالثة ، وهم الذين يَخدمون ولا يُخدمون وكلهم ينقادون الى أوامر تصدر من الرئيس الأول الى أصحاب المرتبة الأولى=

غير ان أعضاء البدن طبيعية ، الهيئات لها قوى طبيعية ، واجزاء المدينة وان كانوا طبيعيين فان الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية بل ارادية .

على ان أجزاء المدينة مفطـــورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها انسان لانسان لشيء دون شيء . غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها ، بل بالملكات الادارية التي تحصل لها وهي الصناعات وما شاكلها . والقوى التي هي اعضاء البدن بالطبع ، فان نظائرها في اجزاء المدينة ملكات ، وهيئات ارادية .

والذي يريده الفارابي (١) من هذا التنظيم هو نيل السعادة الحقيقية ، وبما أن الاشياء التي تنال بها متعددة متنوعة وحسب تقسيم الوظائف ، وتنظيم السكان طبقات طبقات ، ومراتب مراتب بحسب حاجات الأمة ومقتضياتها .

فاذا قام كل فرد بعمله ، وأتقن مهنته ، وأنجز مهمته ، حصل من مجموع هذه الجهود المنظمة ، التناسق والغبطة الفائقة التي يحلم بها البشر .

وفي ائتلاف اعضاء المدينة الفاضلة مايشبه توازن أعضاء البدن ووظائفها . فالجسم مركب من اعضاء مختلفة ، متفاوتة الكمال والقـــوى ، بحسب اقتراب مراتبها من العضو الرئيس وهو « القلب » .

ومنها ما تكون في مرتبة ثانية وتخدم الأولى ، ومنها ما تكون في مرتبة ثالثة وتخدم الثانية ، الى أن تنتهي الى أعضاء تخدم ولا تخدم .

وهكذا المدينة الفاضلة فانها مؤلفة من عضو رئيس ، يليه طبقة أولى تنفذ أوامره مباشرة ، وتلي الأولى طبقة ثانية ، فثالثة الى أن تصل الى طبقة أخيرة ، تطيع ولا تأمر .

= التي تفعل ماهو مقصود الرئيس ، ودونهم أهل المرتبة الثانية ، فيفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء ، ثم يأتي أهل المرتبة الثالثة فيفعلون أغراض أهل المرتبة الثانية ويكون هؤلاء هم الأسفلون .

(١) من كتاب « الفارابي » للاستاذ الخوري الياس فرح - ص ٩٩ .

والفرق بين تفصيل البدن وتركيب المدينة ، أن اعضاء البدن طبيعية وأفعالها قسرية لا تصدر عن ادراك واختيار ، أما اعضاء المدينة فبعملهم ورضاهم يتحدون ، اذا ارادوا اجتمعوا ، واذا أرادوا افترقوا ، واذا شاؤوا ابتغوا الحكمة والسعادة ، واذا شاؤوا ابتغوا الجهل والضلال ، لذلك لا عجب فيما اذا تألفت مدن تناقض المدينة الفاضلة وتعاكسها .

ويظهر أن الفارابي رسم نظام المدينة الفاضلة . كما رسم نظام الموجودات وعلاقة بعضها ببعض ، وبالباري تعالى .

فالكائنات ترتقي بالكمال تدريجـــاً من احسنها الى أرفعها ، من المادة أو الهيولى التي لا شكل لها يتعين ، الى الصورة ، فالعناصر فالمعادن ، فالنبات ، فالحيوان ، فالانسان ، فالدوائر الفلكية ، فالعقول المفارقة ، حتى تنتهي هذه السلسلة بالكائن الأول وهو واجب الوجود ، والعقل المحض ، والكمال اللامتناهي ، والأدنى منها متعلق بالأعلى ، اليه ينزع ، ومنه يستمد الخير .

والنظام الكوني بأجمعه منوط بحكمة مبدعه الذي يفيض عليه الوجـــود . هكذا يكون الرئيس ، وهكذا ينسق الاعضاء في المدينة الفاضلة .

٩ ـ ماهي خصال الرئيس :

ان الرئيس في هذه المدينة الفاضلة كالقلب بالنسبة الى الاعضاء ، أو كالسبب الأول الى الموجودات . فلو وقف الله عـــن تدبير الطبيعة لاختل التوازن ، وسكنت الكواكب ، وانطفأ النور ، وغرقت الكائنات في دياجير الظلام والعدم . وكذلك القلب لو انقطع عن الحركة لتوقف توزيع الدماء الى الأعضاء بوزن ومقدار ، وتعطلت وظائفها ، وانحلت أنسجتها ، وفسد البدن ورجع الى التراب .

وهكذا المدينة الفاضلة فانها متعلقة برئيسها الأعلى في وجودها ، وشرائعها ، وكمالها ، وعلى هذا المشترع العظيم والحاكم القدير يتوقف تأخر الامة وتقدمهـا ، وحياتها ومماتها . لذلك يجب ان يختار من هم اهل للقيام بهذه المهمة الخطيرة .

وعلى ضوء هاتين الخصلتين يعرف اهل الجدارة والاستحقاق وهما : كمال العقل، وقوة المتخيلة .

والمراد من كمال العقل ان تكون قوة الارادة في الرئيس تامة ، سريعة ، فيفيض عليه العقل الفعال المعقولات الاولى التي يجردها من المادة ، ويصير عقلاً بالفعل ، ولا يزال يطبع فيه صور المجردات العقلية الى ان يصبح بحالة تمكنه من الاتحاد به مباشرة ، فيفيض عليه حينئذ صور المعقولات المفارقة التي لم تكن في مادة ، فيصير عقلاً مستفاداً يدرك طبيعة كل المجردات ، اي فيلسوفاً .

والخصلة الثانية قوة المتخيلة : ومعنى ذلك ان يكون للرئيس خيال خصب، لا يشغله عمل العقل والتصورات المجردة ، ولا يوهنه عمل الحواس والصور الآتية من الخارج ، بل يبقى مع انصراف العقل الى المعقولات ، والحواس الى المحسوسات يفعل فعله الخاص به ، فيفيض عليه العقل الفعال صور الجزئيات ، ويرسم له حوادث الحاضر والماضي والمستقبل فيكون نبياً .

إذاً فرئيس المدينة الفاضلة هو فيلسوف ونبي ، وفضلاً عن هذه الميزة يتحلى بأثنتي عشرة خصلة ، وهي ان يكون تام الاعضاء ، سليم البـــدن ، جيد الفهم والتصوّر ، جيد الحفظ ، جيد الفطنة ، ذكياً ، حسن العبارة ، محباً للتعليم والاستفادة ، غير شره الى الطعام والشراب ، محباً للصدق ، مبغضاً للكذب ، كبير النفس ، محباً للكرامة ، زاهداً في الدنيا ، محباً للعدل ، مبغضاً للجور ، مؤاتياً لكل ما يراه حسناً وجميلاً ، غير صعب القياد ، ولا جموحاً ولا لجوجاً في العدل ، قوي العزيمة ، جسوراً مقداماً .

وقد يتعذر وجود هذه الصفات كلها في رجل واحد ، فاذا وجدت في اثنين فليكن كلاهما حاكمي المدينة ، واذا توفرت لثلاثة فليكن الثلاثة حكاماً ، وهكذا ، على شرط ان تكون الحكمة في شخص واحد . فان خلت المدينة من الحكماء ، عمّها الجهل ، وخيّم عليها الظلام ، وتقوّضت اركانها ، وفسدت نظمها، وطغى سكانها ، وساروا في طريق الهلاك والاضمحلال .

١٠ ـ ما هي خصال سكان المدينة الفاضلة :

وكما ان المدينة الفاضلة لا تقوم بلا رئيس فاضل ، يقرن العلم بالعمل ، والحكمة بالفضيلة ، فكذا وجودها لا يتم الا بأعضاء عالمين ، عاملين ، خاضعين ، منظمين بحسب استعداداتهم الطبيعية ، وحاجات الامة .

وليس من السهل الوصول الى هذه الغاية مع حفظ النظام ، وتقييد كل أمر بمهمته ما لم نعلم الشعب ضرورة هذا التنسيق ، ونبيّن لافراده ان ذلك أمر الهي ، نجد اثره في نواميس الطبيعة والكون ، وعليهم ان يطلعوا على الامور الآتية :

١ ـ معرفة المسبب الاول وصفاته .

٢ ـ والعقول المفارقة وميزاتها ومراتبها .

٣ ـ والجواهر السماوية وخواصها .

٤ ـ والاجسام الطبيعية وكيفية تركيبها وفسادها وحكمة نواميسها .

٥ ـ والانسان ، وحدوث النفس وعلاقاتها بالعقل الفعال .

٦ ـ والارادة والاختيار .

٧ ـ والرئيس الاول وخلفاؤه .

٨ ـ والمدينة الفاضلة والسعادة التي تصير اليها انفسهم ، والمدن المضادة لها ومصير سكانها بعد الموت .

كيف تعرف هذه الحقائق ؟

وتعرف هذه الحقائق بوجهين : « فأما ان ترتسم في نفوسهم كما هي موجودة ، واما ان ترتسم فيها بالمناسبة والتمثيل ، وذلك بأن يحصل في نفوسهم مثالاتها التي تحاكيها » .

(من صحيفة ١٠٢ ـ المدينة الفاضلة)

فحكماء المدينة الفاضلة هم الذين يعرفون هذه ببراهين وببصائر أنفسهم ومن يلي الحكماء ، أي الفلاسفة ، يعرفون هذه على ما هي عليه موجودة ببصائر الحكماء ،

اتباعاً لهم وتصديقاً لهم وثقة بهم . والباقون يعرفونها بالمثالات التي تحاكيها لأنهم لا هيئة في أذهانهم لتفهمهم على ما هي موجودة ، اما بالطبع أو بالعادة ، وكلتاهما معروفتان . الا أن التي للحكيم أفضل لا محالة .

والذين يعرفـــونها بالمثالات التي تحاكيها ، وبعضهم يعرفونها بمثالات قريبة منها وبعضهم بمثالات أبعد قليلا ، وبعضهم بمثالات أبعد من تلك ، وبعضهم بمثالات بعيدة جداً . وتحاكي هذه الاشياء لكل أمة ، ولأهل كل مدينة بالمثالات التي عندهم الأعرف فالأعرف .

واذا وجد بين سكان المدينة من لم يرض بالمحاكيات والرموز البعيدة عن الحقيقة فليقدم له الحكماء تشابيه أسمى وأرفع ، واذا لم يقنع بها فليكشفوا له الحقيقة ، ويلقنوه الحكمة الخالصة ، مالم يناقش ويغالط لفساد قريحته وعـــدم قابليته لتصور الحقيقة ، أو لتزييف الحكمة وابطال الشريعة ، كي لا يردعه عن ميوله السافلة رادع .

فمن كانت عقـــولهم معوجة أو كانوا مطبوعين على الفساد والغش وجب طردهم من المدينة الفاضلة .

وما هي النتيجة في كل ما تقدم ؟

ومتى عرف أهل المدينة البـاري تعالى (١) ، العقـول المفارقة ، والشرائع الطبيعية ، ومقياس الأفعال الأدبية ، وطبقوا أعمالهم على هذه الاعتقادات ، تأصلت فيهم ملكتان شريفتان : ملكة العـلم ، وملكة الفضيلة . وهاتان العادتان تضمنان لهم السعادة في هذه الدنيا وفي الأخرى ، لان العلم الصحيح ينقذ النفس شيئاً فشيئاً من قيود المادة والهيولى ، ويصلها بعالم الروح ، ويجعلها بحالة تمكنها من أن تستقل في أفعالها عن البدن . ذلك هو سر الخلود .

والأعمال الحسنة تولد في النفس هيئات جميلة ، وتدخر لها لذة لا تقـاس ونعيما لا يفنى . وهذا هو سر السعادة .

---

(١) من كتاب الفارابي للاستاذ الخوري فرح - صحيفة ٢٠٢ .

اذاً غاية المدينة الفاضلة ليست اسعاد البشر على الارض فحسب ، بل تتوخى وراء المرئيات أن تفتح لهم كـوة يطلون منها على آفاق جديدة لا متناهية ، على مدينة فتانة تشرق عليها أشعة الله الساطعة وأنوار العقول .

ذكر الفارابي المدينة الفاضلة وذكر مضاداتها ، فما هي المـــدن الفاسدة المضادة لها ؟ .

يقول الفارابي ان أهل المدينة الفاضلة متى فقدوا الحكمة ولم يخضعوا المرئيس ، ولم يتآزروا ، عمم الجهل ونشأت مدن كثيرة مضادة للمدينة المثلى :

أولاً ـ المدينة الجاهلة .

ثانياً ـ المدينة الفاسدة .

ثالثاً ـ المدينة المتبدلة .

رابعاً ـ المدينة الضالة او الضارة .

١ ـ المدينة الجاهلة :

هي المدينة التي حصر افرادها غاية الحياة القصوى في الحصول على سلامـة الابدان والغنى ، واللذات والكرامة دون قيد ولا شريعة ، وهي تنقسم الى :

آ ـ المدينة الضرورية ـ وهي التي يقتصر اهلوها على الضروري مما به قوام الابدان من مأكول ومشروب وملبوس ومسكن، وعلى الاستفادة منها متعاونين .

ب ـ المدينة البدالة ـ وهي التي يقصد أهلها الاستمتاع بالملذات والتخيلات والعبث والمجون .

ج ـ مدينة الكرامة ـ وهي التي يطمع اصحابها الى نيل المجد والعظمة والشهرة.

د ـ مدينة التغلب ـ وهي التي يرغب اهلها في البطش والسيطرة ، ويكتفون من ملذات الحياة بلذة الغلبة .

هـ ـ المدينة الجماعية ـ وهي التي يتفق اهلها على ان يكونوا احراراً يفعلون ما يشاؤون دون رادع ولا مانع . (كمذهب سارتر والوجودية) .

٢ ـ المدينة الفاسقة :

وهي تختلف عن المدينة الجاهلة بأن سكانها عرفوا السعادة الحقيقية وادركوا صور المعقولات واقروا بوجود الاله ، ولكنهم لم يطبقوا عملهم على معتقـــدهم ، فراحوا كأهل المدن الجاهلة ينغمسون في الشهوات ، ويفتشون عن المجد ، ويسكرون بالحرية والاباحة .

٣ ـ المدينة المتبدلة :

وهي التي تعتقد اعتقاد اهل المدينة الفاضلة ، وتفعل افعالها ، ولكن مع الزمن تسرّب فيها الضلال ، فغيّرت اعتقاداتها وبدلت افعالها .

٤ ـ المدينة الضارة :

وهي التي تعتقد بالله عزّ وجل ، والعقول المفارقة ، والعقل الفعال ، ولهـا آراء فاسدة ، ويكون رئيسها الأول ممن اوهم انه يوحى اليه من غير ان يكون ذلك ، ويكون قد استعمل في ذلك التمويهات والمخادعات والغرور (١) .

أما الآراء الفاسدة التي يعتقد بها اهل المدينة الضارة ، فقد وصفها الفارابي بالصورة الآتية (٢) :

أولاً ـ يقولون ان الموجودات متضادة ، وان كل واحد منها يلتمس التغلب على الآخر ، فيحصل على شيء يحفظ به وجوده ، ويلتمس من الوسائل ما يستطيع

---

(١) هذا التقسيم وارد في الصحفة ٩٢ من كتاب اهل المدينة الفاضلة .
(٢) كتاب المدينة الفاضلة ـ ص ١٠٧ .

ان يحارب به اعداءه حتى اذا تغلب على ضده جعله شبيهاً به في النوع واستخدمه لقضاء ما هو نافع له .

لذلك نرى كثيراً من الحيوانات تثب على كثير من باقيها فيلتمس افسادها وابطالها من غير ان ينتفع بشيء من ذلك نفعاً ، كأنه قد طبع على ان لا يكون موجود في العالم غيره ، او ان وجود كل ما سواه ضار له ، على ان يجعل وجود غيره ضاراً له ، وان لم يكن منه شيء آخر على انه موجود فقط .

ثم ان كل واحد منهما ان لم يرم ذلك التمس ان يستعبد غيره فيما ينفعه ، وجعل كل نوع بهذا الحال ، وفي كثير منها جعل كل شخص من كل شخص في نوعه بهذا الحال ، ثم جعلت هذه الموجودات ، تتغالب وتتهارب ، فالاقهر منها لما سواه يكون أتم وجوداً والغالب دائماً ، اما ان يبطل بعضه لانه في طباعه ان وجود ذلك الشيء نقص ومضرة في وجوده هو . واما ان يستخدم بعضاً ويستعبده لانه يرى في ذلك الشيء ان وجوده لاجله هو ، ويرى اشياء تجري على غير نظام ، ويرى مراتب الموجودات غير محفوظة ، ويرى اموراً تلحق كل واحد على غير استئهال منه لما يلحقه من وجوده لا وجود هـذا وشبهه هو الذي يظهر في الموجودات التي نشاهدها ونعرفها ، فقال قوم بعد ذلك ان هذا الحال طبيعة الموجودات وهذه فطرتها ، والتي تفعلها الاجسام الطبيعية هي التي ينبغي ان تفعلها الحيوانات المختارة باختياراتها وارادتها ، والمروية برويتها ، ولذلك رأوا ان المدن ينبغي ان تكون متغالبة متهارجة لا مراتب فيها ولا نظام ، ولا استئهال يختص به احد دون احد لكرامة او شيء آخر ، وان يكون كل انسان متوحداً بكل خير هو له ان يلتمس ان يغالب غيره في كل خير يفيده ، وان الانسان الاقهر لكل ما يناويه هو الاسعد .

وقد اراد الفارابي من هذا الرأي ان يثبت وجود (قانون تنازع البقاء) وكان بأمكانه ان يختصر كل ما قاله بعبارة اوضح وجُمل افهم فيقول (ان التنازع بين الاحياء) قانون طبيعي ، فالقوي يستعبد الضعيف ويتغلب عليه ليضمن لنفسه الحياة والبقاء ، والضعيف مهما يكن مقامه في الوجود لا بد ان يغدو مستعبداً للقوي وفريسة له .

ثانياً ـ ويرى قوم ان الاجتماع وسيلة لا يستغنى عنها ، لاحراز الثورة وتحصيل اللذة ، فيقوم بطل قوي ويخضع اناساً ، ويستعبدهم ، ثم يقهر بهم آخرين، ولا يزال يقهر بالمقهورين ويذلل بالمذللين الى ان يملك وحده وتتوفر له جميع اسباب الهناء .

وقد أراد الفارابي من ذلك بيان سياسة الفتح والفاتحين وتصوير الوسيلة التي يبتغونها ، والغاية التي يتوخونها من وراء فتوحاتهم وقهر غيرهم من الافراد والامم .

ثالثاً ـ ورأى قوم ان الاشتراك في الولادة من والد واحد هو الارتباط به، ويكون الاجتماع والائتلاف ، والتحاب ، والتوازر على ان يغلبوا غيرهم ، والامتناع من ان يغلبهم غيرهم ، فان التباين والتنافر بتباين الآباء .

والاشتراك في الوالد الاخص والاقرب ، يوجب ارتباطاً أشد وفيما هو اعم، يوجب ارتباطاً اضعف الى ان يبلغ من العموم والبعد الى حيث ينقطع الارتباط اصلاً ويكون تنافراً .

فعند الضرورة الواردة من خارج مثل شر يدهمهم ، لا يقومون بدفعه الا باجتماع جماعات كثيرة . وقد اراد من ابداء هذا الرأي بيان مبدأ القبيلة والعشيرة وان المجتمع الذي يصدر عن أب واحد ويتفرّع يكون فيه الارتباط والتحاب أقوى واضمن لقهر الغير .

رابعاً ـ وقال قوم مخالفون لهم بالرأي ان الارتباط يتم باشتراك في التناسل ويريد بالتصاهر ، وذلك بأن ينسل ذكورة هذه الطائفة ، من اناث اولاد اولئك، وذكورة أولاد اولئك من اناث أولاد هؤلاء . وهو يريد ان رابطة القرابة ورابطة المصاهرة تجعل المجتمع أكمل تجانساً وأتم اتفاقاً .

خامساً ـ وظن قوم ان الارتباط هو باشتراك في الرئيس الذي جمعهم أولاً ودبرهم حتي غلبوا به ونالوا خيراً ما من خيرات الجاهلية .

سادساً ـ ورأى قوم ان الارتباط هو بالايمان والتحالف والتعاهد على ما

يعطيه كل انسان من نفسه ولا ينافر الباقين ولا يخازلهم ، وتكون أيديهم واحدة في أن يغلبوا غيرهم ، وان يدفعوا عن انفسهم غلبة غيرهم لهم . ويريد من ذلك اتباع سياسة التحالف والتعاهد .

سابعاً ـ واعتقد آخرون ان الارتباط هو بتشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة واللسان ، وان التباين يباين هذه . وهـــذا هو لكل أمة فينبغي ان تكون فيما بينهم متجانبين ، ومتنافرين لمن سواهم ، فان الأمم انما تتباين بهـذه الثلاث . ولعـــله أراد الارتباط بالقومية لأن هذه العناصر من أركان وجودها .

ثامناً ـ وزعم آخرون ان الارتباط هو بالاشتراك في المنزل ثم الاشتراك في السكة ثم الاشتراك في المحلة ، فلذلك يتواسون بالجار . فان الجار هـو المشارك في السكة وفي المحـــلة ، ثم الاشتراك في المدينة ثم الاشتراك في الصقع الذي فيه المدينة .

وههنا أشياء يظن أنه ينبغي ان يكون لها ارتباط جزئي بين جماعة يسيرة وبين نفر وبين اثنين منها طول التلاقي ، ومنها الاشتراك في طعام يؤكل وشراب يشرب ، ومنها الاشتراك في الصنائع ، ومنها الاشتراك في شر يدهمهم وخاصة متى كان نوع الشر واحداً وتلاقـوا ، فان بعضهم يكون سلوة بعض حسب قاعـدة المصائب تجمع ، ومنها الاشتراك في لذة ما ، ومنها اشتراك في الأمكنة الـــتي لا يؤمن فيها ان يحتاج كل واحد الى الآخر مثل التوافق في السفر ، وكل هذا يدل على لون الاشتراكية الشيوعية .

ماذا نفهم من المدينة الفاضلة بالنسبة للجمهورية الافلاطونية ؟

١ ـ الجمهورية الافلاطونية ، جمهورية الفلاسفة ، والطبقات ، جمهورية الشيوعية الأباحية والمثل التي لا يقوم على وجودها برهان علمي .

٢ ـ المدينة الفاضلة ليست جمهورية ولكنها حكومـــة رئاسية ، تعاونية ، اشتراكية ، حكومة الفلسفة والحكمة ، والعقول والاخلاق. رسمها المنطق ، وتصورها الخيال ، وهي ساذجة ، وغير قابلة التطبيق .

قامت صورها على أساس نظـــام الكون كما عقله الفارابي ، ونظام الجسم الانساني كما بدا له في درسه علم الطب وعلم التشريح ، وعلم وظائف الاعضاء ، وترتيب المنطق الذي برع فيه .

واذا نظرنا الى ما حواه القسم الاول من كتاب آراء اهل المدينة الفاضلة عن واجب الوجود (وهو الاله) وجدناه فلسفة لاهوتية صوفية ، اداتها منطقية ولكن العلم لا يسلم بمقدماتها ولا بالفرضيات التي جعلت أساساً للاستدلال والقياس وقد اشرنا الى ذلك فيما سبق .

وفي مجال القسم الثاني من الكتاب ، نقرّ بأن الفارابي استنتج فلسفة اجتماعية استنتاجاً منطقياً دون ان يتبصر بالواقع الممكن ، وبالتطوّر السائد في عالم الوجود وفي الصعوبات التي تحول دون الوصول الى بناء هذا الفردوس الارضي .

انه يريد ان ينظم مدينته على مثال هندسة البدن ، والافلاك السماوية ، والعقول المفارقة التي فرض وجودها ، يريد ذلك ، ولكن لم يقل ما هي الوسائط الفعّالة الضامنة لهذا التنسيق . كيف نميّز الاستعدادات الطبيعية في الافراد والجماعات فنخصص اناساً للحكم ، واناساً للجيش ، واناساً للتشريع ، واناساً للامن ، واناساً للقضاء ، واناساً للصناعة ، واناساً للتجارة ، واناساً للزراعة ، واناساً للبناء والعمران ؟ كيف نثقفهم وننمي فيهم هذه الخصال ؟ كيف نحافظ على صحتهم وبقائهم ، واولادهم ، وعيالهم ؟ تلك قضايا يجب بحثها وايجاد الحلول لها في تفاصيل الحياة العملية (١) .

والذي يتمثل لنا من تاريخ حياته ، والادوار التي مرّ بها ، ان الفارابي رغم تجاربه ورغم سعة علومه ، وعمق تفكيره ، كان فيلسوفاً نظريـاً ، يعيش في عالم التصوّف والزهد والعقل ، لا في عالم الطبيعة والمحسوسات . ولم يبن مدينته على أساس القوانين الطبيعية التي تسير المجتمع .

ومهما تكن فلسفته ، ومهما كانت مبادئه ، فالمهم ان الفـارابي اعتبر الامـة

---

(١) وفي حل القضايا المعقدة التي لا يزال المجتمع يشكو منها ولا يجد لها علاجاً .

جسداً واحداً لا تحصل سعادتها بتصارع الاعضاء وتغالبها ، بل بالتضامن والتعاون والتناسق وتوزيع الأعمال بحسب الكفاءة والاستعداد الفطري . ثم اعتبر ان الدولة لا تبلغ السعادة ولا تضمن الاستقرار والطمأنينة ، ان لم يحكمها الحكماء المنزهون عن كل غرض شخصي ، المتصفون بكل المزايا الفاضلة التي تؤهلهم لرفع مستوى بلادهم وشعبهم الى أعلى ذروات الرقي والحضارة وهذا ما يحتاجه العالم اليوم وغداً ، الوعي العام ، والادراك الكلي للمسؤوليات والواجبات والمنافع العامة والغيرية لضمان البقاء العام .

وأما تأثير فلسفته الدينية والاجتماعية فيمن أتى بعده من فلاسفة العرب ، وغير العرب ، فبعيدة المدى ، فقد أثرت في كل من ابن سينا ، والسهروردي ، ومحي الدين بن العربي ، وفي علماء الكلام وأئمة المعتزلة ، وفي غيرهم .

والذي امتاز به الفارابي ارجاعه الوحي الفلسفي والوحي الديني الى مصدر شامل . ثم نظريته في واجب الوجود وممكن الوجود ، والحقائق الخالدة ، ونظرية الخلق من لا شيء وهي نظرية بدأ العلم الحديث بتأييدها والأخذ بها ولكن لا تزال تحت البحث والتحقيق والتجربة . ثم نظرية (العقول المفارقة) وأولها العقل الفعال الذي يهتم في تكوين عالم ما تحت القمر واحداث النفوس ، وافاضة المعقولات على عقل الفلاسفة والانبياء والحكماء . ثم نظرية العقل المستفاد والاتصال بالعقل الفعال . وبهذه النظريات استطاع أن يصل ما بين العقل والدين عقلياً ورياضياً ، وبين الماضي والحاضر ، ويسير مع تيار الحياة بعقيدة راسخة وعقل منتج وتفكير عميق . والأهم من هذا نظرية الفيض والاشراق الالهي وهما دعامة التصوف وعقيدة المتصوفين لله ، ومنتهى ما وصل اليه عقل فلاسفة الدين في اثبات وجود الاله اثباتاً فيضياً ، أو قل اثباتاً قلبياً يشعر به العاقل ولا يستطيع نفيه ولا اثباته .

والفارابي لكونه ولد في بيئة موحدة مسلمة ، وعاش في أمة موحدة مسلمة ، وتعلم العلوم الاسلامية الموحدة ، فقد تمركز تفكيره وتركزت فلسفته في وحدة الوجود وفي وحدة الحكم . وفي وحدة العقيدة ، وفي وحدة الغاية من وجود المجتمع ، وفي الدعوة لوحدة الأمم ، وفي وحدة الاشراف العام ، وفي وحدة

الخير العام الجامع لرفاهية الشعب وصلاح نفسه وسلامة سجاياه ، وفي وحدة العقل الأول المحرك للعقول التسعة وفي ذلك ثبت قواعد الدين وثبت قواعد المجتمع .

وأما افلاطون وسقراط وأفلوطين فكانوا في تعاليمهم وفلسفتهم يحاربون الوثنية ويحاربون السفسطة الهدامة ، ويحاربون الانحـــلال الخلقي ، ويريدون تنظيم مجتمعهم اليوناني على أساس بقاء الفوارق الطبقية حاكم ومحكوم ، وأحرار وعبيد ، مع وجود الاشتراكية في المنافع الدنيوية ، والديمقراطية في الحكم ، وأن يكون الحكماء هم أهل المرتبة الأولى في الحكم .

ومن حيث العقيدة فرجعوا الى فرض محرك للعالم واكتفوا بذلك دون أن يصفوا لنا علاقته بالموجودات ، ولم يتصوروا النبوة ولا الوحي ولا الفيض ولا الاشـــراق .

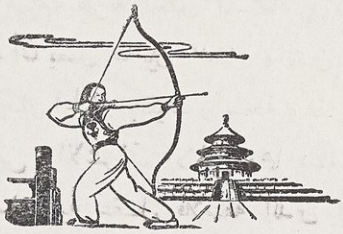

ثقافة الاطباء عند العرب

لم أعثر في الكتب العربية الطبية على بحث خاص يرينا كيف كان اطباء العرب في عصورهم العلمية وحضارتهم الزاهية يهيئون انفسهم لدراسة علم الطب وماذا يتعلمون من كتبه الموجودة في زمنهم .

وإننا وإن كنا نعرف الكثير عن البيمارستانات والمشافي وأقسامها وفروعها وادارتها واطبائها وما يلحق بها من معاهد للتدريس والتعليم ، ولكننا لا نعرف بالضبط ما هي العلوم التي كانوا يدرسونها وكيف كانت تجري امتحاناتهم .

ولأهمية الموضوع وجدت ضرورة للبحث في مختلف المراجع القديمة والتراجم الطبية (١) علّني اهتدي اليه ، والى معرفة العوامل التي ادت الى ازدهار العلوم الطبية والعلوم الطبيعية وغيرها وما كان لأطباء العرب من نصيب في هذا المضمار .

والذي اتضح لي بعد كل جهد ان اطباء العرب في القرون الخمسة الاولى من حضارتهم كانوا (اتسكلوبيدين) اي (موسوعين) بمعنى انهم كانوا يتعلمون علوماً عديدة يضيفونها الى ثقافتهم الطبية العامة والخاصة التي بلغوا فيها شأواً عظيماً لازالت آثاره الخالدة مسطّرة في كتبهم ومعاهدهم ومؤسساتهم .

واذا تساءلنا لماذا كانوا يتعلمون تلك العلوم التي كان اولها وأهمها اللغة العربية

---

(١) كعيون الانباء في طبقات الاطباء لموفق الدين ابو العباس بن أصيبعة المتوفى سنة ٦٨٨ هـ . ٢ ـ وتاريخ الحكماء لظهير الدين البيهقي المتوفى عام ٥٦٥ هـ . ٣ ـ واخبار العلماء بأخبار الحكماء لجلي الدين القفطي المتوفى عام ٦٤٦ هـ . ٤ ـ وكتاب البيمارستانات في الاسلام للدكتور احمد عيسى . ٥ ـ والطب عند العرب للأستاذ خيرالله . ٦ ـ وكتاب الاعلام لخير الدين الزركلي . ٧ ـ والحضارة الاسلامية لكرد علي . ٨ ـ وتاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان . ٩ ـ ودائرة المعارف البريطانية . ١٠ ـ وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان . ١١ ـ وقانون حمورابي للمؤلف .

والصرف والنحو والاعراب والبيان والبديع والبلاغة ، ثم العلوم الادبية كالشعر والادب والروايات ، ثم العلوم الاجتماعية كالتاريخ والتراجم والسيرة والقانون والقضاء ، ثم العلوم السياسية كنظام الحكم وأصول الادارة والعلاقات الدولية ، ثم العلوم الفلسفية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة وعلم الاخلاق واللاهوت .

ثم العلوم الرياضية كالحساب والجبر والهندسة والفلك والمثلثات ، ثم العلوم الطبيعية كالكيمياء والنباتات والحيوانات وعلم المعادن وعلم الاقاليم والمياه ، ثم يتعلمون العلوم الطبية كالتشريح ، والطب الداخلي وأمراض الجلد ، وعلم الجراحة وعلم الولادة وأمراض النساء ، وعلم الفيسيولوجيا ، والصحة ، وأمراض العيون ، ومفردات الطب ، والاقرباذين ، والصيدلة وغيرها . (١) أقول اذا تساءلنا عن السبب لم نجد جواباً إلاّ ان عصرهم كان يحتم على اكثرهم دراسة هذه العلوم مع علوم الطب تبعاً لأصول التحصيل الجاري في زمنهم ، واستجابة لحاجات الناس الذين يعتبرون الطبيب ملماً وعارفاً بكل شيء . اما وكيف وصلوا الى غاياتهم فكتب التاريخ والتراجم تدلنا على ان اطباء العرب اتبعوا أساليب اليونان في ثقافتهم التي لم تقتصر على الطب والطبابة بل تناولت ما ذكرناه من العلوم المتعددة والفنون المشهورة كما هو المعروف عن أبيقراط (٢) ، وسقراط (٣) ،

---

(١) ومع تعاطي المهنة الطبية كان بينهم من اشتغل في السياسة والوزارة ، ومنهم من كان نديماً خاصاً للملوك والامراء والوزراء ، ومنهم من كان معلماً منقطعاً للعلم والبحث والتجربة والاستقراء ، ومنهم من تعاطى الطب ثم تركه واشتغل في الفقه والتدريس ، ومنهم من تصوّف وانقطع عن الدنيا ، ومنهم من كان موسيقاراً او شاعراً ، ومنهم من اشتغل في الفلك والرصد والرياضيات .

(٢) أبيقراط Hipporates يعتبر أبا الطب وواضع أساساته ، ولد عام ٤٥٠ ق م

(٣) سقراط Socrates اشهر حكماء اليونان ولد عام ٤١٨ ق. م وتوفى عام ٣٩٩ ، وعلّم في اثينا وكان يلقي دروسه في الازقة والشوارع وبين الجماعات ثم تألب عليه السوفسطائيون وجروه امام الحكم فحكم عليه بشرب السم وهو في السجن فشربه ومات .

وأفلاطون (١) ، وأرسطو (٢) ، وجالينوس (٣) ، أئمة العصور اليونانية والرومانية وكما هو معروف عن أئمة اطبائنا كالفارابي ، وابن رشد ، وابن سينا ، والرازي ، والزهري ، والزهراوي ، وابن البيطار ، وابن حزم ، وابن أصيبعة ، وابن خلدون وغيرهم .

وسببه كما قلنا تأثير المجتمع وحاجات الزمن وطبيعة الثقافة التي فرضت على الطبيب ان يكون حكيماً عليماً ملماً بما وصلت اليه معارف الزمن ، مامراً في صنعته ، ذكياً في تدقيقاته وتحرياته ، فيلسوفاً في افكاره ، وتصرفاته ، انسانياً في معاملاته ، مدنياً في اخلاقه ، وعليه ان يمثل الفضيلة في سيرته ، وان يتصف بالخصائل التي تجعله قدوة في النظافة وأدب المحادثة ، وجدية العناية ، وكتم السر ، وخدمة المحتاج .

وعليه ان يكون بعيداً عن الاذى والضرر وسوء النية ، لا يقصر في معونة من يحتاجون الى علمه ، ورأيه وتدبيره ، كفؤاً في صنعته ، شريفاً في معاملاته .

وكلها صفات حميدة لا يستغرب من المجتمع الانساني إن تطلبها أطبائه فيما مضى والآن ، لأن علم الطب كان في جميع العصور التي مرت على تطور البشرية ورقي الانسان معدوداً من أرقى العلوم وأهمها ، ومعاطاة الطب كانت ولا تزال من أشرف المهن ، والطبيب الحاذق الفاضل كان ولا يزال صاحب الاعتبار والتقدير في مجتمعه وبين افراده ، لأن بيده تخفيف الالم وإزالته ، وشفاء السقام

---

(١) افلاطون Ploton فيلسوف وطبيب يوناني ولد عام ٤٣٠ وتوفى عام ٣٤٧ ق. م .

(٢) ارسطو Aresto فيلسوف وطبيب من اكبر فلاسفة اليونان ولد في عام ٣٨٤ وتوفى عام ٣٢٢ ق. م .

(٣) جالينوس Jalinus من اعظم اطباء اليونان ولد عام ١٣١ بعد الميلاد وتوفى عام ٢٠١ .

او تعديله ، وجبر الكسر ، وبتر الفاسد ، ومداواة العلة ، وحفظ الصحة ، ووقاية الجسم ، وتشخيص المرض ، ومحاربة الوباء ، ومعالجة الجروح ، واعادة النفوس العليلة الى حالها الطبيعي .

واذا كانت تلك الخصائل والمزايا والعلوم من ضروريات العصر اليوناني ومن ضروريات العصور العربية ، وكانت ايضاً من ضروريات العصر المصري والبابلي والآشوري والايراني ، فلماذا لاتكون من ضروريات عصرنا وان تطورت وتنوعت ثقافة اطبائنا وأصبحت ذات فروع وذات اختصاص ، ولهـــا معاهد ومؤسسات ومختبرات ، ولها ادوات ومعدات ؟ أليست الفضائل التي كانت مطلوبة من الاطباء الاقدمين هي ذات الفضائل التي تتطلبها ويجب ان نتطلبها من كل طبيب اليوم وغداً وفي يدهم ارواحنا وحياتنا ؟ ولذا كانت أساليب تعليمنا الطب قد تغيرت اليوم وفاقت ما كانت عليه ، وثقافتنا الطبية قد اتسعت آفاقها وارتقت مقاييسها العلمية فهل من الضروري ان تتغير اخلاقنـا الطبية وخصائلنا المهنية ، وواجباتنـا الادبية ؟ .

قبل الاجابة على هذا السؤال المهم سلباً او ايجاباً ، وقبل بيان ماهية ثقافة اطبائنا العرب ، يتحتم علينا ـ ولو بصورة وجيزة ـ استعراض نشأة الطب من أقدم الازمنة حتى ايام العرب الزاهية ، وبيان ما كانت عليه نظرة المجتمع الى الاطباء ومهنتهم ، وما هي مجمل الفضائل التي كانوا يتحلون بها ؟ .

تذكر كتب التاريخ والحضارة ان الكهنة في مصر وبابل وآشور والهند والصين كانوا يمارسون الطب ويعلمونه ويعرفون خواص الاعشاب وكيفية استعمالها ، وكانوا يتوارثون المعرفـة والمهنة خلفاً عن سلف ، ويتعلمون معهـا السحر والتنجيم وعـلم الكيمياء ، وعلوم الدين وما يتصل بالعبادات والطقوس والشرائع ، ويتعاطون التطبيب كما يتعاطون خدمة الهياكل والمعابد ، والآلهة والاصنام .

وكان لهؤلاء الكهنة الاطباء ، وسدنة الهياكل والمعابد ، صفة القداسة وسلطة القضاء والحكم بين الناس .

وكان الكهنة يعتبرون الطب والطبابة ومعرفة الكيمياء من الامور السرية المقدسة التي لا يجوز اباحتها لكل طالب ، لأن لها اسرارها واصالتها ، وادعيتها ، وتعاويذها ، فلا يعلمونها إلاّ لمن كان من أولاد الملوك او الامراء او من طبقة الاشراف النبلاء ، ويتحلّون بالصفات المؤهلة التي تمكنهم من ان يكونوا خدمة الآلهـة ، والملوك وخدمة الطبابة تقديساً للعلم والطب والطبابة ورفعاً لدرجاتهـا واعتبارهـا .

وفي ايام البابليين كان اهل المرضى يضعون مرضاهم في الشوارع العـامة ويعرضونهم على المارة لعل واحداً منهم يكون قد أصيب بما أصيب به المريض ثم شفي من دائه فيصف للواقفين ما استعمله من العقاقير والادوية والاعشاب والتعاويذ والادعية حتى زال عنه المرض وتخلّص من الروح الشريرة التي كانت سبباً لمرضه ، فيدونون ما قاله على ألواح مشوّية من الآجر ويسلمونها الى سدنة الهياكل ليحفظوها ويضيفونها الى غيرها من الالواح التي اكتشف علماء الآثار الكثير منها .

ولعل ما حدث في الماضي السحيق يحدث مثله اليوم بين القبائل المتوحشة التي تعيش في حالة بدائية في مجاهل افريقيا وأمريكا الجنوبية ، وفي صحـارى اوستراليا ، وفي آسيا وجزر الهند ، فان مرضاهم يلجأون الى الكهنة والسحرة لمداواتهم وطرد الارواح الشريرة عنهم .

ومما خلده المصريون والبابليون والهنود من آثار وكتب وروايات نستطيع ان نقول بأن تاريخ الطب قد بدأ في عصور تلك الأمم وأمثالها ومن اتى بعدها .

ويدلنا تاريخ اليونان على ان الطب أيام اسكولابيوس (١) انحصر فيه وفي

---

(١) اسكولابيوس Ascolepius إله أسطوري عند اليونان ويقال انه ابن « ابوللو » ابو الآلهة . وكانت أمه حورية اسمها كورونيس ، ووصفه هومر بأنه طبيب ماهر وكان يمثل في المعابد ويعبد ، وله ابنة هي آلهة الصحة اسمها هياجين وولد هو إله الشفاء .

اولاده وعائلته التي انحدر منها أبيقراط (١) ، وتدلنا وصية ابيقراط وهي الميثاق الخالد في عالم الطب على وجود النظام الوراثي في تعاطي الطب ومعاطاته .

على ان هذا الانحصار العائلي لم يتبدل إلا في زمن افلاطون (٢) الذي انشأ (الاكاديمية) للعلوم والطب والفلسفة والرياضيات في (اثينا) وخصها بتلامذته ومريديه يؤمونها ويحضرون دروسه . وكانت ابواب (الاكاديمية) مفتوحة لابناء الشعب ولكن لا ينتسب اليها إلا من توجد فيه الاهلية والجدارة لتحصيل العلم من ابناء اليونان .

وجاء في المصادر المصرية بأن سكان مصر هم أقدم من تعاطى صناعة الطب لاعتقاد ملوكهم وكهنتهم وعلمائهم ان الروح عائدة الى الجسم بعد مفارقتها له اذا بقيت الاجسام سليمة من الفناء .

وبدافع هذه العقيدة اشتغلوا بأمر التحنيط واكتشفوا ما يلزم له من مواد كالزيوت العطرية ، والراتينجية ، والدهنية ، والمعدنية ، وكانوا يستعملون معها الكافور وزيت الصندل ، والمر ، وحصى الالسبان ، ومركبات الزئبق ، ومركبات الذهب ، والانتيمون ، والارمنيك الطبيعي ، وأملاح الكلور والصوديوم والبوتاس ، والرصاص ، والبوركس والنطرون وغيرها من المواد العضوية وغير العضوية لاحكام عملياتهم الكيميائية الدقيقة المعقدة .

وأشهر من عرف من اطبائهم (هرمس الاول (٣)) الذي ألف اثنين وأربعين كتاباً مقدساً كان منها ستة في الطب وتركيب البدن وأعضائه ، ولا سيما في العينين وفي الجراحة والآلات الجراحية المستخدمة لتوليد النساء ، ومعالجة امراضهن . وكان يعتقد ان المعرّقات والمقيئات والحقن من مقصيّات المرض وموجبات الشفاء .

---

(١) أبيقراط Hippocrates .

(٢) أفلاطون Platon ولد في عام ٤٣٠ - ٣٤٧ ق.م .

(٣) هرمس Hermes هو الاسم اليوناني للآله (طوت أو توت) المصري ويقال الاسم ايضاً لرجل من حكماء مصر تنسب اليه بعض الكتب الطبية . والهراسة عدة اشخاص اشتهروا كلهم بالطب والعرب تسمي (هرمس الاول) ادريس وهو من بابل .

ثم جاء من بعده وسار على منواله الهرامسة الثلاثة ، الذين اورد ذكرهم صاحب طبقات الاطباء . وكان أقدم كتاب طبي عرف عند المصريين « رسالة في التشريح » ورسائل طبية عديدة تأليف « اثوثيس بن منيا » من ملوك الدولة الاولى المصرية .

وتدلنا شريعة حمورابي المؤرخة في حدود عام / ٢٠٨٤ - ٢٠٨٠ / قبل الميلاد على ان البابليين كان لهم اطباء وجراحون ، وكحالون ، وبياطرة ، وكانت اجرة الطبيب والجراح والبيطري معينة ومنصوص عنها في مواد الشريعة ، وكذلك ورد فيها عقاب من يسيء عمله عمداً او جهلاً .

وفي القرن السابع من الميلاد اكتشفت فيما بين النهرين « دجلة والفرات » إحدى المدارس التي كان يدرس فيها الطب .

والبابليون اول من بنى اساسات المعالجة على الامزجة الاربعة (١) والاخلاط الاربعة (٢) وأول من مارس الاختصاص في مهنة الطب . وكانوا كالمصريين يستعينون بالادوية والتعاويذ والرقى والسحر لشفاء الامراض وطرد الاوبئة واخراج الارواح الخبيثة من المصابين بالصرع او الجنون . وكان التنجيم عندهم من جملة الوسائل لشرب الدواء وقطف الزهور وجمع الاعشاب لتعيين وقت العمل ووقت التناول ، ووقت الفصد والحجامة .

ولما ازدهرت حضارة اليونان كان « ابيقراط » المولود عام ٤٦٠ ق.م اول من ألف كتاب الطب وأول من فصله عن الدين ، وأول من جعل مصدر الامراض الغذاء والهواء . وكان طبيباً ماهراً وله مدرسة يدرس فيها الطب ، وعيادة خاصة يداوي فيها مرضاه . وقد عرف عنه انه كان يعتمد في معالجة المرض ومداواته على المشاهد والتجربة . ومن تعاليمه : « ان الامزجة اربعة (٣)

---

(١) الامزجة الاربعة : المزاج الصفراوي ، والمزاج الدموي ، المزاج البلغمي ، والمزاج السوداوي .

(٢) الاخلاط الاربعة : الدم ، والبلغم ، والمرة الصفرة ، والمرة السوداء .

(٣) الامزجة الاربعة : الدموي ، والبلغمي ، والصفراوي ، والسوداوي .

والعناصر(١) أربعة ، وخواص الاشياء (٢) اربعة » ، وكان يعتني بالصحة والتشخيص ، ويتعاطى التشريح والجراحة ، وامتاز في عملياته .

وذكر التاريخ ان « ابيقراط » سكن مدينة حمص ، وذهب الى دمشق ، وأقام فيها في بستان غربي الصالحية في محل يسمى « قبة اليسار » (٣) . وهو واضع الميثاق الطبي الشهير الذي طلب من تلامذته ان يقسموا عليه ويعملوا بموجبه ، وقد بقي منذ ذلك العهد حتى زمننا الحاضر عهداً يقسم عليه الاطباء في كلياتهم وجامعاتهم أمام اساتذتهم قبل ان يخرجوا ويمارسوا مهنتهم

ما هو هذا القسم ؟

جاء في كتاب « طبقات الاطباء » للطبيب ابن أصيبعة ان محتويات القسم هي ما يأتي :

« إني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء ، وكل علاج ، وأقسم بأسقليبوس ، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً وأشهدهم جميعاً على اني افي بهذا العهد وهذا الشرط ، وأرى ان المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة ابي وأواسيه في معاشي واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي الخاص ، وأما الجنس المتناسل منه فأرى انه مساو لاخوتي ، وأعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا الى تعلمها بغير اجرة ولاشرط ، وأشرك اولادي واولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط واحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصنعة ، وأما غير هؤلاء فلا افعل به ذلك ، واقصد في

---

(١) العناصر الاربعة : هي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) خواص الاشياء الاربعة : حار ، وبارد ، ورطب ، ويابس .

(٣) قبة اليسار : محل بالقرب من « دير مران » ذكره القفطي في اخبار الحكماء . وفي معجم البلدان ٤ ـ ١٧٢ هو الدير الكائن بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وهو دير كبير وفيه رهبان ومدحه الصنوبري . ويوجد دير آخر بهذا الاسم واقع على جبل يشرف على « كفر طاب » قرب المعرة ، ويقال ان فيه قبر عمر بن عبدالعزيز .

جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى ، وأما الاشياء التي تضر بهم وتدني بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي ، ولا أعطي اذا طلب مني دواء قتالاً ولا أشير ايضاً بمثل هذه المشورة ، وكذلك ايضاً لا ارى ان ادني من النسوة فرزجة (١) تسقط الجنين واحفظ في نفسي في تدبيري وصناعتي على الذكاء والطهارة ، ولا اشق ايضاً عمن فى مثانته حجارة ولكن اترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل .

وكل المنازل التي ادخلها انما ادخل اليها لمنفعة المرضى ، وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الاشياء ، وفي الجماع للنساء والرجال الاحرار منهم والعبيد .

وأما الاشياء التي أعاينها في اوقات علاج المرضى او اسمعها في غير اوقات علاجهم في تصرف الناس من الاشياء التي لا ينطق بها خارجاً فأمسك عنها وأرى ان مثالها لا ينطق به » .

ويظهر ان ابيقراط لم يكتف بهذا القسم بل توكيداً له وضع ناموساً لتعاطي الطب ، ووضع وصايا لمن يريد ان يكون طبيباً وايده العرب في قسمه وناموسه ووصاياه واتبعوها قولاً وعملاً .

اما الناموس (٢) فقد قال فيه : إن الطب اشرف الصنائع كلها ، إلا ان نقص فهم من ينتحلها صار سبباً لسلب الناس اياها لانه لايوجد لها في جميع المدن عيب غير جهل من يدعيها ممن ليس بأهل للتسمي بها . اذا كانوا يشبهون الاشباح التي يحضرها اصحاب الحكاية ليلهوا الناس بها ، فكما انها صور لا حقيقة لها ، كذلك هؤلاء الاطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل جداً .

وينبغي لمن اراد تعلم صناعة الطب ان يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية وحرص شديد ورغبة تامة ، وافضل ذلك كله الطبيعة لانها اذا كانت مؤاتية فينبغي ان يقبل التعليم ولا يضجر لينطبع في فكره ويثمر ثماراً حسنة

---

(١) الفرزجة : هي التحميلة التي تحملها المرأة لاسقاط الجنين وفي الغالب تكون من عقار يهيج الرحم .
(٢) نقلا عن ابن اصيبعة ١ ـ ٢٦ .

مثل ما يرى في نبات الارض . اما الطبيعة فمثل التربة وأما منفعة التعليم فمثل الزرع ، واما تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الارض الجيدة ، فمتى قدمت العناية في صناعة الطب بما ذكرنا ثم صاروا الى المدن لم يكونوا اطباء بالاسم بل بالفعل . والعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه مملوء سروراً ، سراً وجهراً ، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء وذخيرة ردية عديم السرور ، ودائم الجزع ، والتهور ، والجزع دليل على الضعف ، والتهور دليل على قلة الخبرة بالصناعة .

وفي الوصية قال : ينبغي ان يكون المتعلم للطب في جنسه حراً ، وفي طبعه جيداً ، حديث السن ، معتدل القامة ، متناسب الاعضاء ، جيداً للفهم ، حسن الحديث ، صحيح الرأي عند المشورة ، عفيفاً ، شجاعاً ، غير محب المال ، مالكاً لنفسه عند الغضب ، ولا يكون تاركاً له في الغاية ، ولا يكون بليداً ، وينبغي ان يكون مشاركاً للعليل ، مشفقاً عليه ، حافظاً للأسرار ، لان كثيراً من المرضى يوقفونا على امراض بهم لا يحبون ان يقف عليها غيرهم ، وينبغي ان يكون محتملاً للشتيمة لأن قوماً من المبرسمين (١) واصحاب « الوسواس ـ السيداوي » يقابلونا بذلك . وينبغي ان نحتملهم عليه ونفهم انه ليس منهم ، وان السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة ، وينبغي ان تكون ثيابه نقية ومعشره سليماً .

وتأييداً لما تقدم اذكر اعتقاد اطباء العرب فيمن يريد ان يكون طبيباً .

قال الطبيب مهذب الدين ابي الحسن علي بن احمد بن علي بن هبل

---

(١) المبرسم : مشتق من البرسام ـ وهو التهاب في الحاجز الواقع بين الكبد والامعاء ، والمبرسم ممن يصاب بهذا الداء . وأصل الكلمة دخيل على العربية وهي مركبة من « بر » ومعناه الصدر بالفارسية و « سام » ومعناه « الموت » .

البغدادي المتوفى عام / ٦٢٠ / هجري في كتابه « المختارات الطبية »(١) :

ان لكل واحد من الناس حداً من الاستعداد في قبول العلوم والصنائع بحسبه يكون مطبوعاً فيها ، فاذا توفر على ما هو مستعد له ومطبوع فيه انتفع به ونفع ، وان تعداه الى غيره ضرّ واستضرّ .

والصنائع والعلوم تنمو وتزيد بوقوعها الى المستعدين المطبوعين فيها ، وتنقص وتفسد بوقوعها الى غيرهم . ويعرف المطبوع في الحكمة بصحة مزاجه وتناسب اعضائه وطهارة أخلاقه .

« مجلد ٢ ص ٦ »

ويضيف على قوله :

« ومما يمتحن به حتى يوثق بعلمه وعمله ، ان ينظر فيما اذا انفق زمانه في الماضي في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء ممن هو أهل لها ،

---

(١) وما جاء في وصايا البغدادي يتفق مع ما جاء في وصايا عميد اطباء القاهرة (ابن رضوان) الذي اشترط على الطبيب ان يكون متحلياً بسبع خصال ، هي :

« ١ ـ ان يكون تام الخلق صحيح الاعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الروية ، عاقلاً ، ذكوراً ، خير الطبع . ٢ ـ ان يكون كتوماً لاسرار المرضى لا يبوح بشيء من امراضهم . ٣ ـ ان يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة نظيف البدن والثوب . ٤ ـ ان تكون رغبته في ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما يلتمسه من الاجرة ، ورغبته في علاج الفقراء اكثر من رغبته في علاج الاغنياء . ٥ ـ ان يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس . ٦ ـ ان يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شيء من امور النساء والاموال التي شاهدها في منازل الاعلاء ، فضلاً عن ان يتعرّض لها او الى شيء منها . ٧ ـ ان يكون مأموناً ثقة على الارواح والاموال ، ولا يصف دواء قتالاً ولا يعمله ، ولا دواء يسقط الأجنة . يعالج عدوّه بنية صادقة كما يعالج حبيبه » .

ابن اصيبعه ـ جزء ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٣

وطول ملازمتهم والقراءة عليهم والملاج بين ايديهم ، والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم ، وملازمة خدمة البيمارستانات التي يجتمع فيها حذاق الاطباء ، وكثرة نظره الى معالجة الاستاذ فيشار اليه ويعوّل عليه .

وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته ، وان همته اذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة ، وانه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب ومواترة السكر ، ولا ببعض هذه الخلال المذمومة التي تستغرق الزمان بالتضييع ، والخاطر بالتوزيع ، فان كان ينسب الى شيء من ذلك فلا ينبغي ان يوثق به ولا يعوّل عليه في هذه الصناعة » .

وهو قول اذا نظرنا اليه بعين تلك الزمن وبعين زمننا وبعين التحليل السيكولوجي والصحي والمسلكي ، نجده متوافقاً مع قسم ابيقراط ومع ناموسه الطبي ومع وصاياه ومع ما كانت تتطلبه العصور العربية في معاهدها وبيمارستاناتها من اطبائها ، ومع ما تسعى الى تحقيقه والعمل به معاهدنا العلمية الحديثة في تنشئة الاطباء وتهذيب اخلاقهم وتربيتهم الصناعية لانه قول صادر عن تجربة وعلم ، ونفس نذرت نفسها للتعليم والتدريب والتنشئة وخدمة المهنة ، وخدمة الانسان والانسانية .

وبعد هذا لنعد الى متابعة بحثنا عن تطور ونشأة الاطباء ، فأقول :

ومن بعد افلاطون ظهر اريسطو الذي ولد في عام ٣٨٤ قبل الميلاد ومات في عام ٣٢٢ وكان من أعظم فلاسفة اليونان ، وهو وان لم يكن طبيباً ولكن تعاليمه أثرت تأثيراً عميقاً في تقدم الطب وفي ذهنية العرب فدعوه المعلم الأول .

ويذكر متتبعو حياته وآثاره أنه ألف في مواضع عديدة تتعلق بالطب كعلم الاحياء ، وعلم التشريح المقارن ، وعلم الفيسيولوجيا ، وعلم الأجنة ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات ، علاوة على ما ألفه في الفلسفة والمنطق والبيان والسياسة وعلم النفس وعلم الأخلاق .

وكان أستاذاً ومربياً للاسكندر الكبير في صغره ولما تولى اسكندر زمام الحكم ، وقاد جيشه للفتوحات اتخذ معلمه مشاوراً له في اجراءاته وأموره السياسية .

وقد اشتهر اريسطو بالولع العلمي والتحري الواسع والدقة العلمية والنهج الرتيب .

وفي أيامه أنشأ الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ قبل الميلاد وأنشأ معها مدرسة الاسكندرية التي ارتقت ارتقاء عظيماً في عهد البطالسة وبقيت منارا للعلم ونشره ومعهداً لتخريج العلماء والفلاسفة والاطباء والحقوقيين حتى الفتح الاسلامي عام ٦٤٢ ميلادية . ومن هذه المدرسة تخرج الاطباء (هيروفيلس ، وارسطو ارطس) واشتهر بترقية علمي التشريح والفيسيولوجيا ، وتخرج منها (جالينوس) (١) أعظم طبيب ترجم له العرب وأخذوا عنه أيام الأمويين لأنه كان خاتمة الاطباء الكبار الثمانية الذين اشتهروا في هذه المدرسة .

وفي طبقات الاطباء يقول الطبيب ابن أصيبعه : « ان جالينوس لما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها اقوال الاطباء السوفسطائيين ، وامحت محاسنها ، فانتدب لذلك وأبطل آراء اولئك وشيد أقوال (أبيقراط) وآراءه وآراء التابعين له ، وصنف في ذلك كتباً كثيرة كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة ، وأفصح عن حقائقها ونصر القول الحق فيها ، ولم يجيء بعده من الاطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه » .

وكانت مدة حياة جالينوس على رأي الطبيب النحوي سبعة وثمانين سنة ، منها صبي ومتعلم /١٧/ سنة ، وعالم ومتعلم ٧٠ سنة . ولكن جالينوس يقول عن نفسه في كتابه (مراتب قراءة كتبه) :

ان أبي لم يزل يؤدبني بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التي تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سنة ، ثم أنه أسلمني في تعليم المنطق وقصدني حينئذ في تعليم الفلسفة وحدها ، ثم رأى رؤيا دعته الى تعليمي الطب فأسلمني في تعليمه وقد أتت عليّ سبع عشرة سنة ، وبعدها تعلمت الطب وتعاطيته حتى بلغت الثماني وثلاثين سنة .

---

(١) جالينوس Galinus ولد عام ١٣١ وتوفي عام ٢٠١ . له اكتشافات خطيرة في التشريح ، ائتم به ائمة اطباء العرب .

وكان جالينوس عبقرياً واسع المعلومات ، درب اللسان ، كتب الكثير في مختلف المواضيع الطبية المعروفة في زمانه انما كان تنقصها سلاسة أبيقراط ووضوحه .

وكان في حياته ومعيشته يحب الفخفخة ، وطالما ساقه عقله المولد الى الدخول في عالم الخيال والفلسفة ، ولذلك أتى ببعض الآراء الوهمية غير المعقولة ، وأتت مؤلفاته صعبة الدرس والفهم ، ومع هذا فقد كانت بين المؤلفات الأولى التي نقلت الى العربية ، ترجمها حنين بن اسحق وولده اسحق وابن أخته حبيش الأعسم .

وكانت مدرسة الاسكندرية جمعت تآليف جالينوس كلها وبوبتها ووضعتها في ١٦ مجلداً ليسهل درسها . وذكر ابن اصيبعه أن هذه المجموعة من الكتب المترجمة الى العربية كانت المتداولة بين الناس وفي أيديهم والمعتمد عليها في دراسة الطب (ككتاب الفرق الطبية ، وكتاب الصناعات الصغيرة ، وكتاب النبط الصغير ، وكتاب « غلوقن » الذي معناه الأزرق كتبه في التأني لشفاء الأمراض ، وكتاب في الفطام ، وكتاب في العضل وتشريح العصب ، وتشريح العروق الضوارب وغير الضوارب ، وكتاب الأسطقسات (١) وهو يبين جميع الاجسام التي تقبل السكون والفساد وهي ابدان الحيوان والنبات ، والاجسام التي تتولد في بطن الارض ، وكتاب المزاج ، وكتاب القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأمراض ، وكتاب تعريف عمل الاعضاء الباطنة « باثالوجيا » ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب أصناف الحميات ، وكتاب البحران ، وكتاب حيلة البرء ، وكتاب علاج التشريح الكبير ، وكتاب فيسيولوجيا الاعضاء ، وكتاب في قوى الأدوية المسهلة ، وكتاب في المادات ، وكتاب في الأدوية المفردة ، وله كتب أخرى في أمور طبية ومسائل تتعلق بالتداوي نظر فيها وفسرها من جاء بعده من الاطباء الاسكندرائيين كأصفهان ، وانقيلاوس ، وجاسيوس ، ومارينوس ، وثادووسيوس ، وديسفوريدس ، ويحى النحوي الذي عاش ولحق زمن عمرو بن العاص في مصر وله كتب عديدة

---

(١) الأسطقسات معناها العناصر . وهي عند الأقدمين (الماء والأرض والهواء والنار) وأصلها مأخوذ من اليونانية .

ترجمت الى العربية أيضاً مع كتب ديسقوريدي صاحب الفضل في تعليم وتصنيف مفردات الطب) .

وبعدما انشقت الامبراطورية الرومانية (١) الى مملكتين واضطهد رؤساء النساطرة السريان الذين كانوا في مـــدارس أثينا وهاجر النسطوريون الى الشرق وكانوا من العلماء والفلاسفة والاطباء وحملوا معهم العلوم اليونانية وثقافتها وسكنوا بلاد الرها وما جاورها وأقاموا فيها مدارسهم .

ومنهم من سكن في نصيبين ، وقنسرين ، وميافارقين ، وأسسوا فيها مدارس علمية وطبية أخرى بلغت خمسين مدرسة ، ومنهم من هاجروا الى جنديسابور من بلاد العجم ، واوجدوا ايضاً مدرستهم الشهيرة التي تخرّج منها الطبيب العربي الشهير الحرث بن كلدة اول طبيب في الجاهلية قابل كسرى انو شروان ، مع وفد من رؤساء العرب ، وتحدث اليه ووصف له فضائل العرب ومكارمهم ، وأجابه على عدة أسئلة سأله عنها ليمتحن معرفته .

وكان النساطرة ترجموا العلوم اليونانية الى السريانية ، ولما فتح العرب بلاد سوريا والعراق وإيران ، وفتحوا قلوبهم للعلم وبذلوا الاموال للحصول عليه وصرفوا حياتهم للحصول على كتبه وترجمتها وسافروا لاجل ذلك الى بلاد اليونان وايران والهند والصين وعملوا على ترجمتها ، واستقدموا العلماء والتراجمة لهذه الغاية وللتعليم والتدريس والتطبيب ، كان هؤلاء النساطرة وغيرهم من خير ما ساعد على ذلك .

والذي نستطيع استنتاجه من كل ما تقدم ، ان اطباء العرب بدأوا تعلم الطب من الذين كانوا في مدرسة الأسكندرية ابان فتح مصر ، ثم من اطباء النساطرة الذين كانوا يدرسون في مدارس الرها وغيرها مما ذكرنا اسماءها .

ولما تأسست دار الحكمة في ايام المأمون ، وانتظم أمر التأليف والترجمة

---

(١) لم يكن العصر البيزنطي الممتد من عام ٤٧٦ الى ٧٣٢ بعد الميلاد من العصور التي لها أثر كبير على العرب ، بل كانت المدينة اليونانية خلالها في انحطاط وانحصرت تعاليم أبيقراط ، وسوقراط ، وجالينوس في الأديرة .

واستكمل جمع جميع الكتب من كل انحاء العالم ، واتسع نطاق النشر والتعليم ايام جعفر ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، واستوفى العرب حظهم من التحصيل والمعرفة والاطلاع ، انتقلوا الى دور التعمق والتجربة والاستقراء والكشف والاختراع والتأليف ، وأنشأ المعاهد والمشافي ، وساعدهم عليه ظمأهم الى العلم وتحصيله ، واهتمام الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء وأصحاب الغنى به وبالعلماء ، وبذل هؤلاء الاموال لاستكمال ما كانوا يريدونه هم ويريده الاطباء والعلماء . ولم يقتصر الاهتمام على الطب بل تناول الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، والجغرافيا ، والقياسات والرصد ، والكيمياء ، عدا اهتمامهم ومساعداتهم وبذلهم الهبات والعطايا بسخاء وكرم للشعراء والادباء ورجال الدين واطلاقهم الحرية لهم في البحث والقول والعمل .

وفي الحقيقة ان الطبابة لم ترتق وحدها بل ارتقت في هذه العهود المستشفيات والبيمارستانات والمؤسسات والملاجيء الخيرية وانتشرت بكثرة في جميع البلاد الاسلامية : في بغداد والقاهرة ودمشق وحلب ومكة والمدينة وفلسطين ، وفي غرناطة وأشبيلية وطليطلة والقيروان .

وفي عهد عبدالرحمن الثالث وولده الحاكم الثاني ، كانت اسبانيا في جامعاتها ومكتباتها ومدارسها وبيمارستاناتها من ارقى ما وصلت اليه الحضارة العربية ، وكان من اطبائها وفلاسفتها الذين اشتهروا واثروا في تقدم العلم والطب ابن رشد ، وابن الطفيل ، وبنو زهر ، وابو القاسم الزهراوي وغيرهم .

ومما يدل على عناية العرب واهتمامهم في تشييد المعاهد العلمية والبيمارستانات والخانقات وترتيب ادارتها وتنظيمها ، ووقف الاموال والايرادات الكثيرة لتجهيزها وادامتها :

اولاً ـ كثرة عددها وانتشارها في جميع المدن والعواصم الاسلامية .

ثانياً ـ اهتمام العالم العربي ملوكاً وافراداً ووزراء وشعباً بتمويلها ووقف المزارع والاملاك والمرافق لدوام عملها وترقية شؤونها .

ثالثاً ـ تنظيمها وحسن ادارتها وبذل العناية في هندستها واثاثاتها .

رابعاً ـ تخصيص اهم الاطباء للتعليم والتدريس والتمريض فيها .

خامساً ـ فتحها للعامة والخاصة ، للذكور والاناث .

سادساً ـ تقسيمها الى فروع وجعل كل فرع خاصاً بقسم من الامراض .

سابعاً ـ ربط المدارس الطبية والمكتبات والصيدليات بها .

ثامناً ـ تزويدها بكل ما تحتاج اليه من مؤونة وزاد وغذاء وادوية وألبسة ومفروشات ، وأشربة وأدوات ، ومياه نقية ونور وتهوية وأسرة وأغطية ، وجعل وظائف اصحابها من اجل الوظائف ورتبهم من ارقى الرتب .

تاسعاً ـ اعطاء اطبائها وناظريها المرتبات الوفيرة عدا تقديم ما يقوم بكفايتهم من الارزاق والهبات والجراية وعلوفة الدابة .

عاشراً ـ جعلها مرجعاً للتجارب ، وتدوين المشاهدات والنتائج ، ومركزاً للتأليف والاكتشاف والاختراع ، ودائرة لامتحان الاطباء والصيادلة واعطاء الاجازات .

وفي كتاب تاريخ البيمارستانات في الاسلام للدكتور احمد عيسى بك تفصيل هام وأدلة وافية وصور عن الوقفيات المتعلقة بيمارستان المنصوري ، والمعتضد ، والنوري ، وصور عن المراسيم التي كان يصدرها الملوك لمن يتولى الطبابة والادارة والخدمة فيها والكل يؤيد ما قلناه عن عناية العرب ومبلغ اهتمامهم بها وبايصال النفع العام لرعاياهم .

وكمثال على مقدار الغاية والاهتمام يقول الدكتور في صفحة ٨٦ وفي سنة ٦٨٠ هـ الموافق لعام ١٢٨١ م :

ولما تكامل البيمارستان « يعني المنصوري » الذي انشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفي الصالحي بخط بين القصرين « هما القصر الكبير الشرقي الذي بناه جوهر قائد الفاطميين عام ٣٦٠ ، والقصر الصغير الذي بناه العزيز بالله ابو منصور نزار سنة ٤٥٠ هـ » من القاهرة ، وكان ذرعه ١٠٦٠٠ ذراع ،

ركب السلطان وشاهده وجلس بالبيمارستان ومعه الامراء والقضاة والعلماء ، وأخبر بعض من شهد السلطان وشهد عليه انه استدعى قدحاً من الشراب فشربه وقال قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني ، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير الصغير ، والحر والعبد ، والذكر والانثى ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات جهز وكفّن ودفن . ورتب الحكماء الطبائعية ، والكحالين ، والجرائحية ، والمجبرين لمعالجة الرمد والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء . رتب به الفراشين والفرّاشات والقومة لخدمة المرضى واصلاح اماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام (١) ، وقرر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة ، وعملت الفرش والتخوت والطراريح والاقطاع والمخدات واللحف والملاءات لكل مريض فرش كامل ، وأفرد لكل طائفة من المرضى امكنة تختص بهم ، فجعلت الاواوين الاربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها ، وجعلت قاعة للرمد ، وقاعة للجرحى ، وقاعة لمن أفرط به الاسهال ، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للممرورين (٢) من الرجال ومثله للنساء ، والمياه تجري في اكثر هذه الاماكن ، وأفردت اماكن لطبخ الطعام والاشربة والادوية والمعاجين وتركيب الاكحال والشيافات (٣) والسفوفات ، وعمل المراهم والادهان وتركيب الدرياقات « الترياقات (٤) » وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الاصناف المذكورة ، ومكان يفرق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج اليه ، ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الاطباء لالقاء درس طب ينتفع به الطلبة ، ولم يحصر السلطان اثابه الله هـذا المكان المبارك بعده في المرضى يقف عندها المباشر ويمنع عداها ، بل جعله سبيلاً لكل من يصل اليه في سائر الاوقات

---

(١) كان الاوروبيون يجهلون الحمام ، وكانت مشافيهم كالزراريب ينام المريضان منهم في فراش واحد ، وكان غسل الجسم بالماء والصابون غير مستحب في نظر اطبائهم ، وفرش المرضى كانت منتنة من الرائحة القذرة والعرق .

(٢) الممرور : من تهيجت فيه المرة اي السوداء فأثرت في عقله .

(٣) الشيافات : هي الفتايل . مفردها شيافة اوفتيلة .

(٤) الترياق : هو المركب الذي يشفي من السم .

من غني وفقير ، ولم يقتصر فيه على من يقيم فيه من المرضى بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج اليه من الاشربة والاغذية والادوية حتى ان هؤلاء زادوا في وقت من الاوقات على مائتين غير من هو مقيم بالبيمارستان .

ولا يقل الاعتناء والاهتمام ببقية البيمارستانات اينما كانت عما تقدم بيانه ، ولكن ظروف الزمن وتبدل الحكام ووقوع البلاد العربية تحت حكم الاعاجم والاجانب من مغول وتاتار وصليبيين وعثمانيين جعلها قفرة ، وأضاع اوقافها ووقفياتها ، وبدل معالمها ، وهدم اقسامها ، وشوه محاسنها ، وكانت في ذلك الحين صورة حية تنطق عن حضارة العرب وما اسدته للعالم من فضل على العلم والطب وخدمة الانسان وحفظ الحياة والمجتمع .

واذا كنا في استعراضنا لم نستوف المطلوب لبيان سلسلة التطور الطبي والطبابة ، وكان علينا ان نسهب في ذكر الكتب التي ألفها العرب والمسائل التي فاقوا بها من تقدمهم والمكتشفات التي اكتشفوها في اسباب العلل والامراض والادوية التي اخترعوها لمداواتها ، والآلات الجراحية التي توصلوا الى صنعها للقيام بالعمليات الجراحية ، ومن هم الاطباء الذين غدوا نجوماً في سماء العلم والتعليم يضيئون بنورهم على من كان في زمانهم ومن اتى بعدهم وما هي الاختراعات التي وصل اليها العرب في الكيمياء والصيدلة ، والمعالجة ، والتشخيص ، والتحليل وبقية العلوم الطبية وغير الطبية ، فلأن استيفاءها والتفصيل فيما يقتضيه الشرح والتفصيل يحتاج الى مجلدات ويخرجنا عن الموضوع ويبعدنا عن النتيجة التي نريد ان نصل اليها . وخير لنا ان نجيب اخيراً على السؤال الذي سألناه : هل من الضروري ان تتغير اخلاقنا وآدابنا الطبية وتراثنا المهني وصفاتنا الاجتماعية التي اتصف بها اجدادنا الذين رفعوا شأن العلم والطب ؟ فأقول كلا ! لأن المقاييس العلمية والطبية والاخلاقية التي رفعت شأنهم وشأن من تقدمهم وحفظت مكانتهم لا تزال ذات المقاييس في قيمتها وصحتها ولو تبدل الزمن ، وتبدلت مناهج التعليم ، وتضاعفت مواد التدريس ، وعلا شأن الطب في ساحة المعرفة والاكتشاف والاختراع .

أما اماكن التدريس وكيفية التحصيل وأنواع الكتب التي كانت مواد

دراساتهم ومناهج تلك المعاهد فيمكن الوصول الى معرفتها مستخلصين ذلك مما قاله ابن أصيبعة ، والقفطي ، وتاريخ الطب للدكتور امين اسعد خيرالله . فابن أصيبعة يقول : « وكان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب ، فكان الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون المخطوطات الطبية التي راجعها اساتذتهم وأصلحوها لهم ، وكان هؤلاء يلقون عليهم الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وابن المجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا (١) الذي كسف التعاليم السابقة » .

« ولمشاهدة التطبيقات ونتائج النظريات التي يدرسونها كان الطلبة والمساعدون يفحصون المرضى في العيادة الخارجية ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة ، وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافياً ويوصف لها العلاج اللازم » .

ويصف لنا في كتابه « عيون الانباء » كيف كان يتلقى هو الطب ، وكيف كانت الاساتذة يلقون دروسهم ويمرنون طلابهم ، قال : « ولما اقام الشيخ مهذب الدين (٢) بدمشق شرع فى تدريس صناعة الطب واجتمع اليه خلق كثير من اعيان الاطباء وغيرهم يقرأون عليه ، وأقمت انا بدمشق لأجل القراءة عليه ، وقبلها كنت اشتغل عليه في المعسكر لما كان ابي والحكيم مهذب الدين في خدمة السلطان الكبير ـ يريد به الملك العادل نور الدين منشيء البيمارستان الكبير في دمشق ـ فبقيت اتردد اليه مع الجماعة ، وشرعت في قراءة كتب جالينوس وغيرها ،

---

(١) هو اهم كتاب طبي عربي جمع ما وصل اليه علم الطب والطبابة حتى زمن الشيخ الرئيس ابو علي ابن سينا ، وبقي مداراً للدرس والتدريس لكل من اتى بعده مدة ثمانية قرون في الشرق والغرب . اما آخر طبعة له ففي روما سنة ١٥٩٣ م .

(٢) الشيخ مهذب الدين : هو ابو محمد عبدالرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار ، انتهت اليه رئاسة صناعة الطب ومعرفتها . مولده في دمشق وكان ابوه علي بن حامد كحالاً مشهوراً ثم اخوه حامد بن علي . وجد له مائة مجلد واكثر في خطه بالطب وغيره من العلوم . خدم الملك العادل ابا بكر بن ايوب بصناعة الطب ، وترأس البيمارستان النوري « نور الدين محمود بن زنكي » ثم في عام ٦٠٤ اصبح طبيب الملك العادل وطبيب العسكر وكان يتناول مائة دينار كل شهر ورواتب مثلها ، وتولى رئاسة اطباء مصر ايضاً .

وكان خبيراً بكل ما يقرأ عليه من الكتب ، وكان طلق اللسان ، حسن التأدية المعاني ، ثم لازمته ايضاً في وقت معالجته للمرضى في البيمارستان وتدربت معه في ذلك وباشرت اعمال الصنعة . وكان في ذلك الزمن في البيمارستان الشيخ رضي الدين الرحبي وهو من اكبر الاطباء سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً فكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي الى البيمارستان ويستوصف منه المرضى اوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون من البيمارستان الاشربة والادوية التي يصفها ، فكنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المقيمين بالبيمارستان وانا معهم اجلس مـــع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الامراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وأبحث معه في كثير من الامراض ومداواتها .

ومما سبق يتضح انه عدا المحاضرات التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب التعليمات اللازمة « الوصفات » وتنفذ بدقة وتدوّن الملاحظات عن كل مريض متتبعة سير المرض . وقد قيل ان الرازي بنى كتابه « الحاوي » على هذه الملاحظات . وكان للاطباء الحرية بالتجربة للادوية الجديدة التي كانت تدوّن معلوماتها في كتاب خاص تنشر تحت عنوان « المجرّبات » .

ولم تكن مدارس الطب تابعة للمستشفيات دائماً ، فقد كان هناك مدارس خاصة ، فالطبيب الغني والمشهور مهذب الدين الدخوار المار ذكره سابقاً والذي مات بلا عقب اوقف منزله بدمشق ليكون مدرسة للطب ووقف عليها الممتلكات والقرى ليقوم ايرادها بنفقات المستشفى .

ويقول ابن أصيبعة : « ولم يكن يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلاّ بعد فحص قانوني . وقد بلغ الخليفة العباس المقتدر بالله في عام ٣٣٨ ان احد الاطباء في بغداد اخطأ في علاج مريض وتوفي المريض بسبب الخطأ ، فأصدر أمره بفحص جميع الاطباء « ما عدا الاطباء القائمين بخدمته » قبل التصريح لهم بتعاطي الطب وكان عددهم في بغداد وحدها ٨٦٠ طبيباً عدا اطباء الخليفة .

وكان اطباء المستشفيات يختارون بعناية خاصة دقيقة ، فالرازي انتخب

لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد من بين مائة طبيب . ويقال ان عضد الدولة لما بنى البيمارستان العضدي قصد ان يكون فيه جماعة من افاضل الاطباء وأعيانهم فأمر أن يحضروا له ذكر المشهورين ببغداد وأعمالها، فكانوا متوافرين على المائة فاختار من بينهم خمسين بحسب ما علم من جودة احوالهم وتمهرهم في صناعة الطب ، فكان الرازي منهم ثم انه اقتصر من هؤلاء ايضاً على عشرة فكان الرازي منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازي احدهم ، ثم ميز بينهم فبان له ان الرازي افضلهم فجعله « ساعور » البيمارستان العضدي « والساعور » معناه « عميد الاطباء والمشرف على المستشفى » ، وكانت المستشفيات الاسلامية اشهرها « المستشفى العضدي في بغداد، والمستشفى المنصوري في القاهرة ، والمستشفى النوري في دمشق » وكان يوجد غيرها في مختلف العواصم العربية بما يزيد عن ثلاثين مستشفى لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقي والروعة والكثرة وضخامة البناء ، واتقان الهندسة ، وحسن الادارة ، ووفرة الاطباء إلا بعد ان استكمل العرب نهضتهم ونضوج معارفهم واتساع علمهم » .

ونحن مهما ذكرنا عن فضل العرب في انقاذ الطب والعلوم القديمة المتصلة به من الضياع ، ومهما قلنا عن ترتيبها والاضافة اليها وتسليمها الى اوروبا منسقة واضحة فيكفي ان ننقل ما قاله « لمستون » وغيره عن ذلك كبرهان على صحة قولنا .

يقول لمستون : « ان لم يكن للعرب من فضل غير هذا لكفاهم فخراً » .

ويقول الدكتور امين خيرالله : « ولو فرضنا ان العرب لم يضيفوا شيئاً الى معلومات القدماء فمن الاهمية بمكان انهم انقذوا تعاليم ابيقراط وجالينوس وحفظوها للعلم والانسانية .

والواقع انهم لم يكتفوا بانقاذها فحسب بل اضافوا اليها اشياء كثيرة وقاموا بنقل العلوم اليونانية والهندية والفارسية وعلوم باقي البلدان المتحضرة في زمانهم ، ووعوا وتفهموا المنطق والفلسفة والفلك والهندسة ، والتاريخ ، والآداب ، والموسيقى ، والكيمياء ، والزراعة ، والبناء والعمران ، وتفهموا جميع هذه العلوم وأضافوا اليها دروسهم واختباراتهم وأنشأوا مدنية عربية صحيحة وأعطوها الى العالم » .

ثم يقول : واذا عدنا الى الماضي القـــريب لنتفقد عصر التمدن الاسلامي وزهوه في الغرب والشرق نجد أنه من أكبر الأسباب في نهضة اوروبا ، فالمذاهب العلمية فيها وليدة الثقافة والعلوم العربية ، ونهضتها نتيجة تعاليم ابن سينا والرازي والمجوسي وابن زهر والزهراوي فى الطب . والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن طفيل وابن العربي في الفلسفة . والطوسي وعمر الخيام وابن يونس والمجريطي والبيروني والخوارزمي في الفلك والحساب . وابن الهيثم وابن الكندي وابن الصلت في الطبيعيات . وابن البيطار وابن الصوري وابن وحشية في النبات . وابن الحيان والرازي والزهراوي في الكيمياء .

وللعرب يعود الفضل في رفع مقام الطب وفي اقامة المستشفيات الراقية وفي انشاء وتوسيع الصيدلة ، وجعل الجراحة قسماً منفصلاً عن الطبابة ، وفي التصريح الشرعي لممارسة الطب والصيدلة .

وكان لهم الحظ الأوفر في توضيح المذاهب الفلسفية وحفظها للذرية ، وفي فصل العلم عن الدين ومحاولة التوفيق بين الاعتقاد والبرهان ، وهم الذين أعطوا الروح العلمية الصحيحة للغرب ، وكانت سبباً لايجاد طريقة (باكسون) العلمية ، وعلموا العلماء البحث عن أسباب الاشياء ذاهبين من المعلوم الى المجهول ، فلا يقطعوا حقيقة أمر إلا بعد التثبت من صحته بالتجربة المكررة أو بالملاحظة الدقيقة .

وكانت الكيمياء عند العرب كيمياء تجربة ، فالرازي عرف خواص الزئبق بتجربة استعماله على القرود ، وماسويه شرح قرداً كبيراً وكتب كتاباً عما وجده .

وكانوا اذا لم توصلهم الملاحظة الى الغاية المطلوبة يلجأون الى طريقة المنطق والتحليل وبها اكتشف ابن نفيس الدورة الدموية الرئوية ، واكتشف ابن الخطيب العدوى في الوافدات .

وقبل أن يبدأ باراسلوس اصلاحه الطبي في اوروبا كان العرب قد أدخلوا المنطق والبحث الطبي العلمي وخالفوا التعاليم التي لا تنطبق على منطقهم واختبارهم مهما كان مصدرها .

وكما استقبل (سقراط) الموت في سبيل عقيدته وعلمه ، كذلك ثلاثة من أطباء العرب المشهورين استقبلوا الموت بهدوء وشجاعة ، فابن سينا رفض ان يتعاطى الدواء وباع كل ما يملكه ووزع ثمنه على الفقراء ، وانقطع الى العبادة وكان يتلوا القرآن مرة كل ثلاثة أيام .

والرازي رفض ان يعالج مقلتيه بعد أن أضنى بصره في التجارب والبحث والكتابة قائلاً بأنه قد رأى في العالم ما يكفيه .

وابن زهر رفض أي اسعاف وقال لولده الذي كان يقوم بخدمته أنه اكتفى من الحياة .

وبعد هذا ماهي الكتب التي كانوا يدرسونها ؟ هل هي كتب الترجمة فحسب أم كتب أخرى ألفها العرب ؟ .

من يدقق فيما قدمناه من الاستعراض يتبين له أن طلاب الطب في المستشفيات والمعاهد العلمية كانوا يدرسون أولاً الكتب الادبية ، ثم الكتب الدينية ، ثم الكتب الطبيعية ، ثم الكتب الرياضية والفلسفية ، ثم ينتقلون الى الكتب الطبية .

وكان الطلاب يتبعون سيرة أساتذتهم الذين يلازمونهم في جميع مراحل الدراسة حتى اذا أتموها ووثقوا من أنفسهم في بلوغ الغاية ووثق أساتذتهم من كفاءتهم وأخلاقهم وعلمهم تقدموا للامتحان وأخذوا الاجازة في البيمارستانات الشهيرة بعد نجاحهم .

أما الكتب فكانت حتى أيام ابن سينا المجموعة المترجمة عن أبقراط وجالينوس وديوسقوريدس (١) وقد أتينا على ذكرها ، ثم ما ألفه الاطباء الذين أتى بهم جعفر

---

(١) ويحي النحوي ، وقسطا بن لوقا . اما الكتب فقد ذكرناها وهي لابقراط وجالينوس وعددها / ١٦ / كتاباً كان يقرأها المتطببون على الولاء ، وهنالك كتب اخرى هي من ترجمة أحبيش وديسقوريدس واصله من عين (زربي) من اعمال حلب ويقال له السابع في البلاد .

المنصور والرشيد والمأمون ومعظمهم من السريان النسطـــوريين ومن الصـابئه كجورجيس ابن بختيشوع وجبرائيل أخيه وعبد الله بن جبرائيل ، وبختيشوع ابن حنا ، وحنين بن اسحق ، وحبيش الأعسم ، والكندي ، واسحق بن حنين ، وثابت بن قره ، ومنان بن ثابت ، وأبو بشر بن متى ، ويوحنا بن ماسوية . وقد تبين ان معظم الكتب المترجمة كانت بين عام (٧٥٠ - ٨٥٠) بعد الميلاد .

ومن هذه الكتب المترجمة التي ذكرها ابن النديم في فهرسته وابن أصيبعة في تاريخ طبقات الاطباء (٤٦ كتاباً طبياً ليوحنـا بن ماسوية ، و ٨٤ كتاباً ورسالة طبية لحنين بن اسحق وهي لابقراط وجالينوس عدا ما ترجمـه من غير الكتب الطبية ، ولقسطا بن لوقا البعلبكي ٣٢ كتاباً في الطب و ٢٩ كتابـاً في الفلك والمنطق والرياضيات والفلسفة ، وللكندي ٣٢ كتاباً طبياً ، ولثابت بن قره ٤٥ كتـاباً) .

واما التي ألّفت فهي شروح ، او اختصارات ، او تعليقات ، او زيادات على ما ترجم ، ولكن عندما ظهر ابو بكر محمد بن زكريا الرازي عام ٣٢٠ — ٣٦٤ هجري ، بدأ العرب في اثبات كفاءتهم وتدوين ثمار اختباراتهم وتأليف كتبهم الطبية بعد نضوج تحقيقاتهم وتجاربهم وتحرياتهم ، وبذلك يكون الطب والطبابة قد انتقلا من المرحلة القديمة الى المرحلة الجديدة في تاريـخ النهضة العربية والثقافة العلمية الطبية ، مرحلة الاكتشاف ، والاختراع ، والتقرير عن التجارب ، والتأليف .

والرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، مسلم النحلة ، مشهور في عـلم المنطق والهندسة ، كان في ابتداء امره يضرب بالعود ، ثم تركه واقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً ، وألّف كتباً كثيرة اكثرها في صناعة الطب ، وسائرهـا في ضروب من المعارف الالهية والطبيعية .

وكان طبيب المارستان في الري ، ثم طبيب المارستان في بغـداد ، بقي فيه طويلاً ، وكان بينه وبين منصور بن اسماعيل صداقة وله ألّف كتابه المنصوري (١).

---

(١) « المنصوري » ألفه الرازي لمنصور بن اسماعيل بن خاقان صاحب خراسان=

ثم في آخر عمره عمي بماء نزل على عينيه ولم يسمح بقدحها ، وكان في دولة المكتفي وفي بعض زمن المقتدر .

والرازي من حيث وصفه وسيرته يقول احد عارفيه محمد بن الحسن الورّاق :

« كان شيخاً كبير الرأس ، مسفطاً ، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه ودونهم تلاميذ أخر ، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من تلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم ، فاذا اصابوا والا تكلم الرازي في ذلك . وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ، وكان لا يفارق المدارج والنسخ ، وما دخل عليه واحد إلا وجده ينسخ او يسوّد او يبيّض .

وقد تلقى الفلسفة عن البلخي ، وكان البلخي يطوف البلاد ويجول الارض ، حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة » .

ومما هو معروف في كتب الطب ، ان الرازي كان اول من وصف الحصبة والجدري ، ولا يزال وصفه معروفاً في جميع الكتب القديمة والحديثة . وصنف كتاباً آخر سماه « الملوكي » قدمه لعلي بن صاحب طبرستان ، وفي اول ايامه تعلق بالكيمياء وله تصانيف ايضاً فيها .

وكان الرازي يرمي الى اثبات امكان تحول العناصر ووحدة الجوهر ، وفي سبيل هذه العقيدة قام بتجاربه التي أدت الى اكتشاف كثير من المركبات الكيمائية . وكتابه « الحاوي » المشهور بين كتبه الثلاثة ألفه لأبن عباد ، ولكن

= وماوراء النهر . وكتابه « الحاوي » وضعه في ثلاثين مجلداً ويسمى « الجامع الحاصر لصناعة الطب » . وله تآليف وكتب اخرى يبلغ عددها ما يزيد عن مائة وخمسين عدداً ، وكان عمره ثلاثون سنة عندما قدم الى بغداد وفيها تعلّم الطب ودرّس فيه . ومن رسائله المشهورة : « كتاب الجدري والحصبة ، كتاب الادوية الموجودة في كل مكان ، كتاب الفالج ، كتاب القوة ، كتاب النقرس والعرق المدني ، كتاب اوجاع المفاصل ، كتاب الانثيين ، كتاب هيئة العين بخ » .

الاجل لم يفسح له المجال ، فلم يخرجه الى الوجود . ولكن أخرج ورتب بعد وفاته ، وأما كتبه الأخرى ورسائله فهي كثيرة تناولت علوم الطب ، والالهيات ، والفلسفة ، والطبيعيات ، والكيمياء ، وعلم النفس .

وفي كل ما كتب وألف كان علماً لا يجارى في قوة تفكيره ، وسعة احاطته ، ودقة ملاحظته ، وعمق فلسفته ، وصحة منطقه ، وصدق تجاربه .

وبعد الرازي ظهر الفارابي وقد ولد في عام ٢٦٠ - وتوفي عام ٣٣٩ هـ ، وكان الفارابي من مدينة (فاراب) وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خرسان ثم سافر الى بغداد وبقي فيها مدة وانتقل الى الشام ، ولما دخل بغداد كان يعرف التركي وعدة لغات غير العربي ، فأتقن اللغة العربية وبلغ فيها غاية الاتقان وأخذ المنطق عن أبي بشر متى يونس الحكيم المشهور ثم ارتحل الى مدينة (حران) وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً وبعدها رجع الى بغداد وقرأ علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاطاليس وتمهر في اخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها .

ويقال انه وجد كتاب النفس لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط الفارابي أني قرأت هذا الكتاب مائة مرة ، ولم يزل ببغداد مكباً على الاشتغال بهذا العلم الى أن برز فيه وفاق أهل زمانه وألف به معظم كتبه (١) ، ثم سافر من بغداد الى دمشق ولم يقم بها ثم توجه الى مصر عام ٣٣٨ هـ .

ويقول عنه ابن أصيبعه : « كان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً ، واماماً فاضلاً ، قد أتقن العلوم الحكيمة ، وبرع في العلوم الرياضية ، ذكي النفس ، قوي الذكاء ، متجنباً عن الدنيا ، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده ، يسير سير الفلاسفة المتقدمين ،

---

(١) الفارابي لم تطبع من كتبه الكثيرة الا القليل . والمطبوع منها : (١) آثار اهل المدينة الفاضلة ، (٢) الابانة عن غرض ارسطاطاليس ، (٣) كتاب ما بعد الطبيعة ، (٤) الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية ، (٥) رسائل الفارابي ، (٦) شرح الفصوص ، (٧) عيون المسائل ، (٨) كتاب الموسيقى ، (٩) مبادىء الفلسفة القديمة « عن معجم المطبوعات العربية » للسيد يوسف اليان سركيس

وكان له قوة في صناعة الطب وعلم بالامور الكلية منها ، ولم يباشر اعمالها ولا حاول جزئياتها .

ولما دخل دمشق كان في اول امره ناطوراً في بستان ، وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها والتطلع الى آراء المتقدمين وشرح معانيها ، وكان ضعيف الحال حتى انه كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف ، ويستضيء بالقنديل الذي للحارس ، وبقي كذلك مدة ثم عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه ، وصار اوحد زمانه وعلامة وقته ، واجتمع به الامير سيف الدولة ابو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان التغلبي ، واكرمه اكراماً كثيراً وعرفت منزلته عنده وكان له مؤثراً » .

« وقيل ان الفارابي لزهده لم يكن يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى اربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه ، ولم يكن معتنياً بهيئة ولا منزل ولا مكسب .

وكان في اول امره قاضياً ، فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك وأقبل بكليته على تعلمها ، ولم يسكن الى نحو من امور الدنيا البتة ، ويذكر انه كان يخرج الى الحراس بالليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرأه ، وكان في صناعة الموسيقى وعملها قد وصل الى غاياتها ، واتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ، وهو الذي صنع آلة غريبة يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات » .

وقال القاضي ابن صاعد بن احمد بن صاعد في التعريف بطبقات الامم :

« ان الفارابي أخذ صناعة العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفى في مدينة السلام . وكان يجتمع بابن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو ، وابن السراج يقرأ عليه صناعة المنطق .

وسئل « ابو نصر » من أعلم انت أم ارسطو ؟ فقال : (لو ادركته لكنت من اكبر تلاميذه) » .

ويدلنا على شغفه في اريسطو وكتبه انه قال : قرأت السماع لاريسطو اربعين مرة ، وارى اني محتاج الى معاودته .

ولأبي نصر من الكتب ما ينوف عن السبعة وتسعين كتاباً ورسالة ومقالة، تنوّعت مواضيعها في شتى العلوم والادب والاجتماع، والفلسفة، والالهيات، والرياضيات، والكيمياء، والموسيقا، وعلم العدد وغيرها.

وحياة الفارابي تمثل الانقطاع للعلم، والتجرد للدرس، والزهد في الدنيا، وما في الدنيا من زينة ومفاخر وتكاثر في الاموال والأولاد.

وكان قد لقي الأمير سيف الدولة الحمداني وهو في حلب ثم صحبه الأمير معه الى دمشق، وفي عام ٣٢١ ألف كتابه (المدينة الفاضلة) وسافر الى مصر عام ٣٣٨ ورجع الى دمشق وتوفي بها في رجب سنة ٣٣٩ عند سيف الدولة في خلافة الراضي وصلى عليه الأمير في خمسة عشر رجلاً من خاصته.

وللفارابي دعاء صوفي شهير وقد جاء فيه هذه الأبيات وهي من شعره تكشف لنا عما انطوت عليه روحه الصوفية من عقيدة وحب الهي. قال الفارابي:

يا علّةَ الاشياء جمعاً والذي ... كانت بهِ عن فيضهِ المتفجّر
ربُّ السماواتِ الطباقِ ومركز ... في وسطهنَّ من الثرى والابحر
اني دعوتكَ مستجيراً مذنباً ... فاغفرْ خطيئةَ مذنبٍ ومقصر
هذّب بفيض منك رب الكل من ... كدرِ الطبيعةِ والعناصر عنصري

ومع أنه تعلم الطب ولكن ميله للفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات غلبت عليه فكان من أكبر فلاسفة الاسلام، ولم يزاول الطب الصنعة بل أحاط به احاطة تامة وارتشف من حياضه حتى اطفأ ظمأه ثم انعكف على التبحر في المنطق وما وراء الطبيعة فكان له ما أراد من فهم وعلم واطلاع وتأليف وانتاج ومع ما كتبه من الكتب العديدة التي أشرنا اليها فانه ألف في الطب كتباً كثيرة ودبر مارستان الري ثم مارستان بغداد أيام المكتفي.

ومن الأسف أن كتبه الطبية ضاع أكثرها ولم ينشر منها ما يذكر، وأما كتبه الفلسفية فقد نشر منها وطبع: (آثار أهل المدينة الفاضلة، وما بعد الطبيعة، والابانة عن غرض ارسطاطاليس، وبعض رسالات ترجمت للألمانية، وكتاب

عين المسائل في المنطق ومبادىء الفلسفة ، شرح فصوص الحكم ، وكتاب عيون المسائل ، وكتاب الموسيقى) وبقية تآليفه لا تزال في عالم الخفاء كما خفي قبره من الوجود .

وبعد الفارابي يجدر بنا ذكر شيخ الاطباء « جالينوس » عصره ، الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا . وهو وإن كان أشهر من ان يذكر وفضائله أظهر من ان تسطر ، فانه وصف سيرته وأحواله بما يغني غيره عن وصفه . ولد عام ٣٧٠ وتوفي عام ٤٢٨ .

قال ابن سينا :

« ان ابي كان رجلاً من اهل « بلخ »(١)، وانتقل منها الى بخارى أيام نوح بن منصور ، واشتغل بالتصرف والعمل في اثناء أيامه بقرية يقال لها « خرميشن » من ضياع بخارى ، وهي من امهات القرى ، وبقربها قرية يقال لهـا « افشنه » وتزوّج امي منها بها ، وقطن بها ، وولدت منها بها ، وولد اخي ، ثم انتقلنا الى بخارى واحضرت معلم القرآن ومعلم الادب حتى كاد يقضي مني العجب .

وكان أبي ممن اجاب داعي المصريين ويُعد من الاسماعيليين ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم وكذلك اخي . وكان ربما تذاكرا بينهما وانا اسمع منهما وادرك ما يقولانه ، وابتدآ يدعوانني ايضاً اليه ويجريان على لسانهما ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، واخذ يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلم منه ، ثم جاء الى بخارى ابو عبدالله الناتلي ، وكان يدعي الفلسفة وانزله ابي دارنا ارجاء تعلمي منه ، وقبل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فيه الى اسماعيل الزاهـد وكنت من خيرة

---

(١) بلخ - كانت القصبة السياسية لولاية خراسان ، ثم اصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان . وفي عام ٣٣ هـ . شدّ عليها الحصار ابن قيس الاحنف حتى فتحها ، وبعد زمن اجتاحتها قبائل جنكيز خان فدحرتها وذلك في عام ٦١٦ هـ و ١٢١٢ م .

السائلين ، وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأت بكتاب « اسياغوجي » ومعناه « المقولات : او المقدمة للفلسفة» على الناتلي .

ولما ذكر لي حد الجنس انه المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو ؟ فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله وتعجب مني كل العجب ، وحذّر والدي من شغلي بغير العلم ، وكان أي مسألة قالها لي اتصورها خبراً منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، واما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر .

ثم اخذت اقرأ الكتب على نفسي واطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب اقليدس في الهندسة فقرأت من اوله خمسة اشكال او ستة عليه ، ثم توليت حل بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت الى « المجسطي » (كلمة يونانية معناها الاكبر) وهو كتاب يبحث عن الفلك ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت الى الاشكال الهندسية قال لي الناتلي تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم أعرض علي ما تقرأه لأبين لك صوابه من خطئه . وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب .

فكم من شكل مشكل ما عرفه إلا وقت ما عرضته عليه وأفهمته اياه ، ثم فارقني الناتلي متوجهاً الى (كركانج : مركز لمقاطعة خوارزم) واشتغلت انا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعي والالهي ، وصارت ابواب العلم تتفتح عليّ ، ثم رغبت في علم الطب ، وصرت اقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم اني برزت فيه في اقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب .

« وتعهدت المرضى ، فانفتح عليّ من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وانا مع ذلك اختلف الى الفقه واناظر فيه . وانا في هذا الوقت من ابناء (ست عشرة سنة) ، ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف السنة، فأعدت قراءة المنطق وجميع اجزاء الفلسفة ، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت في النهار بغيره ، وجمعت بين يدي ظهوراً . فكل حجة كنت انظر

فيها اثبت مقدمات قياسية ورتبتها في تلك الظهور ، ثم نظرت فيما عساها تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة وكلما كنت اتحير في مسألة ولم اكن اظفر بالحد الاوسط في قياس ، ترددت الى الجامع وصليت وابتهلت الى مبدع الكل حتى فتح لي المنغلق وتيسر المتعسر ، وكنت ارجع بالليل الى داري واضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم او شعرت بضعف ، عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود الي قوتي ، ثم ارجع الى القراءة ، ومهما اخذني ادنى نوم احلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى ان كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام ، وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ووقفت عليها بحسب الامكان الانساني ، وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم ازدد فيه الى اليوم حتى احكمت علم المنطق ، والطبيعي ، والرياضي ثم عدلت الى الالهي وقرأت كتاب « ما بعد الطبيعة » فما كنت أفهم ما فيه والتبس عليّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته اربعين مرة وصار لي محفوظاً ، وانا مع ذلك لا افهمه ولا المقصود به ، وآيست من نفسي ، وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه .

وإذا انا في يوم من الايام حضرت وقت العصر في الوراقين وبيد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه عليّ فرددته ردّ متبرم ، معتقداً ان لا فائدة في هذا العلم . فقال لي اشتر مني هذا فانه رخيص ابيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه ، فاشتريته فاذا هو كتاب « لابي نصر الفارابي » في اغراض كتاب « ما بعد الطبيعة » ورجعت الى بيتي واسرعت في قراءته فانفتح علي في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انه كان لي محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى .

وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور واتفق له مرض حار فيه الاطباء ، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكري بين يديه وسألوه احضاري ، فحضرت وشاركتهم في مداواته ، وتوسعت بخدمته .

فسألته يوماً الاذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من

كتب الطب ، فأذن لي ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضده بعضها فوق بعض ، في بيت كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد ، وطالعت فهرست كتب الاوائل . وطلبت ما احتجت اليه ورأيت من الكتب ما لا يقع اسمه الى كثير من الناس قط . ولا رأيته قط . ولا رأيته من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظهرت فوائدها . وعرفت مرتبة كل رجل في علمه فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري ، فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم احفظ ، ولكنه اليوم معي انضج وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء . وكان في جواري رجل يقال له ابو الحسن العروضي فسألني ان أؤلف له كتاباً جامعاً في هذا العلم فصنفت له المجموع وسميته به . واتيت به على سائر العلوم سوى الرياضي ولي إذ ذاك احدى وعشرون سنة من عمري .

وكان في جواري ايضاً رجل يقال له ابو تبر البرقي خوارزمي المولد ، فقيه النفس توحد في الفقه والتفسير والزهد مائل الى هذه العلوم فسألني شرح الكتب له فصنفت له كتاب « الحاصل والمحصول » في قريب من عشرين مجلدة . وصنفت له في الاخلاق كتاباً سميته « كتاب البر والاثم » وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده فلم يعرفهما احد ينتسخ منهما . ثم مات والدي . وتصرفت بي الاحوال . وتقلدت شيئاً من اعمال السلطان . ودعتني الضرورة الى الارتحال « عن بخارى » والانتقال الى « كركانج » وكان ابو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً وقدمت الى الامير بها وهو علي بن المأمون وكنت على زي الفقهاء اذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك . واثبتوا لي مشاهرة دارة تقوم بكفاية مثلي . ثم دعت الضرورة الى الانتقال الى فسا (١) ومنها الى باورد (٢) ومنها الى طوس (٣) ومنها الى شقان (٤) ، ومنها الى سمنقان (٥) ومنها الى جاجرم رأس من

---

(١) فسا ـ او بسا : كلمة اعجمية ، معناها الرياح الشمالية . وهي مدينة بفارس قريبة من تيراز بأربعة مراحل تابعة لكورة دارابجرد . معجم البلدان ٦ : ٣٧٦ . (٢) باورد ـ وهي ابيورد . بلد بخراسان (٣) طوس : مدينة بخراسان ايضاً بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ . وبها قبر هارون الرشيد وعلي بن موسى الرضي « معجم البلدان » (٤) شقان : بلدة من نيسابور ويقال شقان بالكسر لوجود جبل فيها ينشق عنه ماء وجبل آخر ينشق عنه ماء . (٥) سمنقان : بلدة بالقرب من جاجرم من اعمال نيسابور في بلاد العجم .

خراسان ومنها الى جرجان (١) ، وكل قصدي الامير قابوس (٢) ، فاتفق في اثناء هذا ، اخذ قابوس وحبسه في القلاع وموته هناك . ثم مضيت الى دهستان ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت الى جرجان ، واتصل ابو عبيد الجوزجاني بي وأنشأت في حالي قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري

وفي جرجان صنف كتاب « المبدأ والمعاد » وكتاب « الارصاد الكلية » وكتباً كثيرة كأول القانون ومختصر المجسطي وكثيراً من الرسائل ، ثم صنف في ارض الجبل بقية كتبه ، ثم انتقل الى الري واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة وكان به مرض تغلب السوداء عليه فاشتغل بمداواته وأقام بها الى ان قصد شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد ، ثم اتفقت اسباب أوجبت الضرورة لهـــا خروجه الى قزوين ومنها الى همذان واتصاله « بكذبانويه » والنظر في اسبابها ، ثم اتفق معرفة شمس الدولة واحضاره مجلسه بسبب قولنج كان قد اصابه وعالجه حتى شفاه الله تعالى وفاز من ذلك المجلس بخلع كثيرة وعاد الى داره بعدما اقام هناك اربعين يوماً بلياليها وصار من ندماء الامير (٣) ، ثم اتفق نهوض الامير شمس الدولة الى قرمسين لحرب عناز وخرج

---

(١) جرجان : مدينة شهيرة بين طبرستان وخرسان وكان اول من احدث بناءها يزيد بن المهلب ابن صفرة ومنها خرج البرمكي « معجم البلدان » .

(٢) الامير قابوس : هو ابو الحسن ، قابوس بن وشكمير بن زيار بن وردان شاه الجيلي ، الملقب شمس المعالي . امير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان ، وليها سنة ٣٦٦ هـ واكتسح عضد الدولة البويهي مملكته سنة ٣٧١ هـ واستعادها قابوس سنة ٣٨٨ فاشتد في معاقبة من خذلوه في حربه مع عضد الدولة . فنفر منه شعبه ، وقامت الثورة ، فخلعه القواد وولوا ابناً له ورضوا باقامته في احدى القلاع الى ان مات عام ٤٠٣ . وهو ديمي الاصل . متعرب . نابغة في الادب والانشاء . وله شعر جيد في العربي والفارسي ، وكتاب يحوي رسائله سمي « كمال البلاغة » مطبوع . عن كتاب الاعلام ٢ : ٧٨٠ .

(٣) الامير شمس الدولة : هو ابو طاهر بن فخر الدولة البويهي حاكم همدان وهمذان وكرمانشاه اضطرمت الفتن في ايامه فاستنجد عليها بحاكم اصفهان علاء الدين او علاء الدولة من بني كاكويه فنجدوه واخذوا الحكم منه سنة ٤١٥ هـ . وأما الامير مجد الدولة فهو ابو طالب رستم بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة حسن بويه . ثامن ملوكهم . خلف والده عام ٣٨٧ على حكومة العراق وتغلب على خراسان ولما جلس على=

الشيخ في خدمته ثم توجه نحو همذان منهزماً راجعاً . ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها ، ثم اتفق تشويش العسكر عليه واشفاقهم منه على انفسهم فكبسوا داره واخذوه الى الحبس وأغاروا على اسبابه وأخذوا جميع ما يملكه وسألوا الامير قتله فامتنع منه وعدل الى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم ، فتوارى في دار الشيخ ابي سعد بن دخدوك اربعين يوماً ، فعاود الامير شمس الدولة القولنج وطلب الشيخ فحضر مجلسه فاعتذر الامير اليه بكل الاعتذار فاشتغل بمعالجته وأقام عنده مكرماً مبجلاً وأعيدت اليه الوزارة ثانياً ، ثم سأله ابو عبيد الجوزجاني وهو صاحبه ، شرح كتب ارسطوطاليس فذكر انه لا فراغ له الى ذلك في ذلك الوقت ، ولكن إن رضي منه بتصنيف كتاب يورد فيه ما صح عنده من هذه العلوم فعل بلا مناظرة المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم ، وقد رضي الموما اليه فابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه « الشفا » وكان قد صنف الكتاب الاول من القانون وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم وكان الجوزجاني يقرأ من الشفاء ويقرىء غيره من القانون نوبة ، فاذا فرغوا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيء مجلس الشراب بآلاته وكانوا يشتغلون به . وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير فقضى على ذلك زمناً .

ثم توجه شمس الدولة الى « طارم (١) » لحرب الامير بها وعاوده القولنج

=عرش الحكم كان صبياً فأدارت والدته «سيدة خاتون» الحكم مكانه ولما بلغ اشده تولى هو بذاته الملك وبقي ٣٣ سنة فيه . وفي عام ٤٢٠ حاربه السلطان محمود الغزنوي بالقرب من الرى وغلبه وأخذه اسيراً ثم آلت خراسان والعراق الى السبكتكين . عن قاموس الاعلام - مجلد ٦ .

(١) طارم - او تارم : كورة واسعة في الجبال بين قزوين وجيلان . فيها قرى كثيرة وجبال وعرة ، وليس فيها مدينة مشهورة . وفي معجم البلدان انها ايضاً بعيدة في آخر حدود فارس من جهة كرمان . وبين تارم وشيراز ٢٨ فرسخاً . ويقول صاحب « قاموس الاعلام » ان « طارم » هو نهو لتركستان الشرقية يتألف بين كاشغر ويارقند ثم يتصل « بقره صو » متجهاً الى الشرق وبعد ان تنصب عليه انهر الشمال يشكل بحيرة ومنها يجري الى الجنوب الشرقي .

قرب ذلك الموضع واشتد عليه ، واضاف الى ذلك امراضاً أخرى جلبها سوء تدبيره وقلة القبول من الشيخ فخاف عسكره وفاته ورجعوا به طالبين همدان في المهد فتوفى في الطريق في مهد ، ثم بويع ابن شمس الدولة وطلبوا استيزار الشيخ فأبى عليهم وكاتب علاء الدولة (١) سراً يطلب خدمته والانضمام الى جوانبه وأقام في دار ابي غالب العطار متوارياً وطلب منه صاحبه الجوزجاني اتمام كتاب الشفاء فاستحضر أبا غالب وطلب (الكاغد) والمحبرة فأحضرهما وكتب الشيخ في قريب من عشرين جزءاً على الثمن بخطه رؤوس المسائل وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع اليه ، بل من حفظه وعن ظهر قلبه . ثم ترك الشيخ تلك الاجزاء بين يديه وأخذ الكاغد فكان ينظر في كل مسألة ويكتب شرحها ، فكان يكتب كل يوم خمسين ورقة حتى اتى على جميع الطبيعيات والآلهيات ماخلا كتابي الحيوان والنبات ، وابتدأ بالمنطق وكتب منه جزءاً ثم اتهمه تاج الملك (٢) بمكاتبته علاء الدولة فأنكر عليه ذلك وحث في طلبه فدل عليه بعض اعدائه فأخذوه وأدوه الى قلعة يقال لها « فردجان » وأنشأ هناك قصيدة منها :

دخولي في اليقين كما تراه وكل الشك في امر الخروج

وبقي فيها اربعة اشهر ثم قصد علاء الدولة همدان وأخذها وانهزم تاج الملك

---

(١) علاء الدولة : ملك الرى عام ٥١٦ هـ وهو ابن فرامرز بن علي بن فرامرز ، وفي زمانه عاش الخيام والغزالي والنظام .

(٢) تاج الملك : ويسمى ابو الغنايم مرزبان بن خسرو فيروز وزير ملكشاه السلجوقي . تولى الوزارة بعد الوزير نظام الملك ، وتعيّن وصياً على ابن ملكشاه الذي كان عمره ٤ سنوات ، وفي اثناء تدبيره الملك انشق اصحاب سلطة نظام وثاروا على الدولة في اصفهان وفي الحرب الذي جرى بين عسكر ابن ملكشاه وبين انصار نظام الملك انكسر الجيش الاول وهرب تاج الملك الى يزدجرد وهنالك استوزره « بركيارق » ولكن قتله جماعة نظام الملك في عام ٤٨٦ هـ . وبركيارق هو ابن ملكشاه وحفيد آلب ارسلان تولى عرش ابيه في ايران عام ٤٨٤ وحكم ١٢ سنة وتوفي وعمره ٤٥ سنة .

ومرّ الى تلك القلعة بعينها ثم رجـــع علاء الدولة عن همدان وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة الى همدان وحملوا معهم الشيخ الى همدان ونزل في دار العلوي واشتغل هنالك بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء ، وكان قد صنف في القلعة كتاب الهدايات ورسالة حي بن يقظان وكتاب القولنج . وأما الادوية القلبية فانما صنفها اول وروده الى همدان . ونستنتج :

اولاً - ان ابن سينا اكمل العلم وحصّل الطب وهو لا يزال بين السادسة عشرة والاحدى وعشرين عاماً من عمره ، وان ما تعلمه من علوم ذلك العصر لم يزدد بعد ذلك ولكنه زاد نضوجاً وتجربة .

ثانياً - إن قوة الحفظ والتذكر ، والتحري ، والقياس ، والفهم ، كانت فيه قوية ونادرة المثال بين الاطباء والحكماء . يدلنا على ذلك حفظه القرآن ، واستظهاره كتب اللغة والفقه والحديث والعروض ، ثم اطلاعه على ما ترجم من الكتب اليونانية والفارسية وحفظه علومها وحفظه كتاب « ما وراء الطبيعة » للفارابي وقراءته اربعين مرة حتى فتح عليه مغاليق قضاياه .

ثالثاً - اطلاعه على الفلسفة والعلوم الآلهية وتبحره في مسائلها وتصنيفه الكتب الكثيرة عنهـا .

رابعاً - انشغاله الدائم في الحل والسفر في التصنيف ، والتدريس ، والاملاء في مختلف العلوم حتى زاد ما كتبه في جميعها بما ينوف عن المائة كتاب .

خامساً - لم يمنعه طبه ولا التصنيف عن الاشتغال في السياسة والتوظف في الوزارة وتدبير أمور الملك لعدة ملوك من آل بويه والسلاجقة .

سادساً - حبه العظيم للموسيقى ، والرياضيات ، والفلك ، واشتغاله فيها وتصنيفه الكتب عنهـا .

سابعاً - اتقانه العميق الدقيق لعلوم اللغة العربية ووضعه كتاب « لسان العرب » وتأليفه الرسائل الثلاث التي حاكى بها العماد ، والصابيء ، والصاحب .

ونظمه القصائد البليغة في التصوّف والآلهيات ، والاراجيز في الطب والصحة ، وفي ذلك اثبت نزعته الفنية وشعوره الحساس .

ثامناً ـ اثبت انه اعظم شخصية اسلامية تمثل المعرفة المرغوبة ؟ في جميع العلوم .

تاسعاً ـ تمتعهُ بملاذ الحياة كمتمم لراحة النفس ، وتعديل فعل الغرائز ، وتهذيب الطباع .

عاشراً ـ استجابته لطبيعته الوثابة ، وفكره المنطقي ، وفلسفته العميقة السامية في تصانيفه ووضعه وتأليفه كتاب « القانون » الذي تناول علم الطب وفروعه حتى زمانه ، فبوّبه وصنفه واستخلصه من الكتب التي اطلع عليها ، وجرده من الزوائد والخرافات والشعوذة ، ورتبه ترتيباً علمياً اضاف عليه ما استقرأه وشاهده ، وجربه فكان خير كتاب لا يستغني عنه الاطباء ولذا نظر فيه كل الذين اتوا بعده . ومنهم من اختصروه وادخروه وبقي حتى القرن الخامس عشر ميلادي يدرّس في مدارس اوروبا والشرق ، وكانت آخر طبعة له طبعت في روما عام ١٥٠٣ م .

حادي عشر ـ إن ابن سينا كان اول من اشار بوضوح الى عدوى السل الرئوي وانتقال الامراض الى الانسان بواسطة الماء والشراب ، وأول من وصف داء الفيلاريا وانتشاره فى الجسم ، وأول من وصف داء الجمرة الخبيثة وسماها بالنار الفارسية ، كما ان الرازي اول من وصف بدقة داء الجدري والحصبة وفرق بينهما ، وأول من قال بالعدوى الوراثية . والطبري اول من اكتشف الحشرة التي تسبب داء الجرب ووصفها .

ثاني عشر ـ استعمل الرياضة الروحية والرياضة البدنية في طلب الهداية وحل مغاليق القضايا والمسائل وهي طريقة صحيحة لتصفية الذهن وإراحة الفكر .

ثالث عشر ـ كانت عبقريته من النوع الذي لا يستقر على حال وحياته موسومة

بالشواذ والغرابة يقضي الليالي مكباً على القراءة والكتابة ، ويتناول احياناً المنبهات ليبقى واعياً . واذا اتاه النوم تناوبته الاحلام فيما كان يقرأ ويفتكر ، وكان حينما ينتهي من عمله يستسلم الى شرب الخمرة والطرب .

رابع عشر ـ كانت له اطماع سياسية تجعله دائم التنقل من امير الى آخر ، ومن مدينة الى أخرى ، ومتى أدرك حظه من السياسة كان ينسى الطب . وبعكس ذلك عندما تخذله السياسة ، كان يعود الى ممارسة الطب والتأليف . ودل نشاطه على انه كان قادراً على تأليف كتاب في كل ليلة واحدة .

خامس عشر ـ كان قوي الحجة قاطع البرهان ، وهذا ما جعل كتاباته شديدة التأثير على رجال العلم والفكر في عصره وفي القرون الوسطى . وقد قال عنه « وليم أوسلر » ان قانونه الطبي كان الانجيل الطبي لأطول فترة من الزمن ، درس فيه الطلاب والعلماء مدة تنوف عن ثمانية قرون . اما تآليفه الاخرى فأهمها قوانين ومعالجات طبية ، الادوية القلبية ، كتاب الشفاء وكتاب النجاة وكتب أخرى منها ما هو مطبوع والباقي لم يطبع ، عدا ما له من مؤلفات في العلوم الاخرى .

سادس عشر ـ يدل شعره على نزعة فلسفية صوفية . ومن قصائده الشهيرة قصيدة في النفس ومطلعها :

١ ـ هبطت اليكَ من المحلِ الارفعِ ورقاء ذاتُ تعززٍ وتمنّعِ
٢ ـ محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقعِ
٣ ـ وصلتْ على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجّع
٤ ـ انفتْ وما انست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقعِ
٥ ـ وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنعِ
٦ ـ حتى اذا اتصل بها وهبوطها في ميم مركزها بذات الاجرع

٧ ـ علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضّع
٨ ـ تبكي اذا ذكرت ديارا بالحمى بمدامع تهمي ولما تقطع
٩ ـ وتظل ساجعة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الاربع
١٠ـ إذ عافها الشرك الكثيف وصدها قفصٌ عن الاوج الفسيح الاربُع
١١ـ حتى اذا قرب المسير الى الحمى ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
١٢ـ سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
١٣ـ وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيّع
١٤ـ وغدت تغرّدُ فوق ذروة شاهقٍ والعلم يرفع كل من لم يرفع
١٥ـ فلأي شيءٍ أهبطت من شاهق سامٍ الى قعرِ الحضيض الاوضع
١٦ـ ان كان ارسلها الاله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الاروع
١٧ـ فهبوطها ان كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
١٨ـ وتعود عالمة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقع
١٩ـ وهي التي قطع الزمانُ طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
٢٠ـ فكأنها برقٌ تألق في الحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وتقول وصيته التي اوصى بها صديقه وهو ابو سعيد بن ابي الخير الصوفي على ما له من عقيدة دينية ومن مبادىء اخلاقية واجتماعية يجدر بنا نقلها كما هي تكملة لبحثنا عن ابن سينا وسيرته .

قال الشيخ الرئيس : « ليكن الله تعالى اول فكر له وآخره ، وباطن كل اعتبار وظاهره ، ولتكن عينه نفسه مكحولة بالنظر اليه ، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه مسافراً بعقله في الملكوت الاعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى واذا انحط الى قراره فلينزه الله تعالى في آثاره فانه باطن ظاهر تجلى لكل شيء بكل شيء .

ففي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على انه واحد

فاذا صارت هذه الحال له ملكة انطبع فيها نقوش الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت فألف الانس الاعلى ، وذاق اللذة القصوى ، وأخذ عن نفسه من هو

بها اولى ، وفاضت عليه السكينة ، وحقت له الطمأنينة ، وتطلع على العالم الادنى اطلاع راحم لاهله مستوهن لحيله ، مستخف لثقله ، مستحسن به لعقله ، مستضل لطرقه وتذكر نفسه وهي بها لهجة وبهجتها بهجة ، فتعجب منها ، ومنهم تعجبهم منه ، وقد ودعها وكان معها كأنه ليس معها . وليعلم ان افضل الحركات الصلاة ، وأمثل السكتات الصيام ، وانفع البر الصدقة ، وأزكى السر الاحتمال ، وأبطل السعي المراءاة ، ولن تخلص النفس من الدرن ما التفتت الى قيل وقال ، ومناقشة وجدال ، وانفعلت بحال من الاحوال . وخير العمل ما صدر عن خالص نية ، وخير النية ما ينفرج عن جناب علم ، والحكمة أم الفضائل ، ومعرفة الله أولى الاوائل . اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ثم يقبل على هذه النفس المزينة بكمالها الذاتي فيحرسها عن التلطخ بما يشينها الهيئات الانقيادية للنفوس المرادية التي اذا بقيت في النفس المزينة كان حالها عند الانفصال كحالها عند الاتصال اذ جوهرها غير مشارب ولا مخالط ، وانما يدنسها هيئة الانقياد لتلك الصواحب ، بل يفيدها هيئات الاستيلاء والسياسة والاستعلاء والرياسة ، وكذلك يهجر الكذب قولاً وتخيلاً حتى تحدث للنفس هيئة صدوقة فتصدق الاحلام والرؤيا. وأما اللذات فيستعملها على اصلاح الطبيعة وابقاء الشخص او النوع او السياسة .

أما المشروب فان يهجر شربه تلهياً بل تشفياً وتداوياً ، ويعاشر كل فرقة بعادته ورسمه ، ويسمح بالمقدور والتقدير من المال ، ويركب لمساعدة الناس كثيراً مما هو خلاف طبعه ، ثم لا يقصر في الاوضاع الشرعية ، ويعظم السنن الالهية ، والمواظبة على التعبدات البدنية ، ويكون دوام عمره اذا خلا وخلص من المعاشرين ، تطربه الزينة في النفس ، والفكرة في الملك الأول وملكه ، وكيس النفس عن عيار الناس من حيث لا يقف عليه الناس . عاهد الله ، أنه يسير بهذه السيرة ويدين بهذه الديانة والله ولي الذين آمنوا وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أما ما ذكر عن ملذاته وافراطه الجنسي ، فلا يقبل صدقه كما ورد ، لأن من كان مثل الشيخ ابن سينا في نبوغه وعبقريته وعلمه وانسانيته ومطامعه ومشاغله ، وسهره وصلاته ، وفلسفته وصوفيته ، وتآليفه وكتابته ، يصعب علينا

وصفه بما كتبه البعض عنه . وفي عقيدتي انه براء منه . أليس هو القائل :

احفظْ منيَّك ما استطعتَ فانَّه ماءُ الحياةِ يصبُّ في الارحامِ

فكيف يقول هذا ويفرط في شهواته وملذاته ؟ وماذا نقول عن وصيته وعن سيرته في شبابه ؟ ان الذين ترجمنا لهم سيرتهم اتخذناهم نموذجاً لتصوير الزمن الذي عاشوا فيه ،والحياة الاجتماعية التي تربوا في بيئتها ، وماهية العلوم التي درسوها ، والمناهج الدراسية التي اتبعوها ، وما أردنا تعداد كل من يجب ذكرهم من عباقرة الاطباء العرب ، بل اكتفينا بهؤلاء الثلاثة خوفاً من الاطالة والخروج عن الغاية وهم في نظرنا خير من يمثلون ثقافة العرب الطبية .

وبعد ، ما هو نصيب العرب من تقدم الطب ورقيه ؟ .

مما لا شك فيه أن العلوم الطبية والمعارف الانسانية كانت أصيبت بجمود وتوقف وضعف بعد ما دالت دولة اليونان والرومان وأوشكت الاخيرة على الزوال ، وبعدما لحق الدولة البيزنطية الوهن والاضطراب الداخلي والخارجي ، الاجتماعي والاخلاقي ، من جراء فساد الحكم وسقوط الاخلاق وكثرة الظلم والمفاسد ، وبعدما استدامت الحرب بينها وبين دولة الفرس التي لم تكن اعدل ولا اسلم منها ولا أهدأ من غيرها ، قروناً عديدة افقرت الشعبين ، وشردت العلماء ، ونشرت ألوية التعصب والجهل في كل الانحاء .

وفي هذه الآونة من الزمن ، ظهر العرب في دنيا البشرية . وبعد ان اتموا فتوحاتهم ونشروا تعاليمهم ، أقبلوا على العلم والفن ، وكان الطب في مقدمة العلوم التي طلبوها ، وشجعهم على ذلك ظمأهم للعلم وحبهم للحرية الفكرية وقول الحديث النبوي : « العلم علمان : علم الابدان وعلم الاديان » ، فبذلوا عنايتهم في تحصيل المعارف وفتح المعاهد العلمية في الشرق والغرب ، وفي جلب العلماء من كل الامم للترجمة والتعليم والتطبيب ، وفي جمع المخطوطات الموجودة في مختلف البلدان وجعل التعليم في متناول كل فرد في مملكتهم الواسعة الارجاء .

وكان الحصول على المخطوطات شرطاً من شروط الصلح احياناً ، وأصبح طلبة الخلفاء والأمراء والاغنياء . ولما فتح هارون الرشيد عمورية وانقرة حمل

الى بغداد كل ما وجد فيهما من المخطوطات ، وارسل المأمون بعثة خاصة الى بلاد الروم لتجمع المخطوطات اليونانية . وكانت الكتب تهدى الى الخلفاء احياناً على سبيل الاسترضاء . فأمبراطور القسطنطينية ارسل كتباً قيمة الى الخليفة في الاندلس، ليكون له عوناً على الخليفة في بغداد . وقد اشتدّت الرغبة في الحصول على المخطوطات والكتب ، ليس بين عرب العراق واسبانيا فحسب ، بل بين عرب القاهرة ودمشق والقيروان ، وبين بقية البلاد التي فتحها العرب .

وكان من جراء هذه الرغبة ان كل مدينة من البلاد الاسلامية ، غدت تحتوي على مكتبة عمومية فيها غرف للقراءة والكتابة ، وقاعات للمحاضرات العلمية والدينية ، ومكاتب للترجمة والنسخ والتجليد ، كبيت الحكمة في بغداد ، ودار الحكمة في القاهرة حيث كان يشتغل المترجمون والمؤلفون والناسخون .

وكان في قرطبة مكتبة تحتوي على ربع مليون مجلد ، وفي بغداد بقيت الكتب المخطوطة التي أغرقها (هولاكو) في دجلة ، لتمرّ عليها خيوله وبقي ماء النهر أسود قاتماً مدة عشرة ايام .

وقيل ان ابن المطران طبيب صلاح الدين الايوبي ، كان يملك وحده مكتبة تحتوي على عشرة آلاف مجلد . وكان لأمين الدولة ابن التلميذ مؤلف احسن اقرباذين في ايامه ، مكتبة تحتوي على عشرين الف مجلد بعضها بخط يده .

وكانت مكتبة المؤرخ الطبي ابن القفطي الشهير تقدر قيمتها بما يزيد على خمسين الف دينار . وكان في كل مستشفى كبير مكتبة لتعليم الطلبة وللرجوع اليها عند الحاجة .

وللعرب يعود الفضل وحدهم دون غيرهم في حفظ تراث الطب اليوناني والفارسي والهندي واستخلاص المهم مما جمعوه وترجموه وتعلموه ووضعه في قالب واضح علمي تاركين كل ما كان غير لازم .

ويقول العلماء المنصفون ، لولا العرب لانقطعت الصلة بين الماضي والحاضر .

وتكفي المقابلة بين كتابات جالينوس وكتابات ابن سينا ، فالاول مبهم ، والثاني في غاية الوضوح ، والترتيب ظاهر في الثاني ومفقود في الاول .

وكان العرب امناء في ترجمتهم ونقلهم ، فلم يشوهوا حقائق ما نقلوا ، بل صرفوا العناية الفائقة والاهتمام الجدي ، حتى تمّ لهم نقل تلك العلوم دون تحريف ولا تشويه ولا تعصب .

ويعود الفضل الاكبر في نجاحهم الى سخاء الخلفاء والملوك والامراء وسعة صدرهم وتحررهم من التعصب الديني وتقيدهم بحرية الرأي وأخذ العلم من أين كان وممن كان .

ومع هذا فلتقدير مساهمة العرب وأهميتها في حقل الطب والعلوم المتصلة به ، يجب أن نقارن ذلك بحالة الطب اليوناني والهندي والبزنطي والفارسي في ابتداء العصر العربي وما انتهت اليه في آخر هذا العصر .

يقول الدكتور امين خير الله (١) :

« ولكي نصدر حكماً صحيحاً على مساهمة العرب في الطب أيضاً يجب ان لا ننظر اليها بمنظار خصومهم ولا بمنظار المعلومات الحاضرة ، فالخصوم المتعصبون شوهوا الحقائق وانكروا فضائل العرب . والمعلومات الحاضرة هي نتيجة رقي صناعي واجهاد فكري اشتغل فيه معظم الأمم منذ ثلاثة عشر قرناً حتى الآن ، ولكن علينا ان ننظر اليها بالقياس الى المعلومات التي كانت في زمانهم .

« واذا كان بعض العلماء من غير العرب قد اشتركوا في التراث الذي نذكره ، فعلينا ان لا ننسى بأن الحكم العربي الصحيح انقضى بعد زوال الدولة الأموية في الشرق والغرب ، وبعد تضعضع الحكم العباسي الأول في بغداد ، وان الحكم بعدهم أصبح اسلامياً لا عربياً بحتاً .

« ويجب ان نذكر جيداً ، بأن الدافع الحقيقي للحركة العلمية كان العباسيون

---

(١) للدكتور أمين خير الله في كتابه الطب العربي .

في بغداد والأمويون في الأندلس . ولذا لا يعاب على العرب اذا كان بعض مؤلفي كتبهم من غير العرب ، كما لا يؤخذ على الأميركيين مثلاً اذا كان بعض المخترعين عندهم من أصل غير أميركي . ؟

« وهكذا يقال عن العلم عند الرومان، فأغلب العلماء عندهم كانوا من أصل يوناني ، ولهذا - حتى نكون منصفين - يجب أن نقارن التمدن العربي بالتمدن الروماني فنرى ان ما أتمه العـــرب في قرن واحد قضى الرومان عدة قرون في اتمامه . واذا كان اليونان امتازوا في العلم والفلسفة وامتاز الرومان في التشريع والادارة ، فالعرب امتازوا في الاثنين معاً . وان المدنية العـــربية في القاهرة ، واسبانيا ، ومراكش ، ودمشق ، والقدس ، وبغداد، لشاهد لامع على مقدار ما يمكن للعرب ان يبلغوه من الرقي متى أتيح لهم ذلك .

« ومن الانصاف العلمي ان نذكر الأعمال الفردية التي قام بها العرب في الطب وغيره ، وأن لا ننسى مزاياهم الكبرى فانهم بدون شك حفظـــوا مشعل العلوم والثقافة في العصور المظلمة ، لما كانت اوروبا غارقة في ظلمات العصور ، وأنهم حرروا العلم وأنقذوا التمدن من الاضمحلال وأعطوه بعدئذ الى اوروبا بقالب حسن وواضح ، وكانوا السبب الأصلي في يقظة اوروبا من ديجور أجيالها المظلمة » .

ولاطلاع بعض اطبائنا العلماء على ماهية الطب العربي وما يحويه ، وفهم ما وصل اليه علمهم في ذلك الحين ، ومعرفة مصطلحاتهم الطبية وتشخيصهم للأمراض وتعليلاتهم لها والحاصل للأحاطة بذهنيتهم العلمية ، أرى من المفيد الاشارة الى أشهر كتبهم في شتى العلوم الطبية وهي :

١ - الأول (كتاب الحاوي) وهو لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي المسمى جالينوس العرب والطبيب الأعلى بين اطباء العرب المتوفى سنة ٤٢٠ هـ والكتاب يقع في ٣٠ مجلداً حسب رواية أبي الفداء ، وفي ١٢ مجلداً حسب قول ابن النديم صاحب كتاب الفهرست . ترجمه الى اللاتينية فرج بن سليم ونشر مراراً في البندقية وفي بريشيا في القرون الوسطى .

٢ - الثاني (كتاب كامل الصناعة) الطبية لأبن المجوسي علي بن عباس

ويعرف (بالملكي) صنّفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن بن بويه الديلمي . وهو كتاب جليل مشتمل على اجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها بما فيها علم الجراحة . ترجم الى اللاتينية وطبع في ليدن عام ١٥٢٣ م وطبع في بولاق في جزءين عام ١٢٩٤ هـ وهو مفيد جداً .

٣ ـ الثالث (كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبي القاسم خلف ابن العباس الزهراوي ، وكان من أكبر جراحي العرب . ولد في الزهراء بجوار قرطبة ، وكان طبيب الخليفة الحكم ولد عام ٤٠٣ هـ . وتوفي عام ٥١٦ هـ . وترجم كتابه الى اللاتينية وطبع سنة ١٧٧٨ م وهو أول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف ، وأثنى عليه كثيرون من علماء اوروبا وشهدوا له بطول الباع والسبق في شؤون كثيرة . (عن دائرة المعارف البريطانية) .

و (كتاب التصريف) عبارة عن دائرة معارف طبية يحتوي على ثلاثين فصلاً مبوبة في ثلاثة أقسام : الاول في الطب الداخلي . والثاني في الأقرباذين والكيمياء ، والثالث في الجراحة . وامتاز القسم الثاني بأدويته المفردة ، وامتاز القسم الثالث الجراحي برسومه للآلات الجراحية وآلات خلع الاسنان المستعملة في زمانه ، وكانت هذه الرسوم وحيدة في بابها .

وقد ترجم القسم الجراحي (جيرارد كريمونا) الى اللاتينية ، وبقي كتاب التدريس في جامعات اوروبا كجامعة سالرنو ومونتبيليه مدة من السنين .

٤ ـ الرابع (تذكرة الكحالين) لعلي بن عيسى بن الكمال الطبيب النصراني المتوفى بعد الاربعمائة في بغداد ، والكتاب مطبوع . وهو من خير ما ألّف في طب العيون . ترجم الى اللاتينية وطبع مراراً وكان من كتب التدريس عند العرب .

٥ ـ الخامس (كتاب تنقيح المناظر) لأبن الهيثم ابي علي محمد بن الحسن ابن الهيثم البصري توفي في الاربعمائة ، نبغ في علم الهندسة والمرئيات والضوء . جاء الى مصر أيام الحاكم بأمره ، ثم تنسك واشتغل بالتصنيف والافادة . تعاطى الطب ووصف العين وصفاً دقيقاً ، وبحث قضية البصريات بحثاً وافياً ، وهو أول من قال بأن النور يدخل العين لا يخرج منها ، وأثبت ان شبكية العين هي مركز

المرئيات وان هذه المرئيات تنتقل الى الدماغ بواسطة عصب البصر ، وان وحدة النظر من الباصرتين عائد الى تماثل الصور على الشبكتين .

طبع كتابه مع الترجمة اللاتينية باعتناء الاستاذ هيل في دريدن عام ١٨٤٥ م .

٦ ـ السادس (كتاب القانون في الطب) للشيخ الرئيس أبو علي بن سينا المتوفى عام ٤٤٨ هـ . هو بلا ريب أفضل تراث في الطب العربي ، وأجل كتاب لتدريس الطب في اوروبا وفي البلدان العربية لأكثر من ثمانية قرون . ولا يزال يستعمل ويدرس في بعض بلدان الشرق الأدنى والهند وشمالي افريقيا . وهو ينقسم الى خمسة اقسام : القسم الأول يشمل خمسة فصول :

١ ـ الأول في التعاريف ، والعناصر ، والأخلاط ، والأمزجة ، والأرواح .

٢ ـ الثاني في التشريح ، ويشمل العظام ، والعضلات ، والاعصاب ، والشرايين ، والأوردة .

٣ ـ الثالث في الامراض واعراضها .

٤ ـ الرابع في حفظ الصحة ، والوقاية من الأمراض .

٥ ـ الخامس في العلاج عموماً .

والقسم الثاني يبحث في الأدوية المفردة مرتبة حسب الحروف الهجائية .

القسم الثالث يبحث في أمراض الجسم من الرأس حتى القدمين بما فيه تشريح الاعضاء : الرأس ، الدماغ ، العيون ، الآذان ، الأنف والفم واللسان ، الشفتان ، الأسنان ، اللثة ، الحلقوم ، الثديان ، الصدر ، الرئتان ، المريء والمعدة ، الكبد والمرارة ، الطحال ، الامعاء والاعضاء التناسلية عند الرجال والنساء .

القسم الرابع يحتوي على سبعة فصول :

الأول ـ الحمايات .

الثاني ـ الانذار والبحران .

الثالث ـ الأورام والقروح .

الرابع ـ الجراحة والعمل باليد .

الخامس ـ الكسور والخلوع .

السادس ـ السموم .

السابع ـ أمراض الجلد .

القسم الخامس في الأدوية المركبة والعلاجات .

٧ ـ السابع (كتاب الموجز) لابن نفيس القرشي المتوفى سنة ٦٩٨ هـ . وهو علي بن أبي الحرم القرشي الملقب بابن النفيس . ولد في دمشق وسكن مصر الى ان توفي . والكتاب مختصر لقانون ابن سينا ، والشامل في الطب . وقد طبع في الهند . وابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية .

٨ ـ الثامن (كتاب التيسير في المداواة والتدبير) لابن زهر [١] مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر ولد في اشبيلية بالأندلس وتوفي عام ٥٢٥ هـ. وهو من عائلة اشتهر أفرادها بالطب منذ أجيال ولكنه كان أنبغهم كما انه أحد الاطباء العرب القلائل الذين حصروا جهودهم في الطب فقط . وقد ألف كتابه هذا واهداه الى تلميذه الفيلسوف العظيم الطبيب ابن رشد . والكتاب يصف الأمراض وصفاً واضحاً جلياً خالياً من النظريات الفلسفية .

وابن زهر أول من وصف خراج الحيزوم وصفاً دقيقاً ، ووصف التهاب التامور (غشاء القلب) بنوعيه الناشف والرطب وفرقه عن أمراض الرئة . وفي اثناء وجوده في السجن كتب وصفاً دقيقاً لأعراض سرطان المعدة الذي كان رفيقه في السجن مصاباً به .

---

(١) ذكر ابن أصيبعة أن معظم أفراد عائلة ابن زهر كانوا اطباء ومنهم صاحب كتاب التيسير . أما الآخرون فأورد اسم (أبو مروان عبد الملك الفقيه محمد بن مروان ابن زهر الأيادي) وهو طبيب . ثم اسم (أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء ابن زهر) وهو طبيب شهير . ثم اسم (أبو محمد بن عبدالله الحفيد ابو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر) وهو أيضاً كآبائه من مشاهير الاطباء في زمانه .

وكان يحب التجربة والاختراع . ووجد في أيام الخليفة عبد المؤمن أحد ملوك المرابطين وتقرّب اليه فنال منه الحظوة والانعام والجاه . وكتابه المذكور ترجم الى اللاتينية وطبع عدة مرات واستعمل للتدريس في جامعات اوروبا .

٩ ـ التاسع (كتاب المفردات) لابن البيطار، وهو في جزئين ومطبوع في مصر ويسمى (الكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) تأليف الشيخ الفاضل ضياء الدين أبي محمد عبدالله بن احمد الأندلسي المالقي العشاب المعروف بابن البيطار . أمر بجمعه الملك الصالح وطبع ببولاق سنة ١٢٩١ هـ. وترجم الى اللاتينية وغيرها .

ولد ابن البيطار في مالقه وساح في اسبانيا والمغرب وشمالي افريقيا ، ومصر وسوريا ، وآسيا الصغرى ، وتوفي في دمشق عام ٦٤٦ هـ . وقد ألف معظم كتبه في مصر حيث كان يشغل مركز المفتش العام للصيدليات واستشهد فيه بأكثر من /١٥٠/ مؤلفاً ووصف أكثر من /١٤٠٠/ عقار من النبات والحيوان والمعدن . منها /٣٠٠/ جديدة لم تذكر قبله . وكان الطبيب ابن اصيبعه من تلامذته اجتمع به بدمشق سنة ٦٣٣ هـ. وشاهد معه كثيراً من النبات في مواضعه وقرأ عليه تفسيره لاسماء الأدوية الواردة في كتاب ديسقوريدس .

١٠ العاشر (كتاب المختارات) في أربعة اجزاء وهي في الطب لمهذب الدولة أبي الحسن علي بن احمد بن علي بن هبل البغدادي المولود عام ٥٤٤ والمتوفى سنة ٦١٦ هـ. طبع في حيدر آباد بمطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية عام ١٣٦٢ هـ . والكتاب ينقسم الى عدة فصول واجزاء تتناول ماورد في القانون ، والحاوي ، والمنصوري وغيرها من كتب الطب . وقد اختار منها ما اطلع عليه وجربه ،ولذا كان كتاب المختار ذا فائدة عظيمة لتدريس الطب العربي وفهم اصطلاحات الاولين وآرائهم .

١١ ـ الحادي عشر (كتاب التذكرة الهادية في الطب) وهو لابراهيم ابن محمد المشهور بابن السويدي . ولد عام ٦٠٠ هـ. وتوفي عام ٦٧٠ هـ. ويرتقي بنسبه الى ولد سعد بن معاذ الأوسي . تعلم في دمشق وطبب فيها ، ونصب طبيباً

في البيمارستان النـــوري وبيمارستان باب البريد . وكان أبوه من السويداء في حوران ومن التجار .

هذه احـــد عشر كتاباً من أمهات الكتب العربية الطبية التي لا يحصى عددها ، منها ما طبع ومنها من لم يطبـع ، ومنها لا يزال موجوداً في خزائن الكتب ، ومنها ما اندثر مع الزمن بسبب الحريق والتمزيق والتغريق .

وكان عليّ ان أذكر غيرها ولكن أوردت هذه الاسماء فقط كنماذج لجهود العرب في خدمة الطب ، ولم أذكر خدماتهم في بقية العلوم .

أما ما يتعلق بأدب المهنة وعلاقات الاطباء ببعضهم البعض ، فقد ذكرت الوصايا التي أوردها ابن اصيبعة عنهم وهي صورة عن أخلاقهم وتفكيرهم ومبادئهم .

والآن ونحن في القرن العشرين والطب قـد بلغ من الرقي ما لا يحـلم به اليونان ولا الرومان ولا آباؤنا العرب . فماذا نستفيد من هذا البحث ؟

الجواب : ان فائدتنا منه هو معرفة اساليب اطبائنا العرب في تقرير الامور وفهم المسائل ، وتعليل الاعراض والعلل ، ثم تفكيرهم وما كان لهم من اتجـاه في التمحيص ، والتحقيق ، والاستقراء ،والتجربة ، والاستنتاج ، وهي الدلالة على ذهنيتهم العلمية واكتشافاتهم العديدة . ثم لربط ماضينا بحاضرنا ، فلا ننسى فضلهم ولا نبتعد عن تطوّر العلم في جميع انواع الطب والطبابة ، ولا عن الاختصاص في فروعهـا وفروع فروعها ، ولا نهمل الاحاطة بالعلوم الاخرى التي هي من ضرورات العلوم الطبية ، ومقدمات لها ، ولا بالعلوم العامة التي تتعلق بمجتمعنا والبيئة التي نعيش فيها. واخيراً لنحافظ على قدسيات هذه المهنة ومستلزماتها ، لنبقى مثـالاً يحتذى به في سيرتنا ومعاملاتنا ، وعلاقاتنا ، وعلمنا ، واخلاقنا ، ولا نفسد المقاييس التي فرضها علينا العلم وفرضتها علينا المهنة وفرضها علينا المجتمع ، ولا نكون ساعـين وراء المادة كتجار ، ولا اطباء عاملين كصوفيين يهملون المادة ويستسلمون للمعنويات . فالمادة بها قوام العيش ، والمعنويات بها قوام الروح ، والبحث والتجرد بهما قوام العقل ، والخير ان يعمل الطبيب لدنياه كما يعمل لذكراه .

أما ثقافتنا فلها ادوارها ، ولا يستطيع الطبيب ان ينال حق الممارسة وحمل هذا اللقب قبل المرور بها ، منذ ان يدخل الى معاهد التعليم وهو في الخامسة من عمره ، الى ان يخرج منها وهو في الثلاثين منه اذا ساعده الحظ ، ومكنته الفرص ، وسار بالتعلم والتحصيل حسب ذكائه ، واستعداده ، وميله ، ومقدار جهده وانشغاله ، والى ان يتمم ما اوجبه التحصيل الابتدائي ، والتحصيل الثانوي ، والتحصيل العالي ، والتحصيل الجامعي . ثم التخصص والممارسة تحت اشراف المتخصصين من اساتذة الطب والجراحة وأعلامهم في المستشفيات والمخابر والمعاهد الجراحية والطبية .

ولنعلم نحن العرب ، ان بيننا وبين الغربيين في علومهم ، وفي تفكيرهم ، وفي اسلوب بحثهم العلمي المجرد ، فارقاً كبيراً وبوناً شاسعاً نحتاج للوصول اليه بما ينوف عن مائة وخمسين سنة مع الجهد والجد والسعي المستديم ، والارادة الجبارة ، مع العلم بأنه يجب ان لا نحتكر العلم ونجعله وقفاً على فئة او طبقة ، بل يجب ان نتركه مشاعاً بين أهل المواهب وان نحميه من العبث ونحمي رجاله وطلابه من الحاجة كما فعل آباؤنا وكما تفعل الامم الراقية في عصرنا .

والمهم في مسعانا ليس الحصول على الكميات التي نحتاجها من الطب أو سواه ، ولكن الحصول على المنهاج الصحيح والتفكير الصحيح والكيفية التي تمكنا من اكتشاف الحقيقة ، والتجرد للعلم بروح لا يهمها سوى الحصول على المعرفه واظهار الحقيقة ، وبيان الحق .

ثقافة الاطباء عند العرب

مراجع الرسالة

١ ـ تاريخ « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن اصيبعة موفق الدين ابو العباس المتوفى في صلخد من اعمال حوران عام ٦٨٨ هـ .

٢ ـ تاريخ « حكماء الاسلام » لظهير الدين البيهقي المولود عام ٤٩٩ هـ . والمتوفى عام ٥٦٥ هـ .

٣ ـ « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » لجمال الدين القفطي المتوفى عام ٦٤٦ هـ .

٤ ـ « البيمارستانات في الاسلام » للدكتور احمد عيسى بك .

٥ ـ « الطب عند العرب » لخير الله .

٦ ـ « كتاب الاعلام » لخير الدين الزركلي .

٧ ـ « كتاب ابن خلكان » المسمى (وفيات الاعيان) .

٨ ـ دائرة المعارف البريطانية .

٩ ـ « تاريخ التمدن الاسلامي » لجرجي زيدان .

١٠ـ « الحضارة الاسلامية » لكرد علي .

١١ـ « قاموس الاعلام » لشمس الدين سامي .

الطب والاطباء في حلب

خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر حتى عصرنا الحاضر

ان الامم في اعمارها وحياتها كبقية الاحياء تمر بها ادوار النشوء والارتقاء والتكامل ، ثم تعتورها عوامل الضعف والانحطاط والانهيار .

ولكن الامم خلافاً للأفراد ، لا تضمحل ما بقيت لها المقوّمات القومية والروحية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والسياسية ، تعمل عملها ، وتجدد فعاليتها وتنشط قواها البنّاءة ، وتنطلق مستمرة في سيرها ، تناضل وتكافح حتى تعيد سيرتها الاولى ، رغم قدم الزمن واختلاف الظروف ، وكأنها وليدة اليوم تعمل ما تستلزمه ضرورات الحياة ، وضرورات النهوض والتقدم او تتجاوب عواملها الداخلية مع العوامل الداخلية ، باندفاع قوى تسوق تلك المقومات للنمو ، والحركة ، والبناء ، والتكامل ، منتهزة كل فرصة ، والفرص لا تفيد ما لم يكن الاستعداد لها موجوداً ، والوعي قائماً ، والمحيط صالحاً ومتجاوباً .

ولما كانت هذه الظاهرة الطبيعية هي الاساس لدراسة الامة التي يهم الباحث معرفة حقيقتها وتقدمها في سلم النشوء والنهوض والرقي والحضارة سواء اكان ذلك في ناحية الطب والاطباء او في نواحيها الاخرى .

وعلية تيسيراً للمعرفة نرى ان نقسم الموضوع الى ثلاثة ادوار :

دور الانحطاط وجمود الوعي القومي العربي ، وانهيار الحضارة العربية . ويعتبر بدؤه منذ غزو جنكيز خان وهولاكو للامبراطورية العربية ، والبلاد الشامية ، وهـــدم عاصمتها الكبرى « بغداد » ، وما تلاه من غزو تيمورلنك ، ثم الصليبيين ، ثم من بعدهم غزو السلطان سليم عام ١٥١٧ م اي عام ٩٢٢ هجرية ، وبقاء العثمانيين مستعمرين البلاد العربية حتى ظهور ابراهيم باشا وغزوه بلاد الشام عام ١٢٤٨ هـ . اي عام ١٨٤٥ ميلادية .

الدور الثاني دور الاحتكاك واليقظة العربيـــة ، ويعتبر مبدؤه منذ احتلال ابراهيم باشا ، الى ان زال حكم العثمانيين عن مصر والشام ، وبغداد ، وليبيا ، والجزيرة العربية عام ١٩١٨ . ثم اعقبه زوال الاحتلال الفرنسي عن سوريا عام ١٩٤٦ .

الدور الثالث : دور الشغف العلمي والثقافة القومية ، وهو يعتبر من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٩ .

والذي يتبين من دراسة التاريخ ، ان شعلة الحضارة العربية لم تنطفىء نارها خلال الدور الاول والثاني ، بل كانت تختفي ثم تظهر الى ان جاءت سنة ٩٢٢ هـ . فانطفأت انوارها وتهدمت معالمها . ولكن المقومات لم تمت ، وعناصر الحياة الخالدة لم تفنَ . وفي خلال حكم الاتراك العثمانيين كانت وطأة الجمود الفكري والانحطاط القومي على اشدها حتى قال مؤرخ حلب الشيخ كامل الغزي المولود عام ١٢٧٠ هـ . والمتوفى عام ١٣٥١ هـ . في كتابه نهر الذهب مجلد ١ صفحة ١٧٦ « عهدنا منذ ١٢٧٠ ان الاطباء كانوا يداوون المرضى على قوانين الطب القديم ، ثم في حدود الـ ١١٥٥ هجري اي في عام ١٨٤٢ م جاء طبيب انكليزي مـــع اول بعثة سياسية انكليزية الى حلب ، وبدأ يداوي الناس . وفي عام ١٢٩٨ جاء طبيب الماني اسمه (بيشوف) وتعاطى الطبابة حسب الاصول الغربية » .

ومن هذا يفهم ان الطب بمعناه العلمي لم يكن موجوداً في ذلك الحين ، وان الاطباء الذين كانوا يمارسون الطب حتى عام ١٢٧٠ تثقفوا بالثقافة الطبية العربية من انفسهم وبدراساتهم . واثباتاً لذلك يقول الشيخ راغب الطباخ صاحب تاريخ اعلام النبلاء ، عن هذا الدور : « كان هنالك عدد من الاطباء يطببون الناس فى البيمارستان النوري ، والبيمارستان الغوري وفي بيوتهم . وكان ممن اشتهر اسمهم علاء الدين الاربلي عـام ٩٢٦ هـ . والطبيب محمد سبيخ عام ٩٣٧ . والطبيب هاشم السروجي عام ٩٤٦ ، وكان رئيساً لاطباء المستشفى النوري وكحالاً . ثم الطبيب جمال الدين الاتروني عام ٩٧٥ وكان رئيس اطباء المستشفى الارغوني ، والطبيب صادق بن هاشم الرومي عام ١٠١٦ ، والطبيب صالح بن نصرة الله سلوم

عام ١٢٤٥ ، والطبيب احمد بن ابراهيم الخلاصي عام ١٢٤١ ، والطبيب الشيخ محمد الطيار الكيالي عام ١٢٧٨ ، هذا وله كتاب مخطوط في علم التشريح » .

ولما جاء ابراهيم باشا المصري الى حلب وتم له احتلال البلاد الشامية عام ١٢٤٧ هـ اي عام ١٨٣٢ م ، وبقي تسع سنين فيها ، بدأ الدور الثاني دور الاحتكاك واليقظة القومية العربية .

وكان الفضل في هذه اليقظة للعلماء ، والمهندسين ، والاطباء ، وللزراعيين والاداريين الذين جلبهم معه فأثروا في افكار الشعب ونبهوهم الى ما هم عليه من تأخر وجهل وحاجة . وكان الاطباء يداوون جرحى الجيش ومرضاه ، ويداوون المعلولين من الناس . والمهندسون بنوا الطرق والمعابر والجسور والمشافي والثكنات كالثكنة الموجودة في حلب ، والمستشفى المسمى بالرمضانية وهو لا يزال مستشفى يديره اطباء الجيش . والمهندسون الزراعيون قاموا باصلاح طرق الزراعة ، والعلماء بثوا بين طلاب العلم ، العلم وتولوا التدريس .

وبعد ما انسحب ابراهيم باشا وجيشه من البلاد ، وجاء دور عبدالحميد الثاني ، ظهر في المجتمع اطباء معدودون على الاصابع يمارسون المهنة . منهم من تخرج من القصر العيني ، ومنهم من تخرج من الآستانة ، ومنهم من كان بقايا الجيش المنسحب ، كالحكيم حسين بن علي جد الحاج نوري الحكيم ، المتوفى في حلب عام ١٢٨٨ هـ وهو من خريجي مدرسة الطب في (اثينا) اليونان .

وفي حدود عام ١٨٦٢ حضر الى حلب المستشرق الامريكاني « الدكتور حنا ورتبات » وتعاطى مهنة الطب الحديث . وبعد حين سافر الى بيروت واشترك مع الدكتور بوست ، والدكتور (فانديك) والمبشر الشهير دانيال بلسر بتأسيس كلية الطب عام ١٨٦٧ ، في الكلية السورية الانجيلية . وكانوا يدرسون الطب باللغة العربية . وكان الدكتور مدة وجوده في حلب قد درّس الطب لبعض المتشوقين لتحصيل العلم والطبابة ، فعلمهم العلوم الطبيعية ، وعلم الاقرباذين ، ومفردات الطب ، والطب الداخلي ، والجراحة ، وكان منهم الشيخ محمد الكيالي ، والسيد بكري زبيدة ، والسيد عبدالله الخلاصي ، والشيخ محمد الافندي الملقب

بالحكيم ، ونصري الحكيم ، والشيخ محمود السنكري ، والشيخ راجي الروح ، والياهو حابير . وهؤلاء تعاطوا المهنة الطبية في بيوتهم واتخذوا فيها عيادات يعالجون المرضى ويصرفون لهم الادوية ، وقد افادوا كثيراً ، واستفادوا كسب معيشتهم ، وبقي منهم اناس حتى عام ١٩٢٠ .

ودليلاً على ان هؤلاء المتطببين الذين تعاطوا الطبابة في زمن قل فيه عدد الاطباء المأذونين ، لم يكونوا جهلة من العلم ، اذكر الشهادة الآتية التي كان منحها الدكتور (حنا ورتبات) لطلابه ، وهي صورة عن النسخة الموجودة عند الدكتور محمد علي الحكيم حفيد الشيخ محمد الافندي الحكيم .

يقول الدكتور ورتبات :

اني انا المحرر اسمي ادناه ، اشهد بأن السيد محمد الافندي قرأ عليَّ من الدروس الطبية في علم التشريح ، والفيسيولوجيا ، والكيمياء ، وقد طالع معي ايضاً علم المواد الطبية ، والاقرباذين ، وعلم النباتات ، واشهد معاً بأن معرفته العامة بهذه العلوم كانت حسنة . حرر في ٢٠ ايلول عام ١٨٦٦ .

ولما ارتقى السلطان عبدالحميد الثاني عرش السلطنة العثمانية عام ١٢٩٣ هـ . اي عام ١٨٧٤ م ، وأسس الكلية الطبية الملكية في الآستانة وغيرها من الكليات العالية للعلوم ، والادارة ، والحقوق ، والسياسة ، والزراعة ، والصناعة ، وأسس المشافي الحديثة ، وفتح المدارس الثانوية في الولايات ، وعمل على نشر العلم وتعميمه ، وأرسل البعثات الى الخارج ، وجلب من الغرب الاساتذة للتعليم ، وظهرت آثار الاصلاحات والتنظيمات ، ومنها ما كان في حلب ، نمت يقظة العرب وزاد اتجاههم نحو العلم ، ولكن الاقبال على الطب والتعليم ، والوظائف لم يكن كما ينتظر لعوامل عديدة ، اهمها وجود المدارس العليا في الآستانة ، واتخاذ اللغة التركية لغة الكتب والتعليم ، ونزعة ابناء العرب الى الهجرة وطلبهم العلم في بلاد الغرب ، بدلاً من الذهاب الى الآستانة .

وفي اثناء هذا الدور ، اي من عام ١٨٦٦ الى عام ١٩١٤ ، كان عدد

الاطباء المأذونين عدا من ذكرنا اسماءهم من المتطببين غير وافر . ومعظمهم كان من الاطباء الاجانب اذكر منهم الدكتور الايطالي (ارثور بوفه‌جي) ، والدكتور النمساوي (جوزيف) ، والدكتور الالماني (لورنس) ، والثلاثة كانوا يعالجون الامراض الداخلية ، ووجد من ابناء البلاد الدكتور يوسف اسود خريج (القصر العيني) ، والدكتور اوكست كوسا خريج فرنسا ، والدكتور ألتونيان طبيب وجرّاح خريج إحدى جامعات اميركا ، والدكتور نافع السباعي طبيب وجرّاح خريج جامعة استانبول ، والدكتور صاموئيل طبيب وجراح خريج أحد معاهد اميركا ، ووجد غيرهم ، اطباء عسكريون وموظفون مدنيون .

ورغم ما كان من مظاهر الانشاء والتنظيم والاصلاح في العهد الحميدي ، ورغم وجود كليات الطب البروتستانية واليسوعية في بيروت ، ففي عام ١٩١٤ لم يكن عدد الاطباء في حلب يفي بحاجة المرضى ، ولا كانت المدارس العلمية تضم المقدار المناسب من ابناء العرب .

ولما حلّت سنة ١٣٠٨ هـ . اي عام ١٨٩٠ م ، وانتشرت الكوليرا بحلب وكثرت الوقوعات والوفيات ، كانت الحكومة المحلية تسعى لتنظيف الهواء - ظناً منها بأن جرثومة المرض تتأتى عن الهواء - باجبار الاهالي على حرق (الزبل) حول المدينة في اماكن متعددة ، وامام كل بيت ، وتجبرهم على تبخير البيوت بالقطران والكبريت ، وطرح الزاج والكلس في المراحيض ، ورش الجدران بحامض الكربون المائع .

وفي عام ١٣٠٩ هـ. خفت وطأة الكوليرا في حلب وحارم وانطاكية التي كانت الوفيات فيها يومياً ١٠٠ شخص ثم انتقلت الى عنتاب ومرعش وكلس وأورفة والاسكندرون . ووضع الاساس لأول مستشفى حكومي بحلب وسمي (بمستشفى الغرباء) .

ومما يذكره التاريخ عن غرائب هذا العهد ان حمى التيفوس عندما انتشرت في سجن حلب مات اكثر الموجودين فيه . ومن تبقى على قيد الحياة نقلتهم الحكومة ، الى (جبل الغزالات) ووضعتهم تحت الخيام لعدم وجود محجر صحي او مستشفى حكومي .

وفي عام ١٣٢٠ هـ . عادت الهيضة (اي الكوليرا والهواء الاصفر) وانتشرت في دمشق وأقيمت المحاجر الصحية في خان شيخون ، والهبيط ، وقلعة المضيق ، والحمراء (شرقي حماه) ولكن الوباء انتقل الى حلب مرةً ثانية ، وتفشى في حماه والجسر ، وادلب ، وكلس ، وعنتاب . ولكثرة ما فتك بالناس اضطرت الحكومة المركزية الى جلب بعثة من المانيا وارسالها الى حلب برئاسة الدكتور (فونسكي) لمكافحة المرض والاعتناء بنظافه البلدة ومعالجة المصابين ، ولكن المرض لم يزل إلا بعد اشهر عديدة .

وفي عام ١٩١٤ زاد عدد الاطباء المأذونين عن السنين السابقة . ولكن لما وقعت الحرب العالمية الاولى وسيقت الجيوش الى جبهات الحرب ، واحتاجت الدولة الى الاطباء والجراحين ، لم تجد في البلاد العدد الكافي لمداواة عساكرها وإدارة مشافيها ، مما يدل على ان المتخرجين من المعاهد الطبية الثلاثة ومن غيرها لم يكونوا من الكثرة لاملاء المناصب والوظائف ، ولا لمحاربة الامرض الفتاكة التي انتشرت في البلاد الشامية ، والعراق ، والاناضول وأماتت مئآت الالوف من العسكر وابناء البلاد . وكان سببها الاهمال ، وقلة الاطباء ، وقلة المشافي ، والجهل ، والجوع ، وسوء التغذية ، واحتشاد الجيوش في المدارس ، والجوامع ، والخانات ، والمدارس ، وبين الاهالي بصورة غير صحية .

ومما اذكره ان الوفيات في حماه وحدها عام ١٩١٤ ، ومن أول تشرين الاول حتى شهر آذار ١٩١٥ ، اي خلال سبعة اشهر فقط ، بلغت حسب احصاء دائرة النفوس ، احدَ عشر ألفاً ، توفوا من الامراض الوبائية (التيفوس ، والحمى الراجعة ، والهيضة ، والملاريا الخبيثه ، وسوء التغذية) ، ولهذا لم تتمكن تركيا من الدفاع عن البلاد ولا استطاعت كسب الحرب بل خسرتها ، وانكسرت جيوشها ، وتمزقت امبراطوريتها ، لأن عدد من مات في الامراض من الجيش والاهلين فاق اضعاف ما قتل في ميادين الحرب . عدا ما كان من العوامل الاخرى . ومما يذكر في هذا الصدد ، ان مستشفى التونيان كان الوحيد الموجود في زمن ، الحرب فاتخذه الجيش مقراً لاجراء العمليات لضباطه واستفاد من معداته وآلاته .

ولما غُلبتَ تركيا وانفصلت عنها البلاد العربية ، ودخل الامير فيصل بجيشه الى بلاد الشام فاتحاً ، عام ١٩١٩ واتخذ دمشق عاصمة لها ، كان اول عمل اجراه تأسيس المجمع العلمي ، وإنشاء المدارس الثانوية ، ونشر العلم ، واستعمال اللغة العربية في جميع مؤسسات الدولة ودواوين الانشاء والتعليم ، وبذلك وضع حداً لعهد العثمانيين واستعمارهم وبث في الشعب روح العروبة ، وايقظ الوعي القومي ، وحبب لهم الحرية والاستقلال .

ومع ان العهد الجديد لم يدم اكثر من سنتين ، فان شعلة القومية عادت فأضاءت بنورها ، وشعر الناس بقيمة الاستقلال ، ولذة العلم ، واتقدت نار الوطنية والحماسة في قلوبهم ، فلما احتل الفرنسيون سوريا ولبنان ، لم تقف الحركة العلمية عن سيرها وتقدمها ، ولا استكانت قوى النضال عن المقاومة والمطالبة بحقوقها وتحررها ، بل برزت الحركة الوطنية للوجود ، وأخذت تقوى وتشتد ، يقودها الاحرار المخلصون فبعثت الهمم وجمعت الكلمة ، وتمكنت من هدم ما كان يبنيه الفرنسيون لبقاء انتدابهم وتثبيت اقدامهم الى ان توفقت الامة بفضل قادتها وضحاياها ودوام نضالها ، ان تحرر نفسها ، فما حلت سنة ١٩٤٦ إلا واستقلت البلاد ، وأرغمت الانتداب وجيش الانتداب ورجال الانتداب على الرحيل منها نهائياً . فتم لها السيادة والاستقلال كما تم لمصر ، وليبيا ، ولبنان ، والمملكة العربية السعودية ، والعراق ، وشرقي الاردن .

والى هنا ينتهي عهد الاحتكاك واليقظة العربية ، ويبتدىء الدور الثالث دور الشغف العلمي والثقافة القومية . وقبل ان نذكر ما يجب علينا عن الاطباء والطب في هذا الدور ، يجدر بنا ان نعرف ولو بصورة موجزة ، ما هو المقصود من الشغف العلمي عند العرب ، والثقافة القومية ؟ .

يقول الاستاذ (هوكنيغ) في كتابه « مبادىء السياسة العالمية » عند بحثه عن مستقبل حضارة العرب (١) وشغفهم العلمي الذي كان من ابرز مظاهر انطلاقهم الاولى ، وعما كان لهم من فضل على العلم والمدنية :

---

(١) راجع بحثه عن مستقبل الحضارة الاسلامية في المقال التالي .

« ان الشغف العلمي الذي امتاز به العرب هو « الجوع » بذاته . الجوع الباحث عن العلم وموارد الطبيعة التي تنسب اليها كل الفلسفات . هو الحضارة يتغذى منها الجوع ويهضمها ويمثلها . هو الانشاء العالمي للحكومة والثروة ، بميدان النبوغ ، والعبقرية ، والفن ، والعقول ، التي لا حدود لتفكيرها ، ويضمنان لها الامن والازدهار في السلم والحرب . هو التعاون المثمر بين مختلف الذهنيات مع سعة العقل العربي ، وعشقه للحرية ، والمُثل العليا ، وتحرره من التعصب وكل ما يقال له الالتزام » . ثم يتابع كلامه فيقول : « ومما هو جدير بالذكر ان الشغف العلمي الذي اسميه « انا » الشعور الديني ، والشعور الميتافيزيكي ، العامل الوحيد في نمو الحضارات كلها ، هو قوي في البلاد العربية اكثر مما هوقوي في الغرب وأمريكا . وسوف نرى عندما تزول اللفحه المحرقة التي اصابت العرب وخدرت نفوسهم ، ان بقية العناصر كالثروة ، والشجاعة الفكرية ، والحرية الفكرية ، والشروع في العمل ، والبناء السليم الاجتماعي ، ستعود اليهم ويمكن التعجيل بعودتها بمساعدتهم وافساح المجال لسيرهم » .

ولا ادل على قوله وصدق فراسته ، ما كان من انطلاقة العرب في صدر ثورتهم الاولى ، وما تركوه للاجيال من آثار خالدة وتراث علمي شامل ، وما ازمعوا ان يفعلوه في وقتنا الحاضر بعد انطلاقتهم الاخيرة .

وأما الثقافة القومية ، فهي الثقافة العميقة الواسعة الشاملة للعلم والادب والفن التي تربط الماضي بمحصول الحاضر ، وتحقق ما تتحمله كلمة القومية العربية من مثل ، وفكر ، وفلسفة ، ودين ، وأخلاق ، وتاريخ ، وتصنيع ، وتخطيط ، وتنظيم واستعداد ، وتعاون ، الى بقية ما تتطلبه الحياة الحرة والحضارة البناءة ، والمجتمع التقدمي الضامن للعدالة الاجتماعية والخير البشري العام . وبعد هذه السطور الوجيزة ننتقل الى بيان عدد الاطباء والمشافي والصيدليات والمؤسسات الصحية من عام ١٩٤٦ الى عام ١٩٥٩ ، للبرهان على الفارق العظيم بين ما كنا عليه في الدورين وما نحن عليه في الوقت الحاضر بعد ما تحررت البلاد وقامت دولتنا الجمهورية العربية المتحدة .

ان الثابت من الوقائع الرسمية ، والاحصاءات النقابية ، ان دائرة الصحة بحلب لم تكن موجودة قبل سبعين سنة ، وان عدد الاطباء قبل خمسين سنة لم يزد عددهم عن العشرة . واليوم اصبح عددهم في المدينة وحدها دون اقضيتها ١٧٠ طبيباً منهم ١٦٦ وطنيون و ٤ اجانب .

وأما تصنيفهم بحسب المهنة فالذين يعالجون الامراض الداخلية يبلغون ١٢٨ واحداً ، والذين يتعاطون الجراحة العامة ١١ والمولّدون ٦ والمتخصصون بالامراض الجلدية ٢ وأطباء العيون ٥ وأطباء الامراض العصبية ٢ وأطبـــاء التحليلات البيولوجية والجراثيمية ٤ وأطباء امراض الصدر ١ وأطباء امراض القلب ١ واطباء التداوي بالكهرباء وأطباء التشخيص والتصوير الكهربائي ٣ .

ومع ما ذكر من التفصيل عن انواع التخصص المهني فان معظم الاطباء يتعاطون مختلف الامراض الداخلية والخارجية وحتى الجراحية الصغيرة . والقليل من يتجنب ما ليس من اختصاصه . والاطباء الذين يعالجون المرضى في الاقضية وبعض النواحي الكبيرة فلا يزيد عددهم عن الاربعين ، وكلهم موظفون في دوائر الصحة ، ولكن لهم الحق ان يطببوا الافراد خارج الاوقات الرسمية .

ولما كان وجود الممرضات فيما سبق اي قبل خمسين سنة غير معروف فعددهن في الوقت الحاضر ، وبعد ان تأسست مـدرسة التمريض في الجامعة السورية ، يدعو للحمد والتقدير . وقد بلـغ عدد الممرضات في حلب وحدها ١٤٩ وفي الاقضية ٢٣ .

وأما القابلات فعددهن في المدينة ٨٨ . وفي الاقضية والنواحي ٢٧ . وكلهن من حملة الشهادات . ويوجد غيرهن ممن يتعاطين القبالة بالممارسة ولكن بعد اجازة وفحص من دائرة الصحة . وهذا مما خفف كثيراً من عدد الاصابات بالحمى النفاسية .

ويستفاد من الوقائع التاريخية ان اول مستشفى أسس في حلب كان في عهد ابراهيم باشا المصري ، ثم أسس بعده مستشفى الغرباء الذي اشرنا اليه ،

ثم مستشفى التونيان قبل الحرب العامة الاولى ، واليوم يوجد للحكومة ٥ مشافي واحد للطبابة والامراض الداخلية وواحد للجراحة والوقوعات الطارئة . وواحد لامراض السل ، وواحد للامراض العقلية ، وواحد للامراض السارية . ويوجد للحكومة محجر صحي ، و ٦ مستوصفات مجانية ، ويوجد للجمعيات الخيرية ١٣ مستوصفاً احدها خصص لمداواة القرعة بالاشعة الكهربائية .

وعدا المستوصفات المذكورة يوجد ٣ مراكز حكومية للاسعاف و ٢٣ مستوصفاً في الاقضية والملحقات ، ومستشفى عظيم للامراض الداخلية والجراحة في مدينة ادلب أسس مجدداً .

ويوجد لطبابة الاسنان في مدينة حلب ٧٤ طبيباً . وللصيدلة ٣٦ صيدلياً وأربعة مستودعات للأدوية .

ومما يحسن الاشارة اليه ، ان في حلب اربعة مشافي خاصة مجهزة بأحسن الاطباء والجراحين وبوسائل التحليل والتشخيص والتمريض والتجبير والتصوير الكهربائي وهي مستشفى القديس لويس ، ومستشفى الكلمة ، ومستشفى الدكتور التونيان ، ومستشفى دار التوليد « للجمعية الخيرية النسائية » ويوجد مستشفيات أخرى خاصة لا يزيد عدد أسرتها عن العشرين وهي للتوليد والجراحة والتطبيب والامراض العينية وعددها ١٨ وعدد غرفها ٢٤٢ وعدد اطبائها ٤٥ وممرضاتها وممرضيها ١٠٤ . كمستشفى كلبنك للتوليد ، ومستشفى حلب الاهلي للدكتور « فؤاد الزعيم » للتوليد والجراحة والتطبيب ، ومستشفى « داوود لاريان » للتوليد ، ومستشفى « الدكتور اسكندر قسيس » للتوليد ، ومستشفى الدكتور « كريكوار » للتوليد ، ومستشفى الدكتور « توفيق الضاشوالي » للجراحة ، ومستشفى « الدكتور صبحي السباعي وابن عمه الدكتور هشام السباعي » للجراحة والتطبيب ، ومستشفى « الدكتور احمد الصيرفي » للجراحة ، ومستشفى الدكتور روبير جابجيان « لأمراض العيون » ويوجد للأطباء نقابة تأسست عام ١٩٤٣ ، ونقابة لأطباء الاسنان ، ونقابة للصيادلة ، ويوجد ٤ اطباء بياطرة موظفون في الحكومة لامراض الحيوانات . وإذا سألنا عن مستوى الطبابة العلمي والمستوى الثقافي ، قلنا انها والاطباء

والصيادلة والقابلات في المستوى الذي يتناسب مع المحيط والثقافة العامة . ولكونهم ليسوا خريجي معهد واحد بل اكثرهم من الجامعة الاميركية واليسوعية في بيروت والجامعة السورية في دمشق ومنهم عدد عظيم تخرجوا من معهد الطب في الآستانة سابقاً ، ومن معاهد المانيا وفرنسا وبريطانيا ، ولهذا تختلف ثقافتهم الطبية وثقافتهم القومية . وهم في كل حال ارقى علماً وأرقى مهنة من الذين كانوا يتعاطون الطبابة في الخمسين سنة الاخيرة من القرن الثامن عشر ، والخمسين سنة الاولى من القرن التاسع عشر .

ومما لا شك فيه ان الدجالين المتطببين الجاهلين لكثرة وجود الاطبـــاء المأذونين ولارتفاع مستوى وعي الشعب ولسهر رجال القانون ، وهيئة النقابات قد قل عددهم كثيراً وانقطع رزقهم واحجم معظم الناس عن مراجعتهم . هذا في المدن ، وأما في الاقضية والقرى فما زال منهم بقية ، ولكن عين الحكومة عليهم ساهرة ، والقانون يلاحق من يضر الناس ويتعاطى ما ليس من اختصاصه .

ولما كان مستوى الاطباء والطبابة يرتقي مع مستوى الشعب ومقدار وعيه وادراكه لأهمية الصحة ، وأهمية الحياة . وكان من المسلّم به ، ان الطبيب يؤثر في محيطه ويتأثر بمحيطه فلا بد من وجود معاهد طبية علمية يلجأ اليهـــا الاطباء وتفسح لهم المجال ليستقوا من معينها العلمي ولا بد من اقامة مشافٍ تكون في اطبائها وطبابتها ومعداتها ومخابرها ودراساتها ومبانيها نموذجاً لما وصل اليه العلم والحضارة . ولا بد من نشر التعليم ورفع مستوى الوعي العام ، والتهذيب مع الثقافة الاجتماعية ، ولا بد من تدريب المتخرجين في المعاهد الخاصة والمشافي العامة ، ونشر المجلات الطبية ، وعقد المؤتمرات لبحث الامراض والتجارب الطبية وإلقاء المحاضرات العلمية العملية عن المشاهدات والاختبارات كما كان يفعل أباؤنا وذلك لتمكين المجتمع من ان يستفيد من الطب ، والاطباء ،ومن التخصص والمشافي . ولتمكين الاطباء من ان يرفعوا مقاييس مهنتهم ونجاحهم في أدائها الى المستوى اللائق وان يؤثروا في المحيط فيكسبوا ثقته ويزيدوا وعيه وإدراكه لاهمية التداوي

والصحة ، وان يؤدوا واجبهم العلمي ، والمهني تجاه من إئتمنهم على حياته وهناءته مع التذكر ان العلم ليس وقفاً على احد دون آخر ، وعلى أمة دون أمة اخرى . وان العالم الحقيقي المخلص لعلمه وضميره ، هو من يأخذ من الناس احسن ما عندهم ويعطيهم احسن ما عنده بتواضع ، ونزاهة ، وحرية ، وتسامح ، وتعاون .

وختاماً لهذه الصفحات انقل ما كتبه الدكتور الاستاذ امين اسعد خيرالله في كتابه « الطب عند العرب » وهو خير ما يقال لأطبائنا ليذكرهم بمسؤوليتهم في هذا القرن ، قرن الشغف العلمي والثقافة القومية : « إن لكل أمة عصرها الذهبي ورجالها العظام ، فلأثينا (بركليس) وزمنه ، ولرومية (اوغسطس) وعصره ، وللعرب هارون الرشيد والمأمون في بغداد . وعبدالرحمن الثالث ، والحكم الثاني في الاندلس ، وصلاح الدين الايوبي ، ونور الدين الزنكي في القاهرة ودمشق . وقد نعم العرب بمدنية عمت عالمهم الراقي في العصر الذي كان فيه باقي العالم يتخبط في ظلام الجهل ، والانحطاط ، والتعصب . وكان الطبيب في طليعة رجال العرب العظام الذين ساهموا في هذه المدنية الزاهرة الراقية ، وكان مثال التسامح العلمي ، والتساهل الديني ، وصورة رائعة لثقافة العرب ، وهم في اوج مجدهم » والسلام .

مصير الحضارة الاسلامية

لا شك ان مصير الحضارة الاسلامية مرتبط تمام الارتباط بمصير الحضارة العربية ، لأن الاسلام لم يقم إلا بالعرب . وهو ظاهرة عربية بكل ما في الاسلام من قوة ، وتفكير ، ومبادىء ، ومثل عليا ، وأخلاق ، وآداب ، وتشريع ، وفلسفة .

والعرب عندما خرجوا من الجزيرة ، حاملين مشعل العدل والاخوة والمساواة والمحبة والعلم ، خرجوا بدافع من الايمان الذي ألهمهم إياه قائدهم الاعظم وهاديهم الاكبر الرسول محمد بن عبدالله ، واندفعوا يبشرون بالاسلام وما فرضه الاسلام ، وما دعا اليه الاسلام ، من وحدانية الاله ، ووحدة البشر ، وتعاونهم وتآخيهم وعملهم للحياة الدنيا والحياة الآخرة ، ثم انهم دعوا الامم لاتباع هدي رسولهم لانه جاء مبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بالحق ، فمن استجاب لدعوتهم غدا منهم وفيهم ، له ما لهم وعليه ما عليهم . ومن ابى وقبل البقاء تحت ظلهم وحمايتهم ، سالموه وحموه وعاملوه كذمي يؤدي الجزية ويتمتع بحرية العقيدة ، وحرية العمل ، ويحمى ماله وعرضه من اي اعتداء ، ومن لم يؤدِ الجزية وبقي معادياً فليس له عندهم غير الحرب ، فحاربوا البيزانطيين وغلبوهم وحاربوا الفرس وغلبوهم . وبعد ان فتحوا الامصار (بلاد الشام ، والعراق ، والعجم ، وأفريقيا) واستتب لهم الامر ، اتجهوا للتأسيس والبناء ، وأخذ العلم ونشره ، وحماية العلماء والعاملين ، ولم يتعصبوا ضد عقيدة ، او ضد علم ، او ضد أمة . فشربوا من مناهل العلم بشغف وظمأ ، ونشروه وبنوا له المعاهد ، واتخذوا له المكاتب ، وأحضروا لنقله وتلقينه العلماء ، من كل جانب .

وظلوا يؤسسون ويعملون ويتعلمون ، حتى مضى على خروجهم من جزيرتهم ثلاثة قرون . واذا بحضارتهم الزاهية الخالدة تشرق انوارها في بغداد ، والقاهرة ، والقدس ، والشام ، وقرطبة ، وغرناطة ، والقيروان ، بصنائعها ومراصدها ومشافيها ، وجامعاتها ، ومكتباتها ، وطرقها ، وعمرانها ، وسبلها ، ومعابرها ، وقصورها ، وتجارتها ، وعلومها ، وفنونها ، وعلمائها ، وفلاسفتها ، وأطبائها ، واخلاقها ، وعاداتها ، وشعرها ، وأدبها ، وتاريخها ، وشعرائها ، وبجغرافيها ، وأساطيلها ، وجيوشها ، وغزواتها ، ومعاملاتها ، واختراعاتها ، واكتشافاتها ، وزراعتها ، وكانت تضيء على الشرق والغرب ، بكل ما تستلزمه الحضارة وتتطلبه الحياة ، من اسباب الرقي والتقدم والرفاه .

ولما لحق العرب ما لحقهم من ضعف ، وتفرقة ، وصدمات سببتها عوامل داخلية ، وعوامل خارجية ، وكان من اهمها تأثرهم بظروف الزمن والبيئات المختلفة وما فيها من فساد ووهن ، ثم اختلافهم وانقسامهم الى جبهتين : جبهة تريد الملك على اساس لي ولمن بعدي ، والثانية تريد الحكم على اساس اتباع كتاب الله وما سنه الرسول ، والامر شورى بينهم ، والولاية لمن يختاره المسلمون ، ثم دوام هذا الاختلاف والشقاق وما انتج من حروب قبلية وثورات داخلية ، ثم خروج ملوكهم وأمرائهم عن المنهج الذي بينته شريعة الرسول ووضعت مبادئه ، واساساته ، وغاياته ، ثم تغلب العوامل الخارجية عليهم ، وكان اهمها غزو جنكيز وهولاكو بجيوشهم البربرية وتخريبهم قاعدة الخلافة ، ثم هجوم « شارل ده مارتل » على مقر الخلافة في الاندلس وقضاؤه على ملوكها ، ثم غزو تيمورلنك للبلاد العربية ، وتخريبه بلاد العراق والشام . ثم غزو الصليبيين للقاهرة وبلاد الشام ، وبقاء الحروب بينهم وبين ملوك العرب مدة قرن ونصف القرن ، الى ان جلوا عن البلاد نهائياً .

ثم غزو الترك بقيادة السلطان سليم ، واكتساحهم البلاد العربية قاطبة وادخالها تحت حكمهم العسكري ، وإزالة ما كان لها من سلطان وسيادة ، ثم بقاء العثمانيين تحكم هذه البلاد مدة اربعة قرون ، حكماً لا رحمة فيه ولا شفقة ، حكماً عسكرياً ظالماً جائراً ، لم يعرف غير التخريب والاستعباد والاستبداد ،

وهدم المقومات القومية ، فأنطفأت بذلك شعلة الحضارة العربية ، وبقيت نارها تحت الرماد الى ان جاءت الحرب العالمية الاولى ثم الحرب العالمية الثانية ، واذ بالعرب يستيقظون ويثورون في كل مكان ، ويعملون ما استطاعوا منتهزين فرص الزمن لاستعادة استقلالهم والتحرر من الترك ، والانكليز والفرنسيين ، والايطاليين ، الذين احتلوا بلادهم فحاربوا وضحوا ،وقاتلوا ، وناضلوا ، وما لبثوا ان وفقوا الى ما ارادوا ، وعاد اليهم استقلالهم ، واستردوا حريتهم ، واخرجوا المستعمرين من بلادهم ، وهاهم اليوم في كل بقعة من بقاع دنيا العرب يجدّون ويجتهدون لاحياء مقوماتهم القومية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والعلمية ، والروحية ، وبناء حضارتهم من جديد ، وتوحيد كلمتهم والدفاع عن كيانهم .

وقد تمكن القسم الاعظم من بلاد العرب من الاستقلال والسيادة،واصبح عضواً في الامم المتحدة ، وفي جامعة الدول العربية ، وبدأت مواهبه تظهر واستعداده ينمو للسير في ركاب المدنية ، والعمل على نهضة بلاده ، وترقيتها ، وتقدمها ، واستثمار خيراتها ، وتجديد معالمها ، واسعاد شعبها واحياء مقوماتها في كل ناحية من نواحي العلم ، والاقتصاد ، والصناعة والزراعة ،والاجتماع ، واعداد الجيش وتسليحه للدفاع ، وحفظ الأمن ، وتربية نشئها تربية صالحة ، ورفع مستوى المرأة ومساواتها بالرجل علماً وعملا ومسؤولية ، والعمل لربط الماضي بالحاضر ، محافظة على التراث القديم ، وعلى الأخلاق الفاضلة ، والعادات الحسنة . والعلاقات الطيبة . وقد كان من حظ سوريا ان تحررت عام ١٩٤٦ ثم مصر عام ١٩٥٢ ثم لبنان في عام ١٩٤٦ ، ثم الاردن ، ثم المملكة السعودية ثم العراق ، ثم ليبيا ، وتونس ، ومراكش ، واليمن ، والسودان ، وبقي قسم من البلاد العربية كالجزائر ، وعمان ، وقطر ، ومسقط تحارب المستعمرين وتناضل جيوشهم ، وتدخل المعارك ضدهم للخلاص من استعمارهم .

وهم الان في طريق التحرر وسوف ينالون استقلالهم بدعم الدول العربية لكل منهم مادة ومعنى ، وبفضل ايمانهم ، وشجاعتهم ، وثباتهم .

وكان من حظ سوريا ومصر ان وحدتا بلادهما في جمهورية عربية متحدة

لتدفع طمع الطامعين عن القطرين وعن سائر البلاد العربية وتسترد ما ضاع من بلاد الشام (فلسطين والاسكندرون) .

وكما كان اباؤنا في اول تحررهم قد اندفعوا وراء العلم ، ونيله بشغف وظمأ ليس لهما حد ولا نهاية ، ولم يتركوا بلدة ولا قطراً ، ولا معهداً ، ولا بقعة في الارض ، الا وذهبوا اليها يبحثون وينقبون ، ويتعلمون ، ويعلمون وكذلك العالم العربي اليوم يندفع وراء العلم يسعى لنيله دون حد ولا قيدولا تعصب ، ويعمل لنشره ، وترقيته ، ويؤسس المعاهد ، والمؤسسات العلمية ، ويبذل المال والنفيس في سبيله ، حسب مقتضيات العلم والزمن ، ليتمكن من الحصول عليه بالقدر الذي عند غيره من الامم الراقية ، ويجتهد ليستثمر قواه الطبيعية وما في اراضيه من كنوز وثروات ، كي يكون لديه المال الوافر لاعمار بلاده ، وتغذية معاهد العلم بما تحتاج اليه من مال ، وعلماء ، ومخابر ، ومكتبات ، وطباعة ، وما تتطلبه الحضارة من معالم ، وما يتطلبه المجتمع العربي من اصلاح ، وتصنيع ، وتربية ، وثقافة ، وبناء ، وعمران .

ولما كنا نحن والغرب في سباق وتعاون لجعل الحضارة بركة على البشرية وسعادة لأهلها ، ولاثبات ان مقوماتنا القومية ، لم تمت ، ولم يفسدها طول الزمن وركود الوعي العربي تحت كابوس الاستعمار اربعة قرون ، بل انها تعمل بالسرعة الفائقة لتلافي ما فات واستعادة ما ضاع ، لاثبات اننا سنرفع المشعل الذي رفعه اباؤنا ، واضاء على العالم ، مع العلم اننا لسنا في نهاية الطريق بل في اوله ، وان بيننا وبين الغرب لا تزال الفوارق موجودة والمسافة بعيدة ، ولكن هذا لا يمنعنا من الاسراع وتخطي الزمن بما نملكه من ارادة ، ورغبة وقوة وثابة ، وروح خلابة ، وتضحية وامكانيات مادية ، ومعنوية هائلة ، ومع العلم ان كل ما تقدم موقوف على سلامة خططنا ، وسلامة اتجاهاتنا وحسن قيادة المسؤولين منا ، وانصاف الزمن والعالم لنا ، وموقوف على حيادنا دون حرب ، ولا انشقاق ولا اختلاف ، وعلى شعورنا بأن الغرور في المدعيات والخطط والدعايات ، والانانية في التوسع ، والتعصب الأعمى في التعامل والتبادل ، والاستسلام دون تفكير ولا انتباه ، والانحلال في الاخلاق والفضائل

والانغماس في اللذائذ والشهوات ، والخروج عن المقاييس الروحية ، والادبية ، والاجتماعية ، دون رادع ، ولا وعي ، هي مسببات التأخر والضعف، والتقهقر والفشل . وبرهاناً على أن الحضارة الاسلامية لا تقوم الا بقيام الحضارة العربية واتباع العرب الطريق العلمي الذي اتبعه اباؤهم ، انشر البحث الذي كتبه هوكينغ في كتابه (مبادئ السياسة العالمية) ونشره عام ١٩٣٥ وجعل عنوانه (مصير الحضارة الاسلامية) .

ولما كان البحث عاماً ، يجب ان يتدارسه كل عربي وكل مسلم لان الاستاذ العالم يتناول في بحثه ايضا مصير الحضارة العربية وحالة العرب ، ويتفق معنا بالرأي (ان مصير الحضارة الاسلامية يتوقف لحد عظيم على مصير حضارة العرب وحالتهم في الحاضر وفي المستقبل) .

على انني انشر بحثه لا لأن صاحبه اميركي ، واستاذ يدرس الفلسفة السياسية في جامعة هارفارد بل لأنه زار الشرق الاوسط ودرس احواله واقوامه وادلى برأيه العلمي دون ان يتأثر بالاستعمار والمستعمرين واخذ بوجهات نظرهم ، ولا تأثر بالعرب ووجهات نظرهم ، ولا بأعداء العرب ووجهات نظرهم ولكنه انصاع لصوت الضمير ومدلولات العلم ومباديه الانسانية ، فاستحق التقدير والاحترام .

يقول الاستاذ هوكينغ :

« لقد زالت الوحدة الاسلامية وزالت الخلافة بالانسلاخ السياسي الذي تم بين الترك والعرب ، وانفصمت عرى الرابطة المركزية في العالم الاسلامي بما اجراه الكماليون ، ولم تجسر اوروبا على اجرائه .

ونتج عن ضياع القيادة التي كانت بين العثمانيين ، نزاع طبيعي في الحركات القومية الموجودة ، قسمها الى قسمين ، قسم يريد الاحتفاظ بالحركة الاسلامية مع حركته القومية .

وقسم يريد فصل كل ما له علاقة بين الدولة والدين حسبما ورد في الانجيل (اعطوا لقيصر ما لقيصر وما لله لله) .

ولا يخفى ان فصل الدين عن السياسة فصلا تاماً ، هو اشد صعوبة في الهيئات الاسلامية ، عما هو في الهيئات المسيحية .

لأن الاسلام ، نظام اجتماعي ، وجهاز ديني ، في وقت واحد ، اي الشريعة هي جزء من حياته ، ففصله عن السياسة كما جرى في تركيا معناه تبديل اساسي في الاسلام ، (ولذا يتمسك به العرب في جميع دولهم) .

علماً بان الدولة التي بلا دين كالجسم بلا روح ، والسفينة بلا قائد .

يقول احد العلماء الجغرافيين في اوروبا ، وهو من قصيري البصر ، والمخطئين في تقديرهم ومنطقهم (ومع العلم بانه لا يوجد عدد كاف من مهرة الصناع في بناء مدرعة حربية في كل العالم الاسلامي خلا تركيا الحديثة ، فان طبيعة البلاد الاسلامية تكلف الامم الاوروبية كثيراً من النفقات لأحتلالها كما ثبت ذلك لايطاليا عند احتلالها طرابلس الغرب وفضلت الاتفاف مع السنوسيين).

والمفهوم من كلام هذا الجغرافي الذي تخلى عن منصبه كعالم ، وراح يغدق النصائح على دولته المستعمرة يريد بها فرنسا ، بأن رغبته هذه تتجه نحو الاحتفاظ بالقوة الاسلامية ضمن الحدود المحددة ، امل التوسع الاستعماري ، لانه سبق وكتب عام ١٩٢٤ بضرورة فرض الرقابة على عاصمة الخلافة .

ولكن حلمه لم يتحقق ، وعليه رغم ان تقسيم البلاد العربية يؤدي الى ذات الغاية أو نحن نرى اذا كان الدافع لما يطلب ، هو الحذر ، فلا حاجة بنا للبحث والنقد ، انما يهمنا البحث عن تأثير سياسة التجزئة في مدنية البلاد الاسلامية . (١)

---

(١) للاحظ ان المقال كتب في عام ١٩٣٥ واليوم تبدلت الارض ومن عليها في البلاد العربية واستقلت جميعها وهي في طريقها للنهوض والتقدم ، والتعاون والاتحاد وليس هذا فحسب بل بدأت بالتصنيع وانشاء المعامل للعتاد والسلاح وبناء السفن والطيارات والسدود وغيرها مما يستلزمه النهوض الاقتصادي والنهوض الصناعي .

ان البلاد العربية واسعة الارجاء ، ولكن قسمها الخصيب ضيق المساحة. وبدلا من ان يكون لها مركز ثقافي واحد في عاصمة الجزيرة (الرياض) لها عدة نويات ، واقعة في القسم الضيق الخصيب منها .

« مكة والمدينة ، والقدس ، ودمشق وحلب ، وبغداد والموصل » ولذا لا تتوقف قوتها العقلية على تحرير واحدة او اثنتين منها بل على الوصل بينها جميعاً .

وكما نعلم ان الاسلام الاصلي كان الهامه من جنوبي الجزيرة ، والاسلام النامي كان تقدمه وارتقاؤه من تعاون القوى المتوقدة ، والعقائد الراسخة ، والرجال المؤمنين ، مع الفن والعلم ، والتقاؤهم بالزيغ الموجودة في ايران وسوريا وما بين النهرين ومصر وعملهم على ازالتها .

والآن هو في اشد الحاجة لهذا التعاون لأن جزيرة العرب تلهب بالوف الالكترونات (الكهيربات) الزائغة الكثيفة الواردة من الشمال والجنوب ، وان مجموع البلاد العربية يعمل على تنظيم حياته . لا كما تدعو اليها الوهابية المتعصبة ، ولا كما يدعو اليها الشمال المتحرر ، بل كما تراها الشوري المشتركة التي تتحد فيها حياة الريف والمدن والصحراء ، ومطاليب هذه الدنيا ، وما يأمله الانسان غداً في الآخرة .

والحقيقة اننا لم ننتبه الا بعد حين لنعلم ان المدنية براهين من نفسها ، فاذا افتكرنا بحقوق الشعوب نكون قد بدأنا نحكم بالعدل على حياة جماعة من البشر ، مع العلم بان حياة الفرد لها في كل حال علاقة مع كل الجماعات التي يعد هو جزء منها .

ولا تتوقف حياته الفيزيكية اي المادية على اي منها مباشرة ، لولا ان هنالك تكاملا في الحياة لا يتم بدون هذه الجماعات ، وله اهميته بقدر ما للحياة من اهمية .

ولذا لو ماتت الجماعات لبقي الفرد حياً ، ولكن يموت فيه شيء لا يستطيع تجديده . نعم ! ان موت الفرد مأساة ، وموت الحضارة مأساة ولكن موت

هذه له تأثير نسبي في كثير من الافراد . والعالم وان تأثر سريعاً من الألم الفردي ، والخسارة الفردية ، ولكن المها قد يكون مبعثاً لانقلاب تحريري وسياسي .

ثم ان الفرد اذا مات او تألم من مرض جسماني ، او مات لعدم المقاومة والاهلية للبقاء ، فهنالك داعٍ من الحزن ، والغضب يسوق الحي لطلب الدواء بعد هذه التجربة . ولكن اذا ماتت طريقة ما من الحياة ، وزالت العادات ، وتنوسي اللسان ، واهمل الفن ، وضاع الادب وتبدل جهاز الشريعة ،وتقوض العمران ، دون عوض ، وبطلت مطامح الهيئات الاجتماعية الانسانية ان تكون حسنة في نظر اصحابها لمقاييس اعتبارية تقليدية ، لم يبق لها مجد ولا شهرة ، ولا قيمة مقبولة لدى الطبقات الراقية .

كانت النتيجة لهذا النوع من الانحلال ان يمر بسرعة دون ان يحزن له العالم او ينتبه لما يحمل في طياته من موت الوف الافراد .

ان الفاتحين الاسبان ، ولا شك كانوا ظلاماً في امريكا الجنوبية لانهم عذبوا الافراد ، وابادوهم ، وقتلوا الحياة الاجتماعية التي كانت تحياها سكان البلاد ، وقتلوا معها ما كان لهم من التماثيل التي تدور حولها الحياة ، وكان عملهم بنظرهم بسيطاً جداً ومحترماً ، لانهم ازالوا ديناً باطلا واحلوا محله ديناً جديدا ، وكذا كان الصليبيون في اعتقادهم ، وهم الذين هدموا وبنوا ، ولكن ما هدموه كان اكثر مما بنوه وكان عملهم ضد الحضارة اكثر ضرراً مما نالوه من الحضارة .

ومن المؤسف ان اكثر الحروب الدينية اثارتها الغيرة الدينية ضد من كان ايمانهم يخالف ايمان الذين آثاروها ، ولذا هدم المسيحيون جامع قرطبه ، وبنوا في وسطه كنيسة ، وكانوا اظلم من الترك في آيا صوفيا ، مع العلم ان التحريات العلمية الاثرية ، قد تعيد الحجارة المهشمة المبعثرة من جديد ، ولكن عملها مساعدة ظاهرية بطريقة هوجاء لثقافة اذلتها عادات البشر المتعصبين الذين ليس لهم ان يحكموا على حضارة غيرهم بالموت مباشرة ، او بالواسطة دون

تصور ، او اذعان إلا ان التبدلات التاريخية خارجة عن صنع الانسان .

والذي يدعو الى الاستنكار ان يبقى في عصرنا - رغم زوال الحروب الدينية - من لا يزال ينظر بدون اهتمام ولا اكتراث الى زوال طرق من الحياة كانت احيتها عقائد اخرى .

ولما كانت الاديان لا يمكن تقسيمها الى حق وباطل من الوجهة العلمية ، وكان من الضروري الدفاع ولو لساناً عن الحق في تقرير المصير الذاتي ، وجب علينا ان نبين القيمة الايجابية لما تنطوي عليه الحياة الداخلية للحضارة .

لهذا وسأبحث بصورة خاصة عن الحضارة العربية الاسلامية ، لانها حضارة تعمل للحياة والتجدد لا حضارة تمشي للموت ، مع العلم ان الوقت حرج ، واللقاح المختلط قد جاء بعد سبات عميق ، وحذر شديد ، انبعث عن القناعة النفسية ، بأن هذه الحضارة اذا ضاعت فان اعمالنا السياسية تكون هي السبب لضياعها .

ومن المؤكد ان النهضة السياسية في البلاد العربية بدأت لا تقليداً للغرب ، ولا ضد الاقتباس منه ، ولكن بشكل سياسي قائم على الحركة القومية التي وان كانت (١) سابقة لاوانها انما نسيم اليقظة قد هب على دنيا العرب بأجمعها فأوجدها وشد ازرها ولا سبيل لمقاومتها .

ومن الواضح ان نظام الحياة هو جزء من نتاج البشر ، فانطواء الاسلام لا يعني اذعانه للحالة التي صدف ان آل اليها ، لان هنالك مبدأ شعورياً اخذ يتقوى وينمو وينبئ بعصر جديد .

ومع هذا فالمهم الصحيح ليس قدريا ولا جبرياً ، ولا معطلا عن العمل . بل هو مأمور للسعي في الحياة وان يعمل لدنياه ولآخرته ، (يؤيد ذلك قوله

---

(١) اذا كانت فكرة القومية العربية في نظر المؤلف سابقة لاوانها فجهد الامة قد حققها واوجدها في عام ١٩٥٨ .

تعالى (وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين) واذا كانت عقيدة الاسلام ، الاستسلام المطلق لارادة الكائن المطلق في كل ما يجب العمل والتدبير كانت موجودة في الماضي وأسيء فهمها ، وانتجت لدرجة ما ، الخمول والكسل ، فان العقيدة في اصلها ليست من الاسلام ، واذا وجه النقد اليها فلحالة المسلمين التي اقتضتها عوامل السياسة اخيراً واذلت المسلمين والاسلام زمناً طويلا ، لا الى انها رأي ، واجتهاد اوجبا عادة عامة .

واذا فرضنا بأن لا شيء يقع منذ الولادة حتى الموت الا والاله قد قدره فان بعض الطوائف المسيحية لا تزال تعتقد ذلك ، وتدعو التابعين لها للاعتقاد به .

ومع هذا نتساءل هل منعت هذه العقيدة المسلمين في الماضي من الجهاد والدفاع او عصمتهم من الميل عما أغواهم ؟

اذن كل الاستنتاجات لنصبر ، ليعمل القضاء ما شاء هو محض افتراء(١) والحقيقة ان عقيدة كل شيء صادر عن الموجود الاول الكائن في كل مكان كما اوجبت على المسلم اسناد كل حادث الى الخالق ، فقد ساقته الى الكسل والخمول وجعلته يتعزى بأن ما جرى وما اصابه لا يستطيع دفعها ، فعزّى نفسه ،وحمل غيره ما حمله ، وبذلك حجز غضبه واتفق ورأي الفيلسوف (بنيوزا) الذي يقول في نصائحه (هل الخادم يكسر لك اشياءك الثمينة ؟ لماذا تغضب ! هل لا يعتنى بمواشيه ولا يتركها تموت ؟ انه غير مسؤول ، انه يتعلم ان لا يثور ضدك ولا ضد كنوزك ، انه صبور وغير مستعد للصلاح ، انه قليل المبالاة بالعلم) . وتتفق مع ما كتبه احد المتعممين الى صديقه (احمد الله اني لا اسأله ما لا احتاج اليه ، فهو يعلم ما اريد وما لا اريد) .

«١» ان المؤلف يريد الاستسلام المطلق والتوكل دون سعي ولا تبصر . والله يقول (واسعو في مناكبها) ، ويقول (ليس للانسان الا ما سعى) ويقول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) . وغيرها من الايات الدالة على ضرورة السعي والعمل لا الاتكال والخمول ولا الانتظار والجمود .

ان هذه الامور أمزجة تقليدية وليست مطلق بلادة ، بل فيها احترام وفائدة نسبية ذات اعتبار وما كان فيها من بلادة زال . والعلم قد انار عقول ابناء هذه الامة التي يعود اليها الفضل الكبير من معارفنا فيما مضى : في الرياضيات والفلك ، والطب والفلسفه ، وعلم ما وراء الطبيعة واليوم يعود ادبها الحي للظهور ، أدبها الذي تناول الكلام كثيراً ، والسياسة كثيراً شأن الاقوام الذين لهم فصاحتهم اللسانية وبلاغتهم اللغوية . ومع هذا فقد امتدت ابحاثهم وكتابتهم للتحري والدرس عن علاقته وعن المسائل التي تتعلق بالاصلاح الاجتماعي والديني والعلمي والاقتصادي وما يكتب فهو باللغة الفصحى التي ليست من طراز القرآن البليغ المعجز ، ولا من الطراز العامي الدارج .

لقد ظن اللورد « كرومر » ان الاسلام يستحيل عليه التجدد ، لانه في رأيه اذا تجدد خرج عن كونه اسلاما ، اما انا فأقول انه اخذ يتحرك ويتجدد وتتحرك معه المدنية التي نفذ اليها ، وهو إما ان يتحرك مع هذه المدنية ويتجدد واما ان يهمل .

ولكن هل يتجدد ليكون شيئاً جديداً ويتحول ليكون حدثاً سفسطائياً خالياً من الروح الصحيحة ؟ وهل فيه من قوة الحياة ما يبعث على النهضة الجبارة؟

ان الدلائل الظاهرة قد تدل على العكس كما يتراءى للبعض : ولكن نحن نقول هنالك محرك للحياة وهذه الحقيقة الثابتة تكفي لتحذيرنا من ممانعة ماهو في عالم النشوء والنمو .

واذا كان لنا ان نبحث عن قيمة هذا الامل من الحضارة وما يتأتى عنها من الفائدة فيجب ان نحاكم المسألة من وجهتها السلبية ايضاً .

قال احد المفوضين الساميين الانكليز في القدس : (لم يبق للعرب من حضارة ، وما بقي لهم ان هو الا اطمار بالية وخيوط لثقافة قديمة) . وتبعه احد الكتاب الفرنسيين المتعصبين بذات النقد فقال (ان حضارة العرب لاحياة لها في الحاضر ، وقد تبلورت في غرناطة . ثم لم تنتج بعدها شيئاً منذ خمسة قرون ، والعربي المتكلم لا يهتم لشيء من تراث ابائه او ما ينسب الى امته ،

وما يهمه ويطلبه ، هو المصنوعات الغربية والافكار الغربية . وهذا ينبهنا الى ان ذهنية العربي لا تصلح لبناء الحضارة .

واذا كانت اوضاع العربي لطيفة ، عندما يقدم اليك القهوة ، فهي تخدعك لان جمالها ليس سوى وهم . بل العربي رغم ما له من مزايا حميدة وظرف وكياسة ، يخدعك عندما يعدك بأنه قادر على العمل ، واذا ما جربته وجدته لا رأي له وغير قادر على البدء ، ولا يعرف كيف النهاية ، كما انه لايعرف الثبات ، ولا اتمام العمل .

ان كلامه حلو وصالح ، ولكن لا تقبض منه شيئاً . هو قوي الخطابة ولكن عاجز عن الاختراع وقيادة السفن وانشائها وكلما اثقلت الوظيفة كاهله زادت الازمة لديه وانقطعت نياط صبره كان الآله الذي خلقه عليه ان يتمم له عمله وما بدأ به) .

انني سوف لاقف عند هذه الآراء التي هي اللازمة لعقل تجده وتجد امثاله في حكومة مرت عليها الاجيال وليس لها قواعد معلومة للاسباب والنتائج ، في حكومة لم تزدها الصناعة رفاهية ولم تجعل كيانها صالحاً ، في حكومة لم تتبدل في ذهنيتها في مستعمراتها بل لا تزال تنظر الى غيرها من الامم المستيقظة المناضلة نظرة اهل القرون الوسطى .

ان ابناء الامة العربية في مصر وأمريكا ، وفي كندا ، وفي غيرها من البلاد قد انتجت عقولهم طابعاً جديداً ، ولهم مزايا خالدة لم يقو الحكم التركي طيلة اربعة قرون على محوها .

والعرب لا تزال لهم الحذاقة ، والمهارة في الفن والبناء ، وفي تجديد الآثار ، ومنها آثار المسجد الاقصى الخالدة ، واصلاحها وحفظها به وفيهم اللياقة والكياسة لتشييد المتاحف ، والمؤسسات العلمية والعامة ، في دمشق وبغداد ، وفلسطين والقاهرة ، واصلاح ما فيها من الاثار العظيمة .

واذا كان لابد من النقد فيجب ان يوجه لا لهذا الاستخفاف الهزيل

والاستهزاء السخيف الصادر عن الكتاب الفرنسيين ، بل لتلك (اللامبالاة) (١) المنتشرة عن يد الفرنسيين في ميادين كثيرة وقعت في عهدة الدول المستعمرة ، وللتخريب الواقع في المباني العظيمة ، ونقصد الحيوية في الانشاءات الجديدة ، وللعمل الذوقي في الفنون الجميلة ، والادب التفكيري ، وفي الفلسفة السياسية الملموسة في البلاد التي احتلوها .

ولو اراد الانسان معرفة الروح العربية في مدينة من مدن العرب فعليه بحماه تلك المدينة الجميلة التي سلمت من عبث الدهر ، فهنالك يأخذه العجب من ناحيتين الاولى : كيف ان العرب ادركوا عجائب البناء ، واقاموا المباني ، وزينوا الجدران ، ونظموا الطرق ، وحفروا الانفاق ، واسالوا الانهار ، وصنعوا النواعير ، ومددوا الاقنية للسقاية ، وكيف استفادوا منها ، وحافظوا عليها حتى اليوم ، والثانية : كم سبقت عقولهم التي انشأت هذه الآثار ، تلك السلسلة الفكرية التي نفذت الى طبيعة القوة الداخلية للذرة ، والجوهر الفرد واكتشفت وسائل الاستفادة من القوى المائية في جبال الالب لانارة البيوت وتحريك القطارات .

ويتراءى لي ان كل الشغف الممض ، وكل التحليلات والاستنتاجات التي اوجدت العلم ، والتقوى الصارمة التي اتخذها العقل لتقديس الحقيقة ، المعبود الذي لا يرتشي ولا يمالق ، يتباين مع الجمال الطبيعي العميق في حماه ، واسطورتها الخالدة ، ومع مختلف الخيالات والظرافة في طرقها ، ومع الشعور التأملي المالخولي الرابض في ارضها يختل ما حواه الزمن ، ومع التأوهات والانات الانسانية الممتزجة بالدوران الدائم الآني الذي يتصاعد صوته من حركات النواعير كأن صراخ الدهر المثقل بذاته على مر الثواني وكر الدهور .

---

(١) يريد ان يقول ان الفرنسيين لا يبالون بأحياء المقومات القومية ، والاقتصادية والاجتماعية او الروحية للامم التي يحتلون بلادها ، بل بالعكس يعملون على تقويتها باهمالها وافساد اهلها وسوقهم الى الجهل ، والخنوع ، والاستعباد . ويعزى السبب لفقدانهم الشعور الانساني ، وروح الحضارة ، واحترام الغير .

وليست حماه وحدها تملك هذه التعويذة الموروثة عن القرون الوسطى وتنتشر فيها ، بل ينتشر مثلها الكثير في البلاد العربية ، وتفسدها التطبيقات العلمية الحديثة التي تجريها الدول المستعمرة .

وكنت اتمنى لو ابتعد عنها الفن الحديث زمناً طويلا ، دون ان يمسها او يشوهها ، وان مسها فمن ايدى أناس لديهم العلم والمهارة بما يعلمون ويعملون وبما يصلحون ويحفظون .

وهنا لابد ان يسأل الانسان من الهيئات الاجتماعية التي تود الاحسان الى المدنية ، ماذا تعمل بما يفيض من قواها العقلية ومن ثروتها المتكاثرة ، وماذا يكون لو أن هذه القوة وهذا الفائض من الثروة وهي تجتمع هنا وهنالك لدى الخاصة وتصرف في سبيل اللذائذ الشخصية ، وفي تكريم الحياة الخاصة دون التفكير الحر والاهتمام بما يفيد صرفت في سبيل المحافظة والمساعدة على ما يعد منبعاً طبيعياً للثقافة والحضارة كاد معينها ينقطع ؟

وبعد ما هي العوامل التي تولد الحضارة ؟

كان من المستحيل على اي كان ان تنبأ في اول ازدهار المدنية العربية عما سينتج من اشتراك مختلف العناصر بتلك الحضارة .

نعم ! كان مستحيلا ، لان المؤرخين حتى اليوم لم يستطيعوا الاجابة على اللغز العظيم .

فالمدة التي كانت ما بين العصر الثامن والعصر الحادي عشر من ايام شارلمان وسفرائه الذين ارسلهم الى بلاد الخليفة العباسي في بغداد ، الى الزمن الذي كان العرب والمسيحيون واليهود يبحثون في غرناطة واشبيلية في الشعر العربي والادب العربي وفي الفلسفة والعلوم وفي الطب والفلك والكيمياء وما وراء الطبيعة ، ستبقى طلسما في حياة الحضارة العربية . اذ لو فقدت لفقدنا الكثير من الميراث القديم .

ومن المعلوم ان الفاتحين العرب ، وسكان مكة ويثرب ايام الرسول لم يكونوا علماء ولا فنانين ، ولم يكن لهم المام في هندسة البناء ، والفنون الجميلة ، والرسول الاعظم كان بيته في المدينة ، وهو اول مركز ديني اسس للدعوة ، عبارة عن بقعة (مصونة) محدودة مربعة الشكل لا ترتفع جدرانها الى اكثر من اربعة عشر قدما ، ومبنية من الطين والآجر .

وهذا البيت المتواضع قد قسمت غرفه وسقفت بأغصان النخيل لايواء ازواجه ، وخدمه ولنومه ، وعبادته ، واجتماع اصحابه ، واقامة الصلاة .

وكانت المدن التي تكونت في فجر الفتوحات ، مستقرات للجيش ، انشئت في البصرة والكوفة ، والقادسية حيث سكن الغزاة مع عائلاتهم ، وكانت مكوّنة من القصب وخيم الشعر تلف وتنشر كلما سار الجيش وتقدم ، ولم يكن للعرب في ذلك الحين من مظاهر الحضارة سوى الشعر ، والحداء ، والجيش والدين ، والجوع . واشياء اخرى قليلة .

وكان لهم عادة ليست من الحضارة . هي الغزو والحرب ضد بعضهم البعض فلما جاءهم الاسلام ازالها ، ووحدهم ، وآخاهم ، وجمع كلمتهم ، وساوى بينهم وحرّم على المسلم قتل اخيه ، ووجههم الى العالم لابلاغ الرسالة ، بايمان لا يتزعزع ، وشجاعة لا تعرف الخوف والتردد .

وكانت الاقوام الساكنه في اطراف الجزيرة الشاعرة بقوتهم الغالبة وبسيوفهم الماضية ، قد تقدمتهم في الحضارة ، والعلم ، والفنون .

وكان يوجد بين السوريين والفرس الوارثين حضارات الحثيين والبابليين والرومان ، والبيزانطيين بناؤون ، وصناع ، وعلماء ، اعجب العرب بهم فاستخدموهم وقربوهم واخذوا عنهم . وكانت تلك الاقوام في تعب وغفلة لما جاءهم العرب بقوتهم المنتجة . فماذا كان من اختلاطهم بهم وامتزاجهم معهم ؟

لقد كانت الحقيقة حلماً روّع هذا العالم الغريق في سباته ، المقيد في آدابه ،

كانت الحقيقة عبودية ، وخضوعاً ، لابطال يركبون ظهور الخيل ويحملون الرماح بلا سروج ، ولا يعرفون معنى الطرق ولا رأوا ساحات المدن ، كانوا يفضلون الهواء الطلق في صحرائهم وسكن البيوت في مقراتهم ، على سكنى قصور دمشق ، وزخرفها ومبانيها ، ومياهها ، ورياضها منبع الحميات .

وكانت الاقوام المغلوبة تظن ان هؤلاء الظافرين سيكونون هدامين ، مخربين ، متعصبين كجنكيز خان وهلاكو ، وتيمورلنك عندما طغى جيشهم على البلاد العربية ودك حضارتها ، وظنوا انهم سينغمسون في الشهوات والملذات متى سكنوا المدن ، وتمتعوا بظلال الرياض ، وشاهدوا جمال الغانيات ، كما كان الصليبيون ، وقبلهم الرومان .

هذا ما ظنوه وما تصوروا ان هؤلاء الفاتحين سيكونون عادلين ورحيمين ومنصفين ، وسيقتسمون فيما بينهم كنيسة حنا القديس في دمشق فيجعلون نصفها لعبادة الآله الواحد وتوحيده وتمجيده ونصفها الثاني لجماعة المسيح وعبادتهم وطقوسهم .

لقد كان العرب في فتوحاتهم ، وحكمهم ، وسيرتهم على غير ما ظنوا وانتظروا . وقد كان من المحتمل ان يكونوا في ذلك الحين متأخرين في اخذهم الفنون والصنائع عن الساسانيين والبيزانطيين ولكن كان عقلهم يملك ارادة جبارة للاقتباس ، والتعلم ، والانتاج ، والنبوغ .

كيف لا ! وقد ظهر منهم بعيد حين نتاج جعلهم في مصاف الفاتحين البنائين ، المنشئين ، لا الفاتحين المخربين الهدامين .

وكان من نتاجهم أن اعادوا الى تلك الاراضي البيزانطية والساسانية الشاسعة في بلاد الشام والعراق ومصر ، حياتها العمرانية والثقافية ، واذكوا فيها النشاط والهمة اغدقوا ، عليها طابعاً جديداً من الحضارة ، هي طابع المدنية العربية بما اوجدوه من الجوامع ، والمنائر والمحاريب ، والقلاع ، والحصون والطرق ، والجسور ، والبيمارستانات ، والمشافي ، والمدارس والخانقاهات ،

والرياض والحدائق وبما اقاموه في اسبانيا من القصور ، والجنائن ، والحصون والمعاهد وما اجروه من الانهار ، والجداول ، وكانت لهم الرياض الزاهية الانيقة في فارس ، والقصور العظيمة والعمران الشاسع فيها وفي بغداد ومصر ، وقرطبة ، ودمشق والقاهرة وغيرها من البلاد العربية والبلاد الاسلامية .

وكان في اصحاب الرسول وفي قبائله ، وفي قادة جيوشه خالد بن الوليد وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير وابن قتيبه ، وعمرو بن العاص ، ومحمد الثقفي ، ايمان قوي ، وجوهر عقلي جعلهم اساتيذ الفن والعلم مقدرين تراث الامم حافظين عليه ، مصلحين له ناقلين اياه الى العالم بدقة وامانة .

ثم ان هذا الجوهر العقلي اللامع الذي كان قضي عليه ان يعيش بين الجاهلية وآثامها تحمل الاسلام مسؤولية غذائه ونموه وصقله وتقويته حتى يشق الطريق للحياة وللامم الجهاد بطمع وشراهية وقوة .

ولما سقطت المدنية العربية فريسة الحروب الداخلية التي قامت بين الاحزاب العربية ضعف ذلك الجوهر وتطورت الحياة .

وكانت بغداد مسرحاً للخداع والعداوة كما كانت مركزاً للتنافس ، والتسابق ، والعيش الرغيد . وكان المال ينصب على العاصمة الكبرى من كل جهة بكثرة زائدة فينفق في شؤون الدولة والخلافة والجيش ، ويخصص قسم عظيم منه للعلم ، والعلماء ، وحمايتها ، ولتعزيز الفن وخدمة الصناعة وتقدمها ، ولتأليف الكتب ونشرها والاكثار منها ، ولرقي الرياضيات ، وايجاد الجبر والكيمياء وخدمة الفلك واصلاح الرصد ، وترجمة مخلفات ارسطو ، وافلاطون وجالينوس ولنقل معارف الهند والعجم ، وزيادة الصفر على الاعداد ، ولمتابعة البحث في طول الارض وعرضها وجلب الكتب والمؤلفات وترجمتها ، وانشاء الدور والمكاتب لها .

وكانت جزيرة العرب في ايام الفتوح من الشرق الى الغرب ومن شمالي افريقيا الى ما وراء النهرين ، جائعة للحصول على ما يغذي الحياة ويغذي عظمتها

من المعارف ، والمعقولات ، والتضلع العلمي والبحث الشامل العميق ، وظمأى الى ما يروي شغفها من الادب والفن والعمران .

وكانت النار المقدسة التي توقدت في قلوب العرب باسم الدين وحملت معها الصبر والشدة قد حملت معها اتساعاً في العقول والحرية ، جعلت العرب في ذلك اعلى مقاماً من العلماء البيزانطيين كما جعلتهم اعدل الفاتحين .

وكانوا عظماء وكرماء واشداء ، واحراراً ، وكان طلبهم اما العقيدة والعلم واما الجزية والاستسلام ، ومن لم يعط احدهما قسوا عليه .

والذي يسجله التاريخ لهم بفخر واعجاب ، اسلوب حياتهم ، وفصاحة لسانهم ، وكونه لسان العلم والادب ، ثم نشرهم العلم والتربية اينما حلوا ، وحيثما كانوا ، وتعليمهم القرآن وكان يتلى في كل مكان موجداً الاخوة الدينية بجانب الاخوة الفكرية ، ومعلما الناس الايمان بالله ، وبوحدانيته وبرسالة نبيه وكونه خاتم الانبياء مما لم تقدر عليه بقية الكتب السماوية ورجال الاديان .

وبعد ما هو الباعث لكل هذا والمدنية العربية ؟

يجب ان اقول اولا انه (الجوع بذاته) ذلك الجوع الباحث عن الطبيعة وعما وراء الطبيعة ، التي تنتسب اليها كل الفلسفات .

ثانياً : إنه « الحضارة » التي يتغذى بها الجوع ويهضمها ، ويمثلها .

ثالثاً : انه (الانشاء العالمي) للحكومة والثروة ، يمدان النبوغ والفن بما يحتاجانه ويؤمن بقاءهما وحفظهما في السلم والحرب .

واخيراً (التعاون المثمر) الصادق بين مختلف الذهنيات مع العقل العربي الواسع ، والاناقة الفارسية ، والكياسة السورية والمصرية ، ولكن اذا تساءلنا هل لتلك العوامل ان تعود يوماً ؟

اجبت كلا ! لان الامبراطورية العربية الواسعة الارجاء التي عم لسانها

الامم ، واختصت بقسم عظيم من القوة والعلم والغنى ، لم يبق الآن مكان لاعادتها كما كانت .

وقولنا هذا ، يعنى انه سوف لا توجد امبراطورية عالمية ، ولا احتكار علمي في اي مكان ، ولا لاي امة لان الزمن الماضي انقضى ، ذلك الزمن الذي تخيله (هيجل ، وماركس) بان الفكر المتجسّد ينتقل من مكان الى مكان ، فمرة يستقر عند هذه الامة واخرى يتجه نحو الغرب عند الغروب ، ولكن لم يفهما ان دائرة الشمس اكملت دورتها ، ولم يبق على الارض ليل ، وان الحضارات في عصرنا تشرب من معين مشترك مختلط هو ملك البشرية ، وان هذا التراث العالمي لا يمكن ان يهوي او تسقط درجته عما هو عليه دون ان يصيب العالم كارثة طبيعية .

والآن لدينا حضارة حية جديدة مكان الحضارة القديمة وما كانت عليه وهي تتألف من الافكار الحرة الواردة من كل صوب والقدرة على سبكها فمن الواجب ان توجد معها النفوس ، والرغبة بالحياة الدنيا والحياة الآخرة .

وان يكون هنالك مزاج خاص قاسي ، ونبوغ عرقي ، وتنوع في الحياة وشعور بما وراء المادة ، يبحث عن اصل الموجود حتى يصح التنبؤ عما سيكون مثمراً وعما سيبقى بدون ثمر .

والعالم الاسلامي لا يخلو من هذه العناصر ، والبعض الآخر منها ، لابد ان يوجد ما لم نمنعه نحن .

ويمتاز العالم العربي بانه ذو حيوية ذاتية ، يدل عليها عدم مقدرة الحضارة البيزانطية ، اليونانية والتركية ان تطغى عليه ، بل هو طغى على جميع البلاد التي انتشر فيها الاسلام وفتحها العرب ، فأمتزج لسانه بالفكرة الاسلامية امتزاجا لم تستطع المدنية الرومانية ولا اليونانيه ان تفعلا مثله .

ومما هو جدير بالذكر ان الشغف العالمي الذي اسميه انا الشعور الديني

والشعور الميتافيزيكي هو العامل الوحيد في نمو الحضارات كلها ، وهو لا يزال قويا في البلاد العربية اكثر مما هو في الغرب وامريكا .

وسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي اصابت العرب وخدرت نفوسهم ان بقية العناصر كالثروة ، والنفوس ، والشجاعة الفكرية ، والشروع بالعمل والاختبار الاجتماعي ، سوف نعود اليهم ، ويمكن ان نعجل بعودتها بمساعدتنا لهم وترقيتهم .

قال السير (سايكس) في اجتماع عقده عام ١٩١٧ في مانجستر بمناسبة وعد بلفور ، مخاطباً اليهود الذين كانوا حاضرين (اعلموا انكم ستواجهون مدنية عربية وعندما اقول قولي هذا مؤكداً واخاطب به العرب اتوجه الى من هم في الشرق اولئك الذين لسانهم واحد وهم من عرق واحد ، الى الذين يسمون انفسهم سوريين ، وعراقيين ، وحلبيين ، وموصليين بحسب الاقليم ، ويسمون مسلمون سنيّون ، وجعفريون ، ودروز ، ومتاوله ، ونصيريون ومسيحيون بحسب العقيدة والمذهب ، الى هؤلاء الذين فيهم اثر ضئيل من الطورانية واليونانية والسريانية وآثار من الصليبيين الى من يقول العلماء انهم ٨٠ في المائة من اصل سامي وانهم منذ ٨٠٠ سنة تحت حكم العثمانيين الى هؤلاء الذين خرّبت اقنيتهم فيما وراء النهرين ، وابعدهم عن التجارة العالمية اكتشاف (فامود وغاما) طريق الكاب وفرقت بينهم المداورات التركية والمداورات الاستعمارية ، الى هؤلاء اوجه كلامي بلا تمييز بينهم واتساءل هل ماتوا ؟

كلا ! ان الساميين لا يموتون ، بل يرقدون ، والذين هم من اصل عربي نراهم شعباً متقدماً ناجحاً ، حيثما وجدوا ، سواء في نياغارا ، او شيكاغو ، او نيويورك ، او جاوه ، او مانجستر .

انهم يتعلمون العلوم ، ويحبون الفن والادب ، والفلسفة ، ويشتغلون في الصناعة والتجارة ولهم مقام هام فيها .

ان العرب لا تزال فيهم المقدرة ، والمزايا التي كانت لآبائهم الاقدمين الذين حملوا مشعل الحضارة من دمشق الى القاهرة ، الى غرناطة ومن بغداد والبصره الى ما وراء الصين ، ونشروا الادب والعلوم والفنون ايام بني امية والعباسيين ووزعوها على العالم ، انهم قوم فيهم على الاقل سبعة وثلاثون مليوناً بل قلها سبعون مليوناً من ارباب الانتاج فما يكون من هذه المجموعة البشرية القوية بعد حين ، ولديهم البترول ، والتربة الخصبة ، والعقل النشيط الفعال .

ان النتيجة التي لا مناص منها ان هذه الملايين في سنة ١٩٥٠ ستكون قوة هائلة . وسيعود للعراق اقنيته ، وستغدو سوريا مخزناً للغرب ، وستكون بغداد ودمشق وحلب كل منها مانجستر العرب وستنهض الجامعات وترتقي الطباعة وسوف تتحقق المدنية العربية ولا يستطيع القيصر او اي امبراطور منعها) .

ومع ان المستر سايكس هو الذي عقد المعاهدة السرية مع فرنسا وعرفت بمعاهدة (سايكس - بيكو) وبموجبها تجزأت المملكة العربية الى قسمين ، فما قاله في مانجستر لم يكن حلماً بل لا نزال نعده ممكنا وان مضت عليه ثلاثة وعشرون سنة .

ان قسماً منه تحقق وسوف نرى القسم الباقي يتحقق ففيصل يتكلم باسم ثلاثماية الف بدوي تحضروا في ارض الرافدين وباسم الشيعة الذين ينهلون من العلم بشوق زائد وهم نصف سكان مملكته ، والسفر من العراق الى دمشق بعد ما كان يحتاج الى تسعة وعشرين يوماً قبل الحرب اصبح اليوم يحتاج الى تسعة وعشرين يوماً وسيكون ثماني ساعات قريباً في الهواء . (١)

اليست هذه الامور انقلابا جديداً ؟

اما في المملكة العربية السعودية فالمدنية تتقدم بفضل الامن والسلم الذي نشر لواءهما هذا الملك القوي العادل . فلم يعد من خطر على المسافر ولا على

---

(١) لنلاحظ تاريخ نشر الكتاب وزمن المقال .

المواصلات ، والنقليات في تلك الانحاء النائية ، ونوع المعيشة يتنوع ويرتفع والثروة تزداد ، كما ازداد العلم وازدادت القوة ، وكانت هذه الامور محتكرة من قبل اشخاص معدودين فانتشرت بطبعها .

وفي المملكة السعودية توجد محطتان لاسلكيتان الواحدة في مكة والاخرى في الرياض وتوجد محطات صغيرة موزعة في انحاء الجزيرة لتوحيد اجزاء المملكة وكان كل ما جرى قد تم في خمس سنين . اذن التشبث للتقدم والنهوض موجود وما علينا الا مساعدته .

ولهذا الحد ، يتوقف مصير الحضارة العربية الاسلامية علينا ، وفيما يتبقى يتوقف على ما في الحضارة المنشودة من قوى منتجة وما يعمله المسلمون والعرب لدينهم .

واذا نظرنا الى ما وراء الطبيعة فان الشعور الذي لا تكمل حضارة بدونه يتصل بطريقتين ، اما بترك الدين مهما كان ، والاستعاضة عنه بشيء اجتماعي علماني اي لاديني ، او باتباع دين ناقص صارم . وعلى قبول احد هذين الامرين الخطيرين او ايجاد طريق آخر يتوقف عليه امر البت في مصير الشرق .

ومن المؤكد ان عدم الصبر مع بط الحركة ، والمخالفة العقلية مع سوء الاستعمال الايجابي في النظام الديني الثابت تسوق دائما للالغاء ، ومع هذا اذا ضاع الاسلام وزال من البلاد العربية دون ان يحل محله منبع آخر للانسانية والشرف والامل فالنتيجة للحضارة الواقعة لا تكون الا سفاداً حديثاً ينقف عن مولود جديد تحت اجنحة اوروبية او غيرها .

وحيث ان البحث عن نظام ديني يعد خارجاً عن العتاد وبينما يكون البحث عن الفلسفة السياسية ، فان ترك البحث عما يتعلق بالاسلام اعده اهمالا لجوهر المسائل التي تتعلق بالسياسة والاجتماع ، ولذا لابد من البحث لينجلي الغامض . ولا شك ان الاسلام بين الانظمة الدينية الاجتماعية ذات القيود والحدود يعد من اكثرها تقييداً وتحديداً .

وقد عينت وحفظت الحدود بوجود القرآن الكريم الذي نزل من السماء بشكل أبدي غير مخلوق . ومع أن بقية الكتب الدينية قد هبطت من السماء ، انما القرآن يشدد اللعنة على من ينقض شيئاً من احكامه ، او ينقض شيئاً من آياته ، او يعمل بقسم منه ويهمل القسم الآخر . وبقية الكتب السماوية تنذر مخالفيها بما انذر به القرآن لكنه في وعده ووعيده لا يتساهل مع المخالفين بل يعدهم للجزاء والعذاب ويلعنهم لعناً كبيراً .

اما التحديد فليس منشؤه التقيد بالقرآن ، بل من طبيعة ما ورد في القرآن من احكام عينت قواعد الحياة .

فاللعنة بعد ما تصيب من خرج عن القواعد فهل فيها كبيرة او صغيرة ؟ انها اللعنة بحد ذاتها ولا يستحصها الا المخالف .

والقرآن فيه كثير من الآيات التي تحوي المبادىء العامة وهي قابلة التطبيق في كل عصر ومكان . وكان الرسول يتجنب الاطلاق العام لان عصاميته في جمع الفكر والعمل اي في جعل احكام الشريعة قابلة التطبيق .

وكان ينظر للعالم بعين بعيدة النظر ، ويراقب ، ويتنبأ ، ويشرع ، ويقضي بين الناس . قال محمد بك سالم في كتاب له (اين المسيحي الذي يرث من ابناء دينه بحسب الآية الفلانية والآية الفلانية الواردة في الانجيل والتوراة ؟) .

وكان التحديد ايام الرسول قوة للحركة الانقلابية وازالة المفاسد ، وبه منع الاسلام وأد البنات ، ورفع قدر المرأة ومستواها ، وحررها ، وحدد الزواج والازواج ، وقضى على السرقة وعلم الناس وحدانية الآله وعبادته ، ودك معالم الشرك والوثنية ، ومحا الوف الخرافات والاساطير ، ومنع العدوان والحروب الجاهلية ، واوجد الاخاء وعممه ، واوجد التعاون والتعاضد ، ولكن الاصلاح الذي كان معجزة في القرن السابع عشر غدا في القرن التاسع عشر سبباً للتقهقر والضرر .

ومثل هذا حدث في المسيحيين فان (الاساسيين Fundamentalist)

اعتبروا تعاليمهم الدينية واللاهوتية والاخلاقية كانها قبل ستماية سنة من الاسلام اي هي تعاليم المسيح بذاته ولهذا تعصبوا في امور التربية وودوا لو وقفت الشمس لفسادها ، ولكنهم عاشوا بين اخوانهم ، والسبب ان مبادئ المسيح مطلقة وبسيطة ، والتمييز بين ما هو روحي ، وما هو مادى من عمل القانون ، وبهذا تمكن المؤمنون ان يبرروا شؤونهم الزمنية في الحياة وفي الهيئة الاجتماعية مستقلين عن تعاليم الدين ، لانه لا توجد في المسيحية تعاليم خاصة تحدد الواجبات والامور الحياتية .

ان الدين يستطيع ان يوجد لنفسه عالماً روحياً قائماً على اساس عملي ، ويستطيع ان يترك للعلم وتطبيقاته تهيئة ما يلزم للحياة اوتوماتيكياً . واذا كان من طبيعته تحديد القواعد وفرضها بصورة شرعية فلا بد من وقوعه في الحيرة عندما يتطور الزمن وتتطور الافكار فيما يتعلق بامور العائلة ، والملكية الفردية والفنون والعلوم .

ولهذا ـ حسب رأي المؤلف ـ فالاسلام اما ان يلين ويتسع ليضم كل هذه الامور او يتبدل معها . وفي كلا الحالتين يعتقد اللورد كرومر كما اشرنا الى قوله (ان الاسلام يخرج عن كونه اسلاماً اذا تجدد) .

ولكن ما قاله اللورد يفرض علينا الاعتقاد بان تطورنا الدنيوي كان ناجحاً مع انه لو عاش في وقتنا الحاضر ورأي ما آل اليه الحال لهاله ، وهاله زعم ما زعم ، بل لصح لديه بان حصر الدين في الشؤون الروحية وحدها لايكفي وغير ممكن وامورنا الدنيوية في استقلالها عن الدين لم تنصلح كما كنا نظن .

ان الدين قد انقطع ارتباطه مع القانون بدون استعاضة ، ولكنه سوف يبقى ولا يزال مرجعاً لعقول الشرعيين يستمدون منه الاسس الصالحة لامور التربية ، والعائلة ، والملكية ، والعمال والاجور ، والعلاقات الدولية ، والعلاقات الاجتماعية ، وما ارتآه الاسلام عن علاقة الدولة ادركنا صحته بعد زمن ، كما ادركنا حماقتنا بتطهيرنا التربية من الدين .

فمنع رجال الدين من التدخل في القوانين والتشريع له ادلة على ضرورته ولكن هنالك ادلة قوية لا ترد على ارتباط القوانين والانظمة بروح الدين والامة.

وقد كنا نرى في تركيا ان بعض القيود الاصولية كانت تحمل في طياتها الموت الفكري وتحمل معها فساد الدولة وفساد الكنيسة ولهذا الغى الكماليون العمل بأحكام الشريعة ،والقوانين المستمدة منها،واقروا العمل بالقانون المدني السويسري وطبقوه على جميع رعاياهم ، من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وارادوا تحويل شعبهم الى امة واحدة حديثة ، وان يجردوا الحكومة من فرض دين ما على الشعب .

ولما اتخذت الحكومة الوسائل اللازمة للوصول الى هذه الغاية وعزمت على تجريد الكرسي اليوناني من سلطته الادارية والزمنية واجبرت الطوائف على رفع الخصومات التي تقع فيما بينهم الى المحاكم المدنية التي لم تكن بنظر الطوائف صالحة للرؤية ، قامت الصعوبات في وجهها واضاعت عنصراً مهماً من النظام الشرقي وكان من الممكن لحكومة مدنية حديثة ان تبقي المحاكم الدينية تمارس سلطتها وتترك الخيار لشعبها ان يراجعها او يراجع المحاكم المدنية التي يكون القضاء فيها حياديا ، وهذه محاكم مصر تقوم بفصل القضايا الواقعة بين مختلف الطوائف وهي احسن ما يمكن ان يوجد لهذه الغاية .

انني لا اعتقد ان الطريق السوي للامم الاسلامية باتباع ما يدعيه الغرب بان الدين لا علاقة له بالحياة اليومية ، ولا بالمؤسسات الاجتماعية والتشريعية ، بل اعتقادي ان احسن شيء هو الاستمداد من الدين المبادىء التي فيها النمو وفيها التحفظ وفيها التقدم .

وقد يقول قائل هل يستطيع الاسلام ان يماشي الحياة الحديثة والعصر الحديث ؟

ان هذا السؤال على اطلاقه يفهم منه كأن العصر الحاضر والمدنية الحديثة يستحقان كل شيء ؟ انني اقول بدلاً من هذا علينا ان نتساءل هل للاسلام

آراء جديدة تنبعث من ذاته ، وهل يستطيع ان يميز الصالح من الطالح من المقترحات المعروضة عليه عن الحياة الحديثة وضرورتها فيقبل هذه ويرفض تلك حسب مقاييسه ؟

ان الجواب لهذا السؤال ، هو ان الاسلام فيه كل عوامل النمو الصالحة التي توجد في اي دين واي جهاز شرعي ، وما ينقصه ليس فقدان وسائل النمو ولكن الميل اليه .

ومن المعلوم ان القرآن هو المرجع الاول الذي تستمد منه الشريعة الاسلامية ، ثم يأتي الحديث الشريف الذي هو ما تواتر نقله بصحة وامانة عن الرسول الاعظم مدة حياته ورواه الصحابة من بعده .

والحديث يتعلق بسيرة الرسول وآرائه الشخصية واحكامه التي قضى بها بين الناس وتوجيهه ومعيشته ، وعاداته ، وغزواته وهو غني بالمـــواد الاصلية والعناصر التشريعية المختلفة .

ولاهمية هذه الاحاديث وما توقف عليها من الاحكام فقد جمعها الائمة ورتبوها وتحروا صحتها وصدق نقلها فغدت مرجعاً ثانياً يستند اليه المسلمون في احكامهم .

ومن وجود الحديث يظهر للبعض غايتان ، الاولى البحث بامانة ودقة تاريخية ، والثانية التحري عن الامور الواردة وترتيب المواد حسب الافكار التي تتضمنها ، وليس للاسلام ان يختار احداهما لان الحاجة الجأت المسلمين الى جمع الاحاديث وتدوينها في الكتب المعروفة بكتب السنة ليرجع اليها المسلمون كالبخاري الشريف الذي يأتي بعد القرآن في صحة ما اورده عن الرسول وما اوردته بقية كتب اهل السنة لا يقل اعتبارها عن البخاري .

ويدلنا الحديث على قصد الرسول من النظر الى ما وراء الالفاظ الواردة في الآيات القرآنية لتكوين المبادىء العامة ، والخاصة .

ويأتي بعد الحديث المقرون وهم الأئمة المجتهدون المتفقهون الذين حيثما وجدوا اتسعت امور الدين وحوت ما يقتضيه الحال في تقدم الزمن وزيادة الحاجات والضرورات . خاصة عندما يكثر عدد المجتهدين والمفسرين وتتنوع وجهات نظرهم وتختلف فيما يعرض عن المسائل وتكون النصوص الواردة مخالفة لها .

ومزية الاسلام سعة شريعته وقيامها على التسهيل لا التعسير ، وكونه لا يأمر باتباع طريق واحد يفرضه على المؤمنين بل هنالك مذاهب عديدة اشهرها مذاهب اهل السنة الاربعة يلجأ اليها المسلمون في امور دنياهم ودينهم وكلها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وتعاليمه .

ومن المذاهب الاربعة نرى مذهباً يشابه (مذهب الاساسيين) عند البروتستانت في خطته اذ لا يثق بالمجادلات العقلية ولا بالقياس بل يتحرى صرفية النصوص كما وردت على ظاهرها وكما رؤيت في صدر الاسلام ويؤمن بها ، ويعمل لاحياء التقاليد الاسلامية الاصلية ويطبق العقوبات الواردة في الشريعة كما نص عليها القرآن ، السن بالسن والجروحات قصاص ، والسارق تقطع يده والقاتل يقتل ، والزاني يرجم ، ويحرم الاطعمة التي حرمها القرآن ، ولم يرد في السنة شيء يحلل استعمالها ، وهو اضيق المذاهب ولا يتعدى الدرجة الاولى في تفسيره .

اخذ به الوهابيون وتشددوا به اكثر مما قال به الامام احمد بن حنبل زعيم المذهب ، وأتباعه اقل عدداً من اتباع بقية المذاهب « الحنفي والشافعي والمالكي » التي امتدت تعاليمها في اكثر البقاع الاسلامية وامدت الاسلام بأسس عظيمة ومبادىء قويمة للتفسير والاجتهاد حفظت للاسلام نموه واتساعه .

ومن المبادىء التي يقوم عليها التشريع الاسلامي ما يسمى بالقياس والتشابه (Analogy) في تشابه الحادثة وتشابه القاعدة ، هذا المبدأ يعمل به الاحناف وقد استفاد منه القضاة المسلمون اصحاب الادراك الواسع للمشابهات في احكامهم لما يعرض لهم من القضايا كما استفاد المحكمون (الجوريست) في العالم الغربي من القصص والاحكام التشريعية .

ثم مبدأ المصلحة العامة وهو الذي يجد تفسيرا تراعى فيه القضية ان كان فيها ضرر ، او اذا كان تطبيق اللفظ الوارد يؤدى الى بقاء الضرر . (١)

وهنا تتجلى لنا كيفية اللجؤ الى القواعد الاساسية الواردة في الاسلام ومنهـــا (لا ضرر ولا ضرار في الاسلام) كما قالت به المالكية وهو مبدأ يستطيع المسلمون ان يستمدوا منه ما يحتاجونه في القضاء الحديث الذي سار اليه (روسكو باوند) ، او كغيره من المذهب العملي (برغماتيزم) لان المنطق الشرعي اذا استخدم الخير العام الظاهر فالطريق مفتوحة امامه .

ثم مبدأ الاجماع اي ما اتفق عليه المسلمون ورأوه حسنا ، وهذا يقوم على قاعدة اصولية عامة مستمدة من الحديث الشريف (لا تجتمع امتي على ضلال) وكان في الاصل ما اتفق عليه صحابة الرسول وهم الزعماء وقرروا انه لخير الاسلام ومصلحة المسلمين وما كان كذلك فهو من الاسلام ، وقد استفـاد الشافعيون من هذا المبدأ وتوسعوا فيه وقاسوا عليه اموراً اخرى اقتضاها

---

(١) ان التشريع الاسلامي يستند الى القرآن ، والحديث اي السنة ، والاجماع، والقياس

فالامام ابو حنيفة يقول بالقرآن والسنة والقياس ، والاجماع .

والامام الشافعي يقول بالقرآن والسنة والقياس والاجماع ، والاستدلال ولكن لا يقول بالاستحسان .

والامام مالك : يقول بالقرآن والحديث ويرجع عند عدم النص الى القياس ،والمصالح المرسلة اي المصلحة العامة .

والامام احمد بن حنبل يقول بالقرآن والسنة ، وفتيا الصحابة عند عدم وجود مخالف لها وقول بعض الصحابة اذا وافق الكتاب والسنة ، والحديث المرسل والضعيف ، واخيرا القياس عند الضرورة ثم تجدد مذهبه على يد ابن تيمية وابن القيم القائلين بالدعوة السلفية والرجوع في اصول الدين الى القران والسنة .

ويوجد غير هؤلاء أئمة لهم مذاهبهم المعتبرة وعددها يفوق العشرة . ولكن ليست ذات اتباع في الوقت الحاضر غير مذهب الامام جعفر (ر. ض) ويسمى مذهبه بالمذهب الجعفري وتعمل به كافة الشيعة ائمتهم ومجتهدوهم والتابعون لهم .

الزمن والمكان ، ومما قاله الشافعيون (ان اتفاق المسلمين على امر ما يضاهي القرآن في حكمه) .

ومن المبادىء التي تحتاج الى جرأة ، مبدأ (ترجيح الحاكم) الذي قال به ابو حنيفة واراد ان يجعله مستنداً لسن الاحكام التي قد تفترق عن المفاد اللفظي وعن القياس الضيق ، ويبتعد عن الارتباط بمبدأ المصلحة العامة ، وكان قصده مراعاة الظروف والامكنة ، ولكن المبدأ لم يعتبر عند اهل السنة لان ظاهر العمل به مخطر لامكان ادخاله على الشريعة بما يتفق والمرامي الخاصة ، انما يوجد في روحه مجال للعقل يساعد المصلحين في كل مكان عندما يحتاجون للاجتهاد . وصحافة الاتراك ورجالاتهم يرغبون القول به .

ومن هذه المبادىء الاربعة (القياس ، والاجماع) قبلتها جميع المذاهب الاسلامية ولذا اصبح المرساة التي يرسو عليها العمل بالسنة ، (واما المصلحة العامة ، وترجيح الحكم) فالعمل بهما يجعل الاسلام قابل التطبيق في كل مكان وفي كل زمن ولكن لا اظن قادة المسلمين يتمسكون بهما لانهما غير صالحين للتفسير الذي يقوم بين الحرية ودوام الحال .

والمعتمد عليه ما اشار اليه الشافعيون (وهو مبدأ القياس والمشابهة) لان المجتهدين يقولون ان الحكمة اي العلة اذا ظهرت في امر من الاوامر فكل القياسات والمشابهات توخذ منها ، ثم يذهبون الى باطن المبدأ باتباع الاثر حيث ان حكمة كل قاعدة هي روح القاعدة بذاتها .

وهذا مبدأ حي يتمشى مع كل نمو شرعي ، مثال ذلك لدينا نص بتحريم السرقة ، ولكن لماذا حرّمت ؟ لنفرض انها حرّمت لان بقاء ملكية الفرد محدودة بما يستطيع الانسان الانتباه اليه ، والمحافظة عليه شخصياً مما يعاكس سعادة المجتمع ، فاذن الصالح العام ، هو السبب الصريح للقاعدة ضد السرقة ، وهو روح القاعدة .

ويمكن اخذ الصالح العام بدلاً عن (السرقة) كدليل لنا ، والقاعدة العامة كلما اتسعت واحتوت على العموم كلما شملت القاعدة الخاصة وما يتفرع عنها .

ولو فرضنا ايضاً ان علة التحريم هي الحرص على محبة الجار ، وان الذي يحب جاره لا يسرق منه شيئاً لكانت هذه القاعدة (حب جارك) ، هي روح القاعدة الخاصة ضد السرقة ، ويجوز جعل سبب القاعدة كقاعدة اعلى او مساوية لها .

وبهذا المعنى يغدو الاجتهاد عملا يقصد منـــه التحري ، عن العلل ، والقواعد الاساسية سواء ذكرت الاسباب او لم تذكر ، والاسباب بمجموعها تغدو بمثابة الروح من الاسلام وتجعله قابلا للتكيف وفقاً للزمن والظروف .

واراني محقاً ، اذا ادعيت ان الاسلام فيه من المبادىء ما يكفي لنموه وتقدمه ، وهو في القرن الثالث عشر سنداً ودعامة لكل ما يفتخر به العـالم العربي في مدنيته .

واني لأشير بصورة خاصة الى الشريعة الاسلامية الصحيحة التي هي قسم من الشريعة الفعلية المطبقة في البلاد الاسلامية .

والحقيقة ان الاسلام حر بان يطبق حياته العادية وفقاً للعادات المحلية ، وقوانين اولى الامر في كل مكان ، ولذا من السهل ان يتبادر لذهن الاجانب حقائق الاسلام بان الرق ، والحجاب ، والطلاق بدون قيد ، ووضعية المرأة المنحطة هي من الاسلام مع انه لمثل هذه القضايا وضع الاسلام اسساً ، وقواعد ومبادىء تجعل ما هو جار بين المسلمين غير ما نصت عليه تلك الاسس والقواعد والمبادىء ، فما يتصورونه في المجتمع الاسلامي ناتج عن خروج المسلمين عن تعاليم شريعتهم وتأثيرات العادات والبيئة فيهم .

الا تري ان كثيراً من مسلمي الروس وحيد الزوجة ، ومثلهم اكثر اهل الطبقة الراقية والطبقة المثقفة من المسلمين في الاقطار العربية والاقطار الاسلامية .

اما الحجاب فليس من عادات العرب ، ولا هو خاص بنساء المسلمين ، وفي القرآن لم يرد له نص الا بما يتعلق بزوجات الرسول الذي اراد لهن الحشمة والوقار في عدم التبرج والبهرجة واظهار زينتهن كما كانت تفعل النساء في الجاهلية وفي الحقيقة اقتباس من نساء البيزانطيين . والطلاق ، وآداب الجنسين ، والحياة الاجتماعية قد كفلها الاسلام بأسمى التعاليم ، وقد بقي على المؤمنين ان يبادروا للاصلاح بما يتفق ومبادىء دينهم السامية كما هو المنتظر منهم .

وكما قررنا سابقاً ان عوامل الرقي والنمو لا تزال موجودة في الاسلام ولا ينقص المسلمين سوى العمل . واما الجمود ، والتفاعل ، والانتظار فليس من طبيعة الاسلام بل اصيب بها بسبب الجهل والسياسة ، وفساد التربية،والاقتصاد؟

واذا تساءلنا ما هو حال الاسلام المفكّر وما هي وضعيته ؟

اجبت دون تردد . ان عادة التفكير تبتدأ بالانتقاء ، وعندما يباشر الانسان الانتقاء من مجموعة ما لديه من التقاليد والعادات لاخذ ما ينفعه ويتفق مع حاجته ، وتفكيره لبناء كيانه ، يضطر بحكم الطبيعة الى هجر الباقي ، والاجتهاد فيما يلزمه .

وفي سفري للشرق الادنى (الى سوريا ومصر والعراق) كنت اسأل من رجال الدين الورعين الذين التقيت بهم وتحدثت اليهم ان يعلموني عن المبادىء التي يمكن استخراجها من القرآن والاحتفاظ بها .

وكان الجواب (ان ليس في القرآن ما يترك وكل ما فيه حق ووحي من الله) .

ومع اقتناعي بهذا ، كان بالامكان ان يجاوب الانسان ان الانتقاء موجود في الوقت الحاضر وهو ما يطبق ويستعمل . وادلة الانتقاء واضحة ولابد من طريقة اصولية لاختيار الآيات وتبويبها .

وكان من حسن حظي ان حصلت على مبادىء مختارة من القرآن مصنفة

تصنيفاً مفيداً حسب مدلولاتها تشمل العقائد الآلهية ، والآداب الاسلامية ، والحقوق العائلية والزوجية . والاجتماعية ، والسياسية ، والصحية ، والعلمية انتقاها احد اصدقائي المفكرين بحلب (١) فأستفدت منها كثيراً وعددتها مثالاً لما يجب ان يعمله رجال الاسلام .

ولا شك ان الاسلام الحاضر يتطلب اعادة النظر فيما يحتاج اليه المسلمون في حاضرهم ، ولا بد لالوف العلماء الاجلاء والأئمة المجتهدين ان يشتغلوا به تبؤدة ، واخلاص ، حسب تطور المسلمين فكرياً ، وعمرانياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً وحسب حاجة العصر .

والاسلام كما يجب ان نعلم يأمر بطلب العلم اينما كان وفي كل زمان . وقد جعله النبي فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فيجب الاخذ بهذه الحكمة ، ويجب الاجتهاد في امور الدنيا بترو وامعان وصراحة وروح فلسفية عالية وسعة فكر ، لان الانتقال من دور الى دور اخر في الامور الدنيوية ، والتشريعية والعقائدية يلزم ان يكون على اساس العقل السليم والعلم الصحيح .

وخلافاً لما آملت (كان ذلك في عام ١٩٣٢ وليس الآن) - وجدت الدراسات العلمية الدينية في سوريا ومصر محدودة بالنسبة ، واما الدراسات التاريخية والادبية والعلمية والفلسفية فوجدتها بكثرة .

وفي تركيا وجدت بعض العلماء قد وضعوا دراسات اساسية لفهم الدين واهتدوا الى الطريق القويم لشرح الامور بوضوح وفهم علمي .

---

(١) كنت التقيت معه عندما جاء الى حلب ليحقق في الحوادث السياسية التي وقعت عام ١٩٣٢ ، كيف وقعت ؟ ولماذا وقعت ؟ ومن ذهب ضحيتها ثم بحث عن الاوضاع في سوريا وما فعله المستعمر فيها . وبناء على طلبه صنفت له ما ورد في القران من الآيات حسب المبادىء والتعاليم التي تحويها وارسلتها اليه فجعلها موضوعاً لدراسته وتعليم تلامذته في جامعة (هارفاد) ومداراً لمحاضراته التي القاها في جامعة اوكسفورد ، عن مستقبل الاسلام وكتب كتاباً عن اثر الآيات في نفسه ونفس تلامذته واعترافه بانها صالحة للعمل في كل الازمان والاحوال ولكل الامم .

وتركيا التي كانت تتلقى الدين من المؤسسات المنحطة قد قام فيها من ادرك خلو المجتمع التركي من روح الدين ولهذا سعى مع جامعة الاستانة لسد هذا العجز ومعالجته بتأسيس معهد خاص .

ومما كتبه بهذا الخصوص الاستاذ خليل رفعت ، مدرس المنطق فقال (ان الدين هو احد الاجهزة التي تُبنى عليها الهيئة الاجتماعية ، ولا يستطيع الفرد ان يكون اجتماعياً الا اذا كان له ارتباط مقدس بالدين ، فاذا خلا الدين من قلبه ترك فراغاً لا يمكن ان يملئه شيء آخر .

واذا خلا المجتمع الانساني من الدين فسدت الهيئة الاجتماعية ايضاً ولم تستطع الاستعاضة عنه بما يحفظها . وبعد ان نقد المفسرين والمجتهدين السابقين ونقد استعمال اللغة العربية التي كان يجهلها الشعب التركي ، ونقد الخرافات التي كانت تملىء افكار العامة .

قال ان الاسلام هو دين الشعب والاسلام الصحيح ليس فيه مؤسسات رسمية ولا رجال رسميون ، بل هو للجميع وفي متناول الجميع يقدم لهم الاتصال بالحق والقدسية والخلود) .

ومع ما تقوم به الجامعة من الدراسات وتهيئة رجال يتخصصون بالشؤون الدينية والتعليم ، والارشاد ، فانها فرضت على المدرسين في القسم الديني ان يستمدوا من المبادىء التي هيئتها هيئة التعليم في الجامعة للاصلاح وهي :

(١) يجب فتح الجوامع والمعابد للجميع حتى يتاح للجميع زيارتها والعبادة فيها.

(٢) يجب ان يؤذن للناس بالدخول دون خلع النعال .

(٣) يجب استعمال اللغة التركيـة في الصلاة او الوعظ ، والادعيـة والحفلات .

(٤) يجب الاعتناء باصوات المؤذنين والقراء . وادخال الآلات الموسيقية

للاستعمال في الخدمات الدينية . لان الموسيقى الدينية تظهر شعور الانسان وترقى روحه وهما واسطة ادبية .

(٥) يجب تهيئة الخطب والمواعظ التي يريد الوعاظ المهيئون في الجامعة القاءها تهيأة للروح الدينية على اساس التفكير والفلسفة .

واننا لنجد في هذه الاسس ميلا للاصلاح والحياة العصرية زيادة عما في البلاد الشرقية . لان مشاغل الحياة وما فيها من اعباء وجنوح الى اختيار اللباس العصري مع آداء الفرائض الدينية خمس مرات واتيان الوضوء قبلها تكاد لا تتفق مع بعضها البعض وكاد الاهمال يصيب الفرائض المتوجبة .

ومما رأيته في جوامع الاستانة قلة المصلين بالنسبة لما رأيته في سائر جوامع البلاد الاسلامية التي زرتها . ولكن يظهر ان ما يبتغيه الاتراك من الدين هو روحه ، وما يؤديه من الخدمة .

وفي الجامعة اثنان من رجال التعليم يعملان لهذه الغاية ويفسران القرآن بمقتضاها ، الاول الاستاذ شكيب ، معلم (علم النفس) فانه صنّف الآيات وفقاً لمبادىء المصنف ووضعها تحت ابوابها بصورة تجعل الفكرة واضحة في كل باب عند المقابلة .

والثاني الاستاذ اسماعيل حقي بك ، معلم (التربية) . وهذا يعتقد بان العمل المتقدم لا يفي بالمطلوب بل يريد اجتهاداً (برغسُونياً) (١) اي عملياً حديثاً يبحث عن روح القرآن الحية . وعن الحماسة الدينية ويسكبها بلسان العصر .

والذي آراه ان العملين متممان لبعضهما البعض . فالاول يعتنى بالتسلسل التاريخي وكل ما سيصل اليه الاتراك من النتائج في هذا الموضوع رغم ما في

---

(١) هو عالم يهودي ومن اعلام الفلسفة في القرن العشرين وله نظريات تتعلق بالوقت والتغير لا تزال مدار الجدل وفلسفته تقوم على اساس (الحدس) لا على اساس المنطق ومبادىء العلم .

الاسلام من عناصر العروبة ورغم نفرة العرب من الترك سيكون لها الاثر العظيم في الاسلام وستؤدى له اجمل الخدمات .

واذا كنا قلنا بضرورة الاجتهاد فلماذا لا نقول بجعل روح الاسلام ذات فلسفة ارقى ؟

وذلك لاعتقادي ان الناس يتجهون الى التدين بسرعة غير ارادية بتأثير الضغط الذي يسوقهم اليه الالحاد المادي الذي نتج عن النظريات العلمية الباطلة حتى ان الفرق بين الفرق الدينية كاد يزول في وقتنا الحاضر خلافاً لما كان عليه قبل مئات السنين .

واني مقتنع باننا لا نستطيع الابتعاد عن وجهات الدين القديمة او التراخي فيها ، ولا الالتجاء الى الاطلاق الوارد في هذه الوجهات ، ومن العبث ان ترضى عقول الشرقيين بغير ما وجدوه في دينهم عن رضى . وهم قبلوا الاسلام لانه دين التسامح وفي سلوكه الادبي لم يمنع الجسم من ملذات الحياة حتى انه صور لهم كيف سيكون النعيم في الجنة .

واقول بلا اسهاب ان عظمة الاسلام في بادىء الامر لم تكن في رضائه عن الحرب للدفاع ، ولا بامتناعه النفس فيما تتطلبه الحياة ، بل في دعوته للوحدة الآلهية ، والتسليم لارادة الخالق الموجود في كل مكان ، والشعور بقرب الآله من قلب المؤمن وكونه اقرب اليه من حبل الوريد ، وهي عقيدة استهوت القلوب واحتلت النفوس اكثر من اي عقيدة دينية قالت بها الاديان الاخرى .

ومما يجب الاشارة اليه ان المسلمين ينظرون الى المسيحيين كرجل لا عبادة له ، او كسول في عبادته ، وثني التصور ، يعشق الخمرة ، ولا يعرف الاخوة ، مادي في مطاليبه وعيشه مع ان المفروض في المسيحيين ان يكونوا مجرّدين عن ذلك يعاملون الناس كما يحبون ان يعاملونهم وفقاً للقاعدة الذهبية ، ومن جهة اخرى يدعي بعض المبشرين المسيحيين بان زعماء المسلمين يميلون الى اقتباس المبادىء المسيحية كالمحبة ، وابوة الآله دون اعتراف باقتباسها عنهم . وعلى

ما ارى ان الاقتباس لو صح لكان امراً طبيعياً ، وممدوحاً ، لانه اجتهاد فاسفي ، والمسيحية واليهودية في الاصل كانتا جذوراً للاسلام الذي جاء متمماً لما قبله ومصدقاً للتوراة والانجيل ، ومقاوماً للمسيحية المشوهة والمسيحية المغلوطة واليهودية التي لا تتفق والوصايا العشر ، ومكفراً لمن يقول بالتثليث ، ومع هذا لابد من التقارب بين المسيحية والاسلامية كنتيجة ضرورية للاستنارة المتبادلة .

قال الدكتور (خدا بخش) من علماء الهند (ان الثقافة الاسلامية والمسيحية كانتا واحدة فيما مضى فلماذا لا يعملان لذات الغاية ؟ والاسلام الصحيح لايتنافى مع المسيحية الصحيحة . وكلاهما يتشابهان في اهدافهما) .

ويتميز الاسلام تاريخيا بكونه دين يقوم (على الاكتفاء الذاتي) فهو جامع لامور المسلمين الدينية والدنيوية الضامنة لسلامتهم وسعادتهم في الدارين .

واما التعصب فهو حالة من حالات الارادة لاحالة من حالات العقل . وهدفه الارتباط النهائي مع الأشياء الصالحة التي يعرفها صاحبها ويملكها ثم المقاومة لما يظهر انه افضل منها ، مع الاحتفاظ بما في قرارات النفس مبتعداً بها عن التآلف مع العالم الظاهري الملحد ، وكراهة لا اسم لها ناتجة عن الخوف من الانحدار الى تيّار الحياة العامة ، وتمسك جاف غير معقول بطريقة اعتاد الواحد ان يتبعها للخلاص .

فالتعريف بهذه الحدود يجعل التعصب محموداً ، يتفق والعناصر المعتادة التي لا تدخل في نطاق العقل لكنها تتلائم والشعور الانساني الديني وهو محكوم في النهاية للزوال ولكن زواله لا يتم بالمقاومة والشدة والتهجم لان التعصب طريقة غريزية للدفاع عن شيء باطن غير واضح ، واعتراف ضمني بعجز قوة التعبير عن شيء غير ناضج ، وبرهان على المشاركة بالعظمة ، فالتمسك ، به اذن نداء الوقت للالتقاء مع مدنية خارجية تقع في نطاقه .

ومن هذه الجهة اذا نظرنا الى الثقافة الاسلامية في الوقت الحاضر نجد اثر التعصب فيها ، وتمسكاً قوياً بالآراء والشعارات الدينية التي لا يجوز تغييرها

وهو ناشيء عن قوة الدين الباطنية وعن ما في الدين من عمق الدعوة وقوة الامل والوعد والغذاء الروحي .

فماذا يترتب علينا تجاه هذه الحقيقة ؟

علينا الاحترام ، والتآخي ، والتهيؤ لتبادل الافكار العلمية والفلسفية ،وعدم استعجال الرفق حتى يتم التقدم الداخلي .

والذي لا يحمد ويعد خطراً وعبثاً ، هو السعي لزحزحة الاسلام من محوره واستغلاله لمآرب غربية واستعمارية .

ويظهر ان العقلية التي ارادت بذهنيتها واحساسها ان تسير بفكرة زحزحة الاسلام قد نشرت منشوراتها في عام ١٩٢٠ ونصحت فيها فرنسا ان تحتل سوريا وتحتل دمشق وبذلك تحتل اقدس قطر اسلامي وتنشر نفوذها على العالم الاسلامي .

ولكن ما نتج عن ذلك كان عكس ما اوحته هذه الذهنية السقيمة ، فان نفوذ الفرنسيين اهتز ، وتضعضع ، وتزعزع من اساساته ، وضعف في كل العالم الاسلامي باحتلال فرنسا سوريا .

ومثل هذا حدث عن انشاء جامع اسلامي في باريس . اذ ظن الفرنسيون بعملهم وانشائهم هذا الجامع عن يد (ابن غبريط) وبهات مراكش وتونس والجزائر ، انه يظهرهم للمسلمين كحماة للاسلام ، ولكن في اعين السياسيين لم لم يكن الا دليلا على عدم اخلاص نياتهم في اقامته واقامة البرهان على سلطانهم . وايد هذا ، قول احد قوادهم الجنرال (بريموند) الذي درس المستقبل العسكري في اوروبا ورأى ما هي عليه جيوش المانيا ، وان امته في عام ١٩٤٠ سيكون لها عسكري واحد امام كل ثلاثة من جيش المانيا .

فقال اذا لم نتدارك النقص من جيوش المستعمرات لا نتمكن من مساواة المانيا في جيوشها وقوتها ، وعلى هذا الاساس يجب علينا النظر الى الاسلام والمسلمين ، فللمحافظة على اوضاعنا الحالية وعلى استقلالنا لابد ان نعطي مكانا

في مجموعنا القومي لاثنين وعشرين مليوناً من المسلمين لنستخدمهم في جيشنا في المشاة والخيّالة ، والمراكز التي تتطلب التضحية ، وللحصول على هذه الغاية يجب علينا الاتصال بهم ، وعدم الاستغناء عن الاسلام مع اعتباره حملاً من احمالنا) .

واذا كانت هذه غايات الامم الغربية الديموقراطية فمن المكر والخداع ، ان لا ننشرها ، وبلاوة الغرب الناتجة عن عزمها المتردد في زحزحة الاسلام يخلق اسلاماً غير قابل الاصلاح .

فالاسلام له شعوب فقيرة في افريقيا وشعوب غنية راقية في آسيا ، تجمعها العقيدة والاخوة والمساواة التي تدعيها الكنيسة المسيحية ولا توجد في قلبها ولا تعمل بها .

والمسلمون اليوم يتحدون في مصالحهم ويعلنون سخطهم واحتجاجهم ضد الغرب واستعماره ، ولهم صحف لا نسمع عنها كثيراً في (امريكا) ، ولكنها تمثل الشعور الاسلامي (في مراكش والجزائر وتونس ومصر ، والسودان والشرق الاوسط الى دلهى والصين ، وجزائر جاوه والملايا وغيرها من جزر المحيط الهندي واواسط افريقيا .

والعرب وقد استيقظوا ، ينبثون بصورة عالمية في هذه المراكز . والقرآن يدرس في الصين وتركستان ، وباكستان واندونيسيا ، باللغة العربية . ويحتل مكانا سامياً في قلوب المؤمنين به ، ومن المحتمل اما ان نقاوم هذه الامة بسهولة ، وان نحمل لها العداوة والبغضاء ، وان نجعلها تبغض مدنيتنا وما فيها ، وتزيد آلام البشرية . واما ان نكون معها حلفاء شريفين نساعدها على اخذ احسن ما لدينا من محسنات المدنية لاصلاح ذاتها بنفسها . وان نتمنى لها الخير متذكرين دائماً ان العرب بقدر ما نضع العثرات في طريق وحدتهم ونهضتهم وتطورهم هم والعالم الاسلامي لفهم انفسهم وما هم عليه ، بقدر ما نعيق فهمهم العالم .

واخيراً اقول اننا لا نعرف تماماً اي حضارة ستولد ، ولا اين ستكون ولادتها ، ولا نقدر ان نجعل الشيء الجديد موضوعاً معيناً للسعي العام ، انما

الذي نعرفه تماماً انه لا خير يأتي عن هدم حركة حيّة لها شخصيتها الخاصة وتريد الوثوب والنهوض . ويكفينا منها ان نكون اصحاب معها وبجانبها لا اعداد للمولود الجديد ولها .

ومن المفيد ان نتذكر قولي الجغرافي الذي قال (ان الاسلام لا يضبط) وبذلك تمكن من ايقاظ رجال السياســـة الى قيمة الحضارة المولودة والتي لا حدود لها .

واذا لم ينتبه العـالم الغربي وهؤلاء الرجال الى ما قلناه افلا يجدر بهم الوقوف ليعلموا ما هو الخطر الذي يحيطهم بهم ؟ وفي كلا الحالين ادعوهم واقول لهم ليجربوا الامر من جديد .

(نية حسنة ، ومساعدة صامتة ، واحترام لما تعمله الآلهة) .

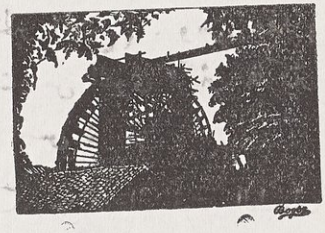

الى اين نحن سائرون في حضارتنا

ما هي الحضارة ؟ هل تختلف حضارات الامم في غابرها وحاضرها عن بعضها البعض ؟ وما هي الفوارق ، ما الفرق بين الثقافة والمدنية والحضارة ؟ هل للامة اختيار في انشاء حضارتها ، ام الحضارة من صنع الزمن والمؤثرات الخارجية ؟ هل الحضارة ملك للامة أم ملك للبشرية ؟ ما هي مقومات كل حضارة ؟ وما هي الهادمات لها ؟ ما هو طريق الوصول الى الحضارة ؟

هذه الاسئلة سيتناولها البحث بتركيز وايجاز ، ولابد من الاجابة عليها أولا لنستطيع تقديم الجواب على سؤالنا الى أين نحن سائرون ؟

١ - تعريف الحضارة والاسس التي تقوم عليها :

ان الحضارة كما يعرفها علماء الاجتماع وعلماء التاريخ (هي التمادي في جمع قوى الطبيعة وتسخيرها لخير المجتمع) . ويعني هذا (أن الهيئة الاجتماعية كلما خطت خطوة للامام جمعت من القوى اكثر فاكثر ، ولكي تتمادى في الجمع والصرف تحتاج الى ثلاثة أسس :

أولا - يجب أن تتمكن من اعتقال قوى الطبيعة والظفر بتحويلها وتسخيرها .

ثانياً - أن يكون التنظيم الاجتماعي أتم وأفيد واكثر ملاءمة .

ثالثا - أن تكون شخصية الفرد الاجتماعي أرقى واتم .

وهذه الاهليات الثلاث او الاسس الثلاثة يجب أن تتعاون وتتطرد في الرقي والتقدم .

أما شخصية الفرد فلأنها مركز القوى العقلية المسيطرة المدبرة ، ولولاها لاستحال الرقي التمدني بتاتا ، خلافا لمن ينكر وجود شخصية الفرد واهميتها . والقوة العقلية ليست القوة التي تجمع وتنفق فحسب ، بل هي التي اكتشفت قوى الطبيعة ونواميسها وخواصها واعتقلتها ، وسيطرت على المادة واخترعت منها ما شاءت لحاجات الافراد وأغراضهم ، وهي التي ابتدعت منها الاشياء اللازمة لهم ولمنافعهم .

فالانسان الذي لا يعيش بدون ماء واحتاج اليه ، لم يصنعه لانه موجود ، وانما حوّله وحوّل مجراه الى الحوض ووضع له الحنفيات ، ولما التزم اليه فتح الحنفية فانسكب . وليس هذا بل جمده وبخره واستخدم بخاره وحوّله ،وحوّل قوة انحداره لتوليد الكهرباء وتحريك المحركات .

واستعمل المطر المنهمر والانهر الجارية للزراعة والسقاية ، وسخر البحر والبحيرات للصيد والسباحة والمواصلات والسفر وصيد الاسماك ، وغيرها من الامور التي صنعها العقل وابتدعها لخدمة الانسان وسد حاجاته في جميع وجوه الحياة .

وكما يفعل العقل البشري في اعتقال قوى الطبيعة وصرفها ، يفعل ذلك في المملكة الاجتماعية وقواها ، وفي المملكة النباتية والحيوانية وقواها .

ولهذا كلما زادت سيطرة العقل على تلك القوى وزاد جمعه لها وزاد انفاقها واستخدامها حولها الى تنمية جسم الامة ورفع درجات الحضارة بالتمتع بها وبمنافعها ومنتوجاتها .

٢ - ما هي الغاية من بناء الحضارة :

ان الغاية من بناء الحضارة هو تثبيت وجود الامة وتشييد كيانها ، هو ابراز خصائصها وتنظيم مجتمعها ، هو الدفاع عن سلامتها وحقها ، هو امتاع أفرادها وهيئاتها وشعوبها باقصى ما يمكن من التضامن والتعاون والثقة

والرفاهية والطمأنينة .

اما الامور التي تنطوي عليها كلمة الحضارة والابحاث التي تدور حولها فيقول علماء التاريخ (ان المراد من البحث عن الحضارة ووصف ما رافق تمدنها فيتناول ما بلغته الامة من سعة الملك والثروة ، ووصف أسباب الرقي وثماره ، ويدخل في ذلك العلم والادب والفن ، ومستلزمات العلم كالمدارس والمعاهد ، والمؤسسات ، والكتب والمكتبات ، والمراصد والآلات ، والاوقاف والثروات المخصصة لها وللعلماء ، وللمخابر ، والتجارب والتحريات ، والتدوين والنشر ، ثم يتناول حالة الدولة ومناصبها ، ووظائفها ، وجيوشها ، وتجهيزاتها ، ونصيب عناية الدولة من الادب والادباء ، والفنانين والعلماء ، وما انتهى اليه شعبها من عيش وأمن ، وصناعة ، وبحبوحة ، وتجارة ، ورقي ، وما تأثيره في الهيئة الاجتماعية . ثم وصف العادات والمناحي الاجتماعية والسياسية والعمرانية والاقتصادية واسناد ذلك الى اسبابه وعوامله) .

ولما كانت المدنية تتناول بتعريفها المتقدم الحضارة ، والحضارة تتناول الثقافة ، وكان الكثيرون من العلماء يستعملون الالفاظ الثلاثة اقتضى بيان مفهوم كل منها بصورة أوضح تسهيلا للبحث .

٣ ـ ما هي الثقافة :

تقول دائرة المعارف البريطانية : «ان الثقافة تدريب لطبيعة الانسان الادبية ، وتنوير لمدروكاته الباطنية . هي صقل وتشذيب ، وتحضير لتقدير الفكر والفن والمنافع البشرية ، هي نضوج في المقدرة الاجتماعية وعامل لبلوغ الافراد والجماعات غاياتهم المثلى » .

٤ ـ ما هي الحضارة :

والحضارة كما يفهم من بحثنا السابق (هي نتاج العلم والثقافة مع نتاج الصناعة والاقتصاد) هي بناء المجتمع وما يلزمه من حكم وادارة وشرائع

واقتصاد ، ودفاع ، وأدب وفن ، وأنظمة وقوانين ، ومؤسسات ، وتقاليد وعادات ، وأزياء ، وأعياد ، وجمعيات . هي المدنية والثقافة مضافا اليها ما يلزم المجتمع من عمران ومشاريع خيرية ، وأسباب تدعو لبقاء الامة والتمتع بخيرات الطبيعة ، ومباهج الحياة ، ولذائذ النفس . هي عنوان انتقال حياة الانسان من اطوار البربرية والوحشية ومن أطوار الهمجية والقبلية الى اطوار التحضير والتمدين) .

٥ - متى ظهرت الحضارات وأين كان مقرها الاول :

ان تاريخ ظهور الحضارات الاولى ليس له زمن معلوم ، ولكن على أصح الفرضيات يرجع الى خمسة عشر ألف سنة .

ويقول علماء التاريخ والآثار وعلم الاقوام ان ظهورها كان في البقاع المعتدلة وفي الاراضي الخصبة كوادي النيل ووادي الرافدين (دجلة والفرات) وقبلها جزيرة العرب وفي الهلال الخصيب من شمالي الجزيرة وغربيها ، وقد يكون في بلاد ايران وأفغانستان وغربي الهند .

ولذلك نجد أقدم الحضارات حضارة المصريين في وادي النيل ، تعاصرها حضارة السومريين والبابليين في سهول العراق ، ثم نجد بعد حين حضارة الآشوريين والحثيين والفرس وهي في البقعة الواقعة شمالي وشرقي بلاد الرافدين وجنوبه حتى خليج العجم وحدود أفغانستان وبحر قزوين .

ثم نجد حضارة الفينيقيين والآراميين الغربيين والعرب والتدمريين ، والكنعانيين ، والموآبيين وكلهم في بلاد الهلال الخصيب (سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) المسماة ببلاد الشام .

ثم نجد حضارة اليونان والرومان في القسم الجنوبي من بلاد ساحل البحر المتوسط وبلاد الاناضول .

ولم تكن هذه الحضارات سوى ثمرة للفعاليات البشرية المشتركة التي تمثل قوة العقل ، وقوة العلم وقوة الثقافة ، وتعاونها مع بعضها البعض بمرور الاجيال . ثم تناولها العرب قبل ثلاثة عشر قرنا ونشروها مع حضارتهم التي تولدت عن عبقريتهم وسعة سلطانهم ، ومنهم انتقلت الى أمم الغرب وأمم الشرق منذ عصر النهضة ، وهي في جميع مراحلها تنمو وتتسع وتمتد بفعالية سريعة وطاقات وثابة تستمد من قوى العقل دون حد ولا انقطاع ما دامت الارض صالحة للحياة ، والعقل صالحاً للنمو والايجاد والابداع .

يقول غوستاف لوبون في كتابه عن الحضارات الاولى (كان الناس منذ سنين قليلة يظنون ان اليونان هم أصل كل تربية وتهذيب ، وأن فنونهم وعلومهم وآدابهم كانت من مستنبطاتهم ، وانهم غير مدينين بشيء لمن سبقهم من الامم .

اما اليوم فلم يعد بالامكان التسليم بمثل هذه النظريات ولو كان التمدين القديم بلغ شأواً كبيراً وتم ازدهاره في اليونان ، انما الشرق كان هو منشأ التمدين وموطن الحضارات .

ففي الوقت الذي لم يكن فيه اليونان الاقدمون سوى جهلة برابرة كانت الامبراطوريات ذات المدنيات الزاهرة قائمة على ضفاف النيل وفي سهول الرافدين وخليج العرب وبلاد الشام والشرق الاوسط .

وقد اتضح ان الفينيقيين نقلوا الى اليونان معظم منتجات الفنون والصنائع المصرية والآشورية ، فبقي اليونان دهراً طويلاً يقلدونها تقليداً قليل الاحكام ، ولو لم يكن قد اتيح لهم ماض طويل سبقهم فيه سواهم الى التفنن لما صارت اليونان يونانا ، ولمـــا أقاموا هيكل (ديانا) ولا شيدوا (البارتينون) ، ولا صنعوا عجائب الفن ، ولا سمت فلسفتهم وعلومهم الى المراتب العليا .

ويظهر أن العلم كلما كشف الغطاء عن آثار المدنيات الشرقية وأحوالها ، ظهر لنا عظم ما أخذه اليونان عنهم ، واقترضوه منهم ، لافي الفنون والمباني فحسب بل بالنظم والمعتقدات) .

ثم يقول : « ويبدو لنا من تاريخ الامم العظمى القديمة رغم تنازعها الدائم وحروبها القاسية ، أنها كلها عملت في ترقي الحضارة والمدنية » .

فالتمدين اذن لم ينطفىء قبسه بل بقيت أنواره تضيء يمينا ويسارا ، شمالا وجنوبا ، ويزداد قوة من عصر الى عصر ، وتتحول معالمها من أمة الى أمة ، ومن قطر الى قطر ، حتى بلغ ما وصلت اليه مدنيتنا الحاضرة من اتساع وقوة وازدهار ، مما يدل على ان المدنية ليست جهود أمة واحدة ، بل جهود بني الانسان مشتركة مع بعضها ، لان كل جيل يتناول حياته العقلية التي هي عماد الحضارة عن الاجيال التي سبقته . واذا كان معظم نسيج الحاضر هو من الماضي فنسيج المستقبل هو منه ومن هذا الحاضر .

٦ ـ كيف تكونت الحضارة وتنقلت :

ومما هو معلوم ان التغييرات العظيمة في الحي والجماعة والامة ، وفي المبادىء والمعتقدات ، تجري مجراها في التطور والرقي ببطء فقبل ان تصل الكائنات والاشياء الى أشكالها وأوضاعها الراقية ، تمر بسلسلة من الاشكال الوسطى يكون فيها أثر البيئة غير منظور في أمره ، ثم تبدو التغييرات جليا عندما يعززها عامل الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح ، وتضاعفها الوراثة على مرّ العصور

ولذا كان من الثابت أننا لا نستطيع فهم تولد المدنيات وترقيها واصول النظم والمعتقدات ؟ وتعاقب الحوادث ، وسيطرة القوانين التي تحكم سيرها ، الا اذا طبقنا مبدأ النشوء والتطور والارتقاء ، والتكامل الذي اليه يرجع الفضل في التقدم والحضارة التي حصل عليها الانسان أثناء التحول البطيء من الماضي الطويل الى المستقبل الاحسن شأنا وأفضل غاية ، الى التكامل الذي يُراد دائما ولا يدرك أبدا .

ويدلنا درس التولّد الاجتماعي ونموه ، ودرس نشوء الحضارات ونموها ، على سلسلة الرقي التي مر بها البشر من حال الوحشية التي طال فيها عيش الاولين ، وعلى ما كانت عليه جذور أفكارنا ، ومعارفنا ، وعواطفنا ، ونظمنا ومعتقداتنا في العصور الاولى للانسانية ، وكيف كان الناس يأكلون الشيوخ المقعدين من أقاربهم ثم اصبحوا يعتنون بهم في شيخوختهم ويبكونهم بعد مماتهم ، وكيف كانوا يعتبرون النساء كالحيوانات السوائم ملكا مشاعا لكل رجال القبيلة ، ثم غدوا يحترمونهن ويحيطونهن بصنوف الرعاية ، وكيف كانوا يعدمون العجزة من الاطفال ثم باتوا يسكنون المجانين وذوي العاهات والامراض في الملاجىء والمصحات والمشافي ، ثم يوضح لنا الروابط الوثيقة التي ارتبطت بها الافكار والنظم والمعتقدات المختلفة على مرّ السنين وكرّ الدهور ، ويثبت لنا بان الحضارات الحديثة لم تولد من ذاتها بل خرجت بتمامها من الحضارات القديمة وتضمنت كافة عناصر المدنيات المقبلة .

وان تطوّر الافكار والاديان ، والصناعات والفنون وكل المواد الحيّة التي تدخل في تركيب اي حضارة واي مدنيـــة امر محتم منظم يشبه الاشكال والاجناس والانواع المختلفة التي هي ضمن السلسلة الحيوانية .

٧ - هل للانسان تأثير في تطوير الحضارة وتغيير مجراها :

ان الانسان في وسعه ان يدخل الاضطراب في تطوّر جماعة ، كما يستطيع ان يدخل الاضطراب في تطوّر الحبّة اذا سحقها ، ولكنه لا يستطيع تغيير مجراها الطبيعي ، وكذا لا يستطيع تغيير مجرى الحضارة .

فالانقلابات العنيفة والثورات والمساعي المصطنعة تمضي دون ان تترك نتيجة ، اللهم الا دفع الرقي الذي تأهلت له الامة واعدّت القوى البنّاءة له عدته عبر الاجيال ، وان انقطع سير التطوّر وقتا ما فلا بد من ان يعود الى مجراه الطبيعي بعد حين .

وبهذا الاعتبار ليس للامم اختيار في تعيين نظمها ومعتقداتها ، فقانون النشوء والتطوّر وبقاء الاصلح هو الذي يحتمها تحتيما لا مناص منه ، مع العلم ان لارادة الامة نصيبا ما في اختيار الاصلح بمقدار محدود يقدر بنسبة وعيها وثقافتها وطاقتها العلمية وحاجاتها واستعدادها ، وبذلك يغدو التطوّر محكوما لعاملين : العامل الاول المؤثرات الطبيعية ، والبيئة وتعتبر فوق ارادة الامة ، والعامل الثاني المؤثرات العقلية والروحية ، وتعتبر داخلية تصدر عن ارادتها وهي تحت سلطانها .

٨ - ما هي مقومات الحضارة :

ان مقومات الحضارة كما أثبتها علم التاريخ والآثار وعلم الحضارات ، تشمل (الاستعداد القومي ، والوراثة ، والبيئة ، وقابلية التطوّر والتحوّل ، وتنازع البقاء ، ونفوذ الرجال العظام ذوي المواهب والعبقرية ، وسلطان الاماني والعقائد ، ورقي الزراعة والصناعة) .

وفي ذلك يقول غوستاف لوبون (ان طبع الشعب وخلقه ، وذكاءه ، يعد من اهم العوامل من حيث الرقي التاريخي . فالذكاء ، وهو قوة العقل ، يرفع مستوى الحضارة ان كان مبدعا ، خلاقا لا ممثلا هاضماً) .

وعنده ان بعض الامم تستطيع ان تكسب حضارة غيرها وتهضمها على قدر ما ، ولكن لا تستطيع التقدم والرقي بما اكتسبته ، ولا ان تبدع فيه لضعف ذكائها المبدع الخلاق .

والبعض الآخر وهي الشعوب ذات الذكاء الوقاد المبدع الخلاق ، كاليونان والعرب في القرون الوسطى ، تستطيع أن تتقدم وترتقي وتبدع .

ولا غرابة في هذا ، فترقي الذكاء المبدع في تأليف الافكار ورؤية مشابهاتها البعيدة ، وادراك الفروق بينها ، يعد المرجع القوي لكافة المكتشفات . وهي موهبة مكنت ابن جابر ، والرازي ، والبيروني ، وابن سينا ، والفارابي ،

وابن هيثم ، وابن زهر ، وابن البيطار ، وغيرهم من نبغاء العرب وعظمائهم ، بدراساتهم وعمق تفكيرهم واكتشافاتهم ان يحفظوا تراث الاقدمين ، وان ينيروا طريق العلم والهداية لمن اتى بعدهم .

وهي الموهبة التي مكنت نيوتون من ادراك الشبه بين سقوط التفاحة وجاذبية الكواكب . وافهمت فرانكلين التشابه بين شرارة الكهرباء والصاعقة .

ان اقل ملاحظة سطحية تدل على ان افراد اي امة او اي شعب قد يختلف بعضهم عن بعض منظراً ، وخلقاً وعقلاً ، ولكن التدقيق يبين لنا ان تحت اختلاف الظواهر مجموعة من الاخلاق الثابتة مشتركة بين افراد الجنس تسمى بمجموعها (الطبع القومي) للشعب ، فاذا تكلمنا أدبياً او طبيعياً عن الانكليزي ، او الفرنسي ، او الالماني ، او الياباني ، او العربي ، او الهندي ، اختصصنا كلا منهم بمجموعة من الملامح والخصائص العامة هي مركز طباع النموذج الوسطي لبني قومه .

ونفعل هـــذا عفواً كما يفعله العالم الطبيعي الذي يصف نوعا ما من الاحياء فاذا وصف اسدا ، او هراً ، او جوادا ، او كلبا ، انتخب الطباع العامة المشتركة التي تنطبق على مختلف اجناس هذه المخلوقات .

وللطباع القومية المتشابهة المستمرة عند الشعوب مع فعل البيئة والنظم والعقائد دخل اساسي في حياتها ولو خفي التأثير عن العيان .

ان طباع الامة تمثل ماضيها برمته ، وتمثل نتيجة تجارب أسلافها واعمالهم اذ لا يجيء شخص الى الوجود الا ومعه مقدار من هذا التراث فيعيش به ما يعيش ، ويكون لاجداده الأثر الكبير الدائم في جميع اعماله ، لان الخصائص والطباع التي تقوده في الحياة ليست الا صوت الاجداد والاسلاف .

وما اقوى تأثير صوت الغـابرين في عقول الناشئين ، فاذا اريد منهم حضارة شعب أو تطوره فأحق الامور بالدرس تاريخـه وعظم نفوذ الماضي ، ودرس بيئته وما تنطوي عليه .

ومما تدل عليه دراسات الحضارات المختلفة ان الفضل في كل تقدم ورقي ، انما يرجع لجملة افراد بارزين من نبغاء القوم وعلمائهم وفلاسفتهم وعباقرتهم . ولا عمل للجمهور الا الاستفادة من هذا التقدم رغم كره الناس لهم وتعرضهم عليهم . ورغم ان معظم هؤلاء المفكرين والمخترعين والفنانين والمرشدين ذهبوا ضحية ظلم الزمن وهم زهرة الحضارة ومجلى ماضي البشرية وجماع فخر الاجيال .

٩ - متى تظهر عباقرة الناس والافذاذ من الموهوبين الذين يخدمون الحضارة :

ومن الثابت أن ظهور اعظم المفكرين والعباقرة ، والافذاذ الموهوبين ، لا يكون اتفاقا بل يكون نتيجة لاستعداد محيطهم وحالة بني قومهم ، وملاءمة زمنهم . ومع هذا فاعمال هؤلاء الرجال مهما عظم تأثيرها وامتد فعلها في نمو الحضارة فليست الا تأليفا لجهود مجموع البشرية ، واكتشافاتهم واختراعاتهم التي هي سلسلة طويلة لما تقدمها من الاكتشافات والاختراعات . واذا كانوا قد بنوا شيئا لامتهم وحاضرهم فانما بنوه باحجار هي من عمل غيرهم .

اما الباعث لاشعال ذكائهم وتحركهم ودفعهم ، فيعود لقانون تنازع البقاء الدائم الذي هو اقوى مؤثر في تكوين الخصائص وفي بعث الطباع واطلاق الطاقات الفكرية ، فلولاه لما زادت الرغبات واشتدت العزائم وقويت الهمم وامتدت البصائر الى ما وراء الافق .

انه عنصر النجاح في حياة الشعوب كما نشاهد فعله في انشغال العلماء والمفكرين الذين يخترعون الآلات والذخائر والمعدات والمواد للدفاع ، وغزو الفضاء والوصول الى الكواكب ، وزيادة الثروة ، ومحاربة المرض ، وكشف المجهولات .

وكان من تأثير التنازع أن اضطرت الشعوب والاقوام والدول الى عدم الوقوف في سير الحضارة كيلا يتخطاها غيرها ويدوسها الزمن .

ويأتي بعد عامل التنازع ، عامل الاستعداد وقابلية الامة لتغيير ما بنفسها

والتكييف مع ضرورات التطور وحاجات الحياة ، اذ بدونه لا يمكن الصعود على سلم الحضارة والتدرج في اكتساب صفات جديدة وقوة كافية للانطلاق .

على ان الاستعداد للتغيير والتحول اذا كان مبعثا للتقدم والرقي ، فالثبات على الحال لا يقل عنه خطورة ولزوما . فالشعب الذي يريد الخروج عن حالته المتأخرة والتدرج في طريق التقدم ينبغي له ان ينجح في اخضاع نفسه لقوانين ثابتة حتى يستكمل تقدمه وينجز ما هيأه ثم يعمل لايجاد التوازن بين خاصية التحول وضرورة الثبات حتى لا يقع بين متناقضين في امر واحد .

ومن المؤسف ان النادر من الشعوب من نجح في ايجاد التوازن ، واندر منه من احتفظ به ، لان الثبات اذا طال وقته وتخطى حده اوقف حركة التحول ، واوقف الشعب عن تقدمه ، واذا اشتدت الحركة زيادة عن حدها فقد الشعب قوة التماسك وتبعثرت خطواته ، وكان مصيره مصير الحكومات والشعوب والاعمال التي تتغير انظمتها ، واتجاهاتها ، ورجالاتها ، بكثرة وسرعة لدوافع لا ضابط ولا توازن لها .

ووفقاً لذلك نجد من المهم احراز عادات على شيء من الصلابة والتوازن بحيث لا تتغير ولا تلين بسهولة ولكن لها من المرونة والاستعداد وبعد النظر بحيث لا تكون عثرة في سبيل التحول والتطور .

والتاريخ مليء بانقاض من الامم التي هلكت لجمودها أو لتهورها لانها لم تتوفق لايجاد التوازن وحل هذه المسألة الخطيرة .

أما تأثير الاماني والمعتقدات فهو من أقوى عوامل تطور الحضارات . ان حلم السعادة والرخاء والنعيم ، وحلم الحرية والاستقلال ، ومبدأ العزة والكرامة ، وأمل المساواة والرفاهية ، خير معين للمرء على دوام عمله وتحمل مشاقه ، وخير حافز على الرضى والتضحية ، وخير كاشف للشعور عن قسوة الاقدار ، وهو بلسم وعزاء للمحروم والضعيف اذ تجعله يتطلع الى الغد بأمل باسم وحلم لذيذ لولاهما لما تهالك الناس وراء الاماني ، وتمسكوا بالوعود ، وسعوا لنيلها من المهد الى اللحد .

ان مطمح الشعوب في العصور الاولى كان منحصرا في الحصول على الاماني المادية ، ثم تحول الى رفعة شأن الامة والوطن ، ثم تحول الى بناء عظمة الحضارة والقومية ، ثم تحول الى غاية اسمى قد لا تنال الا في الحياة المقبلة ، ثم تحول الى مثل أعلى يجمع بين هذه كلها ويجعل المجتمع يتمتع برغائب الجسم ورغائب العقل ، ورغائب الروح ، ورغائب الضمير .

وتثبت لنا صفحات التاريخ واحداث الزمن ان المطامح كالظلال الوارفة يتعشقها الانسان ولا تستغني عنها الانسانية . وان المبادىء والعقائد والمبادىء كانت ولا تزال مصدر الالهام ومصدر التوجيه في قيادة الشعوب وتحريك المجتمع ، تنشأ في البدء نشوءا غامضا وتبقى في غموضها رهن البطء والتحول الى اليوم الذي تظهر فيه وتنطلق وتثور بظهور الرجل العظيم ، او الحادث العظيم .

وليس المهم في المطامح أن تكون من الحقائق لنحكم على قوة تأثيرها ، وكذا الشعارات الثابتة التي نتمسك بها ، فقد دلتنا التجارب على أن اكبر الاوهام الفارغة اجتذبت الناس أكثر مما جذبتهم الحقائق الثابتة .

ولا عجب فقد تكون تلك الاوهام ، أو تلك الشعارات ، او تلك المطامح محببة الى القلوب والتصور والعواطف اكثر من الحقائق الثابتة فأثارتها وملكت زمامها ودفعتها لتتحرك وتتقدم ، لانها من اهم النوابض للكيان البشري .

والذي يظهر ان طلب السعادة والغرور بالسعادة كما يتراءى في أشكال مختلفة ، هو الذي جذب الاقوام بقوة مغناطيسية لا تقاوم .

وبهذا الغرور السريع الزوال عاشت الانسانية وستمضي في عيشها وراءه لانه من الخيالات التي يجب احترامها وتقديسها ما دامت سببا من أسباب وجود الحضارة وتقدمها .

١٠ ـ الى اين نحن سائرون في حضارتنا :

لقد عرفنا الحضارة والاسس التي تقوم عليها ، والغاية من بناء الحضارة ،

وعرفنا ما هي الثقافة والمدنية بالنسبة للحضارة ، وفهمنا متى ظهرت الحضارات ، واين كان مقرها ، وكيف تكونت الحضارة وانتقلت ، وادركنا هل للانسان تأثير في تطوير الحضارة وتغيير مجراها ، وما هي مقومات الحضارة الثمانية ، ومتى تظهر عباقرة الناس وافذاذهم ، وما هي تأثيرات المبادىء والعقائد والآمال والمطامح في رقي الحضارة ، وبقي علينا ان نعرف الى اين نحن سائرون في حضارتنا ؟

اننا الآن بين أمرين : اما أن نتطلع الى حضارتنا الماضية التي حفظ لنا التاريخ تراثها وحفظ لنا مع الزمن الكثير من معالمها ، فنقتبس عنها عقائدنا ومبادينا ومثلنا العليا في الحياة المادية والمعنوية ، ونتقيد بالصالح من عاداتها وآدابها ومقوماتها القومية والخلقية والاجتماعية ، واما ان لا نتطلع اليها بل نحول نظرنا الى ما في حاضرنا من حضارات يمثلها الغرب فنتبعها بسائق الاحتكاك والتقليد والاقتباس ، ونتقبلها بخيرها وشرها دون تمحيص ولا اختيار ، واما ان نتطلع الى ماضينا وحاضرنا فندرس ماضينا وما كان في حضارتنا من مقومات صالحة فنتمسك بها وهذا من حقنا وباختيارنا ، وندرس حاضرنا وما هي عليه حضارات الغرب وما فيها من مقومات صالحة فنقتبسها وهذا من حقنا وباختيارنا ، ثم نوازن بين السرعة في التطور والثبات في الامور التي هي من خصائص قوميتنا وصالح عقائدنا وآدابنا وحياتنا ، مما يساعدنا على اشباع شغفنا من العلم وعلى تطبيقه في جميع اعمالنا ، وتنظيماتنا ، وتخطيطاتنا ، ومشروعاتنا ، فلا نخطىء ولا نتعثر .

وقد يكون هذا الرأي صحيحا من الوجهة النظرية ولكن ماذا نعمل وتيار المدنية الحديثة يكاد يجرفنا ويعرقنا بمذاهبه الاجتماعية المتنافرة ، وعقائده المادية المفرطة ، وعاداته الاباحية الفاسدة ؟ كيف نتحرر ونمشي في تنظيمنا الاجتماعي وتنظيمنا الاقتصادي ، وتنظيمنا الفكري ، ودول الغرب تكاد تأسرنا باستعمارها الصناعي ، وتبلينا بنزاعها السياسي ؟ كيف ننجو من مخالب طمعها وقد مدت شباكها لتجذبنا اليها وترغمنا على قبول ما لديها ؟ وهل يكفي

حيادنا السياسي لنتجنب شرها وشر حربها وشر الهلاك الذي اعدته لمن لا يمشي بركابها ؟ .

كيف نبتعد عن ويلات المدنية وويلات الاستعمار وننقذ بلادنا من مطامع المنقسمين الى معسكرين ؟ كيف نحل مشاكلنا وما اكثرها وهؤلاء دعاة التعاون وخدمة السلام نرى انيابهم تتكشر لنا كل يوم ؟

نعم ان العالم ليس اوروبا ودولها ، بل توجد أمم ودول اخرى في أربع قارات لها وجودها وقوتها ويوجد بينها من يعمل مثلنا لاستكمال قوته وبناء حضارته فهل شكواها غير شكوانا ؟ وهل قضاياها غير قضايانا ، قد نتشابه في الكثير منها وقد نتباين في القليل على ان المهم ان نتعظ منها ونستفيد من تجاربها ، ومع هذا فمن يريد ان يحيا في وطنه وأمته وان يبني مستقبله ويتقدم في رقيه ، فالطريق السليم التي يتبعه امثالنا ، والطريق السليم الذي اتبعه من تقدمنا ، ان نعالج امورنا من جميع نواحيها ليستقيم بنيان حضارتنا على اسسها الاربعة واعمدتها الثمانية وهذا متوقف على مقدار وعينا ووعي المسؤولين منا ، وعلى قوة العلم والثقافة وما نبذله من الجهد والمال والوقت لاشباع ظمئنا من العلم دون انانية ولا غرور ولا احتكار ، مع العلم بما يكمن وراء العلم الحديث من الولاء المتفاني في حب الحقيقة والسعي لاكتشافها ، وما يكمن في الحقيقة من قيم روحية ، وعقلية ايجابية يسعى لتنميتها والولوج الى مجاهيلها .

واذا كان اتجاهه حتى الآن منصرفا لتكثير وسائل الحياة وتعميمها وتسهيل نيلها أكثر من ميله نحو كشف الغايات وتقريب المثل العليا فلأنه لا يريد أن ينقطع عن عبادة الكمية ، وتقديس القوة المادية ليعنى العناية الكافية للكشف عما وراء الطبيعة وترقيق حواشي الغرائز البشرية وتحسين النمو الشخصي .

وحسبنا أن يكون نصيبنا من العلم في بناء حضارتنا ما فعلته اليابان قبل ثمانين سنة من نهضتها ، وكما فعلت روسيا المتحدة قبل اربعين سنة من انعتاقها وكما تفعل الهند اليوم ويفعل غيرها .

والمهم ان نجدد في اساليب تفكيرنا ، وفي اساليب عملنا ، وفي اساليب بنائنا ، فنتبع أساليب التفكير العلمي الحديث ، واساليب التنظيم العلمي الحديث وأساليب التخطيط والبناء العلمي الحديث ، وهذا سر الحضارة الحديثة ، وسر الفارق بيننا وبين من تقدمنا .

يقول معاون رئيس الجامعة الاميركية الدكتور قسطنطين زريق في مقال له عن التقدير المتبادل لقيم الشرق والغرب الحضارية « ان جوهر اي حضارة وعنصرها المقرر لاتجاهها ، يقومان على نظريتها في الانسان .

فعلى النظرية الانسانية التي تكونها حضارة ما ، تتوقف مراتب قيم تلك الحضارة ، ولذلك كان اعادة التفكير في الحضارة الحديثة المذكورة ان تستكنه نظرتها الجوهرية للانسان لمعرفة ما هي العناصر في هذه النظرة ، ولما كان تحرير طاقتنا الفكرية من القيود التي فرضها الماضي المظلم تحتاج لفتح ابواب معاهد العلم ، وانشاء المؤسسات الفنية وفي الاعمال الناتجة عنها التي اوصلت هذه الحضارة الى حالتها الحاضرة » .

ثم يقول : « وعلى ورثة الحضارات الشرقيـــة اخضاع هذه الحضارات التقليدية لعمل الخير النقاد ، وبهذه الوسيلة فقط نصفي قيمتها الموروثة ونبعثها ، ونبرز نظريات تلك الحضارات في الانسان لنواجه نظريات جزئي العالم الغربي فنصححها وتتصحح هي بها » .

ولجعل الكلام فيما تقدم واضحا نقول ان حضارتنا الحديثة وان كان بدؤها منذ قرر احرار العرب بعث القومية العربية وتوحيد البلاد العربية وفي سبيل ذلك جاهدوا واستشهدوا ، فان ثمار جهادهم لم يؤت أكله الا يوم تحررت سوريا ومصر وقررت الاتحاد وكان من حظ البلدين ومن حظ العالم العربي ان يكون حامل لواء الوحدة ومنقذها وحاميها الرئيس الاول جمال عبد الناصر .

وحيث اختبرنا الماضي وعجنا الايام وقررنا المضي في تشييد بناء هـذه الوحدة على اسس من العلم والمعرفة والثقافة والديموقراطية التعاونية الحقة كما

بين معالمها وفلسفتها القائد المنصور ، فاتجاهنا مقرر بما رسم من خطط وتنظيم وقيادة ، وتصنيع ، واصلاح ، وتعليم ، وحماية ، ودفاع ، وتجديد .

ولما كان تحرير طاقتنا الفكرية من القيود التي فرضها الماضي المظلم تحتاج لفتح أبواب معاهد العلم وتمكين العلماء ورجالات الفكر من البحث والتجربة والاستكشاف ، وكانت الانظمة الاجتماعية التي تعد اجهزة الجسم الاجتماعي وهي والعلم يعدان من مقومات الحضارة وهي ترجع الى سلسلتين رئيسيتين الواحدة واسطة والاخرى غاية .

الواسطة يمثلها (الدين ، والجندية ، والآداب . والشرائع ، والقضاء ، والامن ، والنظام ، والتنظيم) ، والغاية يمثلها (العلم والاقتصاد والسياسة) فانه من المهم تقوية الوسائل المذكورة الى الحد الكامل لتتلاءم مع الحاجات والغايات وتخدم الآمال والأهداف .

هذا والانظمة الاجتماعية والانظمة العلمية كلما نمت ، نما معهما الجسم الاجتماعي وثبتت قواعد الحياة وارتفع بنيان الحضارة .

ولكي تدوم حركة السير في جعل الامة بمجموعها أو باكثريتها لا باقليتها تساهم ، وتهتم بالانماء والبناء ، يرى العلم ضرورة قصوى لنشر الوعي العام ، وايقاظ الشعور القومي ، واطلاق الفكر العلمي ، وتنشئة جيل يربى ويدرب على ما ذكر بتفكير علمي عميق ، وأخلاق جدية ، واخلاص للغاية .

وفي الختام لا بد من القول ان الاهتمام بالشيء يولد التفكير ، والتفكير يدعو للعمل ، والعمل مع الاهتمام والتفكير يدعو للانجاز والنجاح .

والحضارة اذا سادها العلم وتناول بناءها العلماء المخلصون والرجال العاملون واكتنفها التنظيم وبعد عنها الارتجال ، واهتم جميع الافراد باداء الواجبات ،

وحفظت اخلاق الامة من دواعي الفتن والتفرقة والشك والحيرة والاهمال ، استقام امرها وسلمت حياتها ، واذا غلب على قادتها وأهليها اللامبالاة ، اخذها المرض واعتورها داء الاتكال .

وكما قامت حضارتنا الاولى على الايمان والجهاد ، والتضحية ، والعلم ، والعدل ، والتمسك بالاخلاق ، فعلينا أن نتجه نحو الغاية المنشودة من حضارتنا بهذه المقومات ، وبما يفرضه العلم ، وكل من سار على الدرب وصل .

ما هو الادب ومن هو الاديب ؟

ما هو الادب ؟

جاء في لسان العرب (١) لابن منظور الافريقي المتوفى عام ٧١١ هجري : « ان الادب أدب النفوس وأدب الدرس . والادب معناه الظرف ، وحسن التفاؤل » وهو مفهوم لغوي حددته ذهنية كانت تعتبر الادب نوعا من الاخلاق ، والعادات المحترمـــة المتواضع عليها بين المجتمع ، وتعتبره ايضاً مظهراً للدرس والتثقيف ، وحسن السلوك ، ولطافة الذوق .

وقال السيد الجرجاني (٢) صاحب كتاب التعريفات المولود عام ٧٤٠ والمتوفى عام ٨١٦ في تعريفه للادب : « ان الادب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ » .

وقال : « آداب البحث صناعة نظرية يستفيد منها الانسان كيفية المناظرة وشرائطها ، صيانة عن الخبط في البحث ، والزاما للخير » .

وعبارته تدل على أنه كزميله السابق صاحب اللسان يعتبر الادب معرفة عامة شاملة تمكن الانسان من تجنب أنواع الخطأ ، أي انه دراسة وثقافة

---

(١) لسان العرب لابن منظور من امهات كتب اللغة يقع في /٢٠/ مجلدا .

(٢) السيد الجرجاني صاحب التعريفات اسمه (علي بن محمد بن علي بن السيد الزين أبو الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي) ويلقب بالسيد الشريف . ولد بجرجان عام ٧٤٠ وكان من العلماء الاجلاء في عصره ، وله عدة مؤلفات في اصول المنطق . وكتاب التعريفات في الالفاظ المصطلح عليهـــا بين الفقهاء والفرضيين ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والنحاة ، والصرفيين ، والمفسرين وغيرهم . وله كتاب في اصطلاحات محي الدين بن العربي وله حاشية على شمسية القزويني ، وحاشية على اول تفسير الكشاف ، ورسالة في اصول فن الحديث ، والرسالة الشريعية في آداب البحث ، وله كتب ورسائل اخرى في المنطق ، والفرائض ، والحديث ، توفي عام /٨١٦/ .

تشمل المنطق الذي يعصم الفكر عن الخطأ ، وعلوم النحو والصرف والبيان والمعاني والبلاغة التي تعصم اللسان عن الخطأ في الكلام والكتابة والخطابة .

ثم يزيد على تعريف زميله بانه صناعة نظرية (أتيكيت) أي مراسم وآداب « وتكنيك » اي اسلوب وطريقة ، يستفيد منها صاحبها كيفية المناظرة ، وشرائطها ، وآدابها صيانة عن الخبط في البحث ، والزاما للخصم وافحامه .

وهو يريد ولا شك أصول المناقشة وتبادل وجهات النظر والرأي ، والدفاع عن الفكر ، كما هو مطلوب من أعضاء الجمعيات ، والادارات ، والمؤسسات ، والوزارات اثناء اجتماعهم ومذاكراتهم ، ومطلوب من المجامع العلمية والادبية التي تجتمع للمحاضرة والمناقشة والبحث والاتفاق حول القضايا المبحوث فيها . وما عناه وأراده فيه الكثير من الصواب .

ويقول الماوردي صاحب كتاب « أدب الدين والدنيا » المولود عام ٣٦٠ والمتوفى عام ٤٥٠ وهو أوسع أفقا واعمق فهما للادب ومعانيه ممن تقدمه او تأخر عنه : « ان الادب أدبان : أدب مواضعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح » .

« فاما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليداً على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء ، واتفق عليه استحسان الادباء .

وليس لاصطلاحهم على وضعه دليل مستنبط ، ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب ، كاصطلاحهم على مواضعة الخطاب ، واتفاقهم على هيئة اللباس .

على ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها ، صار مجانباً للادب مستوجبا للذم ، لان فراق المألوف في العادة ، ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفضي الى استحقاق الذم بالعقل ما لم تكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث .

وقد كان جائزا في العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه أو

اعتادوه فيرونه حسناً ، ويرون ما سواه قبحاً فصار مشاركا لما وجب عقلا من حيث يوجه الذم على تركه ، ومخالفاً له من حيث أنه كان جائزا في العقل أن يوضع خلافه » .

والماوردي بتعريفه هـذا يكشف لنا على أنه من رجال الادب والعلم ، ومن علماء الكلام في وقت واحد ، فجعل الادب قسمين : أدب مواضعـــة واصطلاح ، شأن بقية الامور الادبية والفنية التي تقوم على الهام العاطفة والذوق وتمجيد الاصطلاح والمواضعة ولا تقوم على قواعد البرهان والمنطق ، وقوانين العلم بالمفهوم الحديث .

وادب رياضة واستصلاح ، والقصد تحسين السلوك ومماشاة المجتمع في المحادثة والمخاطبة والكلام ، وفي اللباس والاجتماع والتعامل ممـا يعود للآداب جاعلا تعليله خوف المخالفة كما اتفقوا عليه أو اعتادوه ولو كان ذلك على حساب الحرية ، حرية الرأي وحرية الحياة . ولماذا ؟ لانه كان يخشى غضب المجتمع وانتقاده واضطهاده ، فآثر ان يبقى محافظاً ومقلدا وفي نفسه ما يدل عليه كلامه .

وقال « صاحب السعادة » احمد ابو الخير بن مصطفى طاش كوبري المتوفى عام ٩٢٦ عن الادب : « ان الفائدة من علم الادب هو التخاطب ، والمحاورات في افادة العلوم واستفادتها ، وان العلماء اعتنوا به واستخرجوا من ذلك علوما قسموا أنواعها الى اثني عشر علما وسموها بالعلوم الادبية لتوقف ادب الدرس عليها بالذات ، وأدب النفس بالواسطة ، وبالعلوم العربية لبحثهم عن الالفاظ ... » الى آخر ما جاء في قوله وعرضه .

وكما يظهر ان الادب عنده وسيلة وفائدة ، ولكن كلامه جدير بالاستبصار ومزيد الاعتبار ، اذ يقترب في فهمه للادب من مفهوم ادباء اليونان وفلاسفتهم ، ومفهوم معظم ادباء العرب وحكمائهم الذين يعرفون الادب « بانه مجموع قواعد وقوانين يجب على الانسان أن يسير بموجبها » .

وبتعريف آخر « انها سنن ادبية ترشده في جميع احواله الى خطوات ،

وواجبات عليه . ومبادلات مع امثاله من البشر . وغاية هذه السنن ادراك العادة الدنيوية ، واخصها تعديل شهوات النفس وزجرها عن المطامع . وعلى الجملة فالعلوم الادبية سنن آداب كثيرة تجمعها سنة أدب النفس » .

ويقول احد العلماء الادباء : « ان الادب عبارة عن ما يحترز به الانسان من جميع انواع الخطأ ، وانه قسمان : طبيعي وكسبي . فالطبيعي ما فطر عليه من الاخلاق الحسنة والصفات المحمودة كالعلم والحلم .

والكسبي ما اكتسبه بالدرس والحفظ والنظر ، وهو المقصود لمعرفة اساليب الكلام البليغ في كل حال من احواله . وموضوعه : المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته . وغايته : الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب لتهذيب العقل وتذكية الجنان . وفائدته : انه يعصم صاحبه من ذلة الجهل ، ويروض الاخلاق ، ويلين الطبائع ، ويعين على المروءة ، وينهض بالهمم الى طلب المعالي والامور الشريفة » .

ثم يرى ان للادب أربعة أركان :

الركن الاول : قوى العقل الغريزية وهي خمس : الذكاء ، والخيال ، والحافظة ، والحس ، والذوق .

الركن الثاني : معرفة الاصول العامة كالتآليف الادبية من منظوم ومنثور في اغراض شتى كالتآليف المفردة بالرسائل والامثال .

الركن الثالث : مطالعة تصانيف البلغاء بالتأني والتبصر فيها ، ليذخر له كل حفظ موافق شريف ، وكل معنى بديع حيث يتصرف بها عند الضرورة . وشرطها ثلاثة :

١ ـ ان يشتغل المطالع ببعض كتب علماء اللغة وأئمة الادب .

٢ ـ ان يطيل النظر في هذه المطالعة ويردد ما استحسنه من

تصانيفهم ، كي يروض الذهن فى حلبة سباقهم فيقف على غريب أسلوبهم وعجيب تركيبهم .

٣ ـ أن ينتقي منها شيئاً مما استجاده من اللفظ الحرّ ، والتراكيب الصحيحة ، والمعاني البليغة لتكون ذخراً لذاكرته ومهمازا لقريحته .

الركن الرابع : الارتياض ، وهو التدرّب بوجوه الانشاء بأن يتوسع في شرح بعض المعاني فيتبينه بأوجه شتى ، وينمقه باشكال البديع ، ويجتهد فى وضع بعض مواضيع وجيزة ، فيصوغ تارة وصف حال ، أو وصف مدينة ، او وصف منظر ، أو وصف حادث . واخري يسرد مثلا ، أو يسبك رواية ، او ينظم شعراً أو غير ذلك .

وأن يحذو حذو المتقدمين في اوضاعهم باستعمال الفاظهم ومعانيهم ، وان يحلّ النظم فيأتي به نثراً أنيقا ، ويعقد النثر فيصوغه صوغا رشيقا .

ان هذا القول مع تفصيله يدل على صحة نظر صاحبه فيما ينطوي عليه علم الادب وما يحتاجه الاديب الطالب لبلوغ مراتب المجيدين وما هو المنهاج الذي يجب ان يتبعه .

ويذكر أبو اسحق ابراهيم المعروف بالقيرواني (١) وكان شاعرا وأديبا ولد عام ٣٩٠ وتوفي عام ٤٥٣ ، وله قصيدة افتن فى معارضتها الشعراء وغناها المغنون ، ومطلعها كما تعلمون :

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقه ... أسف للبين يردده

ومنها :

يا من جحدت عيناه دمي ... وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمي ... فعلام جفونك تجحده

---

(١) نقلا عن كتاب « زهر الآداب » للقيرواني صفحة ١٤٠ الجزء الاول

« ان أنواع الادب كما قال الحسن [1] بن سهل ، عشرة : ثلاثة شهر جانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن .

فأما الشهرجانية : فضرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب الصوالج [2]

وأما الانوشروانية : فالطب ، والهندسة ، والفروسية .

وأما العربية : فالشعر ، والنسب ، وأيام الناس .

وأما الوحدة التي أربت على الجميع فمقطعات الحديث والسمر ، وما يتلقاه الناس في مجالسهم . وزاد عليها قوله : خذ من العلوم نتفها ، ومن الأدب طرفها . واعلم ان مقطعات الادب قراضات الذهب وماذا في هـــذا التعريف الظريف والفهم الجديد ؟ » .

من البديهي ان يقول وزير المأمون هذا التعريف عن الادب وهو العائش في النعمة والترف ، وفي بلاط الخلفاء وقصور الوزراء واحد المشهورين بالادب والفصاحة والذكاء المفرط ، ولا عجب فيما شرطه وأوصى به ، والبيئة التي نشأ فيها ، والثقافة التي تحلّى بها ، والاستعداد الفطري الذي تجلّى فيه ، والمواهب التي كونت خلقه وأطلقت جنانه . جعلته يجمع بين الفن والسماح والطرب ، والفروسية ، والتاريخ ، وبين العلم من طب وهندسة وغيرها ليكون أديبا في دور العباسيين ، وكانوا أهـــل علم وأدب ، ليوقع على الكتب الواردة اليهم والصادرة عنهم باسمهم بتواقيع غدت مضرب الامثال بالايجاز والبلاغة والفصاحة وهي من صفات الاديب ومن عناصر الادب .

---

(١) حسن بن سهل بن عبد الله الرحمن : وزير المأمون العباسي ، ووالد « بوران » زوجته ، توفي عام ٢٣٦ وكان احد المشهورين بالذكاء المفرط ، والادب والفصاحة والانشاء وكتابة التواقيع التي غدت مثلا يحتذى في الايجاز والبلاغة .

(٢) جمع صولجان : وهي تشبه لعبة (الكريكيت) او (الغولف) في وقتنا الحاضر ، ومدارها طابة تقذف بالعصي .

ويأتي صاحب (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) في معجمه عن الادباء وهو ياقوت الحموي الشهير المولود عام ٥٧٥ والمتوفى في حلب عام ٦٢٦ في احدى خاناتها بظاهر البلدة بعدما حلت به المصائب واخنى عليه الدهر ببؤسه وشقائه ، فيقول مخاطبا كل أديب يطلب الادب :

« واعلم حباك الله بحسن رعايته ان هذا الفن من العلم ليس من بابه من يطلب العلم للمعاش . او ليحصل الزينة والرياش ، ولا هو مما ينفق في المدارس او يناظر به في المجالس ، انما هو علم الملوك والوزراء ، والجلة من الناس ، والكبراء . يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ، ونزهة لنفوسهم ، ترتاح اليه أرواحهم ، وتشتمل عليه أفراحهم ، فهو ربيع النفوس النفيسة ، ورأس مال العلوم الرئيسة »

وقد اعلمنا بهذا النداء الذي يرفع معنى الادب الى اعلا ما يتصور . أن طلب الادب يجب ان يكون لوجه الادب لانه في نظره ربيع القلوب ونزهة النفوس وراحة الروح ، ومرتع العقول ، وبذلك جرده من كل غاية مادية مهنية ليشرب صاحبه من رحيقه شرابا صافيا ، ويعيش في محرابه صوفيا يعبد الفن ، ويعبد الادب ، وهما روحان حلا في بدن لا يفترقان . وكائنان لا يصل اليهما إلا من عرف ما هي المثل ، وما حقيقة المثل في الادب والعلم والفلسفة .

وقال صاحب كتاب (أدب الكاتب) محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المولود عام ٢١٣ في الكوفة والمتوفى فيها عام ٢٧٦ في مقدمة الكتاب المذكور :

« وبعد فاني رأيت اكثر اهل زماننا هذا عن سبيل الادب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولاهله كارهين .

اما الناشىء منهم فراغب عن التعليم ، والشادى (١) تارك للازدياد ،

---

(١) الشادى : الذي يحصل من العلم على بعض المعرفة :

فهل يشدون مني بعض معرفة وهن بالوصل لا بخل ولا جود) للاخطل

والمتأدب في عنفوان الشباب ناس او متناس ، ليدخل في جملة المجدودين (١) ويخرج عن جملة المحدودين .

فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون (٢) حين خوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقيصا ، وأموال الملوك وقفا على النفوس والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءات في زخارف النجد - (مايزين به البيت من أنواع البسط والثياب) - وتشييد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزهد في لسان الصدق ، وعقد الملكوت (٣) ، فابعد غايات كاتبنا في كتابته ان يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، واعلى منازل اديبنا ان يقول من الشعر ابياتا في مدح فتيته ، او وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا ان يطالع شيئا من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء وحدّ المنطق ، ثم يعترض على « كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث الرسول بالتكذيب وهو لا يدري من نقله .

قد رضي عوضا من الله ومما عنده بان يقال فلان لطيف ، وفلان دقيق النظر ، يذهب الى ان لطف النظر قد اخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء (٤) ، والغثر (٥) ، وهو لعمر الله بهذه الصفات اولى ، وهي به أليق ، لانه جهل وظن أن قد علم ، فهاتان جهالتان ولان هؤلاء جهلوا وعلموا انهم يجهلون .

---

(١) المجدود صاحب المجد والامجاد . (٢) المقموع : المقهور

(٣) عقد الملكوت او زهد الناس : اي بناء السلطان .

(٤) الغثاء : الهالك .

(٥) الغثر : الاوغاد من الناس ، مفرده : أغثر .

ولو ان هذا الزاري على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لاحياه الله بنور الهدى ، وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه ان ينظر في علم الكتاب وفي اخبار الرسول وصحابته وعلوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولامثاله المسلمون وقل فيه المناظرون له ، ترجمة تردد بلا معنى ، واسم بهول (١) بلا جسم ، فاذا سمع الغمر (٢) ، الحدث (٣) ، الغر (٤) ، قوله الكون والفساد ، وسمع الكيان والاسماء المفردة والكيفية ، والكمية ، والزمان ، والدليل ، والاخبار المؤلفة ، راعه ما سمع وظن ان تحت هذه الالقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم ، والكلام اربعة : امر وخبر واستخبار ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي : الامر ، والاستخبار ، والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر . والآن حد الزمانين مع هذيان كثير . والخبر ينقسم الى تسعة آلاف ، وكذا وكذا مائة من الوجوه .

فاذا اراد المتكلم ان يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالا على لفظه ، وقيدا للسانه ، وعيا في المحافل ، وغفلة عند المتناظرين » .

ثم يقول فاني رأيت كثيراً من كتاب اهل زماننا كسائر اهله استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز ، واعفوا انفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكر حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة .

ولعمري كان ذاك فاين همة النفس ، واين الانفة من مجانسة البهائم ؟

---

(١) بهول : بطل .

(٢) الغمر : الماء . والغمر : من لم يجرب الامور .

(٣) الحدث : الشاب .

(٤) الغر : الذي لا تجربة له .

ثم يقول عنهم فما رأيت أحدا منهم يعرف فرق ما بين الوكع (١) والكوع ولا الحنف (٢) من الفدع (٣) ، ولا اللمس (٤) من اللطع (٥) ، فلما رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظا من عنايتي وجزءا من تأليفي الخ ...

ولا شك ان ابن قتيبة كان علما من اعلام الادب ، وله التآليف العديدة (الاخبار الطوال) في التاريخ ، وكتاب الباه ، وكتاب لحن العامة ، وكتاب الشعر والشعراء ، وكتاب إصلاح المنطق ، وكتاب الفصاحة ، وكتاب الجبر والمقابلة ، وكتاب البلدان ، وكتاب بيان آداب العرب ، وكان نحويا وراوية ، وصاحب هندسة ، ويظهر انه لم يتنعم بخير الزمان بمقدار علمه ولذا حمل على من يدعي الادب في زمنه وهو غير أهل له ، ولكن نظرته الى الادب كانت نظرة عالم وأديب وفنان .

ويقول ابن خلدون (٦) (عام ٧٣٢ - ٨٠٨ ووجد أيام تيمورلنك) عن الادب في مقدمته :

« هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها ، وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمراته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثناء ذلك ، متفرقة يستمري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ويقع في اشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة .

---

(١) الوكع ـ ابهام الرجل (٢) الحنف ـ ميل الرجل ، اقبال ابهام الرجلين على بعضها . (٣) الفدع ـ اعوجاج الرسغ . (٤) اللمس ـ اسوداد الشفتين أو سمر الشفتين . (٥) اللطع ـ بياض في باطن الشفة يعتري الزنوج . (٦) ابن خلدون ـ ولد عام ٧٣٢ وتوفى عام ٨٠٨ ووجد في دمشق ايام تيمورلنك ثم ذهب الى مصر ومنها عاد الى بلاده وتوفى فيها .

والمقصود بذلك كله ان لا يخفى على الناظر في شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفحه ، لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه .

ثم انهم اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا : « الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث ، اذ لا مدخل بغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » .

« وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : وهي ادب الكتاب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لابي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع عنها . وكتب المحدثين في ذلك كثيرة ، وكان الغناء في الصدر الاول من اجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر ، اذ الغناء انما هو تلحينه .

وكان الكتاب الفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، فلم يكن في انتحاله قادحا في العدالة والمروءة » .

« وقد الف القاضي ابو الفرج الاصبهاني كتابه في الاغاني جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا التي اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري انه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها واني له بها .

ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب » .

وملخص كلامه ينطوي على ما يأتي :

١ ـ هذا العلم المسمى بالأدب لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها .

٢ ـ المقصود منه عند اهل اللسان الاجادة في فني النظم والنثر على اساليب العرب ومناحيهم .

٣ ـ ان طالب الادب يحتاج الى الشعر العالي والسجع المتساوي في الاجادة ، ومسائل في اللغة والنحو والى معرفة ايام العرب وذكر المهمّ من الانساب الشهيرة ، والاخبار العامة .

٤ ـ وحدّ الادب عنده (حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والاخذ من كل علم بطرف كالعلوم الشرعية ، والعلوم اللسانية ، وعلم البديع والبيان والبلاغة) ومعرفة مصطلحات العلوم .

٥ ـ ان أركان الادب أربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب القالي المسمّى بالنوادر ، وكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وما سواها فتبع لها .

٦ ـ ان الغناء فى الصدر الاول كان من اجزاء فن الادب لان الغناء كان تلحينا للشعر ، واحسن الكتب بهـــذا الخصوص كتاب الاغاني لابي فرج الاصبهاني .

وكلامه لا يخرج عما قاله احمد أبو الخير في مفتاح السعادة ، ولا عما قاله الماوردي صاحب كتاب أدب الدين والدنيا .

ويرى صاحب « نهاية الارب فى فنون الادب » السيد شهاب الدين النويري الكندي المولود عام ٦٧٧ والمتوفى عام ٧٣٣ :

« ان فن الادب ما حل الكاتب بواديه الا وعمرت بواديه ، ولا ورد مشارعه الا واستعذب شرائعه ، ولا نزل بساحته الا واتسعت له رحابها ، ولا تأمل مشكلاته الا وتبينت له اسبابها .

ويرى ان فن الادب ينقسم الى خمسة فنون ، وكل فن ينقسم الى خمسة اقسام :

١ - الفن الاول في السماء والآثار العلوية والارض والعالم السفلية واقسامه خمسة:

١ - القسم الاول في مبدأ خلق السماء .
٢ - القسم الثاني في الآثار العلوية .
٣ - القسم الثالث في الليالي والايام والشهور والاعوام والفصول .
٤ - القسم الرابع في الارض والجبال والبحار والجزائر والانهار والعيون .
٥ - القسم الخامس في طبائع البلاد واخلاق سكانها وخصائصها والمباني القديمة والمعامل والقصور والمنازل .

٢ - الفن الثاني في الانسان وما يتعلق به وهو ينقسم الى خمسة أقسام :

١ - القسم الاول في اشتقاقه وتسميته وتنقلاته وطبائعه ووصف اعضائه وتشبيهها ، والغزل والنسيب والمحبة والعشق والهوى والانساب .

٢ - القسم الثاني في الامثال المشهورة وفي أوابد العرب واخبار الكهنة في الفراسة والذكاء وفي الكنايات والتعريض والاحاجي والالغاز .

٣ ـ القسم الثالث في المدح والهجو والمجون والفكاهات والملح والخمر والمعاقرة ، والندمان ، والنقيان ، وآلات الطرب والغناء والسماع .

٤ ـ القسم الرابع في التهاني والبشائر ، والمراثي والنوادب ، والزهد والتوكل والادعية .

٥ ـ القسم الخامس في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه وما يجب له على الرعية وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء وقادة الجيش وأوصاف السلاح وولاة المناصب والكتاب والبلغاء .

٣ ـ الفن الثالث في الحيوان الصامت :

١ ـ القسم الاول في السباع وما يتصل بها .

٢ ـ القسم الثاني في الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها .

٣ ـ القسم الثالث في الخيل والابل والبقر والغنم والحمير .

٤ ـ القسم الرابع في ذوات السموم القواتل .

٥ ـ القسم الخامس في الطير والسمك ، وسباع الطير ، وبهائم الطير ، وبغاث الطير ، والهمج .

٤ ـ الفن الرابع في النبات :

١ ـ القسم الاول في أصل النبات والاقوات والخضروات والبقولات .

٢ ـ القسم الثاني في الاشجار وذوات الثمر ، وذوات النوى ، وما ليس له قشر ولا نوى .

٣ ـ القسم الثالث في الفواكه المشمومة والرطب .

٤ ـ القسم الرابع في الرياض والازهار .

٥ ـ القسم الخامس في اصناف الطيب والبخور والفواح والندود والادهان والمستقطرات والادوية .

٥ ـ الفن الخامس في التاريخ :

١ ـ القسم الاول يشمل من مبدأ آدم وأصحاب الرسل .

٢ ـ القسم الثاني يشمل ابراهيم الخليل وأولاده .

٣ ـ القسم الثالث يشمل موسى وبني اسرائيل ، وعيسى والحواريين .

٤ ـ القسم الرابع اخبار ملوك الاصقاع وملوك الامم والطوائف واخبار سيل العرم ووقائع الجاهلية والعرب .

٥ ـ القسم الخامس الملة الاسلامية من ظهور الاسلام الى ايام قلاوون الصالحي » .

وكلامه يدل على سعة علمه واطلاعه ، وكتابه ولا شك موسوعة لطلاب الادب يجدر بكل أديب الاطلاع عليها ليتزوّد من الادب القديم بما يساعده على التوسع في الادب الحديث والتمكن من مفهومه وشروط الحصول عليه .

وبعد ، لو أردت أن أحصي آراء أدباء العرب في العصور السالفة في عصر الامويين ، والعباسيين ، والحمدانيين ، والفاطميين ، والايوبيين ، والاندلسيين وغيرهم ، لطال بي المطال ، وأورثتكم الملال ، فأكتفي بما أوردت عن بعضهم لابيّن لكم مفهوم العرب للادب قبل ان تفهم أمم الغرب ما فهموه عنه في عصورهم الاخيرة .

واما المتأخرون من ادبائنا فمنهم من اتبع ما قاله العرب ، ومنهم من اتبع ما قاله الغرب ، ومنهم من اتبع ما قاله الاثنان .

ذكر الدكتور طه حسين أستاذ الادب المعاصر في كتابه « فصول في الادب والنقد » :

« ان الانتاج الادبي ظاهرة اجتماعية لا يمكن ان تكون الا في الجماعة التي تسمع الاثر الادبي أو تقرأه فتتأثر به راضية عنه أو ساخطة عليه ، عجبة به أو زاهدة فيه » .

وكلامه هذا ليس فيه تحديد لمفهوم الادب ولا تحليل له أو وصف لمحتوياته وماهيته ، انما هو اعتبار الادب مهما يكن انتاجه « ظاهرة اجتماعية ولا يفيد الا في الجماعة التي تسمع الاثر الادبي أو تقرأه وتتأثر به » .

وكان على حق لان الادب الذي لا يجد مجتمعا يتجاوب معه لا يزدهر ولا ينمو ولا تعلو مقاييسه ولا يسمو بألوانه ونتاجه كالموسيقا اذا لم تجد من يسمعها ولم تجد قلوبا تتأثر منها ، فكيف تزدهر وكيف ترقى وتتقدم .

ويقول أديب الشهباء الاستاذ قسطاكي حمصي : « ان الادب هو لسان حال المجتمع الانساني » . وتعريفه هذا يعني كل ما يريد المجتمع أن يقوله لسانا أو كتابة أو خطابا أو تصويراً او تمثيلا .

ويتفق مع التعريف الذي أوردته دائرة المعارف البريطانية عند بحثها عن الادب بقولها « ان الادب اصطلاح عام » وان يكن ناقصاً في تحديد مفهومه ومعناه ، ولكنه يفيد بانه أحسن واسطة للتعبير عن الفكر الانساني مسطورا في الكتابة . ثم تكمل قولها : « والادب في جميع فروعه وانواعه واشكاله واقسامه نتيجة ما للشعب من مواهب وخواص ، وخلاصة للامزجة الفردية والظروف السياسية التي تستعين بقسم من المجتمع فتساعده على نشر آرائه ومشاعره » .

وبهذا التحديد يعبر الادب تعبيراً صادقا عن ما يشعر به الانسان في نفسه بالنسبة لها وللعالم الخارجي ، وبالنسبة لما يختبره من الوقائع ، وما تمرّ به من الاحداث ، وما يشاهده من الحماس والاشخاص والمشاهد مصوّراً في الالفاظ والمعاني والمقولات والاصطلاحات ، والاستعارات التي تواضع المجتمع على استعمالها

والتحدث بها وعمل فيها عامل النشوء ، والتطور، والرقي ، والتكامل ، ونوعتها سنن العصر والحياة ، وتقدم العلم والفن والمدنية .

ويرى البعض ان الادب درس اكمل الاشكال الكلامية التي يستخدمها الانسان للتعبير عن آرائه وآراء المجتمع بلسانه وقلمه ، وعنده أن التعبير نوعان من الكلام وهما النثر والشعر .

فالنثر هو الطريقة المعتادة للتعبير عن الافكار ، والشعر هو الطريقة المعتادة للتعبير عن الذوق والعواطف ، وهذا التعبير جامع مانع لكنه يحتاج للتحليل والشرح والتفصيل .

على انني مهما اطلت في النقل والاستشهاد فلن استكمل الموضوع ولن أوفيه حقه لان الادب في اي امة كانت مرآة لرقيها بل - حسب عقيدتي - مقياس لرقيها ، ومظهر لمجتمعها ، ولسان لنشر فكرها ، ووسيلة لبث عاطفتها . والثقافة بدونه لا تكمل ولا تتعالى .

واذا كان واقع الحال هذا ولا جدال فيه ، سواء أكان في الماضي والحاضر أو في القديم والحديث ، فقصة الادب في العالم تبقى دعامة لتقدم الامم وازدهار حضارتها ، وهو لا ينحصر في الكتابة وانواعها ، ولا في النثر والشعر وانواعهما بل يشمل كلها ويشمل ما وصلت اليه المعرفة من العلم والفن بانواعهما واقسامهما وما ارتقت اليه العادات والعلاقات وما بلغته الازياء والتشريعات ، وما حدث في العالم الانساني من اختراع واكتشاف ، وبناء وتأسيس ، ومن المؤكد لولا الادب لفسدت العلوم في نقلها ، والفنون في تثبيتها ، ولفسد تفاهم الناس مع بعضهم بعضاً .

وتأييداً لذلك اذكر المقال ، الآتي الصادر في احد اعداد جريدة « الشباب » بحلب بتاريخ ١ شباط ١٩٥٩ وفيه النظرة الحديثة للادب والاديب :

« الادب ليس كالموسيقى او النحت او التصوير ، بل هو كل هذه الاشياء مجتمعة . فالكلمة لا حدود لها ، انها تؤدي اللحن العذب ، وتصور الطبيعة والانسان ، وتقيم التماثيل ، وتنشىء الزخارف . وهي فوق ذلك تميز

بالحركة المتصلة ، فهي تعبر المسافات والازمان ، وتنقل الافكار والعواطف بل انها تواجه الافكار المتناقضة بعضها ببعض والعواطف المتضاربة بعضها ببعض ، انها بلا حدود ، وهي قديرة على كل شيء .

« ولذلك فالادب هو الاسلوب الفني الوحيد الذي يستطيع الجمع بين المتعة الفنية والبحث العقلي ، بين الاستمتاع والعلم .

« والادب بهذه الصورة وسيلة هامة لمعرفة الحقيقة ، واستكشافها ، ولا يستطيع أي نشاط انساني آخر ان يزاحم الادب في الميدان الذي اختاره لبحثه وتجاربه واستكشافاته .

« فالعلوم تبحث في الطبيعة وقوانينها بما فيها الانسان ذاته ولكن باعتباره ظاهرة طبيعية .

اما الادب فمجاله هو الانسان المفكر والمنفعل ، والاهداف التي تصل لحد الخرافة والمستحيلات .

ولا يوجد علم من العلوم يزاول اكتشاف الانسان فى مجالي الفكر او العاطفة الا علم النفس . غير ان علم النفس يبحث في الظواهر العامة للانسان ويتابعه في طفولته الى رجولته ، ويراقب الانفعالات والتطورات التي تطرأ عليه ليخرج بحقائق عامة يشترك فيها غالبية الناس وربما استطاع الوصول الى حقائق تبلغ مرتبة القانون من حيث عمومها وانطباقها على جميع الناس .

« وهو اذ يفعل ذلك لا يخصص انسانا بعينه أو شخصية بذاتها ، بل الانسان كمطلق . ولكن الادب يدرس الانسان كشخص ما له خصائصه ومميزاته وهو لا يدرسه في حالة ثبات بل في حالة حركة مستمرة . هو يدرسه وهو يزاول حياته اليومية بما فيها من صراع ، وما خلف ذلك من دوافع ووسائل الانتصار وآثار الهزيمة . هو بمعنى اوضح يدرس الانسان من جميع زواياه ، وفي اللحظة التي يسلط عليه منظاره لا تقتصر على جانب من جوانبه

بل تشمل نظراته كل الجوانب ، وهو لا ينظر اليه في هذه اللحظة وحدها بل يتابعه في حركاته وأينما انتقل .

« وهكذا نرى ان للادب وظيفة هامة هي معرفة الانسان وهو في حالة حركة ، ولا يشترك مع الادب في هـــذه الوظيفة اي فرع من فروع النشاط الانساني .

« فمن طبيعة العلوم ـ ومنها علم النفس ـ الخروج من التخصيص الى التعميم فاذا درس علم النفس الاجتماعي ظاهرة الاضراب مثلا ، ينظر الى لحظات التحضير وافراز المجموعة للقيادة ، والقوانين النفسية التي تتحكم في اختيار هذه القيادة الخ ...

اما الادب فهو يصور الاضراب كمجموعة من النـاس يتميز كل منهم ويتعمق بأفكاره وانتقاله من مرحلة التردد الى التصميم ، والدوافع الشخصية لهذا التصميم ، ثم كيفية تحول الفكرة الى العمل .

« وعن طريق قصة حول الاضراب نستطيع ان نلم بالحقيقة الكاملة كلما كان التصوير في هذه الصفة موضوعياً .

ومعنى ذلك أن الادب لا يفوق علم النفس من حيث الشمول فحسب ، بل انه يتحول الى مصدر غني يختار علم النفس منه ما شاء ليصل الى قوانينه ، وهذا ما حدث فعلا في الواقع .

فكم كانت اعمال شكسبير مصادر غنية لعلماء النفس ؟ وكم استفـاد (فرويد) من (دوستويفسكي) في استنباطاته ؟ فاذا كان الادب هو النشاط الوحيد الذي يستطيع ان يعرفنا فهل نعده بعـــد ذلك شيئاً يهدف الى المتعة المجالسية او الى تحبيذ مذهب على مذهب او بث روح الحماسة فينا ؟

اننا بذلك نعطل وسيلة فعالة من تأدية وظيفتها لنطالبها بشيء ثانوي جداً بالنسبة لامكانياتها الواسعة . ولكن هل يستطيع الادب ان يعرفنا الحقيقة كما هي ؟ .

ولما كان الادب يمارس وظيفته عن طريق الكاتب ، وهو نفسه انسان يخضع للخطأ والصواب ، وتحكم ميوله الخاصة فيما يتصور او يدرس ، فاننا سنصطدم بحاجز هائل يجعل الرؤية الصحيحة مستحيلة أو شبه مستحيلة .

على انه لا مفرّ من مطالبة الكاتب بالموضوعية كلما أمكنه ، والكاتب يستطيع ان يقترب من الموضوعية اللازمة اذا تزود بالثقافة العلمية التي تبرىء نظرته من الخطأ .

فلا بد والامر كذلك من ان يكون الاديب مزوداً بايديولوجية كاملة ، وكلما كانت اصول هذه الايديولوجية حقيقية استطاعت ان تزوده بمفاتيح الحقيقة .

والكاتب غير المثقف بهذه الثقافة لا يستطيع ان يقدم لنا الا انطباعاته الشخصية ومزاجه الخاص ، ويفقد عمله كل فائدة من ناحية ، كما يفقد أهم ما يميز الادب ، وهو الجمال ، لأن الكذب وضعف النسج شيئان بعيدان عن الجمال كل البعد .

وفي عصرنا حيث تأخذ غالبية القراء باسباب الثقافة ينحصر جهود الكاتب غير المثقف في نطاق ضيق جداً يضيق يوما بعد يوم الى ان ينعدم تماما .

وسيكون على كاتبنا الموضوعي ان يحاول محاولات دائبة للاقتراب من الحقيقة وهذه المحاولة يكملها النقد وتفاعله مع الجمهور . ومع ذلك فنحن لا نطمع في الوصول الى الحقيقة الكاملة ، فحتى هذه الحقيقة في ميدان العلوم ليست كاملة . ولكن ما هي الحقيقة التي يحاول الكاتب اقتناصها وهو يسجل حياة الناس في قصة أو مسرحية ؟ .

في مجال حياة الانسان لا يوجد ثبات ، ليس هناك حقيقة ثابتة اوحقيقة جامدة ، فكل شيء في نفس الانسان وفيما يحيط به دائم الحركة ، دائم التغير .

وعلى ذلك فالكاتب عليه ان يدرك قوانين التطور ، فهو ملزم بان يلم بماضي ابطاله حتى ولو لم يتعرض في عمله الفني لهذا الماضي .

ولكن اللحظة التي يبدأ عندها عمله الفني بالنسبة لشخصياته منطوية على ماضي هذه الشخصيات ، وهي في نفس الوقت تشير الى مستقبلهم . وعلى ذلك فالكاتب يتبع هذه الحركة ويكشف عنها ، وبهذه الطريقة يستطيع الكشف عن خط سير المستقبل .

وهو هنـــا لم يفعل ما فعله جوركي ، انه لا يأتي بابن المستقبل ليجعله يعيش بيننا ، بل انه يأتي ببطل يعايشنا فيه كل امكانياتنا وتصورنا ، ومن خلال حياة هذا البطل يكشف عن خطوط المستقبل ويوحي بها .

ومن هنا يلعب الكاتب دور الدليل بالنسبة للركب الانساني الذي يمضي نحو غايته ، تلك الغاية التي ترمي الى التغلب على الطبيعة وعلى ضعف الانسان بمعرفة أسرار عالمه واسرار نفسه » .

وهكذا ننتهي بتحديد لوظيفة الادب و « هي دراسة الانسان دراســـة موضوعية وهو في حالة حركة مميزاته وهي الامتاع الفني والجمال » .

ولكن الا يفقد الادب اهم ميزة من هذا تقتضي منا ان نحاول فهم الجمال ؟ فاذا فعلنا ذلك حاولنا البحث عنه لدى كاتب يفهم وظيفة الادب على النحو السابق .

ويقول الدكتور محمد نويهي عن الادب في كتاب « ثقافة الناقد الادبي » :

« الادب كلمات يصدرها هذا الجنس الحي الذي نسميه الانسان حين يلاقي تجارب خاصة أو تمرّ به مواقف خاصة فى حياته على ظهر هذه الارض التي يعيش فيها ، او حين يتأمل في الكون الذي يحيط به او في الناس الذين يعيش بينهم محاولا بهذه الكلمات أن ينفس عن شعور خاص يجده في نفســه ويجده يدفعه دفعاً الى اصدار هذه الكلمات » .

ويقول : « واضح جدا اننا لا نستطيع فهم الادب ، ثم بالضرورة لا نستطيع ان نتذوقه تذوقا صادقا كاملا ان لم نحصل لانفسنا فهما حسنا للمسائل الآتية :

ما هو الانسان ؟ كيف نشأ في هذا الوجود ؟ كيف جاء الى هـذه

الدنيا ؟ ما علاقته بالموجودات الاخرى سواء منها ما يشبهه وما لا يشبهه ؟ ما هي هذه الموجودات ؟ ما هو الكون الذي نوجد فيه جميعا ؟ كيف يسير ؟ كيف تتأثر موجوداته بسيره ؟ كيف يتأثر بها الانسان خاصة ؟ ما مصدر تأثره هذا ؟ ما كنهه بالضبط ؟ لم يحدث فيه هذا التأثر ؟ هل يحدث في غيره ؟ هل هذه الكلمات هي منفسه الوحيد ؟ .

« ان الدراسات العلمية قد تجيب القارىء على هذه الاسئلة ، ولكن الادب يعطي عن هذه إجابة من نوع خاص ، اجابة ملونة بلون خاص هو تأثر الانسان وشعوره نحوها ، أيحبها أم يكرهها ؟ أتسعده ام تشقيه ؟ اترهبه ام تطمئنه ؟ وقبل ذلك نريد ان نعرف ما هي هذه الاشياء ، هل هي مجردة عن عاطفتنا وحكمنا الخلقي او الجمالي ؟ واذا لم نكوّن لانفسنا فكرة حسنة عن هذه المسائل فلن نستطيع ان نقدر الادب حق قدره ولا ان نفهمه الفهم التام الاصيل » .

وهو تعريف فيه تبسط وتفصيل دون تحديد منطقي .

الادب ليس كلمات تصدر عن الانسان حين يلاقي تجارب خاصة او تمر به مواقف خاصة في حياته او حين يتأمل في الكون او في البيئة الطبيعية التي تحيط به ، او في الناس الذين يعيش بينهم فحسب ، بل الادب لسان حال الانسان في حركاته وسكناته وتأملاته وشعوره وتجاربه وحياته وعلاقاته ، هو معرفة الانسان عن نفسه وعن الطبيعة وعن المجتمع ، هو عقله وما حواه ، ونفسه وما تحويه من عواطف ومشاعر ، هو التفاعل القائم بينه وبين نفسه ، وبين نفسه والمجتمع ، وبين ذاته والطبيعة ، وبين عقله ووعيه ، وهذا الكون وما فيه من مظاهر الوجود والحياة ، هو كلامه المعرب عن كل ذلك القادر على نقله الى عقل غيره من بني الانسان بصورة ولغة مفهومة ، جميلة ، اخاذة تتذوقها روحه ويحفظها عقله ويهضمها فهمه .

هو علمه وفنه عن الوجود وعما في الوجود من كائنات واحياء ، وجمادات ونبات وحيوان ، وقوى ومظاهر ، ومثل هذا هو الادب .

اما ما يتطلبه الادب من لغة وكتابة ، ونثر وشعر ، وعلم وأصول ، ومقاييس فتابع لرقي الانسان ورقي الحضارة ورقي العلم والفن ، ولكل زمان أدب ، ولكل أمة أدب ، ولكل حضارة أدب يتباين حاضره عما تقدم بنسبة تطور الفكر وتطور المعرفة وتطور الذوق الانساني الذي بدونه لا نستطيع أن نجد العلاقة بين الطبيعة والانسان فيما هو الجمال والخير والكمال ، وفيما هو الحب والائتلاف والتلاؤم والتجاذب ، وفيما هو التناقض والتنافر والتباعد والانحلال .

فاذا فهمنا الادب بهذا الحد استطعنا ان نتذوقه وان ننتقد ما خرج عن حدوده ، وأن ندرك قيمة ما يعرض علينا من نتاجه مهما يكن نوعه ومصدره وصاحبه . واما النقد الادبي فهو محاولة لفهم الثمرة العليا التي تنتجها الجذور المتشعبة من حيوانية وانسانية ، ومادية وفكرية ، واجتماعيـــة ونفسانية ، وعقائدية واخلاقية .

فالانسان حينما تتنازعه تلك التيارات المتضاربة ، ويحيره الكون بالغازه ، وتبلبله حياته هو بمشاكلها ، ويتنازعه جسده الحيواني بغرائزه الملحة الى اتجاه ، ومعتقداته الروحية الى اتجاه آخر ، ويحتار بين رغباته الفردية وبين ما يفرضه عليه مجتمعه من سلوك ، ويتردد بين تكوينه الجسماني الخاص الذي يكيفه بمزاج معين وبين ما تأمره به بيئته وتربيته ومثله العليا ، اقول حين يضطرب الانسان بين كل هذه الاعاصير المتصارعة المتنازعة تنشأ فيه حالة شعورية خاصة تضطره اضطراراً الى ان يحاول التنفيس عنها فتنفجر عاطفته المكبوتة في احدى صور الفن ، والادب أحدها .

ثم يتابع الدكتور الاديب مقالته في الصحيفة /١٦٣/ من الكتاب المذكور :

« حقا ان معظم الادباء به خروج عن المألوف من نوع ما ، ولكن قليلين منهم من يبلغون درجة الاختلال الذي اصيب به ابن الرومي ، ومع هذا يوجه النصائح الى نقاد الادب ليكونوا اهلا للنقد فيذكر لهم .

١ ـ دراسة حقائق العلم لتوسيع عقولهم وتعمق قوة تفكيرهم .

٢ ـ ليحتفظوا بمحصول انفسهم وليثبتوا أن تحصيلهم أوسع من نظرتهم وأرهف من ملكتهم النقدية .

٣ ـ ان يقبلوا على الدراسة العلمية مخلصين ولا يقحموا في كتاباتهم مصطلحات العلم من اجهزة واختلالات وغدد وافرازات إلا اذا اضطروا اليها اضطراراً .

٤ ـ عليهم ان يدركوا ان النفس الانسانية لا تزال وستظل ابداً لغزاً محيراً برغم التقدم العظيم الذي احرزته الابحاث العلمية الحديثة في سبيل شرحها واستخراج دفائنها مع علمهم ان معظم اعمال الانسان تخالف قواعد المنطق ، وان العلم انما بدأ امس يتبيّن العقد الدفينة التي تؤثر فيها وتوجهها .

٥ ـ ليدركوا ان عوامل البيئة قد يكون لها اثر اعظم مما رأيناه من عامل الوراثة .

٦ ـ ليدركوا ان اول قانون للثقافة العلمية هو الامانة التامة بتحري الصدق والدقة اقصى التحري .

٧ ـ ليدركوا اخيراً انهم مهما بلغت ثقافتهم العلمية فلن يستطيعوا ان يبلغوا فيها مبلغ المتخصصين ، فليتواضعوا في اخلاقهم ولا يتحدثوا كأنهم من قادة العلم » .

ويأتي بعده الاستاذ انيس منصور فينشر في « جريدة الاخبار اليومية » مقالاً عن ما يكتبه الاديب ويكون صاحب هدف بلا أدب ، فيقول :

« عندك ما تقوله ولذلك تكتب وترسم وتعزف ، والذي يهمني هنا ليس القالب الذي تصب فيه معانيك ، الذي تفرغ فيه ما يثقل على نفسك من المعاني وتريد ان تستريح منها بالتعبير عنها ، ولكن الذي يهمني هو هذا الذي تقوله ، هذا الذي عندك : الفكرة او المعنى .

« وكل فن تعبير جميل عن شيء ما ، ولابد ان يكون تعبيراً ، أي لابد

ان يكون هناك معني « يعبر » من طرف الى طرف ، من طرف هو انا الى طرف هو انت .

وعملية « العبور » أو « التعبير » هذه تكون بالكلمة أو الاشارة او الخط أو النغمة .. والكلمات هي وسيلة المواصلات بيني وبينك ، وقد تكون سريعة خاطفة كالصاروخ ، أو بطيئة بليدة كالاعرج في الوحل كما قال الشاعر القديم : وكل عمل ادبي له غرض ، له هدف ، أنت طبعاً تقصد اليه ، مفهوم هذا الهدف ضمنا وهو الذي جعلك تتخفف من شيء ما ثقيل عليك كما يقول بيكاسو ـ أو هو الذي جعلك تضع للافكار العارية ملابس ملموسة بالاذن والعين ـ كما يقول سارتر .

« كل عمل ادبي له هدف يتجه اليه الاديب عندما يريد وعندما لا يريد ، فالذي لا تريده بوعيك فان شعورك لا يدفعك اليه .

والهلوسة اذا كانت في داخل اطار ادبي اولها معنى ، فهي هلوسة « واعية » كما يقول (دستويفسكي) .. والمهم ان يكون هناك معنى تحاول ان تقربه من نفسك ومن غيرك ويصدق وبجدية ـ كما يقول (ديهامل) . ولكن عندما يكون هذا الغرض أو هذا الهدف واضحاً جداً صارخاً للغاية ، عندما يكون بارزاً ، عندما نرى العمل الادبي ونشعر انه منفوخ ، انه بارز ناشز ، هنا فقط تدرك ان الهدف اقوى ، أن الهدف هو المقصود ، انه هو الغاية الاساسية . قد يكون الهدف أخلاقياً أو دينياً أو سياسياً ، لا مانع من ان يكون هناك هدف اخلاقي او ديني او سياسي ، ولكن بشرط ألا يتحوّل القلم في يد الاديب الى سيف من حديد أو من خشب ، ألا يتحول الى منجل ومطرقة .

« أو بعبارة اخرى عندما نشتم رجلاً فنقول انه حيوان .. لا شك انه حيوان ، ولكننا نقصد أن جانب الحيوانية فيه اقوى من جانب الانسانية ، والعكس عندما نمدحه فنقول انه « انسان » فاننا نعني ان صفات الانسانية أوضح من صفات الحيوانية .. وكذلك عن الادب فعندما نقول عن عمل ادبي أنه هادف فلا شك ان كل أدب له هدف ، ولكننا هنا نريد ان نقول ان الهدف

اقوى وأوضح ، وهذا نجده عند الادباء الشيوعيين الذين يرون الادب « حمارا » « يركبه الاديب الذي يشبه الثور الذي يحمل الحزب الشيوعي على قرنه ، فأدبه منشورات علنية ، أدبه مذكرات تفسيرية ، انه هادف ولكن بلا أدب » .

ويبحث الاديب الاستاذ محمد مفيد الشوباشي عن الحقيقـــة التي تصل الادب بالحياة :

« يحسب الكثيرون من المهتمين بحركة التطور الادبي العام ان الصراع بين انصار الادب الواقعي وهو ادب الحقيقة والحياة ، وانصار الادب السادر المزخرف وهو أدب الوهم والانحلال .. يحسبون ان هذا الصراع ظاهرة لم تبرز لعالم الوجود الا منذ قرن من الزمان ، ولم تشتد وتستفحل الا منذ أوائل القرن الحالي .. يحسبون ذلك برغم انهم يعرفون الخلاف القديم بين رأي افلاطون ورأى ارسطو في الادب والفن ، ولكنهم يغفلون عنه او يتغافلون ، وهو الوجه العتيق للخلاف الحالي المستعر الاوار .

« آمن افلاطون بالعقيدة الدينية التي كانت سائدة في عصره وهي ان البشر عاشوا جميعاً في الجنة قبل ان يهبطوا الى هذه الارض ويبتلوا بهذه الحيـاة الدنيا ، ورأى ان الاخيلة الادبية والفنية ليست الا اطياف الذكرى التي تعاود ذهن الانسان المرهف الحس ساعة التجلي !! اما الحياة الاجتماعية .. حيـاة الناس اليومية فمليئة بالقبح الارضي الذي يعكر صفو احلام الجنة ! .. لذلك اهاب بالفنانين ان يعرضوا عن ظواهر الدنيا حتى الجميلة منها لانها فانية سريعة الذبول والافول ، لاتكاد تشرق وتمتلىء حتى يدهمها العفن والعطب .. وكل ظاهرة منها قطرة ضئيلة في الكون الفسيح ليس لها من قيمة الا ما لقطرة الماء الواحدة في عباب المحيط !! والفنان الذي يحاول ان يعكس مثل هـذه القطرة الشبيهة بالهباء في عمل فني يصبح عمله الفني هذا هباء كذلك ...

« وختم افلاطون رأيه بان حث الفنانين على تسجيل الجمال المطلق في اعمالهم الفنية ، واشار عليهم بان يبحثوا عنه في اغوار ذاكرتهم التي لا تزال تحتفظ بصور من جمال جنة الخلد !!

« ولكن ارسطو لم يلبث ان طلع على العالم برأيه المعروف في الفن ، فقد قال عن الشعر - والاعمال الادبية كانت منظومة كلها في عصره - « انه محاكاة للطبيعة » .. او « محاكاة لطبائع الاشياء وطبيعة البشر » . ومن الظاهر الجلي ان هذه الوجهة من النظر تخالف وجهة نظر افلاطون في الادب والفن ...

« كان نظام الرق هو السائد في عصر كل من هذين الفيلسوفين ، وتأثر افلاطون تأثراً عميقاً بالمعتقدات المتولدة من ذلك النظام ، او بمعتقدات طبقته الفنية المنعمة التي كانت تحتقر العمل اذ تعده داخلا في اختصاص العبيد وحدهم .. وانتهى به احتقاره للعمل الى احتقار الحياة الدنيوية .. وخدعته الحرفة التي يزاولها ، وهي الفلسفة ، فأدخلت في روعه انها ذات طبيعة تسمو على الحياة ، فتأملاتها من نسيج غير دنيوي ... غير ارضي ، ونشاطها التأملي المجرد هو وحده الجدير بالتقدير والتبجيل ... هكذا انحرف وشطح ، فغاص في الخطأ الى اذنيه .

« أما ارسطو فقد افترقت به الطريق عن استاذه افلاطون اذ ادار ظهره للتفكير التأملي المجرد .. وراح يبحث عن الحقيقة في عالم الواقع لا في عالم الاوهام والاحلام ، فرآها تصل الادب بالحياة .

لقد استعرض جميع الاعمال الادبية والفنية المعروفة في عصره فلم يرَ فيها اثراً لذكريات العالم السماوي ، او الجنة التي تحدث عنها افلاطون ... لم يرَ فيها صوراً غير طبيعية او غير بشرية ، بل رآها تصور ظواهر الطبيعة والنشاط البشري او ترمز اليها .

نظر الى الالياذة والاوديسية فرآهما تسردان سير الابطال ، وتصوران جهادهم في سبيل الحب والمجد ، ومقارعتهم لخصومهم ولعناصر الطبيعة الهادئة والثائرة ... رآهما تعكسان صوراً مماثلة لظواهر الطبيعة الجامدة والحية وتعبران عما يختلج في نفوس البشر من طموح وطمع ، وشجاعة وضعف ، وحب وكراهية ، ونجدة وغدر ... وما ينبثق في اذهانهم من تصورات وما يسدده

بقلوبهم من معتقدات ... كذلك رأى شعر (هسيود) يصور عبء العمل المضني في العصر الحديدي ، ويمجد العاملين ، ويبرز صفات مجتمعه ، ويسفه عيوبه ، ويحاول تقويمه وتهذيبه ... ورأى مسرحيات عصره تصور مغالبة الانسان لقدره المحتوم وصراع الجموع المتضاربة المعتقدات والاهواء ، ورأى سائر الفنون تحذو حذو الادب وتستهدف اهدافه .. لقد وجد الاعمال الادبية والفنية تعيد ابتداع ما ابتدعته الطبيعة ، فقرر ان « الفن محاكاة للطبيعة » :

« وانتصرت فلسفة ارسطو المنقبة عن الحقيقة الواقعية على فلسفة افلاطون الشاطحة وراء خيالات عالم موهوم ، وانعقدت لهـا السيادة حتى ظهور البورجوازية الاوروبية .. والتزم الشعراء والكتاب ما وضعه ارسطو لالوان الانتاج الادبي من اصول اولها ان « الفن محاكاة للطبيعة » ... ولا يحتاج ادراك ذلك الى كبير عناء ، اذ تكفي نظرة سريعة يلقيها المرء على اشهر الاعمال الادبية التي ظهرت منذ ايام ارسطو حتى سقوط نظام الاقطاع ليقتنع بما نقول .

فها هي ذي مؤلفات شكسبير ومارلو وبن جونسون في انجلترا ، وكوريني وراسين وموليير في فرنسا ، وسير فنتز في اسبانيا ، ودانتي في ايطاليا ، وغيرهم ... ها هي ذي تزخر بصورة فنية تماثل صور الواقع ، وتصور نفس المعارك والوقائع والاحداث التي يجري نظيرها في الوجود بين مختلف القوى من بشرية وغير بشرية . وتغوص في اغوار النفوس وتعرضها على حقيقتها .

انها تعرض عليك صور الوجود كما عرضتها الطبيعة من قبل ولكنها تعرضها على نحو يزيدك الماما بها وبخفايا نفسك .. فهلا يدلك هذا على انها التزمت بما خطه لها ارسطو فلم تحد عنه ؟

« سلم اهل الفكر وغير أهل الفكر ، عبر القرون تسليماً اعمى بما قال ارسطو وفسروه تفسيراً حرفياً متأبياً على كل تأويل وتخريج حتى جاء الفيلسوف الالمعي « ديدور » وتجرأ على طرح هذا السؤال : « أيحاكي الفن الطبيعة محاكاة عمياء ، ام له ان يحور فيما ينقل عنها يجود ؟

طرح سؤاله هذا ولكنه لم يتمادَ في جرأته ويجاوب عليه ، ولكن الامور تغيرت عندما انتصرت البورجوازية على الاقطاع واستطاعت فئة منها ان تحتكر مختلف الصناعات ، وتسخر العمال ، وتستغل نفوذها فى سبيل مضاعفة ارباحها ، ونالت من الثراء والسلطان فوق ما كان يخطر لها في احلامها . فاسكرها نجاحها . وعاشت في جو من التأملات السعيدة الممتعة ، وطلع من صلبها شعراء وادباء صوّروا احلامها في اعمالهم الادبية ، وجاراهم غيرهم زلفى للطبقة ذات السلطان ، او خضوعاً لها ... ثم شعرت هذه الطبقة بالملل بعد الاكتظاظ بالنعمة ، والشبع من المتعة ، فراح الادباء والشعراء يعبرون عن العذاب والشقاء المتولدين من تلك الحياة الجوفاء .. هكذا طلع على العالم ادب الاحلام الذي تحول الى ادب تدهور وانحلال .. وظل يزحف حتى وصل الينا في ركاب الاستعمار الذي بلانا بكل رزية ...

« مسكين ارسطو !! .. لقد افل نجمه ، ودالت دولته .. وابتسم الحظ لافلاطون وانتصرت وثنية مذهبه في الفن على واقعية ارسطو .. وقام الممثل الاول لادب الوهم والانحلال ، وهو (اوسكار وايلد) ، وصاح دون تحرز او حياء « الفن يحاكي الطبيعة !! يا للهراء ! ... ان الطبيعة الفجة هي التي تحاكي الفن ، وتحتذي آياته لتكتسب الجمال !! ... وقد دلل على ذلك بان الحامل التي تنظر اثناء حملها الى وجه جميل مرسوم في لوحة فنية ، تضع مولوداً مشابهاً للصورة الفنية !! . ومما قاله متجنياً على الحياة وعلى الحقيقة ... ان كل جمال في الطبيعة او في الحياة غير موجود الا في اذهاننا ، وهو من ابتداع فن الانسان لا مراء » .

والآن اكتفي بما بينت ، وانتقل الى تعريف من هو الاديب ؟

وقبل تعريفه اتساءل ايضاً ، هل الاديب عنقاء المغرب له اسم وليس له وجود مع ان الادباء لا يحصى عددهم وهم موجودون في كل امة وكل شعب وفي كل بلد ؟ هل هو الناثر الذي يكتب في الصحف ؟ هل هو الشاعر الذي يثير حماس الناس ويشاطرهم آمالهم والامهم ويصور احلامهم ويترجم عن قرارات

نفسه ومكامن نفوسهم ، ويملىء الاجـــواء باغانيه واشعاره وتغاريده وتراتيله وموشحاته وملحماته وزجله ؟

هل هو الطالب الذي يدرس علوم الادب وفنونه على اساتذة الادب في جميع مراحل التعليم والتخصص ؟

هل هم المعلمون والاساتذة الذين يدرّسون الادب في الثانويات والكليات والجامعات ويدرّسون معه فنون الادب وتاريخ الادب ؟

هل هو المؤلف الذي يؤلف المسرحيات او الروايات ، او القصص ، او الاناشيد ، او السير او الحكايات ؟

هل هو الخطيب الذي يلقي احاديثه ودراساته وموضوعاته فى المعاهد ، أو في المنتديات او في المجتمعات ، ويريد ان ينقل لسامعيه ما يجول في فكره وقلبه وان يستهوي نفوسهم ويملىء اذهانهم ويعالج قضاياهم ويفيدهم بقناعة وثقة ؟

هل هو الكاتب الفذ الذي يجعلك بما يكتبه تنتقل وانت قاعد في مكانك او في فراشك الى كل مكان ثم يحملك على (بساط الريح) لتشاهد ما تريد من المدن والعواصم والبر والبحر والسماء وما فيها من المظاهر والعجائب والغرائب ويساعدك لتختلط بالناس وتسمع ما يقولون وترى ما يعملون ، وتفهم ما هم عليه ولماذا يعيشون ، ويلبسك (طاقية الاخفاء) فتحضر الاسواق ، والمسارح ، والمحاكم ، وغرف المدارس ، والملاهي ، والتمثيليـات ، والسينما ، والرقص ، والروايات ، والمراقص والخمارات ، وتسمع ما يقال وتشاهد ما يعرض وفيهـا المعقولات والمتناقضات ، والعالي والدون ، ويذهب بك الى البيوت لتطلع على ما في الخدور وما وراء الخدور ، وفي المحلات وما فيها من تقدم وتأخر ، وعناية واهمال ، ونظافة وقذارة ، ونعم وبؤس ، وقصور وكهوف ، الى آخر ما يهمك معرفته من المجتمع الانساني ، ورؤية المحتشدات والمباني والمجتمعات ، ثم يطوف بك بين الدهاليز والوزارات والدواوين والمجالس لتدرس ما يعمل ويهيء ما يقال .

والحاصل ليطلعك على مآسي المجتمع وخوافيه في صورها والوانها ، وعلى مظاهر الحياة وفعاليتها بين الامم والافراد .

ويلبسك (خاتم مارد) لتحوله من اصبع الى اصبع ، وتأمر فتطاع ،وتطلب المستحيل والممكن ، والنادر والعزيز ، والعجيب والغريب ، والمضحك والمبكي ، فتجاب ويتحقق لك ما تريد من عيش وبسطة ونعيم وقوة ؟

هل هو الذي يجعل قلمه اذا خط حرّك الجيوش والاساطيل ، وأثار الحروب وأوجد السلاح والعتاد ، وخلق الطيارات والدبابات والمدافع والقذائف والصواريخ ، وأرسل الى عالم الاجواء الاقمار والروّاد ، ثم لا يكتفي بل يغوص في اعماق النفوس فيستخرج مكامنها ويضعها أمامك لتقرأها ، ويفسر لك معانيها ، ويحلل لك رموزها ، ويكشف لك عما يدور في خلدك وخلد محبيك ومبغضيك ، وما في قلبك من عشق وقلق ، وأمل وشوق وحرقة ، وطمع وكرم ، وما في نفسك من حقد وألم وكراهية وبغضاء ، أو مروءة ومحبة وعفة واباء ، ثم يدور بك العوالم كلها والدنيا وما فيها ، ويجمعك بالناس ويريك ما هم عليه ، ولا يترك عنهم شاردة ولا واردة ، ولا حركة ولا سكوناً الا كشف لك عن ماهيتها ومراميها واهميتها وضررها وفائدتها ، ثم يأخذك الى المخابر والمعامل والمعاهد ليحدثك عن الذرة وعن الطبيعة وقوى الطبيعة ، وعن عناصر المادة ، وعن جهد العلماء ومخترعاتهم ومكتشفاتهم ويعرفك عنها ، وينقل اليك روائع الادب وخوالد الفن ، ويقص عليك سير الابطال والعظماء والعلماء ويسمعك ما قاله الشعراء وما كتبه الادباء ، ويريك ما صوره الفنانون والمثالون وما نحته النحّاتون ، الى آخر ما في سرّ (ن . والقلم وما يسطرون) وكله جاهز للفهم والهضم والاستفادة ؟

هل الاديب من كان في ادبه صاحب مهنة فقط ، ام هو اديب وطبيب ، محام واديب ، فيلسوف واديب ، مهندس واديب ، شاعر واديب ، عالم واديب رياضي واديب ، سياسي واديب ؟ وهل الادب شيء والمهنة شيء آخر ؟ وهل يمكن الجمع بينها ؟

وهل يمكن للاديب ان يبقى اديباً بلا مهنة ؟

وهل كل اديب شاعر وكل شـــاعر اديب ؟ وما الفرق بين الاديب والشاعر ؟ وهل يمكن أن يكون الانسان اديباً وشاعراً ؟

وبالاضافة الى ما تقدم قد يتبادر الى الاذهان اسئلة اخرى حول ماهية الادب والاديب لم اذكرها .

أجل ! انني لم استقر جميع ما يمكن ان يسأل عنه ، لان الغاية ليست حصر الاسئلة والاجابة عليها ، انما توجيه الفكر للبحث في هذه الامور مع العلم ان العلماء وارباب المهن الحرة وارباب الصناعات قد يكونون بارعين في عملهم ومهنهم وصناعاتهم وهم على جانب كبير من الادب والذوق والفن .

والادب مهما حددنا معناه او اطلقناه ليس وقفاً على احد بل هو مشاع بين عشاقه وطالبيه بحسب استعدادهم وميلهم له ولتحصيله . وهو لا يمانع بوصالهم اذا برّوا به واخلصوا لشروطه وغاياته ، ولا يتجافاهم اذا تفانوا وضحوا لنيله . وعليه نحصر موضوعنا في بيان من هو الاديب ، وما هي الصفات التي يتحلّى بها ؟

انني لا اريد ان اطيل الكلام وادخل في وصف ما للادباء ورجال الفلسفة والتربية وعلماء النفس من آراء في هذا الخصوص ، بل أعدد ما اعتقد انه يتفق مع تعريفاتهم ومفهومهم للادب والاديب وذلك بما يلي :

اولا ـ ان يكون للاديب استعداد فطري ، وميل طبيعي ، وذوق سليم لتعلم الادب وتعاطيه .

وعلامة استعداده وميله وعلامة ذوقه (حسه المُرهف ، وذكاؤه الوقاد ، وحافظته القوية ، وخياله الواسع ، ورغبته الجامحة ، ونفوذ نظره المديد في الطبيعة ، والنفس ، والمجتمع والحيـــاة ، وشدة ملاحظته لكل ما يقع تحت حواسه وشعوره) .

ثانياً ـ ان ينشأ متعلماً في بيئة الادب لاذكاء قواه الادبية ومواهبه الفنية وشخصيته الفذة .

ثالثاً ـ ان يحصل على ثقافة عامة يتطلبها زمنه ، وثقافة خاصة يفرضها ادبه ومنها العلوم الاثنى عشر الاساسية التي يعدها اساتذة الادب معواناً للثقافة العالية ودعامة للادب .

رابعاً ـ ان يكون قادراً على التعبير عن افكاره ومشاعره ، ومعارفه ، ونقلها الى الغير بلغة صحيحة فصيحة ، سهلة الفهم ، عذبة التذوق والادراك .

خامساً ـ ان يكون صاحب مثل أعلى في الادب كوّن عناصره من دراسته واستقى مباديه من وحي تجاربه ، وبنى هيكله من تاريخ قومه وتاريخ الشعوب ، قادراً على تطبيقه في نهجه وانتاجه حتى يبلغ درجات التكامل .

سادساً ـ ان يديم نشاطه وفعاليته في عالم الادب مطالعة ودرساً ونقداً وانتاجاً .

سابعاً ـ ان يكون حر التفكير وحر العمل ، يقبل النقد ويرجع عن الخطأ متى لاح له وجه الحق والصواب .

ثامناً ـ ان يسعى ليكون في ادبه فنانا مبدعاً ، متحركا لا جامداً ، مجدداً لامحافظاً .

تاسعاً ـ ان ينصرف الى الادب لاشباع ميله وعاطفته لا للكسب المادي والشهرة الفارغة .

عاشراً ـ ان لا يكل الى النـــاس تقدير قيمته ، فيجعلونه سلعة يتراوح سعرها بتراوحهم بين الحاجة اليها والاستغناء عنها ، مع الايمان بان ادب كل امة مرآة صادقة لقوميتها ، كما هو مرآة صادقة لقومية الاديب وماهيته ، وكلما كانت القومية والشخصية سائرتين في النور ومغمورتين باشعته كانت مرآتهما أجلى وانصع ، وكان انطباع قواهما في صفحات الادب أبين وأصدق .

واذا سئلت ما هي الكتب الادبية ، وما هي امهات المراجع التي يجب ان

يطلع عليها الانسان كبرنامج لتربيته وثقافته ، والى أي مدرسة من مدارس الادب يجب ان ينتمي ، وأي نوع من أنواعه يجب ان يختار ؟ وهل ادب الامم يختلف في الاساس والمبادىء عن بعضها ؟

وما هو الفارق بين ادبنا العربي وادب غيرنا من اهل الحضارة ؟ وهل من ضرورة لدرس آداب الشعوب والمدنيات للمقارنة والموازنة ؟ ومن هم اشهر ادبائنا الاقدمين والمعاصرين ، وما هي اشهر آثارهم الخالدة ؟

اجبت من الضروري بحث هذه الاسئلة ، ومن الضروري جعلها موضوعاً للابحاث القادمة .

ولعلنا نحسن صنعاً اذا تناولنا المسائل المذكور بصورة جدية نبحثها ونناقشها ونخرج منها بدراسة مستفيضة مفيدة تكون برهاناً على اننا من محبي الادب ولسنا من المتطفلين عليه ، وما ذلك بعزيز .

وختاما انشر ما قاله الاستاذ علي ادهم في كتابه عن علاقة الادب بالفلسفة وكلمته هذه خير ما ينطبق على ما قدمناه من ادلة على من هو الاديب .

قال الاستاذ الاديب : « ان في الانسانية قوتين هما دعامة الحضارة وحافز التقدم ، وهما القوة الخالقة والقوة الناقدة ، وربما كانت القوة الخالقة أجلّ شأناً واسمى مكانة من القوة الناقدة .

وأثر هاتين القوتين بارز في كل منحى من مناحي الحياة ، وكل جانب من جوانب الحضارة .

والقوة الخالقة في الادب والفن هي التي تعين على ايجاد طرف الادب الرائعة ، وآيات الفن الخالدة ، ولكن هذه القوة الخالقة لا تستوفي عملها وتؤتي ثمرتها الا اذا استكملت عناصرها وتوافرت موادها ، وانما يتم ذلك عن طريق تناول الافكار الشائعة والآراء الذائعة واتخاذها لبنات لتكوين ابنيتها ونظمها ، وعمل المفكرين الفلاسفة هو اعداد الجو الذي يموج بمختلف الآراء

والمذاهب والنظريات ، ومن طبيعة القوة الخالقة انها لا تكشف الافكار ولا تبتكر النظريات ، ولا توجد المذاهب الفكرية لانها موكلة بالبناء والتركيب والانشاء ، وليس من أربها الكشف والتحليل ، والتوضيح والتفسير ، فهي تتناول الافكار والمذاهب والنظريات ، وتنفخ فيها الحياة ، وتضفي عليها الحلل السابغة والالوان الزاهية .

ومتى يزدهر الادب ويسمو الفن لابد من وجود هذا الجو المليء بالافكار الحافل بالمذاهب والنظريات ، ومن ثم كانت ازمنـــة الخلق الأدبي العظيم في تواريخ الآداب قليلة ونادرة .

وبلوغ الذروة في الادب والفن يستلزم تلاقي قوتين ، قوة العبقرية الخالقة وقوة الزمن .

والشاعر أو الفنان او الكاتب يسمو فنه ويتسع أفقه اذا عرف اشياء قيّمة عن الحياة والدنيا يتناولها قبل ان يتناولها في فنه .

ثم كما قال الاستاذ حسن عباس زكي في مقال له ، ان الحياة قائمة على الاهتزاز والحركة في كل ذرة من ذراتها ، وهذا الاهتزاز فيها هو سر تماسكها وقوتها ، والفن تموجات فكرية تصل الى منبع الحياة في الانسان وصولا طبيعياً بديهياً ، وله اثره القوي في اهتزازات النخيل .

اذ ان هذه الموجات الفكرية تنتقل الى القلب والذهن بواسطة الاثير ، فتتلقاها الموجات الاستقبالية المنبعثة من الحواس ، تلك الحواس التي تعتبر المؤثر الاول على الفرد ، وهي قابلة للايحاء والتأثر والاستجابة بما تحمله من الموجات الانفعالية التي تنفذ الى القوى المعنوية ، فتوجه الانسان ، وتهيئه لاستقبال العمل راضياً او كارهاً ، واستقبال يومه جاداً او عابثاً ، نشطاً او متكاسلاً .

والفن باتصاله بهذه القوى عن طريق الحواس ، يستطيع ان يوحي اليها وان يؤثر فيها ، رضاً او كراهية ، سخطاً او اطمئناناً ، اقبالاً او احجاماً ،

لانه يتناول الفكرة النافذة والنظرة العميقة بعد ان يحيلها الفنان الى احساسات تلبسها ثوب العاطفة والانفعال ، وبهذا ينتشل ما في النفس من رواسب ترزح تحتها ، ويوجهها الى الكمال فتنشط ، والى الجمال فتقوى ، ويلون الحياة بالوانها البهيجة ، كما تلون الشمس الازهار .

فكلما كانت هذه التموجات ايجابية قوية كلما كان اثرها فعالا في صقل الروح ، وشحن الطاقات النفسية ، وازالة ما بها من غشاوة ، واجلاء صدئها وسأمها ، والسمو برغباتها وتحريرها من قيود الزمان والمكان ، فتتوثق روابط الصلة بينها وبين المجتمع والبيئة ، وتستلهم عبرها من تاريخها البعيد والقريب .

وهذا هو تفسير قول « كارليل » (البطل هو الذي يردد لنا نفسه الملهمة ، واقول الملهمة ، لان ما نسميه بالعبقرية ، او الصدق ، او الموهبة ، او صفة البطولة التي لا نجد لها اسما خليقا بها يدل على ان الاديب او الفنان هو الذي يعيش في اعماق الاشياء ، في الحقيقي ، في الالهي ، في الخالد الذي يوجد ابدا ، والذي لا تراه العامة ، لانه يختفي وراء الزائل دائماً ابداً ، والاديب هو الذي يذيع هذا الخفي للناس بالقول او بالعمل ، وحياته اذن قطعة من قلب الطبيعة الذي لا يعتوره الفناء) .

« هل كلمة بيلون عربية ام سريانية »

سألني احدهم عن كلمة (بيلون) هل هي لفظة عربية ام اعجمية ، واذا كانت عربية فلماذا لم يرد ذكرها في امهات المعاجم اللغوية العربية كالصحاح ، والنهاية ، والقاموس ، ولسان العرب ، والمخصص وغيرها ؟ واذا كانت اعجمية فالى اي اللغات تنسب ؟

وللاجابة على سؤاله وجدت من الضروري مراجعة المظان التاريخية ، والجغرافية ، والطبية ثم اللغوية وهذا ما وجدته واعتقد ان فيه الجواب الكافي .

« البيلون » كلمة يستعملها الحلبيون كثيراً لان مادة البيلون لها استعمال اهلي في البيوت وفي الحمامات ، وفي دكاكين العطارين ، وفي دكاكين الكوائيين ، وتدخل في تداوي بعض امراض الجلد .

وهي غضارية لونها يميل الى السمرة الحمراء ، وملمسها ناعم ، وفيها خاصية الامتصاص للماء فتذوب فيه وتتحول الى رسوب طيني ، قلوي التعامل .

اما خواصه : فان قطعة منه اذا ذوبت في الماء حتى تصير طيناً ثم وضع جزء منه على بقع الزيت او السمن ، او الدهن ، سواء اكان محل البقع صوفاً او قطناً ، او حريراً ، او كتانا ، وترك الطين حتى ينشف ويبس ثم يفرك ترابه ازال آثار البقع المذكورة تماماً .

وعلاوة على هذه الفائدة فان النساء والرجال يستعملان طينه في الحمام ، النساء لتنظيف شعورهن وتطرية اجسامهن ، وازالة ما قد يصاب به الجلد من احمرار او حكة ، او بثور .

والرجال يستعملونه لتنظيف قشرة جلد الرأس وترطيب البدن . وتستعمله

الحبالى اكلا نيئاً اثناء الوحام ، وبعض الاطفال يأكلونه ايضاً لسد حاجتهم من المواد القلوية ، اذا اصيبوا بنقصها ، لضعف ناشيء عن وجود الديدان في امعائهم .

والبيلون يشكل حجراً غضارياً ، طينياً ، من نوع الصلصال الثقيل الوزن ولكن لا يصلح لعمل الفخار ، ويستخرج من طبقة ارضية عميقة كثافتها لم تُسبر ، وهي واقعة في قرى دير الجمال ، ونبل ، وكشتعار التابعة لقضاء اعزاز وتبعد عن حلب مقدار اربعين كيلو متراً .

ولخواصه الجلدية الكثيرة يتفنن الحلبيون في تصنيعه ، فيطحنون احجاره تراباً ناعماً ويجبلونه بماء الورد ويضيفون اليه قشر الورد والدريره (١) ويعجنونه ويعملون منه كعكات مستديرة واسطوانية ويبسونها ويعدونها للاستعمال .

ولتعطير الجسم والشعر وترطيبه تنقع الكعكة في الماء قبل ساعة حتى تذوب ويدهن بها البدن ويحشى شعر الرأس مدة ساعة او ساعتين ثم تزال بالماء ويكون ذلك غالباً في الحمام وبعد ان يغسل البدن والشعر بالصابون مرات عديدة .

واما خواصه في الطبابة فلا يدخل في الاقرباذين الحديث ، ولكن بعض الكتب القديمة اشارت الى استعماله في بعض امراض الجلد كالانجريه ، والاكزيما والبثور ، ولبيان ما اوردته الكتب المذكورة عن فوائده العملية اذكر ما ورد عن البيلون فى كتب الاقرباذين العربية الآتية :

جاء فى تذكرة ابن داود الانطاكي (المتوفي عام ١٠٠٨) في الجزء الاول صحيفة ٢١٤ :

« ان اجود الاطيان ، الرمادي الثقيل ، السريع التفتت والانحلال ، ويزيد
« الطين الدقوقي وهو طين ازرق يميل الى بياض يجلب من اعمال حلب ،
« وطين قيموليا وهو الطيطلي المعروف في مصر بالطفل ، يقلع وسخ
« البدن ، والشعر » .

---

(١) الدريره : هي مسحوق قشر الصندل مضاف اليه مسحوق قشر الورد .

وجاء في كتاب المعتمد في الادوية المفردة تأليف السلطان الملك المظفر الاشرفي يوسف بن عمر بن علي رسولا الغساني (المتوفى عام ٦٩٥) في الصفحة ٢١٥ :

« ان الطين كله يبرد ويجفف . وهو انواع : (طين المختوم)
« ويسمى « مغره » ويؤتى من هيكل ارطاميس . و (طين قيموليا)
« يجلب من ارمينيـــا يضرب لونه الى الصفرة وينسحق بسهولة .

« و (طين مصر) وهو الابليز ويؤتى من ممفيس . و (طين شاموس)
« او (طين شامس) بحذف الواو وهو ذو صفـائح كثيفة بمنزلة
« المسن ، وينقسم الى قسمين احدهما ابيض والآخر فيه فرفيريه
« (اي لون حمراوي) ودسم . و (طين نيسابوري) يؤكل نياً
« ولونه بلون اسفيداج الرصاص » . ولم يذكر البيلون الحلبي الذي
« هو نوع من الطين الذي يؤكل كغيره .

وذكر صاحب منهاج الدكان ودستور الاعيان لداود بن حافظ المعروف بالكوهين العطار الاسرائيلي (المتوفى عام ٦٥٨) في بحثه عن الاطيان المستعملة :

« ان الطين الاحمر هو الطين الارمني وعلى رأي بعضهم هو مغرة
« النجارين . و (طين قيموليا) يجلب من بحيرة قيموليا ويشبه الطين
« الاندلسي بل هو الطين الاندلسي بعينه . و (طين ملوكي) وهو
« طين ابيض ، طيب الطعم يؤكل نياً ومشوياً . و (طين شاموس)
« ويسمى الكوكب وليس بكوكب الارض لان كوكب الارض
« هو الطلق . و (طين مختوم) قيل انه يؤخذ من مغارة بجزيرة
« من بلاد الروم ثم يروّق ويصفى ويختم بخاتم ملك الجزيرة ويرفع .
« وهو المستعمل في الترياق » .

وقد ذكر جالينوس انه ذهب الى الجزيرة فوجد اهلها يجففونه بعد غسله

ويعجن بماء ويقرّص ، ويطبع بطابع الملك لجلالته . وهو احمر مائل الى الصفرة مختوم بختم الملك .

وبحث الدكتور احمد الرشيدي (المتوفى عام ١٤٨٢) في كتابه عمدة المحتاج في الطب والعلاج صفحة ٣١٨ من المجلد الرابع عن طين قيموليا فقال :

« يسمى الطفل وبالافرنجية اراجيل ، والاسم الشهير له في الكتب
« القديمة طين قيموليا وهو الطين الطيطلي ، والبيلون وغير ذلك .
« ويسمى باللاتينية (أراجيلا) وهو مخلوط طبيعي من الاللومين
« والسليس . وانقاه الابيض ويسمى بلسان العامة (الطفل الابيض)
« ولبن العذراء ، ولبن مريم ، وخاصة قبضه للسان ناشئة من
« الاللومين وهو ينحل في الماء وتتكون منه عجينة تتيبس اذا
« جففت ، وتتصلب على النار ايضاً . (والطين الارمني) ، (والطين
« المختوم) انما هما نوعان من هذا الطفل » .

هذا ما يتعلق بالبيلون من الوجهة المادية والكيميائية وما ورد عنه في الكتب العربية ، وقد بقي علينا البحث عن جهته اللغوية . فما هو اصل هذه الكلمة ؟

ان المعاجم اللغوية العربية لا تذكر عن لفظة (بيلون) شيئاً ، وقد فتشت عنها في القاموس وفي لسان العرب ، وفي المخصص ، وفي النهاية ، وفي الصحاح ، وفي كتاب الاسماء المعربة فلم اجد من بحث عنها . فمن اين جاءت ؟

ان قواميس اللغة التركية لم تذكرها بلفظها ولكن الاتراك يسمون البيلون (كبل) . والفرس يسمونه (كبل) .

وفي كتب التاريخ الحديثة التي تبحث عن حلب وجدت ان الشيخ راغب الطباخ ذكر في كتابه اعلام النبلاء ذكر اسم الشيخ محمود بن الحسن بن محمد البيلوني المتوفى عام ٩٢٩ مجلد /٥/ صفحة ٤٣٤ ، ثم ذكر في صفحة ٤٧٤

من المجلد المذكور اسم ولد المترجم وهو الشيخ محمد بن محمد الحسن ، شمس الدين ابو البركات البابي الاصل الحلبي الشافعي المشهور كأبيه بأبن البيلوني المتوفى عام ٩٣٥ .

ثم يذكر في المجلد /٦/ صفحة ٥٠٩ اسم الشيخ محمود بن محمد البيلوني المتوفى عام ١١٥٠ وهو الواقف لحمام (موغان) المعروفة بحمام البيلوني وله اوقاف كثيرة .

اذا يتضح مما تقدم ان البيلون ولفظة البيلون كانتا معروفتين في عام ٩٢٩ ومن ذلك الحين حتى وقتنا الحاضر .

ويخطر على البال سؤال آخر وهو : ان البيلون موجود في طبقات الارض منذ ان تكونت هذه الطبقة الغدارية من اقدم العصور الجيولوجية ولا يتصور ان العرب لم يعرفوه بعد فتح مصر وسوريا والعراق .

فلماذا لم يرد لفظه في كتبهم اللغوية ولا كتبهم الادبية مع العلم بان الحمام وجدت في صدر الاسلام ، وايام بني امية وايام بني العباس ، وورد ذكرها في الكتب المذكورة وفي الاخبار المنقولة ؟

الجواب (وقد يكون على الفرض) بان الرومان استعملوا الطين المختوم ، واستعمل الارمن الطين الارمني ، واستعمل المصريون الطُفَل أو الطُفَال او الطَفَال او الطين المسمى (الابليز) واستعمل السوريون (البيلون) المسمى قيموليا ، ولم يعم استعمال لفظة (البيلون) إلا متأخراً .

وقد يكون ان لفظة (بيلون) آتية من (بَلان) وهي الحمام ، والكلمة سريانية الاصل . قال صاحب كتاب الالفاظ السريانية صفحة ١٩٥ « ان الزمخشري ذكر في كتابه الفائق صفحة ١١١ عن ابن عمر حديثاً جاء فيه « قال الرسول ستفتحون ارض العجم وستجدون فيها بيوتاً يقال لها (البَلانات) فمن دخلها ولم يستتر فليس منا » .

وذكر الزبيدي في كتابه تاج العروس أن البلاّنات واحدها (بلاّن) وهو الحمام من (بلّ) بزيادة الالف والنون لانه يبل بمائه او بعرقه من دخله ويقال دخلنا البلانات اي الحمامات . والبلان هو خادم الحمام ايضاً .

ثم ان الكلمة قد تكون تحورت وتحولت فأضيف الى جذرها وهو (البل) الباء والالف والواو والنون فصارت (بيلون) على وزن (جيحون) وهو النهر المعروف و (بيلون) وهو اسم الجبل في قضاء اعزاز وكلها سريانية .

ويثبت ذلك ما كتبه لي سيادة مطران السريان الارثوذكس بحلب في كتابه المؤرخ في ١٥ ايلول عام ١٩٥٨ اذ يقول :

« ان كلمة بيلون هي سريانية ، وقد تكون آتية من لفظة (بالونو Balono) بمعنى « حمام » استعارها السريان من اصل اغريقي ، وجمعها بالاني Balané أو بالاناس ـ Balanas وقد تكون من تصحيف آبوللون ـ Apolon (آبولون ـ الآله الاغريقي المعلوم) . وقد تأتي من كلمة (بيت ابيلونا) ـ Beth - abuluné ومعناه بيت الناسك أو بيت الرهبان المتعبدين . وفي العربية (الابيل) وهي دخيلة من الآرامية اصلها (أبيلو ـ Abilo) ثم اضيفت اليها الواو والنون فصارت (أبيلون) للتصغير » .

وفي ذلك يقول المرحوم افرام الاول بطريرك انطاكية وسائر المشرق للسريان الارثوذكس في كتابه الالفاظ السريانية صفحة ١١ : « ان الابيل مشتقة من أبيلو ـ Abilo ومعناه الحزين وأرادوا به المغموم على ما أسلف من الذنوب والزاهد المتنسك ، ومنه قيل للراهب (أبيل) . وقد أبل ابالة فهو (ابيل) كما نقول فقه فقاهة فهو فقيه . وفي لسان العرب ١٣ ر١٦ وكانوا يعظمون الابيل فيحلفون به كما يحلفون بالله . وسمى بعضهم السيد المسيح أبيل الابيليين .

قال عمرو بن عبدالحق ويروى للاعشى :

وما سبّح الرهبان فى كل بيعة أبيل الابيلين المسيح بن مريما

وقال ياقوت ٤ : ٧٨١ ومثل الابيل ، الأبيلي ، والايبُلي ، والهيبُلي .

واما قول ابن دريد وصاحب الجمهرة ص ٩٣٩ ان الابيل الذي يضرب بالناقوس مستشهداً بقول الاعشى :

فاني ورب الساجدين عشيةً وما صك ناقوس النصارى ابيلُها

فليس بصواب وانما هو الناسك المترهب وكان بعض هؤلاء يقيم في البيعة فيتولى الضرب بالناقوس .

ثم يقول سيادة مطرأن حلب (١) « ان ابيلو اضيفت اليها الواو والنون فصارت أبيلون Abiluno للتصغير وجمعت فصارت ابيلوني Abiluné .

وعلى هذا التخريج الذي حوى الآراء المتعددة فان لفظة (بيلون) قد تكون آتية من اللفظة الآرامية (ابيلوني) وحذفت منها الالف للتخفيف فصارت بيلوني ، وقد تكون آتية من لفظة (بالونو - Baluno) وهي الحمام او من لفظة (بلان) وهي الحمام ايضاً سميت بذلك لانها من البل ، وقد تكون من لفظة (بولوني - Baluno) اي الخواتيم المقدسة وذلك مما يتفق مع اسم الطين المسمى خواتيم) .

وعليه نقول ان العرب عرفوا الطين الغضاري ، وعرفوا انواعه ، وعرفوا استعماله ، وعرفوا اسماءه المتعددة : البلان ، (والطُفال كما يقول الزبيدي (٧:٢٣٩) . (وبيلون) اسم الطين المعروف عند المصريين بالطُفَل ، واليه نسب الجمال ابو السناء محمود بن احمد البيلوني المتوفى عام ١٠٠٧ وعنه اخذ الرضى الغزى) - والزبيدي توفى سنة ١٢٠٥) . ولكن لم يعرف بهذا الاسم (بيلون) الا عند المتأخرين الذين اشرنا اليهم وهم من سوريا ومصر وفي حدود الـ ٩٢٩ وما بعد .

---

(١) هو العالم الفاضل المطران (ديونيسيوس جرجيس) مطران حلب وتوابعها للسريان الارثوذكس .

وقد يكون عرف بهذا الاسم قبل هذا التاريخ ولكن لم اعثر على مرجع لغوى ذكره .

وانا مع رجال الاكليروس السرياني الارثوذكس بان الكلمة اصلها سرياني صيغة واشتقاقاً . والعرب قد يكونوا عربوها من لفظة (بلان) او من لفظة (الابيل) او من لفظة (بلّ) .

وبين العربية والسريانية والآرامية قرابة كبرى وتوافق في الجذور الثلاثية والضمائر واسماء الاشارة واسماء الاشهر ، واسماء اعضاء البدن ، وكثير من الاسماء الدالة على البيت ومتعلقاته واسماء الحيوانات الاهلية واسماء الانهر والجبال وبعض الافعال كما هو معلوم لدى علماء اللغات السامية .

رفع مستوى المعيشة

وما هي العوامل الفعالة لرفع مستوى المعيشة من نواحيها المتعددة

١ - لماذا العالم يجد ويسعى لرفع مستوى المعيشة ؟

من المهم ان نعرف ان كل دول العالم تجد وتعمل لرفع مستوى معيشة شعبها ، لان الحرب الاولى والثانية دمرت مدنا عامرة لا تعد ، وأوجبت حرماناً لمعظم افراد العالم ، وسببت الهلاك والموت للملايين من البشر ، وتركت آلاف الآلاف من المزارع والحقول والقرى خراباً بواراً ، وقتلت ميئات الملايين من الاغنام والمواشي ذبحاً وجوعاً ، ليس في الامم الغربية وحدها ، ولكن في أمم الشرق ايضاً وفي كل محل كان مسرحاً للحرب والنار ، والقذف والدمار .

وقدلوحظ انه منذ تلك الحروب التي لم يشاهد التاريخ نظيراً ، لهاتعاني الامم والشعوب ، الحرمان والعوز ، والفقر ، في معيشتها ، الواقع الذي لولاه لما بقي التقنين ايام الحرب وبعدها لربع قرن .

فروسيا مضى عليها اربعون سنة ومستوى المعيشة فيها لم يبلغ الدرجة التي عليها سكان الولايات المتحدة الامريكانية .

وكذا الحال في الهند والصين واليابان وكوريا ، وتركيا ، والحبشة والسودان ومعظم بلاد العرب وايران ووسط اوروبا شرقيها وغربيها والحاصل في كل من البلاد التي اصابتها ويلات الحرب لم تتمكن الشعوب والحكومات حتى الان من النهوض الكامل ، واذا كان بعض شعوب العالم قد ارتفع مستواه والبعض الآخر آخذ بالارتفاع عما كان عليه زمن الحرب ، فالبقية لا تزال

تعاني الوطئة ، وقسم منها لا يزال متأخراً عما وصلت اليه معظم الشعوب في زمننا الحاضر .

وما السبب في ذلك الا ان ارتفاع مستوى المعيشة وانخفاضه ليس له عامل واحد ، ـ الحرب ، والقحط ـ او عدم الاستقرار ، بل له عوامل عديدة معقدة ومتشابكة .

٢ ـ ماهي العوامل الحقيقية لرفع مستوى المعيشة ؟

ان العامل الاساسي في تطوير مستوى المعيشة (هو تطور الشعب في تفكيره ، وفي نظراته للحياة ، وفي حضارته وفي مقدار طاقته العلمية والاقتصادية والزراعية ، والصناعية ، وفي نسبة ثروته القومية وما يملك من كنوز طبيعية وفي مقدار استثمارها ، وفي ما له من تقاليد اجتماعية صالحة) .

ومن المؤكد ان الحضارة كلما ازدهرت وعمت وارتفعت درجتها واستتب الامن والنظام معها كلما ارتفعت مستويات المعيشة في شتى نواحي الحياة .

٣ ـ هل مستوى المعيشة بصورة عامة يتفاوت عما كان عليه بالامس وما سيكون عليه في الغد ؟

وتبعاً لما تقدم يتبين لنا ان مستوى المعيشة في ابن اليوم هو غيره عما كان عليه ابن الامس وعما سيكون عليه ابن الغد ، وهو في المدن غيره في القرى والارياف ، وهو غيره عند الطبقة الكادحة والطبقة الصانعة والطبقة المتهنة والمستخدمة . ويعود السبب لاختلاف طاقات الفكر والانتاج واختلاف الحاجات والامكنة والامزجة .

٤ ـ ما هي واجبات الانسان التي تكشف لنا عن حاجياته في الحياة !

لا يستطيع الانسان ان يحدد احتياجاته ما لم يدرك ماهي واجباته في الحياة

لأن آداء هذه الواجبات يحدد لنا المعنى الحقيقي المقصود من كلمة « المعيشة » ويبين لنا مستلزماتها ، ويكشف لنا عن مقياسها المعقول الذي يجب ان يصل اليه .

قال « سبنسر » خلق الانسان ليجد ويعمل ويعيش ، وعيشه لا يطيب ما لم يؤدِّ الواجبات الآتية :

اولا ـ ان يعمل للدفاع عن نفسه وصحته كي يبقى معافاً ، وسليماً ومنتجاً بعقله وبدنه .

ثانياً ـ ان يعمل لكسب عيشه وعيش عائلته واولاده بما يضمن لهم رفاهيتهم ومستقبلهم .

ثالثاً ـ ان يعمل ليخدم وطنه ، ويؤدي ما عليه تجاه الدولة والامة والوطن .

رابعاً ـ ان يعمل لخير مواطنيه ومجتمعه متعاوناً ومشتركاً .

خامساً ـ ان يعمل لخدمة فكره وروحه بما يعلي شأنها بالعلم والعقيدة والفن والثقافة والخير العام والمحبة .

فمن هـــذه الواجبات ندرك ان المعيشة لا تعني تأمين المأكل والمشرب والمسكن والكساء فحسب بل تعني حاجات اكثر منها ، انها تعني اشياء اخرى تتناول مطاليب الحياة من وجوهها المتعددة .

وما دام الامر كذلك فكل معيشة لا يستوى مقياسها وترتفع درجتها الى حد تحقيق هذه الغايات تنحط وتختل بقدر بعدها عنه والعكس بالعكس .

٥ ـ هل المقصود من رفع مستوى المعيشة غير الوصول الى مفهوم المراد من المدنية ؟

واذا اردنا ان ندعي المدنية واننا نسعى للوصول في معيشتنا الى المفهوم من المدنية فلا بد لنا من السؤال ما هي المدنية وما مقياسها ؟

يقول العلماء الاجتماعيون ان المراد من المدنية هي المقدرة العقلية والعلمية الخلاقة البناءة التي تحوّل قوي الطبيعة وثرواتها مما هي عليه الى خدمة الانسان لتدارك حاجاته وصنع مطاليبه ولقضاء اغراضه .

ثم المقدرة الاجتماعية على ضمان الرفاهية لمجموع افراد الشعب بحيث يبطل الخوف والعوز والمرض والحرمان بما يقيمه المجتمع من جمعيات وشركات ومؤسسات ومعاهد وانشاءات ومشاريع ذات تعاون ونفع عام تكون للجميع مشتركة ومفتوحة للاستفادة .

ثم المقدرة التنظيمية التي تضع الشرائع وتسن الانظمة وتخلق العادات والاداب وتوجد الفن والشعر والفلسفة وترعاها ، وتوجد الروابط والعلاقات وتقويها وتغذي الفكر والخيال والروح بما يوجب السمو والمحبة والخير .

وهذا التعريف مع اجماله وشموله يحدد لنا الغاية من رفع مستوى المعيشة ويبين لنا المقصود من المدنية ، ويثبت لنا ان المعيشة لا ترتفع عن طريق رخص الحاجيات ولا عن غلائها ولا في كثرة الاشياء أو قلتها ولا في ارتفاع قيمة العملة وانخفاضها ، ولا بانحصار الثروة بفئة دون غيرها ، ولكن باداء الانسان ما يتوجب عليه في الحياة والعمل للحصول على ما يساعده على آدائها ، ثم العمل لتحقيق شروط المدنية بمقاييسها الصحيحة مع العلم ان زيادة الثروة بدون تنسيق وتنظيم مصيبة ، وغلاء المعيشة مع الفقر مصيبة ، ورخص الاسعار مع توقف العمل والكسب مصيبة . وتفاوت المعيشة بين الطبقات مع وجود المرض والعوز والحرمان والخوف مصيبة ، وانتشار المهلكات الاجتماعية دون وقاية او معالجة مصيبة ، وضعف الطاقات الفكرية والاقتصادية والصناعية والاجتماعية مصيبة ، وقلة الانماء والتنظيم والايجاد والانتاج مصيبة ، وما دمنا لاندرك مصائبنا ولا نعمل ونجد لازالتها ، فمستوى المعيشة لن يرتفع ويترفه الناس مستفيدين من نعم المدنية ومن نعم صلاح الحكم والنظام القائم .

ومن المؤكد ان عجلة الحياة لا تدور وتتحرك نحو المستوى اللائق بدون معالجة امور الحياة من جميع نواحيها بعلم ، وارادة . وعمل صالح ، ونية خالصة فينتشر العلم ، ويتربى الجيل ويتهذب افراده وتعم العدالة الاجتماعية والضمان الاجتماعى ، وتطبق مبادىء العلم في جميع اعمالنا وشؤون حياتنا ، وتنمو طاقتنا الفكرية وطاقتنا الانتاجية وطاقتنا الاقتصادية وتستثمر قوانا الطبيعيـــة وقوانا القومية بزيادة الثروة ، وتنتقل حياتنا واعمالنا من الفردية الى التعاونية في جميع مشاريعنا واعمالنا وتأسيساتنا ، ونشترك في المسؤوليات العامة والاعمال العامة والمنافع العامة والتنظيمات العامة لمنع الاحتكار ومحاربة الكسب الحرام وبث المحبة والاحسان والطمأنينة وبذلك تكون المدنية . ويؤدي كل منا واجباته الحياتية ويرتفع مستوانا في المعيشة .

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٥	١٥	وحدناه	وجدناه
١١٤	١٧	نهن	نهر سيحون
١٢٦	١٩	دمبور	ده‌بور
١٦٥	١٢	انسكلوبيدين	انسكلوبيديين
١٦٥	١٢	موسوعين	موسوعويين
١٦٧	١٣	تطلبها اطبائه	يطلبها من اطبائه
١٦٧	٦	مامراً	ماهراً
١٧٠	١٣	حصى الالسبان	حصى البان
١٧٠	٢٥	الهراسة	الهرامسة
١٨١	١٩	الغاية	العناية
١٩٨	٢٢	متسعرب	مستعرب
١٩٨	٢٤	حاكم حمدان	حاكم همذان
٢١٢	١٥	واصخا	واضحاً
٢١٧	١٦	وعلية	وعليه
٢١٩	٢٠	فانداید	فاندايك
٢٣٧	٢٠	فالمهم	فالمسلم
٢٣٨	١٦	بنيوزا	سبنيوزا
٢٤١	٢٣	تقويتها	تقويضها
٢٥١	١٠	يستمعها	يستحقها
٢٥٠	٢٠	العتاد	المعتاد
٢٥٥	١	المقرون	المفسرون
٢٧١	٥	تمكن	نتمكن
٣٢٣	٩	فرفبريه	فرفيرية
٣٢٤	٢٠	كبل	كيل

فهرست الموضوعات

صفحة

٣ المقدمة

٩ عناصر القومية العربية :

سبب البحث عن المجتمع العربي وقواه . المجتمع العربي ككائن حي هل تنطبق عليه قوانين الحياة ؟ . معنى المجتمع العربي وحدوده ، ومكانه ، وما هو المقصود من كلمة قوة . من هم سكان المجتمع العربي . وهل هم من ارومة واحدة ؟ ما هي مقومات الامة ؟ خواص الجنس السامي والعرق العربي . العناصر الكامنة في المجتمع العربي وسبب انبعاثها . ما يقوله الاستاذ « حتى » عن مميزات العنصر العربي . انطلاقة العرب الاولى ونتائجها . هل يجب تطبيق قوانين الحياة على المجتمع باعتباره كائناً حياً ؟ ما هي قوانين الحياة التي تنطبق على المجتمع العربي وعلى الاحياء . مفهوم القومية بنظر الواقع والحقيقة وخطر المجتمع العربي من القوى العاملة في حياة الافراد والمجتمع . مفهوم القومية العربية بنظر جورج انطونيوس . ما هي المقومات التي بدونها لا تتم القومية . عناصر الانحلال وكيف نعالج قضاياها ونتقي نتائجها . ما هي اركان النهضة والبناء ؟ ما يراه الغرب فينا من نقائص . ما يقوله الاستاذ هوكينغ رداً على انتقادات الغرب وسوء ظنهم . ما هو رأينا في تيار القومية العربية .

٥٨ الحمدانيون وآثارهم في حلب

حلب واهمية اثارها من الوجهة التاريخية . كيف ننظر الى اثار الحمدانيين ، ولماذا نهتم بها . متى فتحت حلب في العهود العربية . وعدد من تولاها من الولاة من عهد الخلافة حتى ايام سيف الدولة . ما هي اهم الحوادث

التي لها صلة بآثار الحمدانيين . ما هي اهم الاخبار التي يجب ذكرها بمناسبة بناء المشهدين : مشهد الامام حسين بن علي ، والامام محسّن بن الحسين رضي الله عنهما . شخصية سيف الدولة وما قاله المنصفون من المؤرخين عنه وعن عصره . آثار سيف الدولة. مشهد الحسين ومشهد المحسّن وما كانت عليه وما آلت اليه . مشهد الحسين كما هو في الوقت الحاضر ، ومشهد المحسن كما هو في الوقت الحاضر . مقام ابراهيم الخليل في مقبرة الصالحين والجامع الذي بناه عضد الدولة سنة ٤٧٩ هـ الجرن الرخامي في بركة الجامع الكبير الاموي وقد عمله (قرعويه) غلام سيف الدولة سنة ٣٥٤ هـ . الملحق الاول فيمن تولى حلب من عام ٢٨ الى عام ٤٠٦ هـ . الملحق الثاني من هم الذين ارخوا حلب وتاريخ وفاتهم .

١١٠ افلاطون وفلسفته وآراؤه في الجمهورية

١١٤ الفارابي وآراؤه في المدينة الفاضلة

من هو الفارابي ؟ . وما هو تفكيره الفلسفي والاخلاقي . ماذا اراد الفارابي من تأليف كتابه ؟ لماذا اختار تسميته بالمدينة الفاضلة ؟ ما هي مبادىء فلسفة الفارابي . فلسفته وعلاقتها بفلسفة افلاطون وأريسطو وافلوطين . ماهو وجه التشابه ووجه التباين ؟ النقاط الاساسية في المدينة الفاضلة .

القسم الاول المسمى بالفلسفة . القسم الثاني المسمى بتدبير بقاء كل نوع من الاجسام الهيولانية . القسم الثالث المسمى بالمدينة الفاضلة واحتياج الانسان الى الاجتماع والتعاون .

كيف تم للفارابي تحقيق هذا الحلم . ما هي خصائل الرئيس . ما هي خصائل سكان المدينة الفاضلة .

١٦٥ ثقافة الاطباء عند العرب

بماذا اتصف اطباء العرب ، استعراض لنشأة الطب . المصريون البابليون

اليونان والرومان ، ما هو يمين ابقرط وما هي وصيته للاطباء . ما الفه افلاطون واريسطو ، وجالينوس ، والنسطوريون في الطب . متى ارتقت الطبابة في عهد العرب . وماذا ارتقى معها من العلوم . ما هو الدليل على عناية العرب بالطب والاطباء . وبالبيمارستانات ، البيمارستان المنصوري وما جاء بحقه وكيفية تدريس الطب فيه . مما ذكره صاحب كتاب عيون الانباء عن ذلك . ماذا افاده العرب للعلم . ما هي الكتب التي الفوها في الطب . ما قاله (لمستون) والدكتور خيرالله عن اطباء العرب وفضلهم على الطب . ما هي الكتب الطبية التي كان العرب يتدارسونها ، وما هي الكتب الطبية التي الفوها . من هو الرازي وما هي تآليفه . من هو الفارابي وتآليفه . من هو ابن سيناوتآليفه ؟ ما هي قصيدته الشهيرة عن النفس ، ماهو نصيب العرب من تقدم الطبورقيه . اهم الكتب الطبية التي كانت مداراً لتخريج الاطباء العرب .

٢١٧ الطب والاطباء في حلب خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر وفي الوقت الحاضر

ما هي الادوار الثلاثة التي مرت على البلاد العربيـة . ومن الانحطاط والجمود العربي . دور الاحتكاك واليقظة العربية . دور الشغف العلمي والثقافة القومية . الاطباء بين عام ٩٢٦ هـ وعام ١٢٤٠ هـ . الدكتور فاندايك في حلب ومن هم تلامذته . الاطباء في حلب من عام ١٨٦٦ حتى عام ١٩١٤ م والحالة الصحية في حلب عام ١٣٠٨ هـ والوفيات أيام الحرب الاولى أي بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨ م الاطباء والمشافي والصيدليات والمستوصفات في وقتنا الحاضر . الطبابة والمؤسسات الصحية ، والقابلات والممرضات ، وما يجب عمله لرفع مستوى الطب والاطباء .

٢٢٩ مصير الحضارة الاسلامية وعلى ماذا يتوقف بقاؤها وتقدمها

المقدمة فيما كان عليه العرب وما هم عليه في الحال . ماذا نتج عن ضياع

الوحدة الاسلامية . ماهية الاسلام . وما يقوله المستعمرون عن المسلمين . من اين اتى الهام المسلمين . ماهية الحضارة الاسلامية . وما هي ماهية المهم . سوء ظن اللورد كرومر بالعرب والمسلمين . كيف يمكن معرفة الروح العربية . وما هي العوامل التي مكنت العرب من التقدم في حضارتهم . ما قاله (السير سايكس) عن مستقبل سوريا والعراق . على ماذا يتوقف مصير الحضارة العربية الاسلامية . هل يستطيع الاسلام ان يماشي الحياة الحديثة والعصر الحاضر ، ما هي العوامل التي تساعد الاسلام على النمو . الاسلام واصلاحه في نظر الترك وعلمائهم . هل من ضرورة لفتح باب الاجتهاد ولماذا ؟ العرب وتأثير يقظتهم في العالم الاسلامي . ما هو واجب العالم المتمدن تجاه حركتهم التحررية .

٢٦٨ الى اين نحن سائرون في حضارتنا

تعريف الحضارة وما هي الاسس التي تقوم عليها . ما هي الغاية من بناء الحضارة . ما هي الثقافة . ما هي الفروق بينها وبين الحضارة . متى ظهرت الحضارات واين كان مقرها . كيف تكونت الحضارة وتنقلت . هل للانسان تأثير في تطور الحضارة وتغيير مجراها . ما هي مقومات الحضارة . متى يظهر الموهوبون والافذاذ الذين يخدمون الحضارة ؟ الى اين سائرون في حضارتنا ؟

٢٨٥ ما هو الادب ومن هو الاديب !

تعريف ابن منظور للادب . تعريف السيد الجرجاني وصاحب كتاب السعادة احمد ابو الخير طاش كوبري . ماقاله احد الادباء عن الادب واركانه الاربعة . ما قاله ابو اسحق القيرواني عن انواع الادب . تعريف صاحب كتاب ارشاد الاريب الى معرفة الاديب في معجمه عن الادباء ، تعريف الادب لصاحب كتاب ادب الكاتب بن قتيبة الدينوري . ما قاله ابن خلدون عن الادب في مقدمته . ما قاله صاحب نهاية الارب في فنون الادب شهاب الدين النويري

الكندي عن الادب وانواعه وفنونه الخمسة . ما قاله المتأخرون عن الادب . الدكتور طه حسين ، وقسطاكي حمصي ، وما قاله بعض الادباء . ما قالته دائرة المعارف البريطانية ، وما جاء في مقالة نشرت في جريدة الشباب الحلبية عن مفهوم الادب . رأي الدكتور محمد نويهي عن الادب في كتابه (ثقافة الناقد الادبي) ، وما هي الحقيقة التي تصل الادب بالحياة للاديب محمد الشوباشي . تعريف من هو الاديب ، الشروط التي يعرف بها الاديب . ما قاله الاستاذ على ادهم عن علاقة الادب بالفلسفة .

٣٢١ هل كلمة « بيلون » عربية ام سريانية

خواص البيلون واين يوجد ، وكيف يستعمل . ما ذكره اطباء العرب عن البيلون وانواعه . كلمة بيلون من الوجهة اللغوية وما ورد في كتب اللغة عنها ، حتى استعملت كلمة بيلون . وماذا تفيد مادتها اللغوية في السرياني والعربي .

٣٢٩ ما هي العوامل لرفع مستوى المعيشة ؟

لماذا العالم يجد ويسعى لرفع مستوى المعيشة ، ما هي العوامل الحقيقية لرفع مستوى المعيشة ؟ هل مستوى المعيشة بصورة عامة يتفاوت ؟ ، ما هي واجبات الانسان التي تكشف عن حاجياته في الحياة ؟ . ما هو المقصود من رفع مستوى المعيشة ؟ .

مطبعة الضاد

حلب : الجميلية ـ شارع الفارابي

الهاتف ١١٢٨٦

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074067818